عبد الحليم الجندى

الإمام الشافعى

ناصر السنة .. وواضع الأصول

الطبعة الرابعة

دار المعارف

الإمام الشافعي

ناصر السنة .. وواضع الأصول

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فى هذا الكتاب صورة للظاهرة الإنسانية والعلمية التى تجلت للعالم الإسلامى على رأس المائة الثانية للهجرة : محمد بن إدريس الشافعى .

وهو متابعة لدراسات بدأت والحروب العالمية الثانية تدور ، وجيوش العدو تحتل الوطن العربى ، والمسلمون يتداعون إلى الخطة المثلى بالرجوع إلى ينابيعهم الحقيقية فى مفاخر الإسلام.

وكان البدء « بأبى حنيفة بطل الحرية والتسامح » بادرة صالحة . تفضل بعدها عميد الأدب العربى الأستاذ الدكتور طه حسين ، فى تعليق له ، فدعا المؤلف ليتفرغ لدرس الشافعى ، لما له من صلة بمصر. والحق أن كثيراً من جذاذات الكتاب الحالى قد أعدت منذئذ ، لكن صوارف العمل العام أخرت تأليفه حتى قدر له الظهور فى ميعاده .

وفى هذه الأثناء جرت إرادة السماء بتطور عظيم لحساب الأمة الإسلامية يؤذن بازدهار الأمل . كانت الدول العربية بضع دول ، فأصبحت بضع عشرة . وكان تعداد الدول الإسلامية المستقلة عشرات الملايين ، فأضحى مئات الملايين . وفى طريق الاستقلال ملايين أخرى . وكانت الشعوب العربية أشتاتاً ، فأصبحت جميعاً . تتنادى بالوحدة . وكانت اللغات الأجنبية تزحم اللسان العربى فى معاقله ، فخلص اللسان العربى لذويه ، وأمسى لغة رسمية تدور حول الأرض فى المؤتمرات العالمية .

ومن اللغة العربية ، والعروبة ، ومن أصول الإسلام فى الكتاب والسنة ، تتألف نفس الإمام الشافعى ، وشخصه ، وفقهه .

والشافعى لا يتقدم لقرائه كأبى حنيفة فى موكب الأمل وحده ، ولكنه يتقدم فى مواكب النصر الذى لاحت بشائره .

ولم يك مصادفة ، أن نجد نصف القرن الذى دوّى فيه صوته ، أزهى عصور الأمة الإسلامية بعد أيام النبوة . وأن يشمل الازدهار وجوه الحضارة كافة ، علمية

كانت أو سياسية أو دنيوية . فالإسلام يفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، ليفضوا مغالق الطبيعة ، ويكونوا طلائع التقدم ، فصنعوا . وسلموا أوربة كشوفهم فى عشرة قرون معدومة القرين . فكانت أسساً للحضارة العالمية المعاصرة .

وتلاقت فى نصف القرن العظيم أسماء أو أشخاص أئمة الفقه الأربعة والرواد العالميين فى الرياضيات العالية والعلوم الطبيعية ، جابر بن حيان والخوارزمى والكندى ، يغشون بلاطاً يمسك بكرة الأرض . يتألق فيه الرشيد وهو عالم وشاعر ، وابنه المأمون وهو فقيه وفيلسوف . فى حين كان شارلمان (إمبراطور أوربة) أمياً لا يقرأ ولا يكتب ! فحضارة الإسلام كينبوعها فى الكتاب والسنة حضارة إنسانية وفكرية — أما الحضارة الأخرى فأصولها فى الوثنية الرومانية والإغريقية ، تتغيا بلوغ القوة المادية فى الحياة الدنيا .

وللتاريخ العالمى لغة فصحى لإظهار الحقائق بتكرار الوقائع واطراد النتائج . ومنها أن الأمة الإسلامية كلما أظلتها وحدة صنعت معجزة . وكمثلها الأمة النواة لها « أمة العرب » . انتصرت جيوشها على الصليبيين مجتمعين فى حطين سنة ١١٨٧ ، ولم تمض بضع عشرات من السنين حتى صدت جيوش أروبة من الغرب سنة ١٢٥٠ ، وردت جيوش التتار من الشرق فى سنة ١٢٦٠ ! فحمت نصفى كرة الأرض ، فى سنوات عشر ! وصدق الله قوله ووعده ، أظهر الإسلام على الدين كله ، وجعل المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، وإنما هى خير الأمم بشريعتها .

* * *

وكان من فضل الله عليها أن وهبها محمد بن إدريس الشافعى ، وجمع فى شخصه خصائص البطولة العربية ، وفى فقهه مراكز القوة التى ينطلق منها المسلمون فيبدءون منتصرين . . . وهى القرآن والسنة واللغة العربية والعروبة ووحدة الفكر .

والكتابة عنه تعلق بأسباب الانتصار . وناهيك به إماماً . ذرى الدنيا بدايات خطوه . والقيم العليا أبجديات فكره . وليداً ، وتلميذاً ، وأستاذاً ، وإماماً . حتى إذا بلغ مبلغه وضع الميزان العلمى للأمة . فبايعته على أنه « ناصر السنة » الذى تتمثل فى فقهه أصول الإسلام ، وكبرى خصائص العرب .

وفى هذا الكتاب مزاوجة بين ألوان حاولنا أن نرسم بها صورة تقريبية لبطل ، ودعوة لدراسات جديدة ، فى هذا العالم المترامى الأطراف من شخصية الإمام الشافعى وفقهه ولغته .

البَابُ الأولُ

مع الرشيد

« اللهم اهد قريشاً فإن عالمها
يملأ طبـــاق الأرض علماً »

« حديث شريف »

الفصل الأول

مع الرشيد

كان الرشيد فى الرقة عندما كتب له قائد من قواده فى اليمن يخوفه من نفر من العلوية بينهم رجل يقال له « محمد بن إدريس الشافعى » يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك .

وأمر الرشيد أن يحشر المتهمون ، من أقصى الجنوب وأقصى الغرب ، إليه فى أقصى الشمال ، وأقصى الشرق ، من شبه جزيرة العرب . واستبد به الهم المقيم المقعد . فلا سياسة التسامح التى استنها مذ ولى الخلافة قد ألفت قلوبهم ففاءوا إلى السكينة والطمأنينة ، يوم أجرى على الذين كانوا منهم ببغداد ديم فضله وسرحهم بإحسان إلى المدينة ، ولا أرهبتهم سياسة البطش التى عمد إليها معهم ومع الخوارج فى بضعة عشر عامًا مضت . ولا سكنت ثائرة غضبهم سياسة المراقبة ثم الفتك التى اتبعها مع زعيمهم موسى بن جعفر الكاظم منذ عام فقط ! لا التسامح ولا البطش ولا الانتباه ولا التغافل .. ولا ما صنعه أباؤه وأجداده بآبائهم من كل ذلك ، يزحزحهم من دعواهم أن الخلافة لأبناء أمير المؤمنين على بن أبى طالب بدلا من الرشيد وآبائه خلفاء بنى العباس !

كان الشافعى على عمل باليمن ولم تكن جريرته عند من سعوا به إلا أخذه بأسباب العدل والعلم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والارتفاع عن ملق المحكومين والميل بالهوى إلى طائفة دون أخرى . قال : « ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لى بها الشأن . وكان بها وال من قبل الرشيد وكان ظلومًا غشومًا . وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه الظلم » .

وقال : « كنت على عمل باليمن فاجتهدت فى الخير والبعد عن الشر .. »

وقال : « ثم وليت نجران وبها بنوالحارث بن عبد المدان وموالى ثقيف . وكان الوالى إذ أتاهم صانعوه . فأرادونى على نحو ذلك فلم يجدوا ذلك عندى . وتظلم عندى ناس كثير

فجمعتهم وقلت : اجمعوا لى سبعة يكون من عدلوه عدلا ، ومن جرحوه مجروحاً . ففعلوا. وجلست وأمرت بتقديم الخصوم ، وأجلست السبعة حولى فإذا شهد الشاهد التفت إليهم فعملت بتعديلهم أو تجريحهم . ولم أزل حتى أتيت على جميع الظلامات . فلما انتهيت جعلت أحكم وأسجل . فلما رأوا ذلك قالوا هذه الضياع ليست لنا وإنما هى لمنصور ابن المهدى ، فقلت للكاتب : اكتب : وأقر المذكور أن الضيعة التى حكمت عليه فيها ليست له ، وإنما هى لمنصور ، ومنصور باق على حجته فيها ، إن كانت قال . فاجتمعوا وخرجوا إلى مكة ، وعملوا فى أمرى حتى نحملت إلى العراق » . .

هذه الكلمات القليلة على وجازتها ، كالعدسات المكبرة على دقتها ، تفتح أعيننا على رجل فى ثلاثيناته يعمل لوال فى رفع المظالم فيصنع صنيعاً غير عادى ، فى أمور شتى من الفقه والقضاء منها :

أنه لا يتدلى إلى مخالطة أصحاب المظالم ، ليداهنوه ويدلسوا عليه . فالعدل فى الإسلام كالتوحيد صفة من صفات الخالق سبحانه . وهو أساس قيام الدولة ، وليس مجرد إصلاح فى الحكم أو إحسان فى العمل .

وأنه يعقد مجالس القضاء علنية على أعين الجمهور ، ويحيط نفسه بثلة من أعوان القضاء يزكون الشهود ، أو يشهدون على الشهود ، فيجعل صدق الشهادة مسئولية أهل الصلاح فى الجماعة . ويجعل على الحاكم مسئولية الاستنباط والترجيح والحكم .

وأنه يضع المبادئ الكبيرة فى القضايا الكبيرة تترى ، دروساً للأجيال اللاحقة . فلا يعطل القضاء بمحال الألد الخصم ، ويأخذ الخصوم بأقاريرهم . ويعتبر الإقرار حجة قاصرة على المقر . والأحكام نسبية بين الخصوم فيها لا تتعدى إلى الغير . ويحفظ غيبة الغائب ، فيذره وشأنه حتى يدعى بحقه ويدلى بحجته — إن كانت قال — كما عبر ذلك التعبير الواضح المختصر .. كأنه حبات يتحدر . فوراء هذه الكلمات نظريات عدة فى نظم المرافعات ، لم تصبح من المسلمات فى الحضارة الأوربية إلا فى القرن العشرين ... !

وهو لا يصدر الأحكام فرادى قضية ، قضية ، بل يسمع الظلامات كافة ، ثم يأخذ فى إصدار الأحكام ، فى آخر الجلسة ، ثم يسجل الأحكام من فوره .

وكأنما القارئ لهذه العبارات يقرأ تلخيصاً مشرقاً موفقاً لمبادئ قانونية فى أحدث القضايا العصرية . . تسكر البصر بأسلوبها السهل الممتع المعبر .

ولم يك بدعاً ؛ بل كان من طبائع الأشياء ، أن نرى المبطلين غضاباً مبرطمين ، أو خراصين يتمضمغون لحم القضاة ، أو أعداء لمن ولى الإحكام . هذا إن عدل . أو يمكرون المكر الكُبَّار ، فيدبر بنو عبد المدان للشافعى ما قُرف به من اتهام . وكانوا قوة فى نجران ، مذ استجاب بنو الحارث لخالد بن الوليد إذ بعثه النبى فى سرية يدعوهم للإسلام ، وكتب إليه « بشرهم وأنذرهم وأقبل ومعك وفدهم » . فقدم فى وفدهم يزيد بن عبد المدان وعبد الله بن عبد المدان فى ربيع الأول سنة عشر ، وأجازهم النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم انصرفوا فى بقية شوال .

* * *

كانت خلافة الرشيد أعظم ما عرفته دولة فى العصور الوسطى . . وكان قد أوتى من كل شيء سبباً : الفروسية المثلى إلى جوار النفس الشاعرة ، والبراعة فى شئون السياسة والحكم والحرب إلى جوار التقى والورع ، والبذخ والفخامة إلى جوار الصرامة والحزم ، والاهتمام الأعظم بالعلم الإسلامى ومعه اهتمامه بترجمة علوم العالم من اليونانية والفارسية والهندية والسريانية والقبطية ، لتنقل علوم العرب وعلوم الأقدمين معها فيما بعد إلى أوربة مترجمة من العربية ، فتبدأ بها نهضة أوربة المعاصرة .

غزا الروم اثنتى عشرة مرة فى حكمه الذى دام ثلاثة وعشرين عاماً . وسير جيوشه إلى أنقرة وأنطاكية وطرسوس والبسفور فى الشمال . وقاد جيوش أبيه إلى القسطنطينية سنة ١٦٥ وهو فى السادسة عشرة . أما فى الجنوب فكان نور الإسلام قد نفذ إلى قلب أفريقية . وأما فى الشرق فكانت أواسط آسيا قد دانت للعرب منذ قرن . وأما فى الغرب فكان جنوب أوربة الشرقى مذعناً للرشيد يتلمس رضاه ، فى حين كان جنوبها الغربى حتى شواطىء المحيط الأطلسى فى يد المسلمين بالأندلس ، بعد إذ انكفأت جيوشهم راجعة من شمال فرنسا . وكانت السفن العربية تمخر فى البحار عند موانئ الصين من زمان .

كانت الإمبراطورة « إيرين » فى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية وشعبها يدفعون له الجزية سبعين ألف دينار سنوياً وهم صاغرون . وكانت هداياه وسفاراته إلى إمبراطور أوربة « شرلمان » حديث العالم .

وفى حين كانت قرى الإمبراطورية الإسلامية من المحيط الأطلسى حتى الهند تعج بأصوات العلماء والمتعلمين فى شئون الدنيا والدين . . كان « شارلمان » أمياً لا يقرأ ولا يكتب !

كان الرشيد مديد القامة أبيض وسيم الطلعة — مسمنًا جميلا — فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وفى الثانية عشرة من خلافته ، شديد العارضة باده العقل . يناظر العلماء ويحضر مناظراتهم . ويقرض الشعر ، ويرويه ، هو وزوجه وأخواته وجواريه . تكاتبه زوجه وبنت عمه ، زبيدة ، فى غزواته بنظيمها من القصائد الطوال ! أستاذه قاضى القضاة أبو يوسف وقاضيه محمد بن الحسن ، وهو يستمع إليهما وإلى مالك بن أنس .. فى سفارته جابر بن حيان وفى نيدامته الأصمعى ، وفى دولته الخوارزمى والكندى ، فى طريقهما إلى بلاط ولده المأمون ، ليحدثوا أعظم الأثر فى الحضارة العلمية العالمية .

ومن بين شعرائه أبو العتاهية وأبو نواس وعباس بن الأحنف ومروان بن أبى حفصة ، ومسلم بن الوليد والحسن بن الضحاك . وفى عصره الخليل بن أحمد والفراء والأخفش . أما أولاده فمن معاميهم الكسائى صاحب إحدى القراءات ، وإمام اللغة الذى يتسابق إلى تقديم خفّيه إليه ، تلميذاه الأمين والمأمون . . ولیا عهد الرشيد .

وما تزال عين زبيدة تسقى مكة المكرمة وتحمل اسم زوجه التى أنفقت فى إحدى حجاتها ألفى ألف دينار . وكان فى قصرها مائة جارية يقرأن القرآن .

وكان يحج عامًا ويغزو عامًا . . ويحدد شاعره مواضع لقائه بقوله :

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

يصلى فى اليوم مائة ركعة منذ حداثته الباكرة — وحج ماشيًا ، ولم يحج خليفة قبله ماشيًا . . ! وإذا حج أحج معه مائة من العلماء وأبنائهم . وكان يتصدق فى كل يوم من ماله بألف درهم .

كان يتنقل فى بلاد الإمبراطورية الإسلامية فينتقل معه الرواة والعلماء . وفى غزاة من الغزوات مات محمد بن الحسن والكسائى سنة ١٨٩ ، فى بلاطه بقرية رنبويه بالرى فقال : دفنت الفقه والعربيه بالرى .

روى الأصمعى : « لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة قال لى : هل حملت معك شيئًا من كتبك ؟ قلت : نعم حملت منها ما خف حمله . . ثمانية عشر صندوقًا . وقال : هذا لما خففت فلو ثقلت كم كنت حملت ؟ »

أما بغداد فيسكنها وقتئذ مليونان ، وتتعالى فيها القصور ، وتجرى إليها التجارة من

أقصى الأرض ، فى شرق آسيا أو وسط أوربة . وأما الضرائب فيجبى منها اثنان وسبعون مليون دينار فى العام ما عدا الضرائب العينية التى تؤخذ مما تنتج الأرض .

كان يستلقى على ظهره ويقول للسحابة المارة : اذهبى حيث شئت يأتنى خراجك . . والأرزاق دارة على الناس . والشعب ملتئم ، والشمل منتظم ، والقلوب وادعة .

لكن هذا الخليفة الذى يزدهى به التاريخ فى الورع والعلم والشجاعة والسياسة والفنون والرفاهة ، كان ابن آبائه فى الحزم والحسم دفاعاً عن دولته ، وسيكون فى ذلك أيضاً أباً لأبنائه . . بدأت الدولة العباسية بأبى العباس السفاح وكان ذلك وصفه لما صنعه فى سبيل الدولة . . استأمنه سليمان بن هشام وأبناؤه فى نحو ثمانين رجلا من بنى أمية فأمنهم ثم أنزل بهم صعقاته بين من سفك دمهم . وتلاه مؤسس الدولة الحقيقى أخوه الأصغر أبو جعفر — جد الرشيد — وكان عالماً عادلا زاهداً من بناة الدول : أنفذ أبا مسلم الخراسانى إلى عمه عبد الله بن على بن العباس عندما خرج على الدولة فهزمه ، فلما استسلم حبسه أبو جعفر ثم قتله . فلما خاف أبا مسلم على الدولة دعاه إلى مجلسه ، وأمر به عبيده فقتلوه .

ومن قبل ذلك بسنوات قليلات كان دعاة الدولة الجديدة يدعون سراً لبنى هاشم ضد بنى أمية . فلما أدالوها سرقوا الدولة الجديدة من بنى عمومتهم — بنى على — وأعملوا السيوف فيهم .

وقتلت جيوش أبى جعفر العلويين الخارجين على الدولة شر قتلة . ومنهم عيسى بن زيد ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (النفس الزكية) . . قُتل قريباً من المدينة وطيف برأسه فى طبق أبيض ! وهو الذى كان دعاة العباسية أنفسهم يدعون له من قبل . ثم قتل أخوه إبراهيم بالقرب من الكوفة . . وحبس أبو جعفر أباهما فأعمامهما ومات أبوهما فى سجنه .

ولما ولى الحكم ابنه المهدى أبو الرشيد ، كان مضرب المثل فى العدل والتقوى ، حافظاً للقرآن والسنة ، ومع ذلك قبض على وزيره يعقوب بن داود زماناً حتى أصابه العمى لأنه سلمه علوياً لقتله فأطلقه .

وكان لوزيره معاوية بن يسار ابن تزندق — والزنادقة كفار أعداء الدولة — فدعا الخليفة الوالد وولده . سأله عن شىء من القرآن فلم يتمكن من تلاوة بعض الآيات .

قال المهدى : ألم تخبرنى أن ابنك حفظ القرآن ؟ قال : بلى ولكن فارقنى منذ مدة فنسيه . قال المهدى قم فتقرب إلى الله بدمه . . فقام الأب . . فعثر . . ووقع . . وارتعد . فأمر

المهدى بعض الحضور بقتل الزنديق فضربت عنقه .

وفى سنة ١٦٩ قتل الهادى ــ أخو الرشيد ــ الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب قريباً من موضع يقال له فخ بين مكة والمدينة . وقُتل الحسن بن محمد بن عبد الله (النفس الزكية) . وهرب إدريس بن عبد الله بن الحسن (أخو إبراهيم ومحمد النفس الزكية) إلى المغرب ليقيم دولة الأدارسة . ويقال إن الرشيد بعث إليه من دس له السم فى طنجة فى المغرب .

وبعد عامين فى سنة ١٨٦ سيجىء دور الرشيد مع الأخ الرابع للنفس الزكية يحيى بن عبد الله . وكان قد خرج عليه من سنوات ، فأنفذ إليه ثمانين ألفاً من المحاربين وأعطاه عهداً حتى سلم نفسه ثم نقض العهد ، بعد استفتاء العلماء . فنهم من أيد الرشيد كأبى البخترى ، ومنهم من أيد العهد كمحمد بن الحسن ، فحبس يحيى . . وضيق عليه حتى مات فى حبسه . . شنشنة يعرفها التاريخ عن جده أبى جعفر يوم نقض العهد ليزيد بن أبى هبيرة سنة ١٣٢ من أجل الدولة بعد أن استشار العلماء مثله وقتله .

ومنذ عام واحد ــ سنة ١٨٣ ــ كانت نهاية الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق . . وشى به الواشون فقُبض عليه فى المدينة وحبس فى بغداد ودس إليه من قتله قتلا خفياً ، وأدخل عليه شهود يشهدون أنه مات حتف أنفه .

وستثبت الأيام صحة مخاوف الرشيد على دولته من العلويين . فلسوف يصبح ابنه المأمون شيعياً . ويولى عهده علياً الرضا بن موسى الكاظم نفسه ، ويدفنه إلى جوار الرشيد . . وتجرى إرادة السماء على الرشيد فى بيته وقبره وعلى يد ابنٍ من أبنائه هو أعظم الخلفاء بعده !

وستبقى أسطورة المهدى المنتظر ظهوره ــ من أبناء على ــ مشغلة للتاريخ الإسلامى . وتبقى فكرة الدولة الشيعية إرهاصات فى ضمير الأمة لتصير حقائق هنا وهناك . فتقوم عليها دول عدة . منها دولة عظمى هى الدولة الفاطمية فى سنة ٢٩٦ بالمغرب وفى سنة ٣٥٨ بمصر . وتضمحل أمامها سلطة الدولة العباسية . وستقوم لهم دولة بنى بويه بالعراق ، ودولة الأدارسة بأفريقية ، ودولة بنى تومرت ، والدولة الحفصية ، ودولة الزيدية فى اليمن ، ودولة بطبرستان والديلم . !

ولم يكن الخوارج أقل متعبة للرشيد ولا هو كان أقل فتكاً بهم . . لم يكد يلى

الخلافة حتى خرج عليه « الصحصح » بالجزيرة فسير إليه من قتله سنة ١٧١ .
وفى سنة ١٧٨ خرج الوليد بن طريف الشارى فقتل .

* * *

كل هؤلاء كانوا من الأعداء ، فما بالك بما صنعه من أجل دولته مع الأولياء .

كان يحيى بن خالد بن برمك واليًا على أرمينية ، وأستاذاً عهد إليه « المهدى » فى تربيـة الرشيد . فلما أفضت الخلافة إليه صار يحيى وأبناؤه كل شىء . فوض إليه الحكم وولى ابنه جعفراً على مصر ثم خراسان ، واستوزر ابنه الفضل — وكانت الخيزران أم الرشيد قد أرضعت الفضل ، كما أرضعت أم الفضل الرشيد ذاته .

ولبث البرامكة الثلاثة يديرون الدولة سبعة عشر عامًا . .

وذاتِ ليلة — بعد أعوام ثلاثة من محاكمة الشافعى — أصدر الرشيد أمره بإعدام جعفر . فسقط رأسه أمام خيمة الرشيد . . وقبض على إخوته الفضل ومحمد وخالد . . . وعلى أبيه يحيى بن خالد . . .

ويشير الرشيد إلى صريع بطشه ، جعفر ، وكأنما قُدّ قلبه من الصخر . . فينشد :

من لم يؤدبه الجميـ ـل ففى عقوبته صلاحه

وفرق البُرُد فى الأمصار بقبض أموالهم وغلاتهم . فوجد لهم مما حباهم اثنى عشر ألف ألف ومن سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وأربعين ألفاً ! وأمر بجثة جعفر فنصبت على رأس الجسر ، يراها الرشيد ، فتخضل عيناه بالدمع ، ويعرف الجهش فى صدره ، ومع ذلك يقول : من يرد غير مائه يصدر بمثل دائه .. ثم يأمر بالنضاحات فينضح عليها حتى تحترق . . !

ولما طال حبس يحيى جاءته زوج يحيى — أمه من الرضاع — قال الحاجب : ظئر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد . . فلما دخلت قام الرشيد محتفيًا بها ، وأكب على تقبيل رأسها — قالت : يا أمير المؤمنين . . لقد ربيتك وأخذت لك الأمان من دهرى . ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك . . ! ومع ذلك يرد الرشيد : قدر سبق . وقضاء حُتم . وغضب من الله نزل .

وتعالت المناجاة . فكان يلوذ بذكر الله . ويقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » . فلما رأته لاذ عن مطلبها أخرجت له حقًّا وضعته بين يديه ، وأخرجت منه حذاءه وحفضه

وذؤابته وثناياه وقد غمس ذلك بمسلك نثير .

قالت : استشفع إليك وأستعين بالله وبما صار معي من كريم جسدك . . فأخذ الرشيد جميع ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى . . وطال استرحامها . . فعاد يقول لها « يا أم الرشيد أمالي من الحق مثل الذي لهم » ؟ يقصد زوجها وأولادها .

قالت : إنك لأعز علي وهم أحب إلي . .

وقامت عنه . . فبقي مبهوتًا ما يحير لفظة .

ومات يحيي بعد ثلاث سنين في سجنه سنة ١٩٠ . ومات ابنه الفضل على إثره سجينًا هو الآخر سنة ١٩٢ .

هكذا كانت الإنسانية العالية تستحيل قسوة ضارية كلما كانت الدولة محل هجوم عليها أو دفاع عنها من الرشيد .

* * *

حشر محمد بن إدريس الشافعي مع العلويين كما يحشر المتهمون ، على قدميه أو فوق قتب بعير ، مغلولة أيديهم إلى أعناقهم . فلم يجدوا الرشيد ببغداد فاقتيدوا إليه في « الرقة » على ضفة الفرات الشرقية في شمال غربي الجزيرة . . وكان يستحب الإقامة فيها ، فعمر بها داراً للملك واتخذها قاعدة للهجوم على الروم ، يغزوهم في البحر الأسود ، والبحر الأبيض ، وجزيرتي قبرص ورودس . ذلك مكان المحاكمة .

أما زمانها فسنة ١٨٤ ، سنة جهاد للرشيد كسائر سنواته . فيها أخمد فتن الخارجين بخراسان . واستأمنوه فآمنهم . وفيهاسير أحمد بن هرون الشيباني إلى ممالك الروم فغنم وسلم . . وقيل كادت نفسه تذهب حسرات على أكبر أولاده أحمد . . كان قد ترك الدنيا وتزهد . يعمل بالأجرة ليعول نفسه ولا يدرى به أحد . . حتى مات ولا يعلم به أحد .

أما الشهود : فإلى جوار الرشيد ، يجلس قاض سيخلد اسمه وعلمه أكثر مما خلد الرشيد : محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة الذى أصبح فقيه الدولة الأول بعد إذ مات أبو يوسف منذ عامين . وهما المعروفان في التاريخ بأنهما « الصاحبان » للإمام الأعظم « أبي حنيفة النعمان » .

تولى أبو يوسف رياسة القضاء ، وكان يؤم الرشيد ويعلمه ويحج معه على بعير واحد ، ويدخل عليه راكبًا بغلته — ويقول الرشيد متعجباً : هاتوا لى مثله . . ولما مات قدرت

ثروته بمليونين . أما محمد فلم يكن من المال أو السلطان مثل أبي يوسف . كان أبو يوسف إذ هو شاب يستعين على الدهر بصرر يمنحه إياها أبو حنيفة ، فى حين جاء محمد إلى حلقة أبي حنيفة ، فتى وضاء المحيا كأن جبينه من العاج ، تقدر ثروته بثلاثين ألفاً ، أنفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ليتعلم . فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو فى كتب خالدة ، ولما علم الرشيد بكتابه « السير » بعث أولاده لسماع دروسه فيه .

وذات يوم أقبل الرشيد على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمداً ، ومضى الرشيد ثم جاء الآذن يطلبه فوجبت القلوب . فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس قال : كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها . إنك أهلتنى للعلم . فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التى هى خارجة منه . وإن ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار .

رضى الرشيد بمحمد تكريماً للعلم مثلما جلس محمد تكريماً له . وكلا الموقفين كرما الرشيد وصاحب أبي حنيفة .

ذلك هو القاضى الذى سيمسى شاهد المحاكمة .

سيق محمد بن إدريس الشافعى فى أقياده مع تسعة من العلويين ، رجلا رجيلا فى الرابعة والثلاثين ، مضبوط الكلمات ، وكما سيوصف لبعض ملوك الشام فيما بعد — مقتصداً فى لباسه ، طويلا ، سائل الخدين ، قليل لحم الوجه ، طويل القصب ، أسمر حسن السمت ، عظيم العقل ، حسن الوجه حسن الخلق ، مهيباً فصيحاً ، من أذرب الناس لساناً . إذا أخرج لسانه بلغ أنفه .

وروى الشافعى حديث المحاكمة قال :

« وضربت أعناقهم واحداً واحداً إلى أن بقى حدث علوى من أهل المدينة وأنا .

فقال للعلوى : أأنت الخارج علينا والزاعم أنى لا أصلح للخلافة !

فقال العلوى : لن أدعى ذلك أو أقوله . فأمر بضرب عنقه .

قال العلوى : إن كان لا بد من ضرب عنقى فأنظرنى أكتب إلى أمى بالمدينة ، فهى عجوز لم تعرف بخبرى ؛ فأمر بقتله فقتل » .

هكذا ادّارك الرجال التسعة صرعى دون رحمة ، حتى الحدث الذى يعلن

التوب ويستغفر للذنب ، فيعد بأن لا يقول شيئاً مما أخذ عليه . مما قد يشير إلى أنه لا ينفى عن الماضى . وكل همه أن يكتب لأمه .

أما الآخرون فربما سقط فى أيديهم ولم يجيبوا بطائل أو كانوا معترفين مفاخرين . فما تزال اليمن إلى اليوم من معاقل الشيعة .

ويستطرد الشافعى فيقول « . . ثم قدمت ومحمد بن الحسن جالس معه فقال لى مثل ما قال للفتى . فقلت يا أمير المؤمنين لست بطالبى ولا علوى . وإنما أدخلت فى القوم بغياً على . وإنما أنا رجل من بنى المطلب بن عبد مناف بن قصى . ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه . والقاضى يعرف ذلك » .

واستطرد يضيف « وأنا محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع بن السائب بن ... ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف » .

فقال له : « أنت محمد بن إدريس ؟ ما ذكرك لى محمد بن الحسن ، ثم عطف على محمد بن الحسن فقال : يا محمد ما يقول هذا — هو كما يقوله ؟

قال محمد بن الحسن: بلى، وله من العلم محل كبير. وليس الذى رفع عليه من شأنه .

قال : فخذه حتى أنظر فى أمره .

فأخذنى محمد . فكان سبب خلاصى لما أراد عز وجل منه » .

وفى رواية شارحة رووا أنه قال : يا أمير المؤمنين أأدع من يقول إنى ابن عمه إلى من يقول إنى عبده ! قاصداً أن التهمة ليست مقبولة عقلا ، إذا الرشيد من بنى هاشم بن عبد مناف ، والشافعى من بنى المطلب بن عبد مناف ، أخى هاشم — فهو لا يدع ابن عمه الرشيد . فى حين أن إمام الشيعة يقول إن قريشاً عبيد للعلويين ولا يقبل الحر أن يسترق .. فلا يدع من يقول إنه ابن عمه إلى من يقول إنه عبده .

شهد الشافعى مصارع الرجال التسعة تتهاوى رءوسهم واحداً إثر واحد . ولم يكن رجل حرب ، قطع الرءوس من مألوف عاداته . بل كان لكل رأس تتطاير مشهد من مشاهد الروع قدر له أن يكون من حضّاره ، فما أقرب أن يخال نفسه من ضحاياه ! حتى إذا طار رأس التاسع فصار أشلاء ، على عين الشافعى ، كان هو فى أعقابه . . والعبرة لا تتم إلا بقتله . فتمام القتل مطلوب ومنتظر .

تقدم الشافعى فصار فى مواجهة الرشيد ، بعد كل ما رأى المتهم ، وكل ما صنع الخليفة . فلم يفقد اتزانه فزعًا أو غضبًا أو يأسًا . بل قدر الأمور بمقاديرها ، لا أقل ولا أكثر . فلم يتخل عن رباطة جأشه أو يعزب رأيه أو تزايله البلاغة التى أنعم بها الله عليه . فبده قاضيه بروعة دفاعه ، كما سبقه شاهد نفيه إلى مجلس المحاكمة .

وكان رجل خيل ، يعرف الوثبات الموفقة إلى الغاية المرتجاة ، ويدرك التوازن فوق الصهوة أو فى المعمعة .

وكان راميًا لا يُشوى . علمته الرماية . أنه لا يصيب الهدف إلا بالتحكم فى أعصابه وأقواسه وسرعة خاطره .

وكان رجل كفاح ونضو أسفار ، قد طالما شقت به النجائب أديم الصحراء منذ شهوره الأولى . من شمال الجزيرة إلى غربها حيث البيت العتيق ، وطواها فى شبابه مرات ومرات من مكة وإلى مكة ذهوبًا وجيئة ، وطواها من الشرق إلى الغرب وإلى الجنوب فى اليمن .

وكان من هامة قريش كالرشيد . بل كان ابن عم النبى ذاته . . وكان فى عنفوان الفتوة والقوة لا يصغر الخليفة إلا بعام واحد . قطع مسافة العمر كلها فى القرآن والسنة فهو أكثر الناس عزة بالعلم ، وبقدرته على البيان . وهو مسئول عن الصدع بالحق ، والظفر به . فما بالك إذا كان الدفاع بهذا كله واجبًا عليه لنفسه .

كل أولئك أسباب تجعله يقف عالى الرأس هادئ النفس ، إذ يقف فى عين الردى ، والردى يقظان يتوثب — فيلجأ إلى لسانه القوى وبيانه الذى لا يدفع ، غير هيّاب ، ولا متردد . .

ولقد يقال مصادفة أن يجىء عاشر أقرانه . وقد يقال إن المصادفة الكبرى هى وجود محمد بن الحسن قاضى الرقة فى جوار الرشيد . وقد تكون فى الأمر صدفتان أو تدبيران تلاقيا على أن يجىء فى آخر القوم ليخلو له وجه الرشيد ، وتسعفه آيات البلاغة والخاطر الوقاد المسارع .

وقد يفيد فى المعنى الأخير أن سأله الرشيد : أنت محمد بن إدريس . . .

لكن المؤكد أن كرة الأرض تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها ، وأن كرة الأرض بتمامها جرم صغير من أجرام كون كبير تمسكه يد العزيز الحكيم .

والذى ليست فيه مصادفة أن يفرخ روع المتهم بحضور القاضى فى مجلس الرشيد ،

لأن المتهم سيصنع صنيعاً ليس له نظائر في تاريخ المحاكمات ، إذ وجد القاضى فى مجلس المحاكمة فلم يدرّبه ، أو يتشفع به ، ولكنه أشهده على الواقعة .

ومن قبل المحاكمة بأعوام سيق الأصمعى إلى بغداد مخفوراً ليحاكمه المهدى لأن هواه مع بنى أمية ، وكان فى مجلس المهدى سفيان بن عيينة ، الذى تلقى عليه الأصمعى الحديث ، وأطلق سراحه لأن المهدى لم يرد إلا تنبيهه .

والشافعى تلميذ سابق لسفيان ومعلم سابق للأصمعى . فلا مرية وثبت هذه السابقة إلى خياله فانفتح فى ذهنه باب أمل وإن كانت تهمته أدعى للفزع .

* * *

تحدث الشافعى فى أعوامه العشرين اللاحقة عن هذه المحاكمة حديثاً متشابهاً فى شتى الروايات ، ولم يتحدث محمد ولا الرشيد ، وهما وحدهما اللذان يظهران فى الصورة . والأول قاض لا يتحدث عن شهادة أدلى بها . والثانى خليفة يحمل من هموم الدنيا ما تنوء به العصبة أولو القوة . .

أما الشافعى فكان حديثه عنها كمثل تعبيراته فى الفقه والعلم . كلمات موجزة ، مركزة ، كأنها سهام منطلقة . وما كان مرد ذلك إلى أنها ذكريات ساعات نحسات ، أو ختام أيام مشائيم لا تحلو لدى السرد . فلقد كانت وقائع مجد . لكنه مجد لرجل غير ذهاب فى التيه ، ولا مترافع . وهب ذاته بتمامها للقرآن والسنة ، سيكون من تعاليمه للمسلمين أن (أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره) وأن يعلم بالقدوة قدر ما علم بالقلم وبالكلمة .

فلابدع أن نجد الإمام الذى كتب وأملى آلاف الصفحات ، لايترك لنا عن موقف الروع ، أو رحلة الفزع ، إلا بضعة أسطر .. بل لعل الغريب عن أسلوب نفسه ولسانه أن يتكلم عنها أكثر ، وإن كان ثم روايات أخرى فكلها مختصر .

وأيّ هذا كان ، فهذه أعظم القضايا بالتهمة وبالدفاع وبالحكم ، وبالقاضى والشاهد والمتهم .

وجه إليه الخليفة عدم الاعتراف بحقه فى إمارة المؤمنين ، وقد بينا خطورتها قبل فأنكرها ، وبدأ دفاعه باعتزال شركائه المزعومين بقوله : «ياأمير المؤمنين ، إنما أدخلت فى القوم بغياً على» وقاله بعد إذ كان حكم إدانتهم قد صدر ونفذ ، فكانوا صرعى بين يدى الرشيد .

وساق الدفاع على أسس ثلاثة : واقعة مسلمة ، وقرينة لا تخطىء ، وبينة لا تُدحض.

أما الواقعة فهي نسبه الذى لا يتناهى إلى عبد مناف كنسب الرشيد .

وأما القرينة فهي دلالة هذه الواقعة من نسبه ومضاهاتها للواقعة المدعاة عليه. مذ كان الشيعة يقولون إن قريشاً عبيد للعلويين ، فى حين أن نسبه هذا يجعله ابن عم الرشيد .

وتنوع أسلوب الدفاع فصنع صنيع المدره المبدع ، وبده المتهم قاضيه ، بما يسمى بقلب المراكز أو تبادل المواقع ، فانتقل من الجواب الذى يطلبه الخليفة منه إلى السؤال الذى يوجهه هو إلى الخليفة . « أأدع من يقول إنى ابن عمه إلى من يقول إنى عبده » ؟ وهكذا أصبح السائل مسئولا ، وحق عليه أن يجيب بعقله إن لم يجب بقوله . . وبدأ حوار صامت بين الرجلين . وحدث التوقف ، الذى يصطنع نظائره سادات البلاغة ليحدثوا التغيير فى مجرى الأمور . . . . وسكت الغضب عن الرشيد ، وأمسى حقيقاً عليه أن يستعيد صفحات التاريخ من مجد آبائه . وهو بها جد عليم .

كان المطلب جد الشافعى وهاشم جد الرشيد أخوين متناصرين قبل الإسلام ، كما كان أخواهما الآخران نوفل وعبد شمس — جد بنى أمية أعداء بنى العباس — أخوين متناصرين قبل الإسلام . وتكفل المطلب بابن أخيه عبد المطلب بعد إذ مات أبوه هاشم . والرشيد عليم أن جدود الشافعى كانوا دائمًا أنصار جدوده ، وأنهم كانوا معهم حزبًا على جدود بنى أمية ، فلما كتبت قريش الصحيفة بينهم وبين بنى هاشم دخل بنو المطلب مع بنى هاشم . ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل . وكان يقال لهاشم جد الرشيد وللمطلب جد الشافعى : البدران . ويقال لعبد شمس ونوفل : الأبهران .

هكذا أوضح استنكاره للتهمة بلغة التاريخ ومواقف الآباء ، نكران الاتهام بين الأبناء .

وانتقل الدفاع من القرينة التى قد تحتاج لجهد ، إلى البينة التى لا ترد ، كالمدفعية الثقيلة لا تبقى ولا تذر ، جاءت بعد تمهيد .

قال : « ولى حظ من العلم والفقه ، والقاضى يعرف ذلك » .

وكان مجرد حظ المرء من العلم والفقه وسيلة قاصدة إلى قلب الرشيد وأبيه وبنيه .

ويزيده حظًا عنده ، تواضع يدل على علو كعبه وطول باعه ، حيث قال : إن له مجرد حظ من العلم والفقه .

تلك هى الأولى .

أما الثانية ، فهى قوله : « والقاضى يعرف ذلك » .

وأى قاض ! إنه القاضى الجالس نفسه ، محمد بن الحسن أعظم أهل الأرض علماً يومذاك ، بعد وفاة أبى حنيفة ومالك بن أنس وأبى يوسف .

كان الرشيد مسيراً بقانون السلطة ، والدفاع عن النفس وعن الدولة ، فإذا تكافأت الأدلة ، فالفرق بين النجاة والممات فرق شعرة ، لتشيل كفة وتجنح كفة . وكان دأب الرشيد أن يضرب بشدة . لكن العدل أيضاً كان شأنه . . . فبنو العباس خلفاء دينيون فى المقام الأول ، ومن ثم تبحر الأولين منهم فى علوم القرآن والسنة واللغة . . وكان توازن الرشيد مضرب المثل . كمثل توازنه بين العصف بالعدو ، وبين العطف على الرعية ، وتوازنه بين سمره وبين ورعه .

ولم يكن توازن المتهم أقل ، بل كان أكثر . . فهو يسوق حججه على أعلى مستوى يتصوره دفاع عن متهم .. من شخص الخليفة وجدوده ، ومن القاضى الجالس نفسه ، ومن كونه فقيها ، ومن أنه قرشى .

وهو قبل ذلك وبعده ، مدرك أن كل نفس ذائقة الموت . ففيم يهاب أو يرتاب .

وكان لزاماً أن يلقى محمد بن الحسن فى الميزان بكل ثقله . . فألقى ، عندما سأله الخليفة ، فشهد أن ما يقوله هو كما يقوله .

مع ذلك لم تسلم رأس المتهم فتبرأ ساحته ، بل أنسئ له الأجل : وكان أجلا غير مسمى . . إذ عهد فيه الرشيد إلى القاضى حتى ينظر الرشيد فى أمره . ويبدو أن القاضى ترافع عن المتهم فى غيبته فى فترة التأجيل .

وكان ذلك سبب خلاص الشافعى للعمل فى سبيل الله عز وجل .

وسنرى ، بعد ، أن الشافعى لم يكن غمراً من الأغمار عندما سيق فى أصفاده إلى بلاط الرشيد . بل كان من مؤهلاته سنوات عشر فى المجلس النبيه لمالك بن أنس ، إمام المدينة وإمام أهل السنة . وكان الرشيد يجلس إلى مالك فى بعض زياراته للمدينة أيام الحج ، ويوصى أولاده بتعلم كتبه ، وقد صار منهم ثلاثة خلفاء — كما لقيه أبوه المهدى وجده أبو جعفر . أما محمد بن الحسن فقد رحل إليه فى حكم المهدى ليدرس عليه الموطأ ، وليرويه عنه رواية مستقلة . فلم يكن يغيب عنه أمر كبار تلاميذه والدائبين على غشيان

حلقته ، مهما بعدت الشقة بين بغداد والمدينة . فثمة قربى بين التلامذة على الأستاذ الواحد . والحج فريضة تؤدى فى كل عام . والمتفقهون يحجون بالمئين أو الآلاف . وأخبار الأستاذ أو تلاميذه لا تغيب عن أصفيائه . فالشافعى كان معروفًا لدى محمد ، إن كان قد تلمذ لمالك بعده ، أو لم يجادل محمداً فى أمر من الأمور فى المدينة .

من أجل ذلك قال محمد فى المتهم : « وله من العلم محل كبير » . وذلك أحق من قوله عن نفسه « ولى حظ من العلم والفقه » وإن كان تواضع الشافعى أشكل وأمثل .

ومن أجل ذلك أيضًا قال محمد كلمته الجامعة للبراءة المانعة للشبهة « وليس الذى رفع عليه من شأنه » . . فكانت نطقًا بقضاء .

كان حظه من العلم عظيماً جد عظيم . . حسبه أن محمد بن الحسن لم يتح له إلا ثلاث سنين فى حلقة مالك . أما هو فقد تلمذ لمالك أضعاف ذلك . وحسبه أنه صحح للأصمعى أعظم رواة الأدب أكبر مقدار من أبلغ الأشعار . بل حسبه أن أستاذ الحرم المكى ومفتى مكة « مسلم بن خالد الزنجى » قد أذن له من خمسة عشر عاماً مضت أن يفتى الناس فى المسجد الحرام ذاته .

* * *

برئت ساحة المتهم وأمر الرشيد له بعطاء قدره خمسون ألفًا . فأخذها فانثالت من راحتيه عطايا على باب الرشيد . وكان لا يستطيع أن يرد عطية الرشيد ، فتلك هدية أمير المؤمنين ، وهو يعترف بخلافته . وهى أموال المسلمين يوزعها الخليفة عليهم .

قالوا لحق به « هرثمة بن أعين » — وكان من كبار القواد — عند خروجه من باب أمير المؤمنين فقدم إليه هدية عظيمة فردها الشافعى قائلا : إنى لا آخذ الهدية ممن هو دونى . .

وهو هرثمة رجل الدولة المأمول . . يخضع الثوار فى إفريقية ، ويلى مصر ، وسيليها ابنه . وآية على تفريق مال الرشيد ورفض مال القائد أنه لم يكن معه فى الرقة إلا خمسون ديناراً أنفقها كلها لنسخ الكتب على ما سنرى .

لكأنما كان الشافعى بحاجة إلى محنة الاتهام تزلزل أعماقه ، وإلى نعمة البراءة تطلقه فى الآفاق العلى .

وكأنما كان بحاجة إلى الصدمة ترده إلى البيت العتيق ليخدم القرآن والسنة .

كسب محمد بن الحسن بخلاص الشافعى أنه كان تلميذاً لإمام فأضحى ، دون

أن يدرى شيئًا عن الغد ، أستاذاً لإمام .

وخرج الشافعى من التهمة . ليبدأ الصعود من القمة ، ولينفرد كالنجم الثاقب فى عالم الفقه . فكان لقاؤه مع الرشيد ومحمد أدنى درجات هذا الصعود . . تدفعه فيه قوى تقاس بمقياس تهمته وبراءته ، وتقدير محمد والرشيد له .

وضع قدمه فى موضع العظمة ثم رأى موضعَها أبعد من أن يليق بالفقه ، فزايل قمة الدنيا إلى القمم العليا . . بتخصيص نفسه للعلم ، والانصراف عما هو دونه ، من السياسة أو الحكم . وهى موعظة ساقها الله إليه ، فذلك بعض معانى قوله عن خلاصه لما أراده الله عز وجل .

ولم يبق فى بغداد ليدور كالفراشة حول الأضواء ، أو يستثمر النصر ، فهو محمد بن إدريس الشافعى ، وذلك وحده الأمر الأكبر .

كانت نجاته على يد الخليفة ذاته وشهادة القاضى له بيعة من الملأ العلمى والسياسى لينطلق إلى حيث قدرته السماء : ثالث الأئمة العظام لأهل الإسلام . وأين من الأئمة العظام فى الإسلام هرون الرشيد ودولته .

أين الذى انتهى من هذا الذى سيبقى خالداً أبداً ! .

* * *

هدى الله الرشيد وهدى ابن عمه الشافعى ، القرشى ، وأنجاه ، ليطبق علمه الآفاق ، مصداق قوله عليه الصلاة والسلام « اللهم اهد قريشًا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علمًا » .

وكانت المحنة بداية ارتفاع الشافعى إلى مدارات مالك وأبى حنيفة . . امتحن أبو حنيفة ليلى القضا لأبى جعفر المنصور ، وامتحن مالك لفتواه ، فزادتهما المحنة علوًا فى ضمير الزمان ، وصهرت المحنة الشافعى فخلصت معدنه من عرض العمل الدنيوى ، ووجهته إلى معارج الكفاح الدينى . ليعلو ويعلو فيفوق نفسه .

والقدوة الصالحة كشعاع الشمس تنفذ إلى الأشياء والأشخاص ، فتارة تظهر ، وتارة تتحول ، لكنها تهبُ الخير والنور والعافية ، وتدفع عناصر التقدم .

البـاب الثـانى

فى مكة

لايطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح . ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح .

« الشافعى »

الفصل الأول

فى مكة

ولد محمد بن إدريس الشافعى فى سنة ١٥٠ للهجرة سنة وفاة أبى حنيفة . لم تشأ السماء أن تحرم الإسلام ذلك الإمام حتى تهبه هذا الإمام . . .

ولد فى غزة ثغر فلسطين عند مشارف مصر ومشارف الشام ، وكان أبوه قد خرج إليها فى حاجة أو بين جند الثغور . ومات بعد مولده بقليل . وقديماً فى رحلة صيف إليها ، مات هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام . وأخو المطلب جد محمد بن إدريس ، ودفن بها ، فسميت « غزة هاشم » .

وهاشم هو الذى سن رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام . ووثقت قريش علاقتها بالقبائل الضاربة فى الطريق ، وحالفت الدول التى تصل إليها التجارات من الشمال والجنوب . فصارت لها بهذا مكانة دولية .

كان يؤثر التجارة مع الشام ويؤمن طريقه إليها بتأليف القلوب بأمتعة أو إبل يهبها لأهل البادية . أما إخوة هاشم . فألفوا القلوب والتجارات إلى أركان أخرى من العالم . عبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . ولقد أشار القرآن إلى هذه التجارات بقوله الوجيز المبين (لإيلافِ قُريشٍ إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيْفِ) .

حملت محمد بن إدريس أمه إلى « عسقلان » على مبعدة ثلاث مراحل من غزة حيث يرابط المسلمون لحراسة الثغر ، وكانت تعمرها ، وغزة قبائل من اليمن . ومع أن أم الشافعى من الأزد ، وهى قبيلة يمنية ، فقد آثرت أن تهجر أهلها ، فتحمل طفلها إلى مكة ، مخافة أن يضيع نسبه وحقه فى بيت مال المسلمين من سهم ذوى القربى . فجهزته إليها ، ابن عامين ، فكانت أولى الرحلات فى حياة كلها رحلات .

وستظل تكلؤه برعايتها ويلتمس عونها وهو ملء السمع والبصر . وسيبقى حديثها فى التاريخ تحية لها ، ولكل أم على شاكلتها ، بما لها من يد عليه فى تنشئته ، والرحلة به

والدفاع عنه ، وتعليمه وحياطته فى معظم حياته . . . كل حياتها . .

وستهبه بعض خصائصه ، من عقلية المكافح إلى طريقة المبادرة إلى الغاية ، والسعى دون القعود فى الانتظار .

ويظهر أنها كانت على قدر من العلم . شهدت عند قاضى مكة ، هى وأخرى — قيل إنها أم بشر المريسى — من أعيان المعتزلة ، وتنسب إليه فرقة من المرجئة ، وكان يحسد الشافعى . ولما أراد القاضى أن يفرق بين الشاهدتين قالت أم الشافعى : ليس لك ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) فرجع القاضى لها فى ذلك[1] .

ورحل النبى قبل الإسلام رحلة جده هاشم مرتين ، الأولى فى حداثته بتجارات قريش مع عمه أبى طالب ، والأخرى قبل أن يتزوج ، وكيلا فى تجارة خديجة بنت خويلد ، أم المؤمنين فيما بعد . ورحلها أبوه عبد الله مرة فى عير من عيرات قريش يحملون تجارات ، فلما قفلوا راجعين مرض ومات بالمدينة ودفن هناك . . . ورحلها إدريس ، أبو الشافعى ، رحلة ذهاب بلا عودة .

أما الشافعى فيصنعها فى إياب دون ذهاب ، أو هى تُصنع به على يد أم مجاهدة تبحث له عن حقه وعن مكانه .

كان هذا الحق فى بيت مال المسلمين جديراً بالذود عنه — فلم يكن لها ولا للغلام سواه . . . مات أبوه فقيراً فى مهاجَره من مكة إلى المدينة ثم إلى غزة يلتمس مُراغماً وسعة . وكان من حق أمه فى نأيها ووحدتها أن تخاف على الوليد الغريب ضيعة النسب أو ضيعة الحق .

وكان هذا الحق نهبة المنتهب . . فلقد عزم (السفاح) من نحو ربع قرن أن يخرج بنى المطلب — جدود الشافعى — من خمس الغنائم ، ويفرده لبنى هاشم ، وبنو العباس فيهم ، فى حين أن النبى أشركهم وإياهم . فتصدى عثمان بن شافع جد الشافعى للدفاع عنهم ، فرد عليهم .

وأعطى النبى بنى هاشم وبنى المطلب ولم يعط بنى عبد شمس من سهم ذوى القربى من « خيبر » . فسعى إليه جبير بن مطعم وعثمان بن عفان قالا : يارسول الله إن

---

(١) قيل فى بعض الروايات إن اسمها فاطمة من نسل على . فقالوا : لا هاشمى ولدته هاشمية إلا على والشافعى .

هؤلاء إخوتك من بنى المطلب . أعطيتهم وتركتنا . وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة . فقال : « إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام . إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » ثم شبك رسول الله يديه إحداهما بالأخرى .

وجبير من بنى نوفل ، وعثمان من بنى عبد شمس .

ونوفل وعبد شمس والمطلب ، جد الشافعى ، وهاشم جد النبى أولاد عبد مناف الأربعة . الثلاثة الأخيرون إخوة أشقاء ، أمهم عاتكة بنت مرة ؛ أما نوفل فأمه واقدة بنت أبى عدى .

ولما مات هاشم فى غزة خلفه « المطلب » فى مناصبه فولى السقاية والرفادة بمكة . وكان المطلب يصغر عبد شمس ، وكان ذا شرف وفضل ، وكانت قريش تسميه « الفيض » لسماحته .

خلف هاشم عبد المطلب ــ جد النبى ــ غلامًا صغيراً فى يثرب « المدينة » ، فأعاده عمه المطلب منها ليرد عليه أموال أبيه ومناصبه ، فغلبهما على ذلك « نوفل » حتى كبر الفتى فاستعدى أخواله ــ « بيثرب » فنصروه واسترد مكانته . .

فالشافعى يلتقى بالنبى فى الحد التاسع للشافعى[١] والجد الثالث للنبى . وتزوج جده هاشم بن المطلب بن عبد مناف « الشفا » بنت عمه هاشم بن عبد مناف ، فولدت له عبد يزيد ، فكان العرب يسمونه « المحض لا قذى فيه » .

وهكذا كان الهاشميان جدين للشافعى . وكان الشافعى ابن عم النبى وابن عمته .

كان مرتب الغلام من بيت مال المسلمين لا يكفيه ، فعاش عيشة ضنكاً ، ومع ذلك أدخل الكتاب . وتبدت نجابته فى سرعة حفظه وإن لم يجد أجرة المعلم ، فكان يجلس مع الصبيان ، كلما رأى صبيًّا تعلم شيئًا تلقفه ، ولم يمض يسير وقت حتى أدرك المعلم أن مطالبته بالأجر أقل فائدة له من حلوله محله فى تعليم الصبيان كلما غاب عنهم.

واستمرت هذه الحال حتى تعلم القرآن كله وهو ابن سبع سنين . وجود القرآن على مقرئ مكة الكبير اسماعيل بن قسطنطين .

ومع مضى الأيام تفتح قلبه وعقله على نسبه العظيم : إنه ابن عم النبى نفسه . . الذى نزل عليه الكتاب الذى يقرؤه ويقرئه . . وإن جده السائب كان صاحب

---

(١) الشافعى : أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف .

راية الهاشميين فى أولى وقائع الإسلام وقعة بدر — فلما أسر السائب جىء به إلى النبى مع عمه العباس فقال النبى للسائب عن العباس : هذا أخى وأنا أخوه — وفدى السائب نفسه ، ثم أسلم بعد دفع الفدية ، وصار له مقام محمود بين المسلمين. اشتكى يوماً فقال عمر : اذهبوا بنا نعد السائب بن عبيد فإنه من مُصاصة قريش .

ولقى شافع بن السائب النبى أيضاً وهو مترعرع ، وإلى شافع ينسب محمد بن إدريس . فيقال : الشافعى

فهذان جدان له صحابيان .

بل إن أم السائب كانت أيضاً من قريش(١) .

ويظهر على صفحات التاريخ من أهل الشافعى بعد السائب ، عبد الله بن السائب ، وكان والياً لمكة . كما يظهر جد الشافعى عثمان بن شافع أبو العباس أبى إدريس — مدافعاً عن حقوقهم — ومحمد بن على بن شافع ، نلقاه يجلس فى بعض مجالس أبى جعفر المنصور ، وإبراهيم بن عبد الله بن شافع ابن عم الشافعى الذى سيتحلق حوله فيما بعد بمكة .

وأصبح لمحمد بن إدريس وهو فى الثالثة عشرة شأن فى المسجد الحرام إذ يقرأ القرآن فينشج الناس يبكون . . قالوا : (كنا إذا أردنا أن نبكى قال بعضنا لبعض : قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن فإذا أتيناه استفتح القرآن حتى نتساقط بين يديه من كثرة البكاء . فإذا رأى ذلك أمسك) . إلى هذا الحد كان يفهم القرآن فتبلغ الموعظة هذا المبلغ ! . . .

وعلمه القرآن من أمر نفسه ما لم يكن يعلم . من سيطرته على أفهام سامعيه بمعانى القرآن ، إلى إدراكه للمكانة التى تبوأها به فى قومه بعد سنوات ست يقرأ القرآن ويتعلم ، وسيمضى ستة أخرى أو أقل ليجمع كل ما بمكة من علم ، فيتناهى إليه عن مكانة قارئ القرآن ما رواه عمرو بن سلمة (لما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبادر أبى قومه بإسلامه . فلما قدم قال : جئتكم من عند النبى صلى الله عليه وسلم حقاً . فقال : « صلوا صلاة كذا فى حين كذا وصلاة كذا فى حين كذا . فإذا

(١) فهى الشفا ست الأرقم بن هاشم بن عبد مناف. وأمها خليدة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. وأم على بن أبى طالب هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف .

ومن هنا قول الشافعى فيما بعد : على ابن عمى وابن خالتى .

حضرت الصلاة فليؤمكم أكثركم قرآناً » فلم يكن أحد أكثر قرآناً منى ، لما كنت أتلقن من الركبان ، فقدمونى بين أيديهم وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين) .

وكان إذن النبى فى مرضه لأبى بكر أن يصلى بالناس إرشاداً لمبايعته بالخلافة .

على أن اعتزاز الصبى بما رفعه إليه القرآن من مكانة قد صاحبه تقدير نفسه حق قدرها ، بالانكباب على حلق العلم والاستمرار فيها ، فازداد علواً بكل سبب . وستبقى قراءة الصبى للقرآن وفهمه درجة عنده ، فيصبح من مسلمات فقهه إمامة الصبى ، للمصلين إذا كان أقرأهم . وسيتعهد الفتى بالتعمق الدءوب خصيصة الفهم الملهَم للقرآن مُذ راهق الحُلم ، ليصبح من أهل القرآن وخاصته ، ولا يكفيه أن يكون من أهل الرسول برباط الدم ، بل يسعى إلى أن يصير من أهله بحقه من العلم ، فيتفانى فى دراسة سنته على أعلم المسلمين بالسنن ، ليصبح الفهم الملهم للسنة ، خصيصته الأخرى .

هكذا وضحت طريق الشافعى منذ حداثته ، ورقى رقيه من مواقع لم يتح مثلها لغيره ، سما إليها بعمله وبيد الله فوق يده .

واستقر بالمسجد الحرام لا يكاد يبرحه . يجالس العلماء ، ويحفظ الحديث ويغلغل الفكر ويدق النظر . فإذا رجع إلى داره بشعب الخيف انشغل بما رأى وما سمع يدونه ويحفظه . . وكانت إضاقته تحول دون التدوين . . فبدا له أن من حقه على إدارات الدولة أن تمكنه من العلم ، فقصد إلى أهل الديوان يستوهبهم الظهور ليكتب فيها ما يتعلمه . ولم يزل يذكر ذلك فى أخريات حياته على أنه آية الإخلاص للعلم فيقول : « ما أفلح فى العلم إلا من طلبه فى القلة ولقد كنت أطلب ثمن القراطيس فتعسر على » وقال : لما خرجت من الكتاب كنت أتلقط الخزف والدفوف « الجلود » وكرب النخل « أصول السعف » وأكتاف الجمال « العظم العريض خلف المنكب » أكتب فيها الحديث . وأجىء إلى الدواوين فأستوهب منها الظهور « الأوراق » أكتب فيها . حتى كانت لأمى حباب « جرار » فلأتها أكتافاً وخزفاً وكربناً مملوءة حديثاً . ثم إنى خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً فى البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب » .

* * *

أدرك الحدث الناشئ جلالة المكان ومهابة الدروس ومكانة الأساتذة الذين يتحلق حولهم ، وربط الماضى والحاضر ، وقارن موقفه ومواقف الذين جلسوا فى هذا المكان قبلُ .

كانت الفتيا بالمسجد الحرام لعبد الله بن عباس ، ابن عم النبي ونائب أمير المؤمنين على ، والجد الأعلى لهرون الرشيد ، والمفسر الثبت لآيات الكتاب . . صلى إلى جنب الرسول ، وأم المؤمنين عائشة معهما ، تصلى خلفهما ، إذ هو ابن عشر سنين . كان يجلس للفتيا فى المكان ذاته أو قريباً منه . أبيض طويلا مشرباً صفرة ، جسيماً وسيماً صبيح الوجه له وفرة ، ويخضب بالحناء. إذا قعد أخذ مقعد رجلين. والمسلمون من شتى البقاع حوله — ينظم فيه حسان بن ثابت بعض روائعه . عامة علمه من عمر وعلى وأبى ابن كعب . . كان حجة فى الشعر والأنساب وأيام العرب ، مجتهداً فى التعرف على ما عند الصحابة من حديث أو علم . قال : « إنى كنت لآتى الرجل فأجده نائماً لو شئت أن يوقظ لأوقظ ، فأجلس على بابه تسفى لى الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف » . ويركب زيد بن ثابت فيأخذ بركابه فيقول : « لا تفعل يا ابن عم رسول الله » ! فيقول « هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا » .

قيل لطاوس بن كيسان شيخ اليمن : أدركت أصحاب محمد ثم انقطعت إلى ابن عباس ؟ قال : أدركت سبعين صحابياً من أصحاب محمد إذا تدارءوا فى شىء انتهوا إلى قول ابن عباس .

ومع انصراف ابن عباس عن السياسة يقول لمعاوية وهو خليفة : أما حربنا إياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل .

سئل عبد الله بن عمر فى شىء فقال : « سل ابن عباس فإنه أعلم من بقى بما أنزل على محمد » .

ارتبط فكر الشافعى وطريقته بابن عباس بعض ارتباط ابن عباس بعلى . ولقد اختص على بعلوم القرآن والفقه مذ دعا له النبى « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ، وأمره أن يقضى بين الناس، وكانت قضاياه ترفع للنبى فيمضيها .وانتهت أيام ابن عباس سنة ٦٨ بالطائف . فأعقبه مجاهد بن جبر حتى سنة ١٠٣ وكان قد عرض القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس يقفه فى كل آية يسأله فيم نزلت . فكان أعلم من بقى بعده بالتفسير . ثم عطاء بن أبى رباح حتى سنة ١١٤ قالوا : « كان عطاء يطيل الصمت ، فإذا تكلم خيل إلينا أنه يؤيد » .

أما عكرمة مولى ابن عباس فمات بالمدينة سنة ١٠٧ . روى عنه وعن عائشة

وأبى هريرة . . قالوا كان يرى الخوارج المعتدلين — وسينسب الشيعة فيما بعد فقه الشافعى إلى أمير المؤمنين على عن طريق عكرمة أى عن طريق المدينة . إذ تلمذ الشافعى لمالك تلميذ « ربيعة الرأى » . وربيعة تلميذ عكرمة مولى ابن عباس ، تلميذ على .

آل منهاج ابن عباس إلى عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، حتى مات سنة ١٥٠ . فآل علمه إلى كثيرين فى طليعتهم مسلم بن خالد بن فروة الزنجى .

وجذبت حلقة مسلم فتى قريش . لكنه كان يجنى ضرب النحل من الأزاهير الفائحة أو المتفتحة فى الحلق المجاورة ، وبخاصة حلقة سفيان بن عيينة شيخ المحدثين (١٩٨) وستظهر آثار جلوسه إليه فى كثرة ما يروى عنه ، وحلقة سعد بن سالم القداح وفيه يقول الشافعى : « كان يفتى بمكة ويذهب إلى قول أهل العراق » . وعندما يقول الشافعى : « أخبرنا سعيد عن ابن جريح » فهو يعنيه ، وحلقة داودبن عبد الرحمن العطار ؛ وحلقة عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى رواد . وسيروى عنهم جميعًا ، متفرقين ومجتمعين ، عن ابن جريح أستاذ مكة .

واحتفى الأساتذة الكبار بتفكيره وقدروا مواهبه وخصاله . فكان سفيان ومسلم وشيوخ مكة عامة يصفونه فى صغره بالذكاء والعقل والفتوة والصيانة ويقولون : « لم تعرف له صبوة » .

وكيف يصبو من خشع قلبه ، واجتباه ربه ، فعلم القرآن فى سبع سنين وأبكى به الناس فى ثلاث عشرة .

أما هو فكان يقول عن سفيان : « ما رأيت أحداً جمع الله تعالى فيه من آلة الفتوى ما جمع فى سفيان بن عيينة » . « وما رأيت أحداً أحسن تفسيراً منه للحديث وما رأيت أحداً أكفّ منه عن الفتيا » .

ومن شهادة سفيان عن بعض البوادر الأولى فى حياة الشافعى نظهر على ارتباط الفقه باللغة ، وبلوغ الشافعى مكانته من اللغة وأسرارها إذ هو ناشىء يطلب العلم .

كان سفيان يحدث بحديث (وأقروا الطير على مكناتها) فوجد الشافعى إلى جواره فسأله : يا أباعبد الله ما معنى قول النبى « وأقروا الطير على مكناتها ؟ قال الشافعى « إن علم العرب كان زجر الطير والخط والاعتساف (التكهن) . كان أحدهم إذا غدا من منزله يريد أمراً نظر أول طير يراه . فإن سنح عن يساره فاجتاز عن يمينه

قال : هذا طير الأيامن . فمضى في حاجته ورأى أنه يستنجحها . وإن سنح عن يمينه فمر عن يساره قال : هذا طير الأشائم . فرجع ، وقال هذه حالة مشئومة . فيشبه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « وأقروا الطير على مكناتها »[1] أى لا تهيجوها ، فإن تهييجها وما تعملون به من الطيرة لا يصنع شيئاً وإنما يصنع فيما توجهون فيه قضاء الله عز وجل » واستشهد بشعر الحطيئة إذ قال يمدح أبا موسى الأشعرى :

لا يزجر الطير سنحاً إن عرضن له ولا يفيض على قسم بأزلام

فصار سفيان بعد ذلك يفسره على ما قاله الشافعى . وإذا جاءه شىء من التفسير والفتيا التفت إلى الشافعى وقال : « سلوا هذا » .. وكان يقول : « هذا أفضل فتيان أهل زمانه » .

بقى أفضل فتيان أهل زمانه سنوات أخرى يتلقى العلم . وأذن له مسلم أن يفتى وهو لم يبلغ العشرين . لكنه كان يوقن أنه إذا ترأس حلقة فلن يتاح له أن يتعلم . ولقد قيل له « تفقه قبل أن ترأس فإذا ترأست فلا سبيل إلى التفقه » .

وهو لا يستطيع أن يكون عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً ـ كما حدث النبى ـ إلا أن يقطع فى العلم أشواطاً أخرى ، وعلى هذا أبى لوذعى مكة أن يجلس مجالس الأساتذة .

هذيل :

اتجه الشافعى إلى دراسة اللغة وآدابها اتجاه عقل علمى وجهته السيرة النبوية ، وبصر بأهمية اللغة كمصدر أول لفهم الكتاب والسنة ، كمثل ما بصر بأهميتها عبد الله بن عباس عالم اللغة والأدب ومفسر القرآن وأستاذه على بن أبى طالب ، أبلغ العرب بعد النبى : فمن يجلس مجالس التلامذة الفكريين لابن عباس أو على ، مطالب بأن يدرس الفصاحة العربية ليحيط باللسان العربى الذى نزل به القرآن ، اللسان الذى أمسى يتكلمه الناس عرباً وأعاجم أو أبناء أعاجم ، هجنت كلامهم العجمة .

وهو لا يأخذ الشىء إلا من مصادره . فقصد إلى قبيلة « هذيل » فى البادية ،

---

(١) تروى أحياناً وكناتها أو أوكارها . والمكنات جمع مكنة (بيضة الضباب) . وقيل : جمع مكن وهى جمع مكان .

أما الوكنات فجمع وكن . قال الأصمعى : الوكن مأوى الطير فى غير عش . والوكر ما كان فى عش . قالوا الوكنات عش الطائر فوق الجبل أو الجدار . وهو فوق الأشجار عش ، وعلى سطح الأرض أدحية .

ليدل مرة أخرى ، فى حداثته ، على أن النهج العلمىّ فطرته التى فطره الله عليها . . وكأنما ولد وولدت غريزة الكشف عن الأعماق معه .

وسيبقى منهاجًا دائمًا له : أن يؤخذ الشىء من أصوله . وستكون الأصول لمنطقة كشوفه التى بذّ بها الأقران والضرباء .

كانت قريش أهل الكعبة ، ومنهم سدنتها ، وكانت أجود العرب انتقاء لأفصح الألفاظ وأسهلها عند النطق، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما فى النفس . لكنها كسائر أهل الحضر خالطت أبناء الأمم ، فلم تسلم لغتها، على فصاحتها وسمو تعبيراتها ، سلامة لغة أهل البادية الذين لم يتاجروا مع غيرهم ولم تغلب عليهم دماثة الحضر .

وكثير من ناشئة قريش كانوا يخطون الخطوات الأولى إلى بنى سعد فى البادية ليتعلموا اللغة الصحيحة الخالصة . واعتاد أشراف مكة الأولون أن يبعثوا أطفالهم إلى البادية ، ليبقوا فيها حتى الثامنة أو العاشرة ، وليعودوا أقوى صحة وأفصح لساناً .

ومن قبل ذلك بقرنين وأعوام عادت حليمة السعدية وزوجها إلى مساكن بنى سعد بالطائف يحملان رضيعًا، ابن أيام ، ليرضع لبانها ويصلب عوده، وتسلم له اللغة . ثم يعود إلى أمه وجده يجرى فى سنته الخامسة وكأنه فى العاشرة بين أترابه . أما عقله فكان لا أتراب له : الوعاء الطاهر لآخر الرسالات . صلى الله عليه وسلم .

كانت نفس الرحلة ، من مكة إلى مكة عن طريق البادية ، مع فارق السن ، وجامعة الخصاصة واليتم ووشيجة القربى . . . وكانت درسًا تعلمه محمد بن إدريس .

وفى الصحراء تقشف ورياضة ، وفصاحة وبلاغة .. وفيها رعى محمد الغنم فى شبابه مرة بعد أخرى ، كمثل ما رعى موسى وعيسى بن مريم، لتقدم السماء الدليل ، من عمل الأنبياء ، على أن العمل حياة .

يقول السيوطى : إن الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم ، وأسد ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر القبائل « ورووا عن النبى أنه قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » ومما قيل فى معناه إن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل العرب.. واختلفوا فى تعيين القبائل السبعة. لكن قريشاً وهذيلا واردتان فى كل الأقوال.

ويقول أبو عمرو بن العلاء معلم البصرة الأول : « أفصح العرب عليا هوازان ، وسفلى تميم » .

ومن هوازن سعد بن بكر « ومن تميم شعراء العرب العظماء : الفرزدق ، وجرير وآخرون .

قال أبو بكر للنبي يومًا : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله . فأجاب : « وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت فى بنى سعد » .

عظم أمر مكة بالإسلام فغدت قبلة العالم وحاضرته . وحرى بالفيضان الدافق عليها من الحضارات واللغات واللهجات أن يحدث آثاراً فى لغة أهلها ، فحسن الحضارة كلغتها ، مجلوب بتطرية وتخليط ، أما البداوة فحسنها برىء غير مجلوب .

فى عهد النبى لحن رجل فقال النبى للناس : « أرشدوا أخاكم » .

وكتب كاتب أبى موسى الأشعرى إلى عمر « من أبو موسى » . فكتب عمر إلى أبى موسى : « عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطًا » .

وعمر كان يضرب بنيه إذا لحنوا .

وفى النصف الثانى من القرن الأول كان الحجاج الخطيب لحّانة .

وكان عبد الملك بن مروان الذى قال فيه عبد الله بن عمر : « إن لمروان ابنًا فقيها فاسألوه » ، يجد ابنه الوليد يلحن ، فيقول فى حسرة المعتذر : أضر بالوليد حبنا فلم نرسله إلى البادية .

وسنرى فى القرن الثانى علماء اللغة وأئمتها كافة يرحلون إلى الصحراء ، يتعلمون اللغة ويجمعونها ، كالخليل بن أحمد صاحب المعجم الأول وواضع النحو ، وواضع علم العروض ، وأبى عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، والكسائى ، وأبى زيد الأنصارى ، والجاحظ وغيرهم . ولما انتشر القياس والاستعارة وغيرهما أصبحت اللغة التى نستعملها أوسع وأعم من اللغة التى كان يستعملها العرب إذ نزل القرآن . ومن أجل ذلك كانت وصاة عبد الحميد بن يحيى للكتاب فى أول القرن الثانى : « وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها . . »

على أننا لانعرف هل بدأ الشافعى دراسة اللغة قبل أن يختلف إلى الفقهاء فى المسجد أو بدأها بعدُ . ومن الروايات ما يفيد أنه لزم « هذيلا » سبعة عشر عامًا ، ومنها أنه برع فى الرمى وفى الشعر وفى أيام العرب وجود القرآن على اسماعيل بن قسطنطين . ثم أقبل

على الفقة بنصح من الآخرين .

ولا نستطيع أن نجزم بخروجه إلى هذيل فى إبان الدرس، وإن كان مفهوماً أنه أغرم بالخيل وبلغ الغاية فى الرمى فى إبان إقامته فى الصحراء، وهما رياضتان للفتوة الباكرة فى البادية و هذيل . والأصمعى يقول: « إذا فاتك الهذلى أن يكون رامياً أو شاعراً فلا خير فيه » . والجاحظ يروى عن يونس بن حبيب « ليس فى هذيل إلا شاعر أورام أوشديد العدو » .

لكن القدر المتيقن أنه تعلم الأدب وحفظ الشعر قبل أن يبرح مكة إلى المدينة بعد إتمامه الدرس على مسلم بن خالد ، وأنه أذن له أن يفتى بمكة وهو فى حدود العشرين أو قبلُ وأن سفيان بن عيينة كان يسأله أيامئذ فى المعانى . ويشير على الناس أن يسألوه .

وحسبنا أنه تبحر فى اللغة وتعلم الفقه قبل أن يفصل من مكة إلى المدينة. فاكتملت له أداة فهم النصوص من اللغة وآدابها وأشعارها وسير العرب وأخبارها فى الجاهلية والإسلام لأن دراسة القرآن دراسة نصوص وسِيَر فى المقام الأول . وفى ذلك قول محمد بن بنت الشافعى : أقام الشافعى على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة ، وقال ما أردت منه إلا الاستعانة على الفقه .

أقام الشافعى فى هذيل ردحاً من الزمان ، ليحفظ عشرة آلاف بيت من أشعارها بإعرابها ومعانيها ، وليحمل شعر الشنفرى فينقل ذلك عنه العلماء . ويقول الأصمعى ذاته — وكان قد تخطى الأربعين — عن هذه الفترة من مطالع حياة الشافعى : « قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعى » .

وإذا كان الأصمعى يقرأ ديوان الهذليين بتمامه على الشافعى ، والأصمعى عالم اللغة العربية وراويتها الأكبر ، وفيه قول الشافعى : « ما عبر أحد عن اللغة بأحسن مما عبر الأصمعى » ، وكان الشافعى يعرف إعراب هذه الآلاف من أبيات الشعر ويدرك معانيها وألفاظها وغريبها فى فجر شبابه ، فتلك مكانة تضعه — إذ هو شاب — بين كبار الأساتذة .

بلغ عبد الملك بن قريب «الأصمعى» مبلغه العظيم ، فكانت له حلقة بجامع البصرة إلى جوار حلقات الخليل بن أحمد وأبى زيد الأنصارى وخلف الأحمر والنضر بن شميل ويونس بن حبيب وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، لأنه أكثر التطواف بالبادية حتى ليحفظ قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، أحد عشر ألف أرجوزة منها البيت والبيتان والمائة

والمثتان. ومن أهمها أشعار هذيل . وكان يعتبر الشعر الجاهلي مفتاح اللغة االعربية ، وتفسيراً وأخباراً ولغة ، ويرى الجهل بأشعار الأولين مؤدياً إلى اللحن فى اللغة ، وعدم فهمها ، وبالتالى إلى إساءة فهم النصوص أو سوء نقلها . ويستوى فى ذلك آى الكتاب وأحاديث الرسول لما هى عليه من بلاغة عالية اكتملت للعرب فى عصرهم الذى نزلت فيه الرسالة .

وكن الأصمعى يجلس فى شبابه إلى صديق أبيه سفيان بن عيينة المحدث، عندما يزور مكة ويقول له سفيان : (من الخير أن تكون شاعراً) . . وربما لقى الشافعى فى هذه المجالس ، أو إلى جانبها فى حلقة مسلم .

كانت هذيل تنزل مواضع متفرقة بين مكة والمدينة والطائف وخاصة البقاع الجبلية ، ومن بطونها بطون أحاطت بمكة ، فلا جرم كان الهذليون والقرشيون قسماء فى الفصاحة كما كانوا أقرباء، فى الجوار والصهر والدماء. ولقد أفرد الأصمعى لشعرهم كتاباً قدم فيه شعرهم على شعر امرئ القيس ، ومن الذين صحح شعرهم على الشافعى عيينة أبو ذؤيب وأبو كبير ، وأبو قلابة والمتنخل وغيرهم .

قال عنهم حسان بن ثابت شاعر الرسول : (إنهم أشعر القبائل العربية) . وقال الأصمعى : (فيهم أربعون شاعراً مفلقاً) . كانوا قوماً جبليين يعيشون على الغز و والحرب فأبلوا فى حروب الإسلام أحسن البلاء ، وبخاصة فى فتوح الشام ومصر . ولم يعودوا إلى بلادهم بعد الفتح . قال ابن خلدون عن قبائلهم (لم يعد لها فى الحجاز حى يطرق) ولما دخلوا مصر استقروا بها ، وكان منهم فيها شعراء فحول .

ولهذيل مشاركة كبرى فى الفقة ونشر الإسلام. فمنها عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة. وأستاذ الكوفة ، والأستاذ الروحى لأبى حنيفة ، والجد الأعلى للقاسم بن معن أستاذ اللغة وتلميذ أبى حنيفة .

ولقد عد صاحب الأغانى بنين عشرة لمرّة كانوا جميعاً شعراء دهاة .

وكثيراً ما استشهدت بأشعار هذيل معاجم اللغة . وعليها تعلم الشافعى ، والأصمعى والسكرى ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى وكثيرون آخرون .

وتعتبر مجموعة الهذليين أكبر مجموعة شعر من فصيح أدب العرب آلت إلينا من الجاهلية

وصدر الإسلام [1] .

ظل الشعر الهذلى منذ تدوين اللغة العربية حقيبة نصوصها وجعبة شواهدها وملتقى حفاظها، يعتمد المفسرون عليه ؛ فلم يكونوا يأخذون بما ينطق به عامة قبائل العرب ، مثل لخم أو جذام ، أو قضاعة أو غسان ، أو تغلب ، أو النمر ؛ بل كانوا يأخذون عن قيس وأسد وتميم ، وعن هذيل وعن بعض كنانة وبعض الطائيين . فهذيل كانت إحدى جهات ست لايقتدى إلا بها ولا تؤخذ اللغة إلا عنها. قال أبو عمرو بن العلاء فى شعرائها : « أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم أهل السروات وهن ثلاث . وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن . فأولها هذيل وهى تلى الرمل من تهامة ، ثم عليه السراة الوسطى ، ثم سراة الأزد» .

ولقد طالما استشهد أمراء البلاغة بشعر هذيل : يقول على فى خطابه الشهير لمعاوية : « زعمت أنى لكل الخلفاء حسدت . وعلى كلهم بغيت : فليست الجناية عليك فيكون العذر إليك (وتلك شكاة ظاهر عنكَ عارها) » .

وعبد الله بن الزبير يقول له أهل الشام : ياابن ذات النطاقين ، فيرد بشعر أبى ذؤيب نفسه :

وعيّرهـــا الواشون أنى أحبهـــا   وتلك شكاة ظاهــــر عنك عـــارها

وسيستشهد بهم الشافعى .

ومن يقرأ ديوان الهذليين بعضه أو كله يقرأ عجباً. العربية الفصحى كما كانت فى الجاهلية وقبل أن ينزل القرآن وحين نزوله ، كثير منها لايعرفه المرء اليوم ولا كان يعرفه الناس فى القرن الثانى للهجرة ! . ولا تحتويه المعاجم ! ومنها آيات فى رشاقة اللفظ ودقة التعبير ورقة التصوير ، ومعان ذات صفاء ولمعان . كم تناقلها الشعراء بعد ، بالتحوير والتغيير ، والتجديد .

إليك أمثالا من روعة البلاغة ووحشة الغرابة فى أشعارهم ، قد تغنى عن دراسة مفصلة لمصادر لغة الشافعى الجزلة الفصحى المعبرة .

ومن شعر أبى ذؤيب الهذلى وكان جاهلياً إسلامياً من المخضرمين :

---

(١) بلغت أشعار الهذليين من الأهمية بالنسبة للغة العربية وسير الجاهلية التى تضمنتها أن طبعت من مجموعاتها فى أوربة ثلاث طبعات . واحدة من أكثر من مائة عام فى لندن سنة ١٨٥٤ ، وثانية بألمانيا فى برلين سنة ١٨٨٤ ، وثالثة بألمانيا بعضها فى هانوفر عام ١٩٢٦ ، وبعضها فى ليبزج سنة ١٩٣٣ . كل هذا غير طبعات بلدان الأمة العربية .

وتجلدى للشامتين أريهمـــو أنى لريب الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبـــة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنـــع

ومع هذه السهولة المألوفة يقول فى القصيدة ذاتها :

أكل الجميم وطاوعتـــه سمحج مثل القناة وأزعلتـــه الأمرُع

(الجميم — الحشيش — السمحج — الأتان الطويلة الظهر — أزعلته — أنشطته — الأمرع — الخصب) .

— ويقول :

جزيتك ضعف الود لمـــاشكيتـــه وما إن جزاك الضعف من أحدٍ قبلى

ويقول بعد ذلك :

لعمرك مـــا عيساء تتبع شادنًا يعن لهـــا بالجزع من نخب النجل

(قال الأصمعى — عيساء يعنى ظبية بيضاء شبهها بالمرأة تتبع شادنًا يعنى ولدها ويعن لها يعرض لها . بالجـــزع من نخب . واد بالسراة . النجل النز وهو ماء يظهر الأرض ثم يجرى) .

وللبيت الذى استشهد به على وابن الزبير من شعر أبى ذؤيب واحد من أبيات قصيدة فيها الكثير مثل قوله :

فمـــا أم خشف بالعلاية شادن تنوش البرير حيث نال اهتصارها

(الخشف الظبى أول مشيه . شدن وخذل : قوى وتحرك . تنوش البرير — تمر الأراك . نال اهتصارها . أى تجذبه . « العلاية » موضع . يريد تشبيه حبيبته فى حسن تلفتها بظبية قد قوى ولدها وتبعها وهى تتناول الأراك وتجتذب غصونها بضمها . وإنما شبهها بظبية ذات خشف لأنها شديدة الخوف على خشفها فهى كثيرة التلفت إليه حذرًا عليه) .

وفى حين نجد له قصيدة سهلة فيها :

مالى أحن إذا جمـــالك قربت وأصد عنك وأنت منى أقـــرب
وأرى البـــلاد إذا سكنت بغيرهـــا جدبًا وإن كانت تطل وتخصب

(تطل — يصيبها الطل) .

نجد قصيدة أكثرها مثل مطلعها :

وقائلــة مــا كان حذوة بعلهــا غداتئذ من شــاء قرد وكاهــل

(أراد : ورب قائله تقول ؛ ما أصاب زوجى من حذوة الجيش . أى ما احذى . ما أعطى . وقرد وكاهل حيان)[1] .

كانت إحاطة الشافعى الكاملة بهذا الأدب منحة من السماء . فإذا سلم أسلوبه مع ذلك من غرائب البادية وازدان بالجزالة، فإنه يكون قد اختار أحسن الأساليب . وبهذا قدر أن يرفع مستوى التعبير الفقهى إلى أعلى مستويات البلاغة .

وسيبقى فى أسلوبه من أساليب الجاهليين التى كانت مستعملة عند نزول القرآن ، فوق فصاحة الكلام وبلاغته ووجازته ، وضوح الغرض كله مع تحديده ، بدلالة العبارة بتمامها وبالكلمات كلمة كلمة ، كأنها فصلت للمعنى لا تزيده ولا تزيد عنه ، ولا تنقصه ولا تنقص دونه ، مع الجزالة ، والقصد المباشر . دون إشارة إلى معان مغيبة أو احتمالات متوقعة . بل العبارة جامعة مانعة . كل أولئك مع استعمال النحو الأصيل عند الجاهلية قبل أن يعرفه الخليل وسيبويه وتلاميذهما أو يضعا النحو على أساس القياس .

الرجل :

تزوج محمد بن إدريس حميدة حفيدة عثمان بن عفان [2] فولدت له ولداً سماه

---

(١) إليك بعض أمثال من شعر ساعدة بن جؤية الهذلى :

ومن العوادى أن تقتك ببغضة وتقــاذف منها وأنــك ترقب
شاب الغراب ولا فؤادك تارك ذكر الغضوب ولا عتابك يعتب
خرق غضيض الطرف أحور شادن ذو حوة أنف المسارب أخطب

العوادى : الأشغال والصوارف . تقتك : اتقتك . البغضة : البغضاء . يعتب : يستقل بعتبى . الخرق : الصغير من الظباء . الشادن : المتحرك . ذو حوة : أى ذو خطوط تضرب إلى السواد . الأخطب : الأخضر اللون . انف المسارب : يقول هو مستأنف الربيع ولم يرع قبله . والمسارب : مسارحه التى يسرب فيها .

ومن شعر عبد مناف بن ربع الهذلى :

أحقا أنكم لما قتلتم نداماى الكرام هجرتمونى ؟
فإن لدى التناضب من عوير أبا عمرو يخر على الجبين
وإن بعقدة الأنصاب منكم غلاماً خر فى علق شنين

(التناضب : جمع تنضبة — ذكر ياقوت التناضب بكسر الضاد وقال كذا وجدته بخط ابن أخى الشافعى . ثم قال وغيره يضمها . عقدة الأنصاب : موضع . والشنين : الذى يتشنن أى يتصبب . ويقال : شن على رأسه قربة من ماء) .

(٢) بنت نافع بن عيينة بن عمرو بن عثمان بن عفان .

محمداً وكناه « أبا عثمان » تحية لجدها ، كما ولدت له زينب وفاطمة . وسيكون له فى خواتيم حياته ابن آخر من غيرها كناه « أبا الحسن » مات طفلا . .

فهو إذا تزوج فبنت عبد شمس بن عبد مناف يبنى بها ابن المطلب بن عبد مناف : فتى ملء السمع والبصر ، فارع العود ، ضامر كالجواد العربى .

وستتجشم فى رحلة الحياة ضروباً شتى من المشقة ، فى جوب الآفاق معه ، وفى العناية به وببنيه ، مع الإضاقة والفاقه . لكنها ستظفر بالفارس الذى يملأ القلب والعين ، وبإمام له أعظم الأثر فى الإسلام .

كانت الخيل متعة له . وستهدى إليه الجياد فيما بعد ، ويهديها . . ويركب الناس إياها ويتحدث عنها للناس وفى الفقه .

وكان رامياً . قال : « وكانت همتى فى شيئين الرمى والعلم . فصرت فى الرمى بحيث أصيب من عشرة عشرة » ثم سكت عما صار إليه فى العلم فقالوا أنت والله فى العلم أكثر منك فى الرمى . وقال « كنت ألزم الرمى حتى كان الطبيب يقول لى أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك فى الحر » .

والرسول عليه الصلاة والسلام يضع الرماية فى المكان الأول من رياضة الجسم والنفس فيقول : « خير ما لهوتم به الرمى » . مر على نفر ينتضلون — فأقبل عليهم قائلا : ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً . ارموا وأنا مع بنى فلان . فأمسك الفريق الآخر عن الرمى فقال لهم مالكم لاترمون ؟ قالوا كيف نرمى وأنت معهم ؟ قال ارموا فأنا معكم كلكم . »

وقال : « ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا . كل لهو باطل . ليس من اللهو محمود إلا ثلاث . تأديب الرجل فرسه . وملاعبة أهله . ورميه بقوسه أو نبله . فإنهن من الحق . ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها — أو قال كفرها » .

وسبق الرسول بين الخيل ووضع نظاماً لهذا النوع من الرياضة . وكشفت الحروب التى خاضها عن حاجة المسلمين لهاتين الرياضتين . . كان يوم أحد فى صميم المعرك، ينثر المحاربون كنانتهم أمامه ليفرغ نبالها كلها ، ويرمى عن قوسه حتى تكسرت فصارت شظايا ، ويركب الفرس ، ويضرب بالرمح من حاول قتله ، فيجعله يخور كما يخور الثور .

فهاتان الرياضتان سنتان [1] .

ولقد آتت الفروسية والنفس العربية محمد بن إدريس أكثر أخلاقه من العلو على سفساف الأمور والتمكن والتثبت ، والاعتدال ، والسيب والطول . وصدق القول . واجتهاد الرأى وجهد النفس ، والإحساس الدائم أنه سفر . وواتاه الرمى عظم طريقته ، البديهة المسعفة والمبادرة الهادفة . والاتزان فى الانطلاق . والتركيز على الغرض .

كان فى الخمسين من العمر فى فسطاط مصر ، إذ مر بهدف فإذا برجل يرمى بقوس عربية ، وكان حسن الرمى فأصاب سهامًا ، قال الشافعى : أحسنت وبرّك عليه . ثم قال لتلميذه المزنى : ما معك ؟ قال ثلاثة دنانير . قال أعطه إياها واعذرنى إذ لم يحضرنى غيرها

وفى مصر كذلك يجىء على دابة إلى منزل عبد الله بن عبد الحكم فيدعو ابنه محمداً فيقول له اركب دابتى ، فيركبها ، فيقول له أقبل بها وأدبر . فيفعل. فيقول : « إنى أراك عليها ليّقا . خذها . فهى لك » .

فالرياضة الرفيعة من ركوب الخيل إلى الرمى عن القوس ، والتربية العالية ، من البلاغة والفصاحة ، إلى اليد العليا بالمروءات وسماحة النفس وسخاوة اليد. إلى تعلم القرآن حتّى إتمامه ، إلى الجلوس إلى علية الأساتذة فى أعظم البقاع فى الإسلام . كل هذه عناصر تربية لم تكن تتاح إلا لعظيم يضيفها إلى ذاته ، بالجدة التى تطوع الأشياء له . ولهذا يزداد الشافعى علوًّا عند الله والناس. أن استطاع تحصيل هذا العلم والخلق العظيم مع المسغبة . ويزداد ، كمثله ، فضل أمه الوحيدة المغتربة ، الجديرة بأن يضيف التاريخ لحسابها الكثير من عناصر الإعجاب بتنشئته ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وفدت إليه أسماء بنت يزيد الأنصارية — مبعوثة من مؤتمر نسائى كان قد عقد — فقالت (بأبى أنت وأمى يارسول الله. أنا وافدة النساء إليك. إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة . إنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم .

---

(١) وسنقرأ للشافعى فى الأم ، بعد ، فى كتاب السبق والنضال أنه يجوزهما فى حدود السنة قال : قال الله تبارك وتعالى فيما ندب إليه أهل دينه « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » فزعم أهل العلم بالتفسير أن القوة هى الرمى . وقال الله تبارك وتعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » . ويقول : (أخبرنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التى قد أضمرت . . .) . ويقول : (والنضال بين الاثنين كهو فى الخيل لا يختلفان فى الأصل) ويستطرد لينثر دور الفصاحة تسابق البيان الدقيق لأحكام السبق والنضال وحالاتهما ومصطلحاتهما فى إحاطة من يصيب من عشرة عشرة .

وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات . وشهود الجنائز والحج بعد الحج . وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل . وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أولادكم وأموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا أولادكم . أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟) فالتفت النبى إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال « هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها » ؟ فقالوا يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا . فالتفت النبى إليها فقال « افهمى أيتها المرأة . وأعلمى من خلفك من النساء ، أن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ذلك كله » .

ومن التبعل تنشئة البنين .

ولقد كانت أم محمد بن إدريس جديرة بفتاها : قدمته إلى مكة فطفق شيوخها يعملون فى تأديبه نحو عشرين عاماً ، ثم قدمته مكة بدورها إلى المدينة ليتأدب على إمام دار الهجرة ذاته نحواً من عشر سنين ، ثم أتاح لنفسه كل فرصة بجهاده فى سبيل الدين فكانت مراكز القوى الحضارية فى الأمة الإسلامية كلها هى المجال الحيوى الذى تشكلت فيه شخصيته وطريقته ، فجزى أمته أعظم الجزاء بأصوله ومنهاجه وفقهه وعمله ، وجزىأ مه الشكر والذكر ، كلما استعرض أيام حياته فنبه على مساعداتها حتى وهو يدق أبواب الثلاثين .

لم يكن ضمور هوليد كفاحه فحسب ، بل كانت محاربة البدانة مبدأ له قل أن نرى له مشابهاً لدى العلماء ممن يجلسون للناس . فهو يرى البدانة معوقة عن العمل للدين والدنيا بما هو أنبل وأمثل ، مما يندر أن يقدر عليه البطين البادن .

قال : « ما أفلح سمين إلا محمد بن الحسن . وذلك لأن العاقل لابد أن يهتم لمعاده أو لمعاشه . وشدة الاهتمام مانعة من السمن » .

وقال عن نفسه « ما شبعت من سبع عشرة سنة إلا شبعة طرحتها لساعتى » .

وكأنما الشبع عنده منقصة نجاه الله منها . فيشير إلى أنعم الله عليه فيجمع الصدق والاعتدال فى الطعام فى واد واحد بقوله « ما كذبت وما حلفت بالله صادقاً ولا كاذباً وما شبعت منذ عشرين سنة » .

كان يصحب العصا لا تفارقه . قيل له : إنك تدمن إمساك العصى ، قال : لأذكر أنى مسافر .

وسيقضى حياته كلها كما بدأها ، جواب مجاهل فى بوادى الأمة العربية وحواضرها. وكأنما كان جوبها بعض هواياته أو رياضاته ، فكره أن يضيف البدانة إلى أثقاله : قال فى الضمور والبدانة وانشغال البال : كان فى الزمن القديم ملك شديد السمن فذكر لبعض الأذكياء من الأطباء ذلك وطلب منه دواء يقلل السمن فقال : أصلح الله الأمير . أنا رجل طبيب ومنجم وقد نظرت فى طالعك فلم أجد فى عمرك إلا شهراً ، ولا فائدة فى هذا العلاج . فحبسه ليعرف أنه صدق أوكذب . واحتجب الملك عن الناس واستولى عليه الحزن والفكر فقل سمنه . فلما انتهت المدة خرج الملك وأحضر الطبيب وقال ظهر كذبك وأنا أعذبك على هذا الكذب. قال الطبيب : أصلح الله الأمير . أنا أهون على الله عز وجل من أن أعلم الغيب ولكن ما عرفت لتقليل السمن علاجاً إلا الهم والحزن فلهذا السبب قلت . فأجازه الملك وأحسن إليه

* * *

ولئن كان من الأقوال ما يكتب الخلود له ، أو كانت أعمال الرجال أعلى صوتاً من الأقوال ، إن أعمال الشافعى وأقواله فى الفقه صنوان ، تتراءى يوماً فيوماً على صفحات حياته . وأنصعها شجاعة الفكر والنفس. ولقد ظلت إلى جوار ذلك تراثاً من روائع الكلم ، خليقاً بأن نضرب الأمثال منه فى هذا المقام ، لما فيه من أفكار معبرة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن آرائه وخصائص ذاته ، ومن روايات واستشهادات تكاد تُلمسنا الوجه الخفى أو الجانب الخلفى من بديهته ، يُلهمه خواطره ويخلّق نظرياته ، وإن لم تقع عليه الأعين :

الكرم والتقوى عنده أمران أساسيان للإنسان ، إذا تجرد منهما تجرد من نعمة الحرية . وفى هذا يقول : (الكرم والتقوى إذا اجتمعا فى شخص فهو حر) .

ويقول فى الأحرار :

لعمرك ما الرزية فقد دار ... ولا شاة تمـــوت ولا بعير
ولكن الرزيـــة فقـــد حر ... يموت بمـــوته خلق كثير

وكانت حياته كلها كرماً وتقـوى وشجاعة ، بل كانت كذلك خزائن فكره الظاهر وعقله الباطن . فإذا استشهد لتفسير القرآن على معنى اللمس الموجب للوضوء استشهد رائع الشعر فى الكرم .

وألمست كفى كفـــهُ أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفـــه يعدى
فلا أنا منه ، ما أفاد ذوو الغِنى ... أفدت ، وأعدانى فبذّرت ماعندى

وإذا تحدث عن بلاغة من يسأل الخليفة الفقيه، فهو يتحدث عن العطاء. وإذا تحدث فى صدد السنة يوم بهت الزهرىُّ هشام بن عبد الملك فأبلس، فإنما هو يتحدث، فى صدد على بن أبى طالب المثل الأعلى فى العلم والشجاعة والندى والتقوى. والزهرى فى الوقت ذاته مثل الجود الذى لا ضريب له. يعطى كل من جاءه، ويستلف من أصحابه مئات الآلاف ليعطى، ويستلف من عبيدة ليعطى، ويقول لمن ذكره بالعواقب: السخى لا تؤدبه التجارب.

والشافعى يعطى لا يخاف عيْلة. ويفلس ثلاث مرات فيبيع كثيره وقليله وحلى بنته وزوجته، ولا يستدين. ومع ذلك لا يكف عن العطاء بالشمال واليمين. وإذا أعطاه الرشيد مالا أنعم به من مخرجه، حتى إذا فجأه الموت أوصى الدولة أن تسدد ديونه.

ويروى الشافعى فى ضياع الدين قول عمرو بن العاص: (أصبحت وقد ضيعت من دينى كثيراً وأصلحت من دنياى قليلا) ورفض ابن عباس أن يعظه فيقول: (اللهم إن ابن عباس يقنطنى من رحمتك فخذ منى حتى ترضى) — فيرد ابن عباس: (هيهات يا أبا عبد الله تأخذ جديداً وتعطى خلقاً).

فإذا رقأنا فى الجبل العالى إلى ذروة فقهه، فهو هنالك مع الله والنبى، أى القرآن والسنة. يسبح سبحاته العليا فى عالم النور الوضيء، بتقوى الله وكرم النفس، فلا يرى لنفسه حقوقاً وإنما يرى عليها واجبات لله والمسلمين. فإذا كان أفضل الفضل إخفاء الفضل كما يقول الإمام على عن الزهد، فإن الشافعى لا يرى الفضل كله فيقول: (أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره وأكثرهم فضلا من لا يرى فضله).

ولما أوصى رجل بوصية لأعقل الناس فسرها الشافعى بأنها لأزهد الناس. وكان يقول: طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد.

ويروى الشافعى: كان أبو حاتم الطائى يضع الأشياء فى مواضعها. وكان حاتم مبذراً. فشكاه أبوه لأصحابه فاجتمع رأيهم على ألا يعطيه، سنة، شيئاً.. ثم ذكر له عن ابنه حاتم ما فيه من الضر والضيقة فبعث إليه بمائة ناقة حمراء.. فلما وقفت عليه قال حاتم: من أخذ شيئاً فهو له. فأخذوها كلها. فدعاه أبوه. فقال حاتم: والله يا أبت. لقد بلغ منى الجوع شيئاً (بحيث) لا يسألنى أحد شيئاً إلا أعطيته إياه.

ويروى: وقف أعرابى على عبد الملك بن مروان فسلم ثم قال: رحمك الله مرت بنا سنون ثلاث: أما إحداها فأهلكت المواشى. وأما الثانية فأنضت اللحم. وأما الثالثة فخلصت

إلى العظام . وعندك مال . فإن كان لله فأعط عباد الله وإن كان لك فتصدق . فإن الله يجزى المتصدقين ، فأعطاه عشرة آلاف درهم وقال : لو كان الناس يحسنون يسألون هكذا ما حرمنا أحداً .

والشافعى يعلم المروءة ويحدد أركانها للناس ويفرضها على نفسه وعلى ابنه (أبى عثمان محمد) فيقول : لو علمت أن الماء ينقص مروءتى ما شربته . ويلزم نفسه التحرج وحسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك فيقول : « للمروءة أربعة أركان : حسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك » . فكان كل ذلك .

تجيئه الهبات الضخمة فيفرقها . ويرى المعنى النبيل جليلاً وإن قل أثره . ويرى المال فى يده هيناً مهما جل قدره .

ركب حماراً فمر بسوق الحدادين وسقط سوطه فى يده فوثب غلام فأخذ السوط ومسحه فى كمه ثم ناوله إياه . فقال لغلامه: ادفع الدنانير التى معك إليه . وكانت تسعة أو أكثر . ونصحه تلميذه أبو ثور أن يشترى بمال كان معه ضيعة تكون له ولولده من بعده — فاشترى مضرباً بمنى يكون لأصحابه إذ يحجون .

والعلم تعبد وتقوى وتضحية . . وهو يعلّم كتاب الله. وأول آيات كتاب الله تأمر الرسول بالقراءة (اقْرأ باسم رَبِّك الَّذِى خَلَق). وهو يعلّم سنن الرسول التى تقول (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) فندب نفسه لتعليم المسلمين الطريقة المثلى فى طلب العلم : بالكدح المضنى وبالتواضع المفطور ، وبالتضحية التى ترتجى من الأئمة .

يقول : من لا يحب العلم فلا خير فيه . ولا ينبغى أن يكون بينك وبينه معرفة .

ويقول : العلم حر وطالبه عبد . فإن خدم العلم قبله . فإن تجبر عليه فالعلم أولى أن يتجبر عليه . . . ويقول : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح . سنسمع فيما بعد مناظراً فى الأندلس يعتذر لابن حزم قائلاً : اعذرنى فإن أكثر مطالعتى كانت على سرج الحراس . فيقول ابن حزم — وقد كان وزيراً ابن وزير— : وتعذرنى أيضاً فإن أكثر مطالعتى كانت على منائر الذهب والفضة . وإنما أراد أن الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر .

وبالتأصيل العميق والتصوير المشوّق يجعل فقر العلماء لذّاً هنيئاً يُدلون به ويستطيلون ،

فيسميه « فقر اختيار » ويسمى فقر الجهال « فقر اضطرار » . ومن قبله قال علي : « العلم خير من المال والعلم يحرسك وأنت تحرس المال » . أو كما قال : « العلم حاكم والمال محكوم عليه . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق » .

ويسمعنا الشافعي في شريعة الوفاء للأصدقاء آيات في اصطناعهم واصطفائهم ؛ قال : « من برك فقد أوثقك ومن جفاك فقد أطلقك » و « وليس بأخيك من احتجت إلى مداراته » . . . « ومن لم تنفعك صداقته فلا تهتم بعداوته » و « لاتقصر في حق أخيك اعتماداً على مودته » . .

« وإذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه فإياك أن تبادر بالعداوة وقطع الولاية فتكون ممن أزال يقينه بشك . ولكن القه وقل له : بلغني عنك كذا وكذا ؛ وأجدر أن يسمى المبلغ . فإن أنكر ذلك فقل له أنت أصدق وأبر — ولا تزد على ذلك شيئاً . وإن اعترف بذلك فرأيت له وجهاً بعذر فاقبل منه .وإن لم يرد ذلك . فقل له ماذا أردت بما بلغني عنك .

وإن ذكر ما له وجه من العذر فاقبل منه . وإن لم يذكر لذلك وجهاً لعذر وضاق عليه المسلك ، فحينئذ أثبتها عليه سيئة أتاها . ثم أنت في ذلك بالخيار : إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة . وإن شئت عفوت عنه. والعفو أبلغ للتقوى ، وأبلغ في الكرم ؛ لقوله تعالى: (وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فمَنْ عفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ علَى اللهِ) فإن نازعتك نفسك بالمكافأة ، فاذكر ما سبق له لديك ولا تبخس باقي إحسانه. وقدكان الرجل الصالح يقول: رحم الله من كافأني على إساءتي من غير أن يزيد ولا يبخس حقاً لي . يا يونس إذا كان لك صديق فشد يديك به . فإن اتخاذ الصديق صعب ومفارقته سهل . . »

من أجل ذلك يقول :

وليس كثيراً ألف خل وصاحب وإن عدوًّا واحداً لكثير

ويقول : « رضا الناس غاية لاتدرك » .

ويقول : « ليس إلى السلامة من الناس سبيل . فانظر ما فيه صلاح نفسك ودع الناس وما هم فيه » .

و « لا ينفعك من جار السوء التوقي » .

ويقول : « من عف أمن . ومن شرهت نفسه طال همه . . وأظلم الظالمين لنفسه

الذى إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالأشراف وتكبر على ذوى الفضل » و « إذا أيسر الرجل بعد الإقتار شرهت نفسه إلى أربع : ينتفى من ولى نعمته ، ويتسرى على امرأته ، ويهدم داره ، ويبنى غيرها » .

وإذا كان النطق مسفرة ، والصمت مسترة ، فالكلمة أغلى القيم عنده . قال لتلميذه: « لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها » .

وقال : « من كتم سره كانت الخيرة فى يده » .

سئل عن أى الأشياء أوضع للرجال قال : كثرة الكلام وإذاعة السر والثقة بكل أحد .

ومع أنه كان يستملح الأماليح . ويحض على الاستمتاع فى النزهة فيقول « الوقار فى النزهة سخف » فقد كان ينبه على الاعتدال ويقول « الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء ، والانقباض عنهم مجلبة للعداوة . فكن بين المنقبض والمنبسط » .

يعطى تلميذه الذى يقوم على حوائجه دراهم يشترى لحماً فيشترى سمكاً . فيقول : يا ربيع . اليوم نأكل شهوتك وغداً نأكل شهوتنا . . فإذا عاتبه داعبه بقوله : « يا طويل الرقاد »

وكان سيد الخلق ، عليه الصلاة والسلام « جل ضحكه التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام . فيه دعابة قليلة وإذا مزح غض بصره . طويل الصمت قليل الضحك ، فإذا ضحك وضع يده على فيه ، وإذا اهتم أكثر من مسك لحيته » .

وكان الإمام الشافعى يروى الأفاكيه مثل أن يقول « كان لرجل ابن أبله فبعثه يوماً يشترى حبلا طوله ثلاثون ذراعاً . فقال الابن لأبيه : فى عرض كم ؟ قال الأب فى عرض مصيبتى فيك » .

والاعتدال هو الوسط الخير ، لا يقدر عليه إلا من ضبط الميزان . وهو الذى يهب الحلم ، سيد الأخلاق .

والشافعى مضربُ المثل فى تثبته وتأنيه . وهما خصيصتان للرماة . رأى إنساناً يعجل فى عمل فقال له : رفقاً رفقاً . فإن العجلة توجب الحرمان والرفق وسيلة إلى الوجدان .

ويقول : الكيس العاقل هو الفطن المتغافل . . وليس العاقل الذى يختار بين الشر والخير فيختار ؛ إنما العاقل الذى يقع بين الشرين فيختار أيسرهما .

ويقول : استفدت من الصوفية كلمتين شريفتين : الوقت سيف . ومن العصمة ألا تجد .

ويقول : أربعة أشياء قليلها كثير : العلة ، والفقر ، والعداوة ، والنار .

ويقول : من نم لك نم بك ؛ ومن نقل إليك نقل عنك . وإذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك . وإذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك .

وقديمًا سعى ساعٍ إلى ابن عباس برجل . فقال ابن عباس : إن شئت نظرنا ، فإن كنت كاذبًا عاقبناك ، وإن كنت صادقًا نفيناك ؛ وإن شئت أقلتك . قال : هذه . . . !

والشافعي يقول : إن قبول السعاية أضر من السعاية .

وسنقرأ له القريض الجيد فى التنبيه على الإحسان عند اغتنام الفرص ، فيقول :

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فعقبى كل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فلا تدرى السكون متى يكون

* * *

وكأنما كان يضع صورة حياته فى إطار من الشعر فيقول :

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
الأسدُ لولا فراق الغاب ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب
التبر كالترب ملقى فى أماكنه ... والعود فى أرضه نوع من الحطب

وفى هذه الأبيات صور للرحالة الذى يبرح أرضه كالعود يزكو بنقله ، والعسجد الحر لا ينفع الناس إلا أن يخرج من باطن الأرض ، والأسد لا يستطيع الحياة هامداً أو قاعداً ، والماء الذى يحيى الأنفس لا يطيب إلا إذا جرى ، والسهم لا يصيب إلا إذا انطلق ، وما هى إلا تصويرات فنية لمجاهد سياح فى الأرض ، كتب على نفسه الرحلة. أو صُوِّر الشافعى لنفسه ، بقلمه ونظمه .

الفصل الثانى

إمام اللغة

زادت الدراسات الفقهية الشافعى بصراً بالقرآن ، وثبت تذوقه النفسى تفوقه اللغوى ، فلم يقف فى الهدى القرآنى عند حدود . وطفق يواصل هذين التذوق والتفوق آناء الليل والنهار . يختم القرآن ثلاثين ختمة فى الشهر ، يراجعه مرة كل ليلة ، ثم يدرسه فى النهار وإلى جواره الفقه والأدب والسير مع المناظرة القائمة على الاستشهاد بالآيات والأحاديث .. حتى إذا كان شهر رمضان تضاعف الدرس فختم القرآن مرة فى الليل ومرة فى النهار فكان التفقه فى اللغة يزيده تفقهاً فى القرآن ، وكان التفقه فى القرآن يزيده تفقهاً فى العربية . فصحت له لغة لم يتح مثلها لآخرين ، وفى ذلك يقول الجاحظ :

« نظرت كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا فى العلم فلم أر أحسن تأليفاً من المطلبى ؛ كان لسانه ينظم الدر » .

بهذا التعبير الحنى الذى يقطر محبة ، قدر صاحب المنهج العلمى والتجريد المعتزلى ، محمد بن إدريس . وهو تقدير لم يمنحه الجاحظ أى أسلوب من الأساليب . والجاحظ من الأئمة الذين تشرئب الأجياد إليهم فى الكتابة العربية والعلوم الإسلامية ، فوق أنه من أقسى النقدة . وكان واحداً من رقباء عصره . عاصر الشافعى وطالت حياته بعده . وهو من أئمة المعتزلة ، وعداء المعتزلة لأهل السنة مشهور .

والزمخشرى (١) ، صاحب أساس البلاغة وصاحب الكشاف عن حقائق التنزيل ، من أئمة المعتزلة أيضاً ، وهو حنفى . ومع تعصب بعض علماء المذهب الحنفى ضد الشافعى ، يعترف له بالمكانة العليا فى اللغة ، فى مواضع كثيرة كموضع تفسيره لقوله تعالى « ذلك أدنى ألا تعولوا » حيث يتحدث عن الشافعى فيما نقل عنه ثم يقول « وكفى بكتابنا المترجم بكتاب شافى العى من كلام الشافعى ، شاهداً بأنه كان أعلى كعباً وأطول باعاً فى كلام

(١) يقول السيوطى فيه : (ثم جاءت فرقة أصحاب نظر فى علوم البلاغة ، التى بها يدرك وجه الإعجاز ، وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة . ولذا صار كتابه فى أقصى درجات الشرف) .

العرب من أن يخفى عليه مثل هــذا (١) » وأبو منصور الأزهرى يصنع صنيع الزمخشرى فيؤلف كتاباً فى شرح مشكلات ألفاظ الشافعى يسرد فيه ألفاظه الفصيحة ، وألف كثيرون غيرهم من علماء اللغة مثل نفطويه فى أسلوبه وشرح ألفاظه .

وكان لنطقه عذوبة تمتع السمع . بل كان ارتجاله درجة أعلى من كتابته . . وقد ظهرت هذه الظاهرة فى كل مكان . كان يوماً فى بغداد يتحلق التلاميذ حوله فوجدوا بينهم قوماً من غير طالبى الفقه . قال لهم تلميذه « الزعفرانى » لم تختلفون معنا (تجلسون إليه) ؟ قالوا : نسمع لغة الشافعى (٢) . ويقول تلميذه الربيع قولا عجباً عن كتبه التى

---

(١) يقول الزمخشرى مباعداً بينه وبين المذهب الشافعى :

إنى بدين ولائهم متشيع   لهمـو ولست بشافعى المذهب

ومع ذلك فهو يقول فى تفسير قوله تعالى : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا) .

(. . . من قولهم عال الميزان عولا إذا مال . وميزان فلان عائل . وعال الحاكم فى حكمه إذا جار . وروى أن أعرابياً حكم عليه حاكم فقال له : أتعول على؟ وقد روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن لا تعولوا : أن لا تجوروا) ويقول : (والذى يحكى عن الشافعى رحمه الله أنه فسر « أن لا تعولوا » : أن لا تكثر عيالكم . وكلام مثله من أعلام العلم . وأئمة الشرع ورءوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد . وأن لا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا . . . وكفى بكتابنا المترجم بشافى العى من كلام الشافعى شاهداً بأنه كان أعلى كعباً وأطول باعاً فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا . ولكن للعلماء طرقاً وأساليب . فسلك فى تفسير هذه الكلمة . طريق الكنايات . . وقرأ طاوس : أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله . وهذه القراءه تعضد تفسير الشافعى) .

ويقول الفخر الرازى (٦٠٦هـ) : ذكر الأزهرى فى جوابه عن هذا الطعن . . عن الكسائى أنه قال قال (سمعت كثيراً من العرب يقول : عال الرجل إذا كثر عياله . ثم قال : وأعال أكثر من عال . . والظاهر أن الشافعى لم يقل ذلك حتى حفظه وعرفه) فى صدد آية الطهارة يقول الزمخشرى (ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم للصلاة محدث وغير محدث . فما وجهه ؟ قلت يحتمل أن يكون الأمر للوجوب فيكون للمحدثين خاصة . وأن يكون للندب) و يعلق عليه أحمد بن المنير (٦٨٣) المفسر المالكى الكبير وعالم اللغة ، فى كتابه الانتصاف (قال أحمد : الزمخشرى أنكر أن يراد بالمشترك كل واحد فى معانيه على الجمع وقد سبق له إنكار ذلك . ومن جواز إرادة جميع المحامل أجاز ذلك فى الآية . ومن المجوزين لذلك الشافعى رحمه الله تعالى . وناهيك بإمام الفن وقدوته) .

والزمخشرى حنفى ، والرازى شافعى ، وابن المنيّر مالكى . . ولكن مذهبهم واحد فى إمامة الشافعى فى اللغة .

(٢) يقول ابن الحاجب فى تعريفه : وهى لغة الشافعى كما يقولون لغة تميم وربيعة . قد عبر المرحوم الشاعر على الجارم عن أصالة لغة الشافعى حين قال إن كلمة « النمذارة » التى لا توجد فى معاجم اللغة — إلا فى معجم القاموس — تدل ، إذ توجد فى كتاب الرسالة ، على أن الكتاب له ، بمثل دلالة التوقيع على صاحب التوقيع .

هى أرفع أساليب الكتابة العربية فى الفقه وأروع ذخائر البلاغة فى التعبير العلمى (لو رأيت الشافعى وحسن بيانه لتعجبت منه . ولو ألف هذه الكتب على عربيته التى يتكلم بها معنا فى المناظرة لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه غير أنه كان يجتهد فى تأليفه فى أن يوضح للعوام) .

وفى ذلك يقول عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية وعالم اللغة العربية (٢١٣) : « طالت مجالستنا للشافعى فما سمعت منه لحنة قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها » . ويقول : « الشافعى كلامه لغة يحتج بها » .

أما أن يكون كلام الشافعى « لغة يحتج بها » فمعناه أن لغة العرب تأخذ منه الدليل على صحتها ، وهى درجة لم يبلغها فى اللغة إلا الأقلون قبله .

وأما عدم اللحن فقد يكون أمراً شائعاً لدى البلغاء والفصحاء . . لكن الذى ليس متاحاً للقلة ، إلا من أنعم الله عليهم ، هو أن يتحدث المتحدث فتكون كل كلمة يقولها لا يوجد غيرها أحسن منها ، وأن تكون الشهادة بذلك شهادة عيان ، من عظيم فى اللغة العربية وتاريخ الإسلام مثل ابن هشام ، بما قد رأى وقد سمع .

ويبلغ الإعجاب أبعد شأوه ، إذ يكون إعجاباً بكلام المتحدث المرتجل ، فما بالك بكتابة المتفحص المتمهل .

يقول أبو منصور الأزهرى[١] « عكفت على المؤلفات التى ألفها علماء الأمصار فألفيت الشافعى أغزرهم علماً وأفصحهم لساناً وأوسعهم خاطراً » . « وهذا أبو العباس ثعلب[٢] يقول : (العجب أن بعض الناس يأخذون اللغة عن الشافعى وهو من بيت اللغة ، والشافعى يجب أن يؤخذ منه اللغة لا أن يؤخذ عليه اللغة) يعنى أن ألفاظه ، بذاتها لغة يحتج بها ، وليس مجرد ناقل للغة العربية فتنقل عنه اللغة .

وهـــذا أبو العباس المبرد — صنو ثعلب وقرينه — يقول « رحم الله الشافعى .

---

(١) (٢٨٢ – ٣٧٠) صاحب (تهذيب اللغة) وكتاب التقريب فى التفسير وعلل القراءات ، وكتاب تفسير ألفاظ المزنى .

(٢) شيخ العربية وإمام الكوفة فى اللغة والنحو (٢٠٠–٢٩١) شارح ديوان زهير ، وديوان الأعشى . كان أهل الكوفة يقولون لنا ثلاثة فقهاء على نسق لم ير الناس مثلهم : أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن ولنا ثلاثة نحويين . الكسائى والفراء وثعلب . قال المبرد : أعلم الكوفيين ثعلب فذكر له (الفراء) قال : ولا يعشره .

كان من أشعر الناس وآدب الناس وأعرفهم بالقراءات »[١] . . وهذا المازنى[٢] يقول : « الشافعى عندنا حجة فى النحو » . وكمثل هؤلاء نفطويه[٣] يؤلف كتاباً فى مناقب الشافعى يذكر فيه ألفاظه الفصيحة .

فلا عجب أن نقرأ فى القاموس فى بعض الأحيان كلمات (وهذه عن الإمام الشافعى رضى الله عنه) .

ولا يحمل عالم من علماء اللغة على الخطأ ما يشذ من كلام الشافعى عن القواعد المعروفة لديه فى العربية . فهو لغة الشافعى . يجعل شاهداً على ما يستعمل فيه وحجة فى صحته.

ولئن كان ما أثر عن غيره من الفقه ثروة عظمى ، إن ما خلفه لنا الشافعى كان طرازاً جديداً على غير مثال من المؤلفات الطوال . مقسمة مبوبة ، من كتابته أو إملائه أو الرواية عنه ، على نسق الكتب العصرية التى تتصدى لأدق العلوم ، فى تعبيرات رائعة أثرى بها التراث الأدبى وازدهر ، لقوتها وروعة أساليبها ، فلم يبلغ مبلغها تراث أدبى عالمى من ناحية الوفرة فى الأقدمين ، ولم يعل علوها فى الأساوب غيرها فى العصور التالية لها .

كان عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون فقيهاً دارت عليه الفتيا بالمدينة ، وعلى أبيه من قبله ، تفقه بمالك ، وتعلم العربية فى بيته وبيت أخواله ، قبيلة كلب بالبادية ، فبلغ فى الفصاحة مبلغاً جعل تلميذه أحمد بن المعذل ، الذى نشر فقه مالك بالمشرق ، يقول : كلما تذكرت أن التراب يأكل لسان عبد الملك ، صغرت الدنيا فى عينى! كان يناظره تلميذ آخر فى حلقة مالك ، تعلم العربية — مثله — بالبادية ، هو الشافعى . فكان الناس لا يعرفون كثيراً مما يقولون ويعجزون عن متابعتهما .

وكان للكلمات العربية إذ تنحدر من أفواه غيره . مذاقها عنده ، كأنما تتردد فى فمه وبين أضراسه . قرأ عليه رجل فلحن ، قال : أضرستنى

وكان يعرف أن أهل الحديث لا يحتملون تبحره فى الأدب ارتفاعاً منهم بمستوى الحديث والتفقه فيه عن الإفراط فى الشعر .

---

(١) كان الأوائل يقولون عن المبرد وثعلب . العالم بينهما .

(٢) مات سنة ٢٤٩ وكان إماماً فى النحو واللغة والأدب .

(٣) إبراهيم بن محمد بن عرفة (٢٤٤ — الأزدى ٣٢٣) له كتاب غريب القرآن .

روى مصعب الزبيرى[1] قال : كان أبى والشافعى يتناشدان فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظاً وقال : لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث ، فإنهم لا يحتملون هذا .

* * *

وأول ما يبده القارئ من أسلوب الشافعى جزالة ألفاظه ووجازة عباراته وقوة أثره .

أما الجزالة ، وما يتبعها من الصحة والسلامة ، فهما كمثل ألوان العافية التى تلوح وجوه العائدين من الصحراء ، حيث الفصحى خالصة يتراضعها العرب الخلص من لبان البادية . كما رقق قوله ورقاه إدامة قراءة القرآن .

وأما الإيجاز فآية البلاغة فى الشعر والنثر .

وأما قوة التعبير والتأثير فقد ساعدت عليها أمور ، منها طبيعته وما سكب فيها من فيوض القوة والفتوة . ومنها نزعته الخطابية التى تتبدى فى كتابته . ومنها أن كثيراً من كتابته إملاء ، قد يتيح الفرصة للانتقاء . ومنها دراساته للشعر الجاهلى ، وقرضه الشعر طوال حياته . ومنها طبيعة الفنان . يسلك ألفاظه فى جمله . كأنما يسلك الجواهر فى عقود الجمان . ومنها كنوزه التى لا نظائر لها من اللغة الفصحى ، وأساليبه التى لا تبارى فى التصرف فى الألفاظ ، لكل لفظة جمالها الخاص بها وكمالها ، كوعاء للمعنى ، دون أن تتداخل معانى الكلمات . وكأن لكل كلمة قيمة رقمية معينة أو صورة هندسية محددة ، أو قوة فئات العملة لا تزيد ولا تنقص ، ومن كل ذلك الضبط ينبعث اللمعان اللؤلؤى والنغم الموسيقى والائتلاف الوضىء . فى السلك والسبك . بعبارات قصيرة ، أو طويلة متتابعة ، لكل منها حجتها ، ولمجموعها الحجة البالغة ، كمثل وثبات الجواد المنطلق ، تسكر البصر بالحركة الدقيقة المنضبطة ، مع جمال هيكله وحسن شكله ، وهو يوفى على الغاية .

وكأن العين إذ تبصر بالكلام جملة وفرادى ، فى اتساقه وانطلاقه ، تشهد البلور المذاب فى انسيابه وائتلاقه ، أو تسمع وترى آلات النغم قد توفرت عليها أنامل أستاذ .

وكما تجد فى البيت الواحد من القصيدة كمال الوحدة تجد فى الجملة الواحدة من كلام الشافعى ، وربما فى الكلمة الواحدة ، ما فى النثر العظيم من كمال الوحدة وتمام المعنى .

---

(١) مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير (١٥٦ – ٢٣٦) .

من أجل ذلك تحس فى لغة الشافعى طعماً سائغاً فى الفم ؛ وتوقيعاً بديعاً فى الأذن ، صنجاً أو جرساً كما شبهه سامعوه ، ينساب من ذاته المنطلقة ، كالجداول المتدفقه ، فتلمس قوة السرد ودفع المدافع ، وحواراً بين الأشخاص يجرى على القرطاس ، مع الحركة والتنوع الذى ينقل القارئ كل نقلة ، وينفض عنه الكآبة ، كدأب سادات البلاغة ، الذين يملكون النفس فإذا العين والفم والأذن قد تكافلت مع الذوق والذهن لتأكيد وجود الخطيب ، وإشارات المعلم وإبداع الشاعر . ولذلك يحس قارئه دائماً بحاجة إلى القراءة بصوت عال ليتذوق الجمال . وكأنه يشارك فى محاورات تجرى أمامه ، أو كأنه فى حلقه من حلقات المحاورات فى مدرسة أبى حنيفة ، أو الأكاديمى فى عهد أفلاطون ، أو الليسيه فى حياة أرسطو .

وربما سبق الشعر النثر فى الوجود . ولقد سبقه بيقين فى وجود الشافعى . فجاء نثره الذى كتب به كتبه بعد شعره الذى تعلم قرضه أو حفظه فى البادية . وجاءت كتابته من منطقه ، ونبعت من نفثه وبثه . وبهذا المزاج الرفيع من أسباب القوة فى الأساليب ارتفع الشافعى بأسلوب الكتابة الفقهية إلى أعلى مستويات البلاغة[1] .

---

(١) إليك أمثلة يظهر منها بعض خصائص أسلوبه ومن أظهرها كثره الحذف والإيجاز : حذف أن المصدرية قبل المضارع مثل قوله فى الرسالة : أنت محسن متسرع بتقديمه قبل يحل عليك . وقوله . تحرس الطائفة الأولى فى ركعة ثم تنصرف المحروسة قبل تكمل الصلاة . وقوله : كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها .

ومثل قوله : لأن الصبح تفوت دأن تطلع الشمس قبل يصلى منها ركعة . وقوله : فأمر من لم يحسن يقرأ ولا يجزيه إذا لم يحسن يقرأ . . إلا . . وقوله ولا أنهى رجلين قبل يتبايعا ولا بعدما يتفرقان .

— حذف اسم كان للعلم به مثل قوله : (قد يحتمل أن يكون النهى عن بيع) يقصد أن يكون المراد النهى .

— حذف خبر كان للعلم به مثل قوله : (إما أن يحتاط فيكون ، وإن كانت . .) يقصد فيكون أوثق عنده.

— حذف كان ومعموليها ، مثل قوله : (قال وإن ، فليس من العبد) . يقصد وإن كان كذا وكذا فليس من العبد .

— حذف الفعل لدلالة الفاعل والسياق مثل قوله : (ولو قضى النبى بنصف العشر على العاقلة أن يقول قائل . .) يقصد : أيجوز أن يقول قائل . . . . ؟

— حذف النون فى الأفعال الخمسة تخفيفاً من غير ناصب ولا جازم مثل قوله : « وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحدهم مرة ويتركونه أخرى ، ويتفرقوا فى بعض ما أخذوا به منهم) . ومثل قوله : « وقال نفر من أصحاب النبى » (الأقراء الحيض) فلا يحلوا المطلقة حتى تغتسل من الحيضة الثالثة

— حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه ، مثل قوله : (وذكر تغليس النبى بالفجر سهل بن سعد ، وزيد بن ثابت . . شبيه ، بمعنى عائشة) . ويقصد : بمعنى حديث عائشة .

— حذف الموصوف وإبقاء الصفة مثل قوله : (لما يعرض للآدميين من الأشغال والنسيان والعلل الذى لا تجهله العقول) ، يقصد الأمر الذى لا تجهله العقول ومثل قوله . (وأى هذا كان ، فقد بين الله أنه =

والشعر فن والفن تعبير رفيع عن الذات . ولمعالجة الشعر ونظمه تأثيرجلى فى شخص الإنسان وفكره وتعبيره . وقديمًا قيل : الأسلوب هو الرجل .

= فرض فيه طاعة رسوله ليعلم من عرف منها ما وصفنا أن سنته صلى الله عليه وسلم إذا كانت سنة مبينة عن عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه . وفيما ليس فيه نص كتاب ، أخرى . فهى كذلك أين كانت) . يقصد بأخرى : سنة أخرى .

– ينصب الشافعى فى أكثر من موضع اسم كان الذى يرد بعد الجار والمجرور ، مثل قوله : (فكان مما ألقى فى روعه سنته) . (وقد كان لرسول الله فى هذا سننا ليست نصا فى القرآن . .) . وقوله : (ثم كانت لرسول الله فى بيوع سوى هذا سننا منها . . .) . وقوله : (احتمل أن يكون فيه شبها . .) .

وهذه اللغة نجد مصداقاً لها فى الحديث الشريف : (خمس صلوات كتبهن الله على خلقه ، فمن جاء بهن لم يضيع منهن استخفافاً بحقهن ، كان له عند الله عهداً أن يدخل الجنة) .

– تذكير الفعل المؤنث المجازى ، مثل قوله : (فاختلف صلاتهم . .) ؛ والقرآن يقول : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) .

– إنابة الجار والمجرور بنائب الفاعل ، مع ذكر المفعول منصوباً مثل قوله : (لا يحفظ عن غيره منهم فيه له موافقة ولا خلافا) . وقوله : (يحكم فيها حكماً واحداً) وقوله : (أكان يجوز أن يشترى بالدنانير والدراهم نقداً عسلا وسمنا إلى أجل ؟) .

– يستعمل (أبو) فى الجر ، فيقول : (عن سالم أبو النضر) . ومن العرب من يكتبون على بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان ؛ وإن كان ذلك غير مشهور . وكان عمر يعزم على أبى موسى أن يضرب كاتبه إذ يقول : (من أبو موسى) .

كلمات خاصة :

وإليك أمثالا لكلماته الخاصة :

– يتكلم عن القرآن ، دائماً ، غير مهموز . ويقول : إنه ليس من قرأت . . . تلك كلماته (وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين . وكان يقول : (القرآن) اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قرأت = ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرآنا – ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة ، والإنجيل فيهمز (قرأ) ولا يهمز القرآن ولقد تعلم إسماعيل هذه القراءه عن . . عن ابن عباس عن أبى بن كعب الذى قرأ عن النبى .

ونقل فى لسان العرب فى ماده (قرأ) نحو هذا عن الشافعى وزاد (. . كان أبو عمرو ابن العلاء عالم اللغة بالكوفة . لا يهمز القرآن . .) .

وكان ابن كثير مقرئ مكة يقرأ كذلك بلا همزه . وقال آخرون : إن القرآن مصدر قرأ . وآخرون : إن لفظ القرآن مشتق من القرء بمعنى الجمع وسمى قرآنا لأنه يجمع السور ويضمها وهو كل حال اسم لمجموع النظم الذى نزل على النبى ، والمعنى المستفاد منه .

– ويقول : (ليعتبروا فى أنف الأوان . . وينتبهوا قبل رين الغفلة) أنف الأوان : هو الجديد ، المستأنف ، وكل ما غطى شيئاً فقد ران عليه .

– النذارة بمعنى الإنذار والنذير فى قوله : (فخص جل ثناؤه قومه (قوم النبى) وعشيرته الأقربين فى النذارة . وعم الخلق بها بعدهم ورفع القرآن ذكر رسول الله . ثم خص قومه بالنذارة إذ بعثه فقال : (وأنذر عشيرتك الأقربين) .

قال فى القاموس : (النذير : الإنذار كالنذارة . بالكسر وهذه عن الإمام الشافعى رضى الله عنه) . =

ولقد استقر فى كل اللغات أن معالجة النظم أساس لتجويد العبارة ، باختيار

= — الأب = الأب .
— تختلف السن وتاتفق — تاتفق مضارع ايتفق — ياتفق فهو موتفق . لغة أهل الحجاز .
— فكل أمره موتفق صحيح .
يخلص بين الحالتين — يفرق — يفصل .
متكافيين . متكافئين . نسية = نسيئة . مؤجله .
وقد أوهم بعض الناس : وهم
الموتصل : المتصل .
— ياتكل على غيره . يتكل .
— أقام الشيء = قومه . إقامة الشيء تقويمه واستعمال الشافعى فعل أقام إثبات للتعدية بالهمزه ولعته حجة . جاء فى هذا المعنى فى اللسان (قوم السلعة واستقامها قدرها) .
استقمت يعنى قومت . وهذا كلام أهل مكة . يقولون استقمت المتاع : أى قومته .
— كهو = كمثله يقول (وكان عمد الكلام وأنت تعلم أنك فى صلاة كهو إذا تكلمت وأنت ترى أنك أكملت الصلاة) .
— كهى = يقول : هل كانت لك حجة إلا كهى عليك .
— إما قوت وإما غذاء وإما هما .
— تيسر . تصير يسيرة .
— سار بلادا : أى إلى بلاد أو فى بلاد .
— تحرف . بمعنى احترف ، ومصدره التحرف . والاسم : الحرفة .
يقول الشافعى . (وكسب الغلام . . إنما هو شيء تحرف فيه فاكتسبه) .
— هدر : بمعنى أهدر .
— قضى على : قضى ب .
— لها النصف وأردد عليها النصف . وأرد : أردد . لغة أهل الحجاز .
— مؤتنف مستأنف .
— البيع (يتم البيع بين المشترى و بين بيعه الآخر) . البيع : البائع والمشترى والمساوم .
— ترغبت المرأة عن خاطبها وشتمته .
— تزايل — زايل حاله . تباين .
— أسلكه سبيل السنة .
— شركه فيها : شاركه .
— يعرى من الذنب : يخلص من الذنب .
— غزا رسول الله . وغزّى معه جماعة .
— يفدحه ويفدحه الغرم .
— ما نبته الناس : غرسوه .
— عمد خلافها : عمد إلى خلافها أو خلافها .
— العنود عن أتباع السنة : العناد — العتو ، وهو مصدر سماعى .

اللفظ الملائم للمعنى والمكان ، وانتقاء التركيب السائغ الوقع فى السمع ، واشتقاق الكلمات ونحتها وسبكها ، وإضفاء السلاسة إلى جوار السلامة ، والإشراق إلى جوار القوة ، والمتعة إلى جوار الفائدة . وحشد المعانى العظيمة والكثيرة فى الكلمات القليلة أو الصغيرة ، لما يودعها الشاعر من إيماءات توحى بقصده ، أو إضمار كله الوضوح أو إيجاز فيه غناء الإسهاب ، دون إكراه للكلمة أو العبارة .

فإذا اجتمعت للناثر الفحل الحافظة الزاخرة ، والنفس الشاعرة ، والمران على النظم [1] ، مع التحرر من قيوده ، اجتمع له من أسباب البـلاغة كفل زاخر . فترقرقت الرشاقة العذبة مع الفخامة السهلة . يكاد يحسها القارئ بيده إذ تلمس الصفحات . فتتعاون الحواس فى الاستمتاع بمنثور كله الشعر . وتمسى المعانى الخاصة الراقية بشكلها وموضوعها فى متناول مدارك العامة ، بقوة البساطة الملهمة ، ويسر الأصالة التى تملك الأفئدة . وروعة التعمق .

ويتعالى أسلوب الشافعي فى وجازته وجزالته وإشراق ديباجته وفيضانه إلى أجواء

= وفى حديث الشافعى عن الإبل وأوصافها وأسنانها تظهر آثار البادية وتلقيه اللغة من مصادرها . قال : إذا وضعت الناقة قيل لولدها ربع . والأنثى ربعة ، وهو فى هذا حوار والأنثى حوارة فلا يزال حواراً حولا ثم يفصل . فإذا فصل عن أمه فهو فصيل والأنثى فصيلة . والفصال هو الفطام . فإذا استكمل الحول ودخل فى الثانى فهو (ابن مخاض) والأنثى (بنت مخاض) وإنما سمى ابن مخاض لأنه قد فصل ولحقت أمه بالمخاض وهي : الحوامل — فهو ابن مخاض وإن لم تكن حاملا . فلا يزال ابن مخاض السنة . . كلها . . فإذا دخل فى الثالثة . فهو ابن لبون والأنثى أبنة لبون . وإنما سمى ابن لبون لأن أمه وضعت غيره فصار لها ابن فهى لبون وهو ابن لبون

فلا يزال كذلك السنة الثالثة كلها . فإذا . . . دخلت الرابعة فهو حينئذ حق والأنثى حقة . وإنما سمى حقاً لأنه إستحق أن يحمل عليه ويركب . . فلا يزال كذلك حتى يستكمل أربع سنين ويدخل فى السنة الخامسة فهو إذن جذع . والأنثى جذعة . . . فإذا دخل فى السادسة فهو حينئذ ثنى . والأنثى ثنية . وهو الذى يجزى فى الهدى والضحايا من الإبل والبقر وأما الضأن فهو يجزئ منها الجذع . . فإذا دخلت السنة السابعة فهو حينئذ رباع والأنثى رباعية — فلا يزال كذلك حتى تمضى السنة السابعة فإذا . . دخل السنة الثامنة فهو حينئذ سدس وكذلك الأنثى سدس . . فإذا دخل فى السنة التاسعة فهو حينئذ مخلف وكذلك الأنثى مخلف ، ثم ليس له اسم بعد الإخلاف . ولكن يقال له : بازل عام وبازل عامين — ومخلف عام ومخلف عامين ، إلى ما زاد على ذلك . فإذا كبر فهو عود والأنثى عودة .

(١) بدأ كثير من كبار الناثرين فى عالم الغرب حياتهم الفنية بنظم القريض ، ومنهم جماعة من المجمع العلمى الفرنسى أو من أكاديمى « جونكور » ، وحسبك من هؤلاء وهؤلاء ، سانت بيف ، وأناتول فرانس ، وبول بورجيه ، وموبا سان ، والفونس دوديه ، كما نبه على ذلك زميلهم جاك بانفيل .

روحانية عالية، تسمو بالفقه عن ضجة الجدل وزحمة الحلق ، إلى ما يشبه المناجاة عند ذكر الرسول . فيقول . (بأبى هو وأمى) . ويكثر الحمد والشكر لله على سابغ نعمه ، ويحمل ذهن القارئ على براعته ، كالزورق الذى يتهادى على التيار ، فيحس أن الكاتب يعبد الله بما يكتب ، وأن القارئ فيما يقرأ يتعبد .

وبهذه النفس الشاعرة والأسلوب الذى لا يسامى والحب الذى هو العبادة حول الشافعى الكتابة إلى أسمى تعبير فنى عن العلم . وأضاف إلى اللغة العربية كنوزاً ألاقة فى التعبير الفقهى لم يعرف لها نظائر . ووجدت المدرسة الكبرى للبلاغة والجدل العلمى . لنسمع فيما بعد قول الإمام داود الظاهرى فى الشافعى « من تعلق بشىء من بيانه صار محجاجًا » .

وبهذا التفرد فى اللغة وأسلوبها صار الشافعى إمامًا فى اللغة العربية .

* * *

الشاعر :

قال الشافعى : لا يكاد يجود شعر القرشيين لأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ولا يكاد يجود خط القرشى ، لأن النبى ما كان يكتب بدليل قوله (ولا تخطه بيمينك) .

لكن الشافعى كان أكثر الأئمة كتابة بيده وبإملائه ، وكان شاعراً صح عنه الشعر الجيد . فذلك قول المبرد إنه من أشعر الناس . وصح عنه — على الأقل — شعر الحكمة الذى يجمل بالفقهاء . وهو أولى بالأئمة .

على أن أغراض الشعر التى يبيحها فقهه قد تفسر قلة الصحيح عنه .

قال فى شهادة الشعراء : « الشعر كلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، غير أنه كلام باقٍ سائر ، فذلك فضله على الكلام . فمن كان من الشعراء لا يعرف بنقص المسلمين وأذاهم والإكثار من ذلك ، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب ، لم ترد شهادته .. ومن أكثر الوقيعة فى الناس على الغضب أو الحرمان حتى يكون ذلك ظاهراً كثيراً مستعلناً . وإذا رضى مدح الناس بما ليس فيهم حتى يكون ذلك كثيراً ظاهراً مستعلنًا كذبًا محضًا ؛ ردت شهادته ، بالوجهين ،

وبأحدهما لو انفرد . وإن كان إنما يمدح فيصدق ويحسن الصدق ، أو يفرط فيه بالأمر الذى لا يمحض أن يكون كذباً ، لم ترد شهادته .

ومن شبّب بامرأة بعينها ليست ممن يحل له وطؤها حين شبب ، فأكثر فيها فشهرها وشهر مثلها بما يشبب ، وإن لم يكن زنى ، ردت شهادته

ومن شبب فلم يسم أحداً لم ترد شهادته ، لأنه يمكن أن يشببّ بامرأته ، وجاريته . وإن كان يسأل بالشعر أو لا يسأل به فسواء .

وفى مثل معنى الشعر فى رد الشهادة من مزق أعراض الناس وسألهم أموالهم ، فإذا لم يعطوه إياها شتمهم . . »

فاتخاذ الشعر وسيلة للرزق لا بأس به عنده ، فذلك فن . والفن عمل فكرى ، وفيه تهذيب وتأديب وتجميل للحياة وتعبير عن النفس . إنما البأس على المشببين الذين يسيئون لامرأة بذاتها وبنظيراتها .

والذين لا ينسبون إلا بنسائهم قلائل . ولهذا كان مأثرة امتاز بها نُصيْب بين فحولَ الشعراء أنه لم ينسب قط إلا بامرأته .

فإذا كان مفهوماً أن علة عدم رد الشهادة هى احتمال أن يشبب بامرأته أو جاريته ، وذلك التزام لقواعد المنطق ، فإن هذا الاحتمال ذاته كاف ليبعد أهل الفضل عن التشبيب. والغلواء منقصة ، والعجب المهلك أو الترافع بعض أعراض المباهاة ، وكثيراً ما تتردد المباهاة فى شعر الحماسة . فلا يبقى مباحاً لذوى التقى والورع إلا القليل .

سأل عبد الملك بن مروان أرطاة بن سُهيَّة كيف أنت فى شعرك ؟ قال يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب ، ولا أرغب ولا أرهب ، ولا يكون الشعر إلا من هذه الأربع ...

وروى عن الشافعى أنه قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيدِ

وفيما خلا المحظور على أهل الورع ، فإن إنشاء الشعر أو إنشاده موهبة كانت للشافعى مصدر قوة .

استنشد النبى من شعر أمية بن أبى الصلت مائة بيت وقال « إن كاد ليسلم » واستنشد أبا بكر من شعر قس بن ساعدة

وعروة بن الزبير يقول عن خالته : ما جالست أحداً أعلم بقضاء ولا بحديث بالجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعرف بفريضة ولا طب من عائشة .

كان النبي يقول لها : يا عائشة ما فعلت أبياتك ؟ فتنشده من حفظها فى الشكر. وقال لحسان بن ثابت « هل قلت فى أبى بكر مثلاً . . قل وأنا أسمع . قال . فضحك رسول الله حتّى بدت نواجذه وقال : صدقت يا حسان هو كما قلت » .

وقال لحسان « اهج المشركين وجبريل معك[1] ». وروى البراءبن عازب: لما كان يوم حنين رأيت النبي صلى الله عليه وسلم والعباس وأبا سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وهما آخذان بلجام بغلته وهو يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

---

(١) كان المسلمون أشداء على من هجاهم بشعر . فهو كلام باق سائر كما يقول الشافعى :

فى الشهر التاسع من الهجرة : قتل عمير بن عدى – وكان أعمى – عصماء بنت مروان ، لتحريضها على المسلمين وهم ببدر يحاربون وكانت تقول فى النبى .

ترجونه بعد قتل الرءو   س كما يرتجى عرق المنضج

وقال حسان بن ثابت يمدح عميراً :

فهرت فتى ما جداً عرقه   كريم المداخل والمخرج
فضرجها من نجيع الدما   ء قبيل الصباح ولم يحرج

– وفى الشهر العشرين قتل أبوعفك وكان يهودياً فى العشرين بعد المائة من العمر يحرض الناس بشعره على الرسول بعد إذ أظفره الله ببدر .

– وفى الشهر الخامس والعشرين قتل ابن الأشرف – من زعماء اليهود – . كان قد ذهب إلى مكة بعد بدر يؤلب العرب على النبى ووضع رحله عند أبى وداعة ، وزوجته عاتكة (بنت أسيد) فجعل يرثى قريشاً ، بعد هزيمتها فى بدر ، بشعر جاء فيه :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله   ولمثل بدر تستهل وتدمع

فقال حسان شعراً جاء فيه :

الا أبلغا عنى (أسيداً) رسالة   فخالك عبد بالسراب مجرل

فلما بلغ عاتكة بنت أسيد هجاؤه نبذت رحل ابن الأشرف وقالت لزوجها : ما لنا ولهذا اليهودى . ألا ترى ما صنع بنا حسان ؟ فتحول . فكلما تحول عند قوم دعا رسول الله حسان فقال (ابن الأشرف نزل عند فلان) فلا يزال يهجوهم حتى ينبذ رحله . فلما لم يجد مأوى عاد إلى المدينة. قال الرسول : اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت فى إعلانه الشر وقوله الأشعار . وقال (من لى بابن الأشرف فقد آذانى) .

قال محمد بن مسلمة (أنا به يا رسول الله وأنا أقتله) وسار إليه فى جماعة فأنزلوه من صياصيه وقتلوه . وفزع اليهود والمشركون وقصدوا إلى النبى يشكون . قال عليه الصلاة والسلام : إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل . ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر . ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف .

ودعا النبي المرتجز ليرتجز في المسير لخيبر . وارتجز أولاد الخنساء الأربعة وهم يسقطون دراكا يوم القادسية ، فلما خبروها مصارعهم قالت : الحمد لله الذى شرفني بقتلهم . . فكان عمر يعطيها أرزاق أبطالها الأربعة .

ولما أسر أبو جرول — يوم حنين — أنشد النبي شعراً للعفو عنه فقال (أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فلله ولكم) فردت الأنصار ما كان فى أيديها من الذرارى والأموال . .

وأنشده كعب بن زهير (بانت سعاد) تائباً فكساه بردة ، اشتراها معاوية فيما بعد بمال كثير . . وصار يلبسها خلفاء بنى أمية فى العيدين .

وهو عليه الصلاة والسلام يقول : « إن من الشعر لحكمة » و « إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكما » .

وذات يوم كان ابن عباس بالمسجد الحرام وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين موردين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس فقال : أنشدنا . فأنشده قصيدة من الشعر حتى جاء على آخرها . . قال أحد الحضور : الله يا ابن عباس . إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك .

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسر

قال : ليس هكذا .

قال الرجل . كيف ؟

قال : رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيحصر

قال الرجل : ما أراك إلا وقد حفظت البيت .

قال : أجل . وإن شئت أنشدك القصيدة . وأنشده إياها ، حتى أتى على آخرها . ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة وما سمعها قط إلا تلك المرة .

* * *

وربما دل على أن بعض الأشعار المنسوبة إلى الشافعى ليست له أنها أوهى فى الأسلوب من نثره المرسل ، المسوق بين قضايا المنطق الدقيق وأحكام الفقه العويص .

ولكن من شعره ما يصح مثله عن مثله . وإن تفاوت فى الدرجة .

من ذلك تعزية أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدى زعيم المحدثين بالعراق :

إنى أعزيك لا أنى عــلى ثقة ... من الخلود ولكن سنة الدين
فلا المعزى بباق بعد صاحبه ... ولا المعزّي وإن عاشا إلى حين

وسينشدها المازنى فيما بعد فى عزاء بعض الهاشميين فى حضور المبرد .

وجرت بينه وبين محمد بن الحسن مراسلة فكتب له :

قل لمــن لم ترعينــا ... مــن رآه مثــــله
ومن كــأن من رآ ... ه فــد رأى مــن قبله
العــلم ينهى أهــله ... أن يمنعــوه أهــــله
لعــــله يبـــــذلـــه ... لأهــــــله لعــــله

وقال تحنانًا لغزة :

وإنى لمشتاق إلى أرض غــزة ... وإن خاننى بعد التفرق كـتمانى
سقى الله أرضًا لو ظفرت بــتربها ... كحلت به من شدة الشوق أجفانى [1]

---

(١) ومن شعره

ومنزلة السفيه من الفقيه ... كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد فى علم هذا ... وهذا منه أزهد منه فيه

* * *

أكل العقاب بقوة جيف الفلا ... وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

* * *

حسبى بعلمى إن نفع ... ما الذل إلا فى الطمع
ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع

* * *

ولا تأخذ بعثرة كل قوم ... ولكن قل هلم إلى الطريق
فإن تأخذ بعثرتهم يقلوا ... وتبقى فى الزمان بلا صديق

* * *

واحسرة للفتى ساعــة ... يعيشها بعـــد أودّائه
عمر الفتى لو كان فى كفــه ... رمى به بعــد أحبائــه

* * *

لست ممن إذا جفاه أخوه ... أظهر الذم أو تناول عرضاً
بل إذا صاحبى بدا لى جفاه ... عدت بالود والوصال ليرضى

* * *

وصن الوجه أن يذل ويخضــــــع إلا للطيف الخبير

* * *

أكمل الشافعى دراساته ورجع من هذيل عالماً فى اللغة والأدب والسير وأيام العرب . أما أيام الإسلام العظمى ، فقد كان يعيش فى صميم مصدرها الأصلى بمكة .

كان أمامه أن يقرض الشعر وينشده ، وأن يتحدث فى الأدب واللغة والسير المغازى ، ماشاء . وكانت الرواية والأدب بضاعة مزجاة فى المحافل ، وهو أقدر الناس على تشقيق الكلام . وكان أمامه ميدان أعلى من كل ذلك عند الله وأشد مخطرة فى الناس ، فيتخصص فى تفسير الكتاب العزيز مثلما عمد غيره من قبل ومن بعد . وكانت تشوقه المخطرة ، وتؤيده القدرة . لكنه رأى أن يضيف إلى التفسير بيان حكم الله فى شئون الحياة الدنيا من العبادات والمعاملات ، وتعليم ذلك للناس . فاختار الفقه ميداناً لاجتهاداته وركز عليه ليكون أقدر على الإصابة . وهو بطبعه وتعليمه وتربيته شديد التركيز على أهدافه .

وكانت تدفعه إلى معترك الفقه رياح عاصفة تهب من بغداد على أصحاب السنن فى مكة ، ونسائم منعشة تجىء إليهم من المدينة . وكان أمامه عندئذ أن يجلس حيث أذن مسلم

= كل العداوات قد ترجى مودتها إلا مودة من عاداك عن حسد

* * *

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك
وإذا قصدت لحاجة فاقصد لمعترف بقدرك

* * *

ولا خير فى ود امرئ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل
وما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم فى النائبات قليل

* * *

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتى به بالقدر
وساعدتك الليالى فاغتررت بها . وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ذهب إليه من يقول : يا أبا عبد الله . قلت أبياتا إن كنت أحدثت مثلها لأتوبن من قول الشعر قال هيه . فأنشأ يقول :

ما همتى إلا مقارعة العدا خلق الزمان وهمتى لم تخلق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتنى بنجوم أقطار السماء تعلق

قال الشافعى : هلا قلت كما أقول . وأنشأ مرتجلا :

إن الذى رزق اليسار فلم يصب أجراً ولا حمداً لغير موفق
الجد يدنى كل أمر شاسع الجد يفتح كل باب مغلق
فإذا سمعت بأن مجدوداً حوى . عوداً فأثمر فى يديه فصدق
وإذا سمعت بأن مجذوذاً أتى ماء ليشربه فغاض فحقق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همة يبلى بعيش ضيق

وأقر سفيان . ولعل هذا كان أقرب الأبواب له . لكنه أبى أن يدخله .

وظهرت مرة أخرى فى لحظة حاسمة من لحظات حياته ، عقليته وطبيعته ، فأدرك بعقليته العلمية . أنه فى بداية الطريق . وأدرك بطبيعة الإنصاف فى نفسه أن أول الإنصاف إنصاف الناس من النفس .

وكانت المدينة هى الدار اللموم للنابهين . ولعلماء السنة بخاصة . فيها إمام « دار الهجرة » . والشافعى كدأبه يأخذ الشىء من المصادر الأصيلة . فتجهز وأغذ الجهاز للسفر إلى المدينة .

الباب الثالث

بين المدينة ومكة
عن طريق اليمن والعراق

« إذا كانت رؤيتي قد امتدت إلى بعيد ،
فذلك لأني وقفت على أكتاف الآخرين »
(إسحق نيوتن)

الفصل الأول

بين المدينة ومكة

المسلمون يؤمنون بالرسالة والرسول معاً . صنع دينهم وحضارتهم كتاب الله وكلام النبي وعمله . فالعلم والمعلم عندهم متلازمان .. والعلم لا يؤخذ من بطون الكتب دون قراءة على شيوخ حذاق . وتلك نظرية التدريس للمستويات العليا فى الجامعات . فالكتب وحدها تسع المعرفة وتخلو من الحياة . وأما الرجال فيبنون الرجال . والأستاذ عالم كامل ، ينبض عرقه ويومض برقه. وفى ملازمته متعة ومعاناة ، من الحوار الناطق أو الصامت مع الأشخاص والأشياء ، ومع النفس . ذلك قول أرسطو : (إننا لا نعلم بأقوالنا ولا بأفعالنا وإنما نعلم بحقائق نفوسنا . إن فى النفس أشعة تنفذ إلى مجاوريها فتربيها لهم) .

هاجر الرسول ومعه أشهر المسلمين من أهل مكة إلى المدينة فصارت مثابة المسلمين ، يفيمون إلى جوار النبي أو إلى جوار قبره ، ولما صارت مقر الخلفاء الراشدين أقام عمر كبار الصحابة إلى جواره ليستشيرهم . وكان يؤتى إليها بالأسرى فيبقى فيها العظماء والمتعلمون موالى لكبار الصحابة ، ويقصدها الناس ليتعلموا ويتبركوا مثل عمر بن عبد العزيز . أرسله إليها أبوه قبل أن يرسله الخليفة والياً عليها (٨٧ — ٩٣) . فحولته المدينة من فتى غض الإهاب والشباب ليصير ثانى العمريْن ، وخامس الخلفاء الراشدين ، فى خلافة دامت سنتين ونصف السنة فحسب .

وكان فيها إمام دار الهجرة مالك بن أنس . فكانت محط آمال محمد بن إدريس الشافعي .

كان مالك (٩٤ — ١٧٩) فى العقد الأخير من حياته . طويلا عظيم الهامة ، أصلع أبيض الشعر واللحية ، أبيض شديد البياض إلى الشقرة . يعبر ثلاثة أرباع قرن من العمر إلى مكانة لم يبلغها فى الحياة ضرباؤه . أخذ العلم عن تسعمائة شيخ فأكثر . وما أفتى حتى شهد له سبعون إماماً أنه أهل لذلك ، داره دار عبد الله بن مسعود نفسه ، الأستاذ الأعلى لأبى حنيفة وكل علماء الكوفة . أرسله عمر إليها معلماً ووزيراً . بعد إذ كان

النبي قد جعل له إذنه عليه . فكان يلج عليه ، ويلبسه نعليه ، ويمشى معه وأمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام .

أما مجلس مالك فى المسجد فمجلس عمر بن الخطاب نفسه ، يبخر بالعود من أوله إلى فراغه تعظيماً للحديث .. يطرق الخلفاء بابه ، ويحسبون حسابه . وأى خلفاء : أبو جعفر والمهدى وهرون الرشيد . يطلبون الطلبات إليه ، أما هو فليس له عند أحد طلبات .

فإذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة تعظيماً للرسول . ويقول ويشير (كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذه السارية) ويقول . حدثنى نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر . ويلمس بيده قبر النبي ... فأى مجلس كان ذلك المجلس .. ورسول الله حاضره !

نهاه أبو جعفر المنصور أن يحدث بحديث (ليس على مستكره يمين) ، لأن الدولة كانت تستكره الناس على البيعة بأيمان يحلفونها ، فحدث به على رءوس الناس . فأمر الوالى فضرب حتى انخلع كتفه .

وقصد أبو جعفر إلى الحجاز سنة ١٤٨ . فاعتذر له بكل أنواع الاعتذار وقال (إنى رأيت أن أجلسك فى هذا البيت فتكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على علمك . وأعهد إلى الأمصار يوفدون إليك وفدهم ويرسلون إليك رسلهم فى أيام حجهم لتحملهم من أمر دينهم على الصواب ... وإنما العلم علم أهل المدينة) قال مالك : (يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قالوا قولا تعدوا فيه طورهم .. لأنهم أهل ناحية . وأما أهل مكة فليس بها أحد . وإنما العلم علم أهل المدينة كما قال الأمير . وإن لكل سلفاً وأئمة . فإن رأى أمير المؤمنين إقرارهم على حالتهم فليفعل .. فاعفنى يعف الله عنك) . .

روى عنه شيوخه ولداته . من كل صقع من الأصقاع مثل ربيعة الرأى ، والليث بن سعد ، والأوزاعى ، وأبى يوسف ، ومحمد ، وعبد الله بن المبارك ، وسفيان بن عيينة .

وكان فى حلقته تلاميذ من كل القارات ، منهم أسد بن الفرات ومحمد بن الحسن وابن القاسم وابن وهب . أما الإمام الأعظم أبو حنيفة فكان يسعده أن يجادل إمام المدينة عند كل لقاء .

كان طلب العلم وتعليمه وما يزالان عبادة فى الإسلام . ومن أجل ذلك دميت أقدام بلا عدد ، وبليت قوى بلا حدود فى طلب العلم . وربما لتحقيق نص واحد مما آل تدريسه إلى مالك .

رووا أن جابر بن عبد الله الأنصارى سمع وهو فى المدينة أن عقبة بن عامر الجهنى عنده حديث فى القصاص . فخرج إلى السوق فاشترى بعيراً ثم شد عليه رحله . وسار شهراً حتى لقى حامل الحديث فقال : ما الذى جاء بك؟ قال حديث تحدثت به عن رسول الله فى القصاص لم يسبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك . أردت أن أسمعه منك قبل أن تموت أو أموت .

ومن قبل مالك ، كان يجلس فى الحرم النبوى ربيعة بن أبى عبد الرحمن (١٣٦) ، (ربيعة الرأى) أستاذ المدينة وابن شهاب الزهرى (١٢٤) الذى قال فيه الليث بن سعد : ما رأيت عالمًا قط أجمع من الزهرى . يحدث فى الترغيب فنقول لا يحسن غيره وإن حدث عن الأنساب قلت لا يحسن إلا هذا . وإن حدّث عن القرآن والسنة فكذلك . ومن قبله نافع مولى عبد الله بن عمر (١١٧) . ومن قبله القاسم بن محمد بن أبى بكر (١٠٦) قال عنه عمر بن عبد العزيز (لو كان لى من الأمر شىء لاستخلفت أعيمش بنى تيم) وسالم بن عبد الله بن عمر (١٠٦) وعروة بن الزبير (٩٤) ابن أخت عائشة وأخو عبدالله . وسعيد بن المسيّب (٩٤) زوج بنت أبى هريرة – كان أحفظ الناس لأحكام عمر وأقضيته حتى سمى راوية عمر . وكان الحسن البصرى العظيم يسأله فيما أشكل عليه ، ومات الحسن البصرى سنة ١١٠ بعد أن تربى عليه أساتذة المعتزلة .

ومن قبل مات خارجة بن زيد سنة ١٠٠ . ومن قبل هؤلاء عاش وعلم بالفعل والقول عبد الله بن عمر حتى سنة ٧٣ . أشركه عمر فى اختيار الخليفة على أن ينتخب ولا ينتَخب . وكان البعض يرى اختياره حلاً لخلاف على ومعاوية . قال جابر بن عبد الله : ما منا إلا من مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمر وابنه عبد الله .

ومن قبلهم أبو هريرة . راوية الرسول (٥٨) ومن قبلهم أم المؤمنين عائشة حدث عنها الصحابة (٥٨) وزيد بن ثابت – كان عمر يستخلفه فى كل سفر يسافره . ظل يفتى ويقضى فى عهد عمر وعثمان وعلى ومعاوية حتى توفى سنة ٤٥. وكان الحسن البصرى من مواليه .

كل هؤلاء انتهى علمهم إلى مالك بن أنس ، الذى يقول عنه أبو جعفر المنصور من نحو ربع قرن مضى : ما بقى على الأرض من يستحى منه غير مالك وسفيان (الثورى) .

ولما مات مالك ، لم يعلم من أهل المدينة أحد إلا أجمع عليه ، فى حين لم يجمعوا

قبل ذلك إلا على أبى بكر وعمر .

ولم تكن الشقة بعيدة بين مكة والمدينة ، وإنما البعيد هو الشقة بين التلميذ فى بواكير شبابه والشيخ فى القمم العالية . . والبعيد طلبة التلميذ . . لا يطلب حديثًا واحداً وإنما يطلب موطأ مالك الذى جمعه فى أربعين عامًا ، ومن ورائه علم علماء المدينة الذى انتهى إليهم من الصحابة والتابعين . فلا عجب إذا كان يستعين فى رحلته إليه بتلاوة القرآن حتى يدخل المدينة فى اليوم الثامن ، فيختم القرآن ست عشرة ختمة . ختمة بالليل وختمة بالنهار .

وكان على طريقته من التجهز للأمر بجهازه ، قد استعار الموطأ فحفظه . ثم استخار ربه ، وطلب إلى والى مكة أن يقدمه لمالك ، فهاب الوالى أن يكتب مباشرة لمالك ، وتشفع بزميله والى المدينة لينقل كتابه.

ولا ريب كانت المعركة الدائرة بين أهل الرأى وأهل الحديث من نصف قرن مشغلة فؤاد محمد بن إدريس . وكانت الدولة مع المذهب الذى تزعمه الإمام الأعظم أبو حنيفة ، إمام أهل الرأى ، وتولاه بعده جماعة من الفقهاء العالميين على رأسهم قاضى القضاة ومفخرة البلاط أبو يوسف (٩٥ — ١٨٢) حتى سمى المذهب « مذهب السلطان » .

يقولون باجتهاد الرأى فى المسائل التى ليس لها حكم معروف ، وبالقياس والاستحسان. ويضعون الأحكام لما لم يحدث من الأشياء ويشترطون فى الأحاديث أن يرويها جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جماعة كذلك . ويقدمون القياس الجلى على خبر الواحد . ولا يقبلون خبر الواحد فيما يكثر وقوعه وتعم به البلوى. ويشترطون ألا يعمل راويه بخلافه ، فإن عمله بخلافه يثير احتمال وجود حديث ناسخ له .

أما أهل الحديث فزعيمهم مالك بن أنس . لا يفتح باب القياس على مصراعيه : منهاجه الأحاديث والسنن التى دونها « فى الموطأ » . وعنده أن إجماع أهل المدينة وعملهم حجة — ففيها أقام الرسول ومات . وفيها أعمال الرسول وأقواله وآثاره وأعمال صحبه ، معمولا بها ، جيلا بعد جيل . وهم يعملون بحديث الواحد إذا حسن سنده ، ويشترطون أن يوافقه عمل أهل المدينة .

حمل محمد بن إدريس بين أردانه — وهو فى حدود العشرين من عمره — كتابىْ التوصية إلى المدينة .

قال الوالى : يا فتى لو كلفتنى المشى من جوف مكة إلى جوف المدينة راجلا ،

كان أهون من المشى إلى باب مالك رضى الله عنه .

قال إن رأى الأمير أن يحضره .

قال الوالى : هيهات . ليتنا إذا ركبنا إليه ووقفنا على بابه ، يفتح الباب ...
وركبا إلى دار مالك . وقرع الباب رجل فخرجت لهم جارية سوداء .

قال الوالى : قولى لمولاك إنى بالباب . . فدخلت وأبطأت ثم خرجت .

قالت : إن مولاى يقول لك : إن كانت لك مسألة فارفعها فى رقعة حتى يخرج لك الجواب ، وإن كان المجىء لشىء آخر فقد عرفت يوم المجلس .
فانصرف .

قال الوالى : قولى له إن معى كتاب والى مكة فى أمر مهم .

فدخلت ثم خرجت وفى يدها كرسى فوضعته . فإذا مالك شيخ طوال متطلس ، عليه المهابة . فدفع الوالى الكتاب إليه فتفحصه فلما بلغ إلى قوله : (محمد بن إدريس رجل « شريف » من أمره كذا ومن حاله كذا وكذا) رمى الكتاب وقال : سبحان الله صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يطلب بالوسائل .

فتقدم الشافعى وقال : أصلحك الله إنى رجل مطلبى[1] من حالى ومن قصتى كذا وكذا.

فلما سمع كلامه نظر إليه ساعة ، وكانت لمالك فراسة .

قال مالك : ما اسمك ؟

قال : محمد

قال مالك : يا محمد اتق الله واجتنب المعاصى فسيكون لك شأن من الشأن .

قال : نعم وكرامة .

قال مالك : إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية . غداً تجىء بمن يقرأ لك الموطأ .

وفى رواية أنه قال : تمضى إلى حبيب كاتبى ، فإنه الذى يتولى قراءته .

قال الشافعى : إنى أقرأه من الحفظ .

وفى رواية أنه قال : تسمع منى رضى الله عنك صفحاً ، فإن استحسنت قراءتى

---

(١) من بنى المطلب بن عبد مناف .

قرأته عليك وإلا تركت .. فآتاه سؤله . وشرح مالك صدراً بقراءته . فقرأه عليه أجمع .

وكان إذ هو يقرأ ، يتصفح الورقة صفحاً رقيقاً بين يديه كيلا يسمع وقعها ، ويتردد مخافة أن يمل الأستاذ من طول ما يقرأ . . وفهم الأستاذ ، وقد أعجبته قراءته ، فقال : يا فتى زد . أو قال هيه . . حتى قرأه الشافعي في أيام يسيرة .

أتم التلميذ القراءة وأقام نحو عشر سنوات يستمع إلى شروح الأستاذ .. في مجلس ليس فيه لغط ولامراء ولا رفع صوت . فإذا قال الأستاذ ، امتثل ما قال . وإذا سئل فأجاب لم يناقشه السائل .

وكان بالمجلس تلاميذ آخرون منهم الدائمون مثل « المغيرة بن عبد الرحمن » يلازم مالكاً ويقعد مقعداً لا يجلس فيه سواه ، ومثل « معن بن عيسى القزاز » ، ربيب مالك .. قرأ عليه الموطأ للرشيد وولديه الأمين والمأمون ، وكان الشيخ يتكيء عليه عند خروجه من المسجد حتى سمى « عصية مالك » . وكان هناك آخرون يقدمون ويرجعون إلى بلادهم في كل أرجاء العالم الإسلامي .

* * *

تعلق التلميذ بأستاذه وتعلق به الأستاذ ، فقربه نجياً . وكان يقول : ما أتاني قرشي أفهم من هذا الفتى .

وذات يوم رأى الفتى على باب مالك أفراساً من خراسان وبغالا من مصر فقال لمالك : ما أحسنها ؟ قال الأستاذ : هي هدية مني إليك يا أبا عبد الله — قال الشافعي : قلت دع لنفسك منها دابة تركبها .. قال : أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة ، فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحافر دابة . .

ولم يُر مالك راكباً بالمدينة قط .

ولو لم تتوطد الأسباب بين الشيخ وتلميذه ، لرجع إلى بلده مثلما صنع محمد بن الحسن ، بعد إذ قرأ الموطأ ، ومثلما صنع العشرات في طول حياة مالك . وكان يدعوه إلى القفول راجعاً إلى مكة أن فيها أهله وعشيرته ، وأنه مأذون فيها بالإفتاء .

وتتراءى وثاقة العلاقة في عبارات المحبة له والعرفان بصنيعه ، حين يحكي قولا لمالك فيسميه أستاذنا . ويقول : عنه أخذت العلم . وأقوالا أخرى مثل « إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب » و« العلم يدور على ثلاثة : مالك والليث وسفيان بن عيينة » ، بل « ما في

الأرض كتاب فى الفقه والعلم أكثر صواباً من كتاب مالك » أو « مالك وابن عيينة القرينان . ولولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز » .

وجعلته الرواية عن مالك صاحب إسناد هو إسناد مالك : وإسناد مالك أشرف الأسانيد أو « سلسلة الذهب » : مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر عن النبي . فليس بين مالك والنبي إلا اثنان ، وليس بين الشافعي والنبي إلا هما ومالك . أما أبو حنيفة وقد سبق الشافعي بأكثر من نصف قرن فكان اتصاله بالنبي عن طريق أربعة : حماد بن اسماعيل ، فإبراهيم النخعي ، فعلقمة النخعي ، فعبد الله بن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام .

وانطلق الفقيه الشاب إلى حلَق الحرم النبوى كافة ، مثل حلقة إبراهيم بن سعد الأنصارى ، وحلقة عبد العزيز بن محمد الدراوردى ، وحلقة إبراهيم بن أبى يحيى الأسامى ، وحلقة محمد بن سعيد بن أبى فديك ، وحلقة عبد الله بن نافع الصائغ — وكثيراً ما تتردد أسماؤهم فى رواياته .

وكان ابن أبى يحيى من المعتزلة ، لكن الفتى الحر الفكر ، يرد مناهل العلم أينما تكون . فرماه المتعصبون بالاعتزال ، من جراء جلوسه إلى إبراهيم . فكان إذا قال « أخبرنى من لا أتهم » يريد إبراهيم بن أبى يحيى . وإذا قال : « أخبرنى الثقة عن الليث بن سعد » يريد يحيى بن حسان (أستاذه فى اليمن) . وإذا قال أخبرنا الثقة عن ابن جريج فهو يريد مسلم بن خالد .

فإذا ذكر مالكاً فى معرض الرد عليه أو معرض نقده لم يسمه باسمه تحية وتجلة، كمثل أن يقول : قال صاحبنا . وأصبح أهل المدينة كلهم أصحابه وأهل بلده . قال الربيع (إذا قال بعض الناس ، فهم المشرقيون . وإذا قال بعض أصحابنا أو بعض أهل بلدنا ، فهو مالك) .

كانت هذه الفترة من أيام شبابه حلوة حلاوة أيام يفاعه بمكة ، أو بالبادية ، لكنها تمتاز بفناء التلميذ فى ذات أستاذه . فلا نستمع إلى محاورات بينهما ، أو بينه وبين الآخرين من الأساتذة أو التلامذة . وربما كان مرد ذلك إلى أن الطابع الغالب فى المدينة ، كان الاتباع لا الجدل . فهى « دار السنة » حيث يسود حفظ الأخبار والآثار والاقتداء بها .

وبهذا استمر يشهد اجتهاد مالك ولا يضيع أوقاته سدى . فاجتمع إليه من حلقات أساتذة المدينة الستة . علم المدينة أهل كله . فكانوا أكثر أساتذة بلد روى عنهم .

وانضاف علم أساتذته الستة بالمدينة . إلى علم أساتذته الخمسة الذين روى عنهم بمكة ، ومع ذلك لم يجلس للإفتاء فى المدينة أو فى مكة بعد إذ مات مالك . بل سنراه يصنع الصنيع نفسه بعد إذ يجتمع له علم اليمن وعلم الشام وعلم مصر ؛ عن طريق اثنين من الأربعة الذين روى عنهم من اليمن . . وإنما يرجع ذلك إلى إحساسه العميق بأن ثمة عالماً مترامى الأطراف لم يعرف بعدُ حدوده . هو فقه العراق . فلا يستوى له مجلس للفتيا إلا أن يضع يده على ذلك الفقه .

ومن أجل هذا التقدير الصادق للحقائق انصرف إلى العمل مع الولاة . . فالعمل للولاة أيسر أمراً وأدون خطراً من القعود للفتيا . قيل لعبد الملك بن مروان : عجل الشيب عليك يا أمير المؤمنين قال : « وكيف لا يعجل وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين » .

فكيف بمجالس الفقه !

والشافعى يحفظ كلمات مالك : من أحب أن يجيب عن كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ثم يجيب . وقد أدركناهم إذا سئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه .

الفصل الثانى

بين اليمن والعراق

صعدت روح مالك إلى بارئها . . وكان محمد بن إدريس قد غدا أمل القرشيين .

واتفق أن والى اليمن قدم إلى المدينة ، فكلمه مصعب بن عبد الله القرشى قاضى اليمن وبعضُ القرشيين ليصحب الشافعى للعمل له . ورحل الشافعى معه بعد أن رهن داره وعجزت أمه عن معونته . قال « لم يكن عند أمى ما تعطينى ... فرهنت داراً . فلما قدمنا . . عملت له على عمل » .

وفى نجران باليمن ، استعمله الوالى فى أعمال كثيرة ، أداها بنجاح — وأثنى عليه الناس وحمدوا له صنيعه . وظل زمانًا يقوم بواجبه ، ولم يكفّ عن الجلوس إلى الأساتذة كلما رجع إلى الحجاز .

وتزرى به إبراهيم بن أبى يحيى لانصرافه عن الفقه إلى العمل مع الولاة . قال له : تجالسوننا وتسمعون منا فإذا ظهر لأحدكم شىء دخل فيه .

أما سفيان بن عيينة ، فكان أرفق وأرق . قال : قد بلغنا ولايتك ، فما أحسن ما انتشر عنك وأديت الذى عليك . ولا تعد .

وهاتان اللهجتان أثران أو مظهران لنهج المعتزلة ، وطريقة أهل السنة . سنلتقى بماشَـابه لها بعد ، فى الأول عسر وقسْوة ، وفى الثانية يسر ورحمة أو قصد ونصفة . ولا عجب إذا فزعت نفس الشافعى من المنافرة ونزعت نحو المياسرة . قال « موعظة ابن عيينة أبلغ مما صنع ابن أبى يحيى » . والحق معه . فإنما كان كلام سفيان موعظة ، أما كلام ابن أبى يحيى فكان تقريعًا . والكلمة الغليظة ليست هى الكلمة المعلمة .

وربما شاقت الشافعى اليمن فقصد إليها سعيًا إلى أساتذة آخرين .

فلقد أخذ العلم فى اليمن على مطرف بن مازن الصنعانى [١] وعمرو بن أبى مسلمة صاحب الإمام الأوزاعى إمام الشام ، ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد إمام مصر ، وهشام بن يوسف قاضى صنعاء ، فلم تذهب أيامه بدداً ، بل كانت مجازاً لعلوم الإمامين العظيمين فى مصر والشام . كما أتيح له أن يدرس التنجيم والطب ، باعتبار التنجيم فرعًا من العلوم الرياضية ، والطبّ فرعًا من العلوم الطبيعية ، فظل إلى أواخر عمره يجيد علم الطب ويقول : علم الأديان الفقه وعلم الأبدان الطب .

ويقولون إنه جمع فى اليمن كتب الفراسة واشتغل بها حتى مهر فيها .

كان يقول (احذر الأعرج والأحول والأعور ، وكل من به عاهة فى بدنه ونقصان فى خلقه ، فإن معاملته عسرة وشاقة) .

مر فى طريقه برجل واقف فى فناء داره أزرق العينين ناتىء الجبهة . قال الشافعى فى نفسه : هذا أخبث ما يكون فى الفراسة . وسأله الشافعى : هل من منزل ؟ قال : نعم . ثم يروى الشافعى : فأنزلنى ، فما رأيت أكرم منه . وبعث إلى بعشاء طيب وعلف دابتى وفراش ولحاف . فقلت : علم الفراسة دل على غاية دناءة هذا الرجل ، وأنا لم أشاهد منه إلا الخير . فهذا العلم باطل . . . ولما أصبحت قلت للغلام أسرج الدابة . فلما أردت الخروج قلت له إذا قدمت مكة ومررت بذى طوى ، فاسأل عن منزل محمد بن إدريس فقال الرجل : أمولى أبيك أنا ؟ قلت . . قال فأين ثمن الذى تكلفت لك البارحة ؟ قلت : وما هو ؟ قال : اشتريت لك بدرهمين طعامًا وأداما بكذا وعطراً بكذا ، وعلف دابتك بكذا واللحاف بكذا . قلت يا غلام أعطه . . . فهل بقى شىء ؟ قال كراء المنزل ، فإنى وسعت عليك وضيقت على نفسى . . . قال الشافعى : فعظم اعتقادى فى كتب الفراسة .

قال تلميذه الحميدى : قدم الشافعى من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه خارجًا من مكة . فكان الناس يأتونه فيعطيهم . فما برح حتى فنى الذهب . . . وربما فسر لنا ذلك امتداد عمله فى اليمن بضع سنين ، وأنه لم يكن لديه

---

(١) قيل فى بعض الروايات إن مطرف بن مازن قاضى صنعاء ، أدخل الشافعى فى التهمة التى حشر من جرائها إلى الرشيد . لكن الشافعى سيروى عن مطرف فى كتابه « الأم » . وليس مقبولا أن يروى الشافعى عن كذب .

يوم سيق إلى الرشيد إلا خمسون ديناراً .

بهذا تم له الفقه والعلم ، واللغة والسير ، والتنجيم والطب ، والرماية والفروسية ، فتعددت نواحيه . ككل شخصية عظيمة فى التاريخ ، من جابر بن حيان ، والكندى ، والخوارزمى ، والرازى ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، وابن سينا ، وابن رشد ، إلى آخرين سيظهرون بعد قرون مثل داڤنشى ، وبنيامين فرانكلين ، وبريستلى ، ونيوتن ، ولا ڤوازييه ، ومن قبلهم أرسطو المعلم الأول .

وكان ريب الليالى هناك بالمرصاد ، فحمل إلى الرشيد بالرقة لتصير المحنة ختاماً لعمله ، لكنه أفاد منها إدراكاً لواقع الحياة ، ومقاربة للسلطة لازمين للمشرعين . وأفاد منها اللقاء العلمى بمحمد بن الحسن .

وفى الحكم ، فكر وعمل ودراسات وسياسات ومسئولية . ولا يصيب الفقيه نُجحا إذا هو اعتزل الجمهور الذى يشرع له ويفتيه . فإنه عندئذ يباعد بين الفقه وبين التطبيق .

أيًّا كان الأمر ، فلم يكن الشافعى بمستطيع أن يتفادى مقاديره . ولقد كتبت له السماء مصيره . . . والإنسان مخير فى حدود ما قدر له . ولم يكن فيما قدرته السماء إلا الخير للإسلام .

لم تسقط من حساب العلم هذه السنوات فى اليمن ، ولم تك أدنى أثراً من العامل السلبى يلتقى بالعامل الإيجابى فتحدث الكهرباء ، أو من الصفر الذى تتكون به الأرقام فتزداد . بل كان قيامه بواجبه والافتيات عليه طريقه إلى المحنة ليعيد تقدير أمره . فخرج من بلاط الرشيد ليدخل مكة — مثلما خرج منها — رجل علم . ويعود إليها بما كان ينقصه ، وكأنه كنز ألقى به القدر هدية ، أو كأنما كان الظفر به واحداً من انتصاراته فى المحاكمة .

فلقد قضى الشافعى فى العراق أشهراً ثم بارحها بكتب العراق ، ليواجهها فى الغداة باتجاه مضاد . فيصبح لفعل المذهب الحنفى والمذهب المالكى ، رد فعل من المذهب الشافعى ، ويضحى الفعل ورد الفعل ، كأنهما ذراعان يضمان فقه الإسلام ، ومن اجتماع قواهما تنقدح الشرارة وتوقد الشعلة .

فى العراق :

دون محمد بن الحسن مذهب أبى حنيفة ، بعد إذ مات فى سنة ١٥٠ فصار فى متناول الدارسين . وكان محمد وأبو يوسف قد مالا بعد وفاة أستاذهما بعض الميل إلى التخفيف من التشدد فى تلقى السنن والأحاديث . بل صار أبو يوسف كما قال يحيى بن معين (١) يحب أصحاب الحديث ويميل إليهم . أما محمد فأقام على باب مالك ثلاث سنين فى حكم المهدى (١٥٨ — ١٦٩) يسمع الموطأ . وعاد يحدث أهل العراق . فإذا حدث بحديث مالك امتلأ منزله وكثر الناس حتى يضيق عليه الموضع .

وكان قد مضى ثلث قرن على وفاة أبى حنيفة ، ذاع فى أثنائه موطأ مالك فى العراق ، وترعرع الشافعى .

هو ذا اليوم فى دار محمد بن الحسن ، أو فى حلقته ، يعجبه منه كثير فقه ، وتعجبه لغته وتلاوته . فيقول عنه : كنت أظن إذا رأيته يقرأ القرآن كأن القرآن نزل بلغته .

قال بعد سنوات : « وقدمنا على هرون . . ومعى خمسون ديناراً . . ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقة ، فأنفقت الخمسين ديناراً على كتبهم . . » .

هكذا بقى معه من سفرته الأخيرة لليمن خمسون ديناراً فحسب . . أنفقت فى النسخ . . فكم كانت هذه الكتب التى نسخت ؟ إنها لا مراء كتب مدرسة نصف قرن بتمامه . ولذلك حمل منها ، كما قال ، وقر بعير . وفى عبارة له « حملت عن محمد بن الحسن حمل بختى (نوع من الإبل) ليس عليه إلا سماعى » .

ولم يقف جهده على القراءات والأسمعة . فكلامه أغلى بضاعة . ولذلك حفلت المصنفات بالمحاورات بينه وبين محمد . وهما لا شك كانا يتبادلان النظر فى الموطأ وفى صاحبه ، هذه الثروة المزدوجة بينهما . ومحمد يقدر مسئوليته حياله . لقد أعلن أستاذهما مالك ، أنه لم يأته قرشىّ أفهم من الشافعى ، فهو أجدر الرجال بأن يكون « عالم قريش » الذى يملأ طباق الأرض علماً ، كما عبر الرسول . ولقد أخذ الله الميثاق

---

(١) خلف له أبوه مليون درهم وخمسين ألف درهم فأنفقها كلها على الحديث — قال فيه ابن حنبل : كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فهو ليس بحديث .

على العلماء ليبينن العلم . فالاحتفال بالشافعي وفاء بعهد الله عمومًا . ونفاذ لحديث النبي في خصوص قريش . ووفاء بدين لمالك في خصوص الشافعي . أو نفاذ وصية فكرية له[١] .

ويملك الشافعي الحياء إذ يصفيه محمد بأعظم الرعاية . يلقاه راكبًا في طريقه إلى السلطان فيترجل ليعود معه ، فيرجوه ملحًا ، أن يمضي إلى موعده ، لكن محمداً يؤثر مجلسه معه ، على مجلس مع السلطان .

ثم يقول محمد : إن كان أحد يخالفنا وتثبت له ، فالشافعي رضي الله عنه . قيل لم ؟ قال لتأنيه وتثبته في السؤال والاستماع — أما الشافعي فيقول : ما ناظرت أحداً إلا تغير وجهه ، ما خلا محمد بن الحسن .

والحق أن محمداً كان بإزاء ظاهرة جديدة ، أما الشافعي فكان يتعلم على إمام عصره .

ويقف الشافعي ندًّا لمحمد . . وربما قطعه .

روى الشافعي أن محمداً قال له يومًا بلغنا أنك تخالفنا في مسائل الغصب . . . فقلت أصلحك الله إنما هو شيء أتكلم به في المناظرة . . فإني أجلك عن المناظرة .

فقال : ما تقول في رجل غصب ساحة وبنى عليها جداراً وأنفق عليها ألف دينار ، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين على أنها ملكه ؟

قلت : أقول لصاحب الساحة : ترضى أن تأخذ قيمتها ؟ فإن رضي ، وإلا قلعت البناء ودفعت ساحته إليه .

---

(١) من قبل ذلك رحل أسد بن الفرات من الأندلس إلى المدينة فسمع مالكاً . وإلى بغداد فسمع محمداً ، وإلى مصر فسمع أشهب وابن القاسم لينقل فقه مالك عنهما إلى أفريقية ، ومنها ينتقل إلى الأندلس . وكان محمد يدرس له بالليل بعد إذ يدرس بالنهار مع الناس . وكان يبيت في سقيفة بيت يسكن محمد في علوه . فينزل إليه في الليل ويضع بين يديه قدحاً من الماء ثم يأخذ في القراءة ، وكلما رآه نعس ، ملأ يده ماء ونضح به على وجهه فينتبه . ثم عاد أسد ليصير قاضي القضاة في القيروان وأمير البحار الذي فتح جزيرة صقلية ، ومات في حصار سراقوسة ، فكن للإسلام في جزر البحر الأبيض . وهيأ للحضارة الإسلامية معبراً أساسياً إلى أوربا ، وكان من حقه أن يقول (ضربنا في طلب العلم آباط الإبل واغتربنا في البلاد ولقينا العلماء ، وغيرنا طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمه . ويريدون أن يلحقونا ؟ !) .

قال : فما تقول فى رجل غصب لوحًا من خشب فأدخله فى سفينة ووصلت السفينة إلى لجة البحر ، فأتى صاحب اللوح بشاهدين عدلين . أكنت تنزع اللوح من السفينة ؟

قلت : لا .

قال : الله أكبر . . تركت قولك !

قال : ما تقول فى رجل غصب خيطًا من إبريسم ، فمزق بطنه فخاط بذلك الإبريسم تلك الجراحة ، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مغصوب . أكنت تنزع الخيط من بطنه ؟

قلت : لا .

قال : الله أكبر . . تركت قولك ! وقال أصحابه أيضًا تركت قولك !

قلت : لا تعجلوا . أرأيت لو كان اللوح لوح نفسه ، ثم أراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها فى لجة البحر ، أمباح له ذلك أم يحرم عليه ؟

قال : يحرم عليه .

قلت : أرأيت لو جاء مالك الساحة وأراد أن يهدم البناء وينزعها أيحرم عليه ذلك أم يباح ؟

قال : بل يباح .

قلت : رحمك الله ، فكيف تقيس مباحًا على محرم ؟!

قال محمد : فكيف يصنع بصاحب السفينة ؟

قلت : آمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل ، ثم أقول له : انزع اللوح وادفعه إليه .

قال محمد : قال النبى صلى الله عليه وسلم : لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام .

قال الشافعى : من ضره ؟ هو ضر نفسه .

وتابع الشافعى الحجاج قال : ما تقول فى رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج فى غاية الرذالة ، ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادات أشراف خطباء . فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التى هى أم هؤلاء الأولاد مملوكة له . ماذا نعمل ؟

قال محمد : أحكم بأن أولئك الأولاد مماليك لذلك الرجل .

قال الشافعي : أنشدك الله ، أى هذين أعظم ضرراً : أن تقلع الساحة وتردها لمالكها أو تحكم برق هؤلاء الأولاد ؟

فانقطع محمد بن الحسن .

وهذا مثل آخر .

قال الشافعي : قال لى محمد بن الحسن . صاحبنا أعلم أم صاحبكم ؟ (يعنى أبا حنيفة ومالكاً) قلت نشدتك الله ، من كان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال محمد : مالك . لكن صاحبنا أقيس .

فقلت نعم — ومالك أعلم بكتاب الله تعالى ، وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله من أبي حنيفة . فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسول الله كان أولى بالكلام . . .

وكانت أخبار محمد حديث بغداد . . قالوا بلغ الرشيد ظفر الشافعي فى الجدل . فقال : أما علم محمد أن رسول الله قال إن عقل الرجل من قريش عقل رجلين ؟

لقد كان محمد على حق عندما قال لتلاميذه (إن تابعكم الشافعى ، فما عليكم من حجازى كلفة بعده) .

لم يقتصر الشافعي على مجالسة محمد ، بل جالس بعضًا من فحول العراق كالحسن ابن زياد ووكيع بن الجراح ، ولم يقتصر على كتب الفقه ، بل جمع كل ما قدر عليه ، ودرس على عادته كتب التنجيم التى صارت فى متناوله ، ورأى ألا يبقى فى العراق أكثر من الأشهر التى بقيها ، فعاد يغذ الخطى إلى أهله بمكة ، طاويًا جوانحه على تجربة أعوام من البصر بالأمور ، ومن اللغوب والمحنة .. وأنّى له أن يمكّن لعلوم أهل السنة ، فى موطنها الأصلى : موطنه .

وانجلت الغاشية التى غشيته عن أمور كشفت له عن مكانه :

لقد وجد محمد بن إدريس نفسه فى أخطر مكان . من تحت أخمصه الحشر .

ووجدها فى أنسب زمان ، حين كان الفقه الإسلامى بحاجة إلى إمام من مستوى الإمامين اللذين قضيا . ولم يكن لمحمد بن الحسن فى الحياة إلا قليل . . كأنما قدرت

السماء أن يبقى قدر ما يفقد للمسلمين الإمام المنتظر . . وقدر ما يعاصه .

ووجدها . ثالث ثلاثة . هم الرشيد ، وصاحب الإمام الأعظم . وهو .

وسيبقى عاملا عـلى مكانته -. في مستوى أعظم رجـل في الدنيـا ، وأعظم رجل في الدين .

الباب الرابع

فى فناء زمزم

« أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى
إن قلت فى القرآن ما لا أعلم »
« أبو بكر الصديق »

الفصل الأول

المعجزة

استقبلت مكة محمد بن إدريس استقبال مغترب بارحها فقيراً ، وانكفأ إليها لا يملك نقيراً ولا قطميراً . لكنه أمسى ريّح القلب ناعم البال ، بعد تطواف شق واستطال ، أمكنه من علوم الحجاز والعراق واليمن والشام ومصر .

وفتحت الكعبة ذراعيها لعالم قريش ، ليتخذ مكانه فى جوار مقام إبراهيم . . فى فناء زمزم .

واستقبلته مكة بتقدير الوطن لفتاه الذى سبقته أنباؤه ، والذى أعز وطنه لدى القارعة ، ولم يطأطئ هامته لينجو بحشاشته — بل وقف الوقفة القرشية حيث تزوغ الأبصار .

واستقبلته حفيّة بالعلم الذى يحمله إليها ليزداد علمها كل ازدياد. وكان مسلم بن خالد الزنجى قد قضى منذ سنوات أربع ، فحل محله سعيد بن سالم القدّاح . أما أستاذه الآخر سفيان بن عيينة زعيم المحدثين فقد مسّه الكبر . لكن حلقته ما تزال بالمسجد الجامع .

ولم يعد الشافعى يتردد فى أن يجلس للإفتاء . فقد أنسئ له الأجل مذ أذن له بالإفتاء من بضعة عشر عامًا ، تضاعفت بها سنوات حياته ضعفين ، وتضاعف علمه أضعاف ما كان لديه ، بقدر ما اجتمع له من علم مالك وعلم أبى حنيفة وعلوم الآخرين .

صار فى الرابعة والثلاثين من حياته ، وفى يده كل علم العراق ، وهو شأو لم يبلغه أستاذه مالك . كما لم يكن عند مدرسة العراق وأساتذتها سنن الحجاز كلها ، من مكة والمدينة ، وفى هذا تجاوز أبا حنيفة . . وهكذا بلغ أعظم مبلغ من الدراسة لنفسه قبل أن يتصدى للتدريس للناس .

بل هو قد طاولهما وساجلهما فسبقهما فى حلبة اللغة . والسبق بها ضرورة للاجتهاد . والسبق فيها ذروة تسمو به إلى معارج أعلى لإدراك القرآن والسنة .

وباجتماع هذه العناصر اجتمعت له أدوات الفقه العظيم ليستقرئ ويستنبط ويقعّد

القواعد فى مجال تخصصه الذى لا ضريب له فيه وهو القرآن والسنة . فأمسى أقدر معاصريه على أن يمسك فى يده الميزان ، وينقد الآراء نقد الصيرفى المفَهِم . وسيبقى هذا الذى تم له فى شبابه ملاك فقهه ، وطريقته ، طول حياته . فيكون قواماً بين المدرستين فى العراق والحجاز ، ويضع حجارة الأساس لاستنباط الفقه الإسلامى من القرآن والسنة على منهاجه الذى دونه بمكة ، وأذاعه فى العراق ، واتخذ مصر قاعدة لنشره فى العالم .

وكانت البلدة المباركة التى نزل بها القرآن ، هى البيئة الطبيعية لميلاد هذا الفقه ونمائه . أنْ كان الامتداد الطبيعى لفكرها ، على منهج علمى سيضعه ، بلسان عبقرى ، لا يجود الزمان بمثله فى الجدال بالقرآن والسنة .

* * *

والقرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ، لا يفسرها إلا أولو الأهبة ، وحديث النبى أعلى أسلوب عربى بعده ، لأنه كلام سيد الخلق وأفصح العرب ، معجزته القرآن الذى يتحدى أمراء البيان ، وهو مكلف بتعليمه وتفسيره ، فالقرآن والحديث متواصلان . . قالت أم معبد عن كلامه عليه الصلاة والسلام : (إذا تكلم سما وعلاه البهاء . وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن : حلو المنطق ، فصْل ، لا نزر ، ولا هذر) .

ولقد نزل القرآن مفرقاً ليقرأ على الناس على مكث ، ليحفظوه ويفهموه ويتعلموا أحكامه . نزل نحو ثلثيه بمكة حيث أقام الرسول ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة . ونزل نحو ثلثه بالمدينة حيث أقام نحواً من عشر سنين بعد الهجرة . . يقول ابن مسعود (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات ، لا يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن) .

وروت عائشة رضى الله عنها أن النبى : « لم يكن يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد علمهن إياه جبريل » وفسر بعض الصحابة بعض الآى من كتاب الله ، كعلى وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ، مجتهدين أو راوين .

ورويت تفسيرات ابن عباس بمكة[٢] وتفسيرات ابن مسعود بالكوفة . وروى المصريون ما أثروا عن مشيخة الصحابة الذين سافروا إلى مصر . ومن العلماء من فسروا

(١) جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن « المأمون » فتاوى ابن عباس — جده — فى عشرين كتاباً — وروى عنه ١٦٧٠ حديثاً .

ملتزمين ما نقل عن الرسول أو الوقائع التى وقعت . وهؤلاء مفسرون بالمنقول . ومن الآخرين من يستند إلى العقل فيطلق العنان لاجتهاداته : الأولون يفسرون والآخرون يؤولون .

والإعجاز ثابت للكتاب الكريم بعجز القدرة الإنسانية عن قول مثله ، واستمرار هذا العجز مع استمرار الزمن ، وتقدم العالم . فالعالم فى عجز عن صنع مثله أبداً . . إعجازه فى ألفاظه ، وفى عباراته ، وفى معانيه . وفى اجتماع هذه الوجوه ، على أعلى مستوى ، مع خصائص الفصاحة فى ألفاظ كأنها السلسال ، ومع البلاغة فى المعانى والمواعظ ومضارب الأمثال والقصص والخبر والأوامر والنواهى ، ومع موسيقى اللفظ وجرسه — تخاطب الأذن والعين والعقل ، بألفاظ فيها حياة ، واطراد نسق واتزان ، مقطعاً مقطعاً ونبرة نبرة ، وكأن النفس توقعه توقيعاً ولا تتلوه مجرد تلاوة .

فالحرف من القرآن معجز فى موضعه ، يمسك الكلمة التى هو فيها ، ليمسك بها الآية والآى ، فيؤدى للسامع صوت النفس ، وصوت الفكر ، وصوت الحس ، فى الألفاظ والمعانى .

ذلك قول الله جل شأنه . لا يؤلف برهانه تأليف المنطق العادى من مقدمة صغرى وكبرى ونتيجة . ولا يثير مسائل الفلاسفة يفصلها ويبنى عليها ، لأن الدين لم ينزل للفلاسفة أو العلماء وحدهم ، فهم فئة قليلة . . إنما اعتمد القرآن على الفطرة والعاطفة وهما قدر مشترك بين الناس جميعاً . وهو قد أنزل للناس جميعاً .

والعرب ذوو لسن وبلاغة ، ولهذا جاء القرآن معجزة فى البيان العربى ، فشده أمراء البيان منهم ، فتطامنوا لبلاغته وصاروا يسلمون عندما يسمعونه . ومن أجل ذلك كان تفسير القرآن أعظم علوم الإسلام ، لمكانة القرآن من الإسلام . ومن واجب المفسر ، والفقيه ، أن يعرف أسباب نزول آيات القرآن وناسخه ومنسوخه وموارد النصوص والكلمات ومعانيها وأهدافها .

* * *

والآيات تزيد على ستة آلاف ومائتين ، مع تفاوت أصحاب الإحصاء من جراء ما يراه البعض آية هى عند غيره فى الحساب آيتان ، دون خلاف فى نفس الآية وجوهرها ، فى حين أن آيات الأحكام التى تدور حولها بحوث الفقهاء لا تتجاوز الخمسمائة

أوتتجاوزها بقليل حسب اختلاف العدد كما ذكرنا . وأكثر الآى فى العبادات .. ولا يفهم المئات ومراميها ، من لا يعرف الآلاف وألفاظها ، وتعبيراتها ونظمها ، وأسبابها وأغراضها أصدق الفهم .

كان الصحابة أقدر الناس بعد النبى على فهم القرآن ومع ذلك اختلفوا واحتاجوا للتفسير . سأل أبو بكر رسول الله : كيف الصلاح بعد هذه الآية « ليس بأمانيِّكم ولا أمانىِّ أهل الكتاب مَن يعمل سوءاً يُجزَ به » . فكل سوء عملنا جزينا به ؟ فقال « غفر الله لك يا أبا بكر ـــ ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ فهو ما تجزون به » .

وكان النبى يوضح معنى اللفظ الغريب فى القرآن . كأن تكون الألفاظ مستعملة على وجه غير وجهها الذى ألفوه مما نقل عن مدلوله فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية ، أو يكون سياق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى معين غير الذى يفهم من ذات اللفظ إلى غير ذلك .

وابن عباس يقول : (القرآن ذلول ، فاحملوه على أحسن وجوهه) أى فسروه بخير ما يحتمله اللفظ ويليق به المعنى . ولقد أمكنه من التفسير معرفته الحديث والآثار وأسباب النزول . وأمكنه إلمامه العظيم باللغة وبالشعر من إدراك المعنى اللفظى للقرآن(١) :

بعثه على رضى الله عنه يجادل الخوارج ، فقال له : حاججهم بالسنة ولا تحاججهم بالقرآن حتى لا يختلفوا عليك . قال ابن عباس : أنا أناقشهم بالقرآن . فى بيتنا نزل . . قال على : نعم . ولكن القرآن حمال تقول كذا ويقولون كذا . ولكن حاججهم بالسنة فلا يستطيعون .

فذهب وناقشهم بالسنة ـــ فالسنة أعمال محددة أو أقوال مبينة مجمل الكتاب ـــ فغلبهم بذلك .

قال : بعضهم لابن عباس : ما رأيت أذكى منك . قال : لكنى ما رأيت أذكى من على بن أبى طالب .

---

(١) وبهذا أصبح زعيم المفسرين ، يلتمسون الإلهام من جواره ، كمثل ما صنع الزمخشرى إذ جاور بمكة فوضع تفسيره « الكشاف » وقال :

وتم لى الكشاف ثَمَّ ببلدة ... بها هبط التنزيل للحق كاشفاً
وزرت ابن عباس بوج ونمنمت ... يدى عند رأس الحبر منه طرائفاً

وج . مكان بالطائف .

قيل له يوماً : أين علمك من علم ابن عمك (على) قال : قطرة من الماء إلى جوار البحر المحيط !

وابن عباس مع ذلك هو الحبْر أو البحر كما وصفوه : أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم جميعاً فى واد واسع . يفسر كثيراً من الآيات بألفاظ الشعر الجاهلى ويقول : (إذا تعاجم شىء من القرآن فانظروا فى الشعر ، فإن الشعر عربى) كان إذا سئل أجاب . . فإن كان من القرآن أخبر به ، فإن لم يكن وكان عن رسول الله أخبر به . فإن لم يكن وكان عن أبى بكر وعمر أخبر به ، فإن لم يكن قال برأيه .

وسئل ابن عمر عن قوله تعالى : (كانتا رتقا ففتقناهما) فقال : اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله . فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال : كانت السماء رتقاء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبت . فرجع الرجل فأخبر ابن عمر فقال : لقد أوتى ابن عباس علماً صدقاً .

وفى الكتاب العزيز : « آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر مُتشابهات » وإذا فسرت المحكمات بأنها المكشوفة المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال أو احتمال ، فإن المتشابه هو الذى يتطرق إليه الاحتمال . وفيه ألفاظ تحتمل أكثر من معنى ، فتحتمل الخلاف والاجتهاد ، تبعاً للسياق والفهم .

وفى اللغة ترادف ، كأن تعبر كلمتان أو أكثر عن مفهوم واحد ، وفيها اشتراك ، وهو أن تعبر كلمة عن مفهومين أو أكثر . وفيها دقائق لا يدركها العامة ، وتختلف فيها الأفهام . . فالعرب شعبان عظيمان هما : عدنان وقحطان . ولكل قبائل شتى وبطون متفرقة . وربما اصطلحت قبيلة على أن تريد بكلمة مسمى واصطلحت أخرى على أن تريد بها مسمى آخر . وينقل الناقلون اللغة فلا ينسبون كل معنى لقبيلته ، وبهذا قام اختلاف كبير . ومن أسباب الاختلاف أن يكون بين الكلمتين معنى يجمعهما فتصلح الكلمة لكل منهما وهذا ما يسمونه بالاشتراك المعنوى . وقد ينقل الناس ذلك المعنى الجامع فيظنون الكلمة من قبيل المشترك اللفظى .

وقد توضع الكلمة فى الأصل لمعنى ، ثم يتجوز بها إلى معنى آخر لعلاقة ، ثم تزول هذه العلاقة أو تنسى ، فيظن أن الكلمة وضعت لكل من المعنيين . وقد توضع الكلمة

لمسمى ، وعند الإشارة إليه يكون معه غيره فيتلقى السامع الكلمة من غير أن يتأكد حقيقة ماوضعت له ، ثم يستعمل الكلمة فى الشيء وفيما كان معه أو فيهما جميعاً ، وربما ينفصلان فيما بعد . وقليل من أهل اللغة من عنى بالفصل بين المعانى الحقيقية والمجازية للألفاظ .

والكتاب الكريم مصدر الشريعة وعمدتها ، وليس إعجازه بمخرجه عن العربية التى تتناولها الأفهام . قال تعالى (قرآناً عربيًّا لقوم يعلمون) وقال (بلسان عربى مبين) .

وإذا ورد لفظ مشترك فى التشريع اقترن به ما يبين المراد . سواء قرينة حالية أو مقالية .

كان المفتون من أصحاب الرسول على علم كامل باللغة وأسباب نزول النصوص إلى جوار ما أتاح لهم فضل الصحبة من هدى النبى ، وصفاء النفس وحدة الذهن ، وتبع التابعون بإحسان . ومع ذلك فى العهد ذاته دخل رجل من العامة على أمير المؤمنين على يقول له : (قتل الناس عثمان) قال (بين الفاعل من المفعول . رض الله فاك) وقالوا : إن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئًا يقرأ (إن الله برىء من المشركين ورسولِه) فكان هذا سببًا فى وضع علامات الإعراب على المصحف . ورأى على الحاجة ماسة إلى إملاء قواعد للنحو على أبى الأسود .

وفى نهاية القرن الأول ، رأى عمر بن عبد العزيز قومًا من الفرس ينظرون فى النحو العربى فقال : (لئن أصلحتموه لأنتم أول من أفسده) .

* * *

لقد نشأت أجيال لم تعد اللغة سليقة لهم ، بل كانوا يتعلمونها ويعلمونها ، خشية أن تضيع أو يغمرها سيل العجمة باتساع رقعة الدولة وإسلام الأعاجم . كما خيف ترك الإعراب أو تحويل الألفاظ عن شكلها أو الاقتصار على ما يسهل منها على السمع — فبدأ تدوين اللغة . وكان لزامًا أن توضع قوانين لاستنباط الأحكام الفقهية من مصادرها . فبدأ تدوين الفقه على نطاق واسع بعمل أبى حنيفة ، وعلى نطاق ضيق فى موطأ مالك فى النصف الأول من القرن الثانى . وكذلك بدأ جمع اللغة على أيدى أئمة اللغة الذين شافهوا العرب البلغاء وفهموا عنهم مناحى التعبير .

وبهذا تلازم الاهتمام باللغة وتدوين الفقه ، وإن كانت الصدارة للفقه ، لأن الإسلام فى صميمه هو فقهه فى العبادات والمعاملات — ودل اهتمام العرب بلغتهم على مكانتها من دينهم ودنياهم ودولتهم .

كانوا قبائل متباعدة لهجاتها متعددة . وحّدها قيام الأواصر الجديدة من الدين والدولة ؛ ورفعهم كتابهم إلى مستوى عال لإدراك لغة المعجزة ، من ألفاظ هى ألفاظ الكثرة فى الجاهلية ، لكن تراكيبها ونظمها ومعانيها أعلى مما يقدرون عليه ، فانتقلت اللغة العربية كالحضارة العربية إلى فلك آخر ، وبقى الاتصال الزمنى بين القرآن وبين البيئة التى عاصرت نزوله واضحًا فى الألفاظ المستعملة والإشارات المستنتجة وجملة الأسلوب الذى وجه إلى العرب . . لا يدركه حق إدراكه إلا من أدرك أكبر قدر من اللغة وأساليب الحياة وأسبابها حينئذ .

وتعاظم الاهتمام باللغة لدى العلماء والمتعلمين والدولة . . فوجدنا الرواة الكبار للأدب الجاهلى والعلماء الكبار من واضعى قواعد النحو والبيان فى ندامة الخلفاء أو تعليم بنيهم ، أو رواداً لعطاياهم الدارة ، أو وزراء وحجاباً وكتاباً ، أى أن هذه التبعات أصبحت مسئولية حكومية .

غاب الأصمعى عن الرشيد فسأله : يا أصمعى كيف أنت بعدنا ؟

فأجاب : والله ما لاقتنى بعدك أرض يا أمير المؤمنين .

فتبسم ، ولم يقل شيئاً . حتى إذا كان وقت الرحيل استبقاه الرشيد . وأمر غلمانه بأن يأخذوا عليهم الباب ثم سأله : ما معنى قولك ما لاقتنى أرض ؟

فأجاب : ما استقرت . كما يقال فلان لا يليق شيئاً : أى لا يستقر معه شىء . فتبسم الرشيد وقال : هذا حسن ، ولكن ينبغى ألا تكلمنى بين يدى الناس إلا بما أفهمه . فإذا خلوت فعلمنى .

هكذا أدّب الرشيد أديبه . فآفة النصح أن يكون جدالا ، أو يكون جهاراً .

ووجدنا كثرة النوابغ فى الشعر والأدب يجمعون الكنوز لأنفسهم مثل المفضل الضبى معلم المهدى ، يجمع فى المفضليات نحو ١٢٨ قصيدة من الجاهلية ، والأصمعى يصحب فى رحلاته مع الرشيد مكتبة كاملة ، وأبى تمام يجمع ديوانًا من أشعار الجاهلية ، ثم تلميذه البحترى يجمع لنفسه ديوانًا آخر ، ثم المتنبى يجمع دواوين السابقين .

ووجدنا علماء كالخليل بن أحمد (١٧٥) يتعلم فى البادية ويضع معجمًا للغة وعلم العروض وقواعد النحو فى اللغة على أساس القياس . ووجدنا كبار النحاة على أثره

مثل سيبويه ، والرؤاسي وتلميذيه الكسائي والفراء وكثيرين غيرهم ، يسبقهم ويلحقهم رهط من علماء اللغة والأدب مثل أبي عمرو بن العلاء صاحب إحدى القراءات (١٥٤) وأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠) وسيتبعهم أبناؤهم الفكريون لا يكادون يحصون ، يعملون جاهدين فى حقول اللغة والأدب ومعانى القرآن ومتشابه القرآن ، ومجاز القرآن ، وغريب القرآن ، وما يمت إلى شيء من هذا بسبب .

وفى الوقت ذاته ، انتقل محمد بن إدريس الشافعى إلى البادية ليظفر بما لم يظفر به غيره من الأخبار والسير وفصيح شعر الجاهلية والإسلام .

سلم العرب أن القرآن معجز . فلم يجاره أو يحاول مجاراته أحد ، والذين تصدوا لذلك من الكذبة والمتنبئين سجعوا أسجاع كهان مزرية .

ولما تحدى القرآن العرب أن يجيئوا بسورة من مثله — والبلاغة خصيصتهم — تحداهم فى كبرى مفاخرهم ، فطأطأوا الرءوس .

يرى الجاحظ الإعجاز القرآنى فى (نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد) ويقول (لو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه) .

وانتهى إلى غير قول أستاذه « النظّام » (بالصّرفة) أى صرف الناس عن محاولة الإتيان بمثله . فهو عند الجاحظ معجز بنظمه ، وباشتماله على ألوان بديعية رائعة .

وفى القرن الثالث كتب ابن قتيبة (٢٧٦) « تأويل مشكل القرآن » ليبين ما غمض فيه على غير العارفين ، وتحدث عن المجاز ، والاستعارة ، والحذف ، والكناية ، والتعريض ، ومخالفة ظاهر اللفظ لمعناه ، وعن اللغة كأداة للتعبير . يقول : (وإنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب واقتنانها فى الأساليب وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات) .

أما الطبرى (٣١٠) فيرى الإعجاز القرآنى فى بديع نظمه . والتأليف الذى أعجز العرب ، مع أنه بلغتهم ، ولفظ كلفظهم . والزمخشرى (٣٥٨) والمفسرون معه يرون الإعجاز للنظم البديعة ، والمعانى الراقية ، والألفاظ المتلائمة . والسكاكى (٦٢٦) يرى :

أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت ، ولا يدرك تحصيله إلا بإتقان علمى المعانى والبيان ، والحذق بهما .

هو على الجملة أصح لفظ . فى أحسن نظم فى التأليف . وفيه أصح المعانى وأرقاها . معجز بلفظه ونظمه وتركيب عباراته وألفاظه ، مفردة ، ومركبة ، وموسيقاها ، معجز بمعانية السامية المتلائمة بكلماتها مع المعنى العام وسائر الكلام ، معجز بأثره فى النفوس من أدبه وبلاغته [١] . أعجز الشعراء وليس بشعر ، وأعجز الخطباء وليس بخطبة . وأعجز المترسلين ، وليس بترسل . ولذلك انتهى البعض إلى أن الكلام فى اللسان العربى : شعر ونثر وقرآن [٢] .

---

(١) فى القرنين الثالث والرابع ألف فى إعجاز القرآن الواسطى (٣٠٦) والرمانى (٣٨٤) والخطابى (٣٨٨) . فالرمانى يرى الإعجاز القرآنى للبلاغة التى توصل المعانى إلى القلب فى أحسن صوره من اللفظ . والخطابى يقول (لا نرى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا نرى نظماً أحسن تأليفاً ولا أشد تلازماً وتشاكلا من نظمه . وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها والترق إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل متفرقة فى أنواع الكلام . فأما أن توجد مجموعة فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير الذى أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عدداً) .

وفى أواخر القرن رأى الجرجانى (٤٧١) صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة أن إعجاز القرآن يكمن فى النظم الذى يفوق كل نظم بتأليفه ونسجه ومزاياه التى يحتويها .

يقول الجرجانى : (ولا يكفى فى علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً . . بل لا تكون من معرفتها فى شىء حتى تفصل القول وتحصل ، وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم ، وتعدها واحدة واحدة وتسميها شيئاً شيئاً) ويرى البلاغة فى تآخى المعانى وتناسقها دون أن تعطى المزية للمعنى على اللفظ . فالصياغة عنده هى التى يتفاضل بها الكلام ، واختلافها يدل على معان مختلفة . فالإعجاز عنده تلاؤم المعانى فى الكلمات المفردة تلاؤماً يساعد على أداء المعنى المقصود فى جمال وقدرة . بفضل علم النحو بمعناه الواسع بما فيه علوم البلاغة والإعراب والبيان وبناء الكلمات — والفضيلة تثبت للألفاظ (بملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك) فالإعجاز بهذا موضوعى .

(٢) فى أوائل القرن السادس وضع الزمخشرى صاحب « أساس البلاغة » تفسير « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » بعد إذ بلغ أعلى مرتبة فى النحو واللغة ونظم الشعر والأدب والعلم والسير والفقه ، وشرح قصيدة الشنفرى الموسومة بلامية العرب . ومع أنه نهج فى التفسير نهج المعتزلة ، فالإجماع على أنه عمل عظيم فى اللغة وفيه يقول : (فالفقيه وإن برز على الأقران . . والمتكلم . . وحافظ القصص والأخبار . . والنحوى . . واللغوى . . لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطريق . . إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى وعلم البيان . . بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ . .) =

البلاغة والتفسير :

من أجل ذلك يقول أبو هلال العسكرى (٣٩٥) « إن أحق العلوم وأولاها بالحفظ — بعد المعرفة بالله جل ثناؤه — علم البلاغة . ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى » .

وفى الفصحى حذف كأنه الإثبات أو التكرار فى أثره . وهو أفصح من الذكر أحيانًا . والصمت أبلغ من القول فى مواقع . وفيها نفى الشىء بإيجابه ، وفيها حذف للسؤال ، وحذف للجواب ، وقد يحذف المضاف ويبقى المضاف إليه . ولها إسناد مباشر تمتاز به ، ولها وشى أو زخرف إذا صادف المعنى جلاه وحلاه ، ويكفى فيها الحرف الواحد يضاف إلى الكلمة ليغير المعنى أو يجسمه ، وكثيراً ما تدل حركة فيها على المعنى . وللتقديم والتأخير مزايا بيانية بالغة . وكما يقول ابن خلدون (لكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة) — وفيها للمعنى الواحد ألفاظ عدة ، تدل عليه ، أو على درجاته ، إيجازاً فى التعبير وتحديداً للإبانة . فاللغة العربية بين اللغات الحية أقدمها وأدومها وأغناها ، أو كما قال الشافعى : (أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا . ولا نعلمه يحيط بجميع علمه غير نبى) .

والأسلوب البليغ ينتظم النظم المناسب لمعانيه فيختار أخص الألفاظ بالمعنى وأكثرها كشفًا عنه ليضعها مواضعها ، ويصل الجمل ويفصلها . وللوصل والفصل بين الجمل قوة تعبيرية من خصائص البلاغة العربية . .

يقول الجرجانى (اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على

= وفى القرن السابع جمع ابن أبى الأصبع المصرى (٦٥٤) الألوان البديعية التى عرفت قبله وأضاف إليها دراسات لبديع القرآن ، واستشهادات من الشعر مع بيان وجوه الحسن فى السور والآيات وائتلافها وموسيقاها ، وبيان الألفاظ مفردة ومركبة . وتأليف الحملة والجمل ، والتقارب فيها والانسجام بين ألفاظها مفردة ومجتمعة كأنها تجرى على وزن خاص خذ مثلا . . أو مثلين . لقد وجد فى سبعة عشر لفظاً ثمانية عشر ضرباً من البلاغة سوى ما تعدد منها مثل الاستعارة ذاتها تعددت فى موضعين . ذلك قوله تعالى : « وقيل يا أرض أبلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودىّ وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

ووجد فى عشرة ألفاظ أربعة عشر نوعاً من البديع ، فى قوله تعالى : (ليهلكَ من هلك عن بينة ويحيى من حىّ عن بينة) .

بعض ، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى ، من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص) .

والأسلوب الفصيح ، يستمد وصفه من اللبن الفصيح الخالص من رغوته أو لَبئه ، فيسلم من ضعف التأليف وسماجة التركيب ، ويزدان بالرونق والطلاوة ويجمع بين العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة . . أو كما قال الجاحظ : « هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزع عن التكلف ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن السوقى » .

ومن الأساليب الحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية . وفيها المحسنات البديعية ، من جناس وطباق ومبالغة ، وإخراج الممكن إلى الممتنع ، وإخراج الكلام مخرج الشك أو الاستنكار أو التنكيت أوالتبكيت أو التأكيد ، إلى غير ذلك من فنون البلاغة التى لا تتناهى ، مقرونة بجمال النظم وعذوبة اللفظ وعظم الفائدة وصحة الدلالة ، وتلاؤم الكلام فى السمع والعقل والعين .

ومن الأساليب إطناب وإيجاز . تكلم عمار بن ياسر يوماً فأوجز فقيل له : لو زدتنا ؟ قال « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة وقصر الخطبة » .

وقالوا : البلاغة الإيجاز .

والعرب بطبيعتهم بلغاء . . وقف أعرابى على حلقة الحسن البصرى فقال : رحم الله من تصدق من فضل ، أو واسى من كفاف ، أو آثر من قوت . فقال الحسن ما ترك الأعرابى منكم أحداً حتى عمه بالمسألة .

والجاحظ ينشد فى هذا الموضع :

يرمون بالخطب الطـوال وتارة   وحى الملاحظ خيفـة الرقباء

ولا يقدر على التصدى للنصوص القرآنية ونصوص الأحاديث ، من لم يدرك أسرار العربية الفصحى فاستحال أو شق التفسير عليه . قال ابن عباس نفسه ما كنت أدرى معنى (فاطر السموات والأرض) حتى سمعت امرأة من العرب تقول : أنا فطرته ـــ أى ابتدأته ـــ . . . بل قد يعجز عن الفهم من لم يتزود بفنون اللغة . وحسبنا فى ذلك الزمخشرى الجامعة ، مقالته على صدقها بما صنعه . قال : (فإن الإعراب أجدى .
الإمام الشافعى

ومن لم يتق الله فى تنزيله فاجترأ على تعاطى تأويله وهو غير معرب ، ركب عمياء وخبط عشواء) .

فى القرن الثانى للهجرة شق على كثيرين فهم بعض أساليب القرآن . فكانوا يسألون العارفين بلغة العرب وأساليبها ، وكان المعلمون الأولون لعلوم اللغة هم الأساتذة الكبار فى البصرة والكوفة .

أرسل الفضل بن الربيع والى البصرة إلى أبى عبيدة فدخل عليه ، ثم دخل رجل فى زى الكتاب قال : إنى كنت إليك مشتاقاً ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لى أن أعرفك إياها ؟ قال أبو عبيدة : هات . قال : قال الله عز وجل « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله . وهذا لم يُعرف .

قال أبو عبيدة : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل . فعزم أبو عبيدة أن يضع كتاباً فى القرآن ، فى مثل هذا وأشباهه . ووضع (المجاز) يقصد « الطريق » لمعرفة القرآن ، وأكثر فيه الاستشهاد بمنثور العرب ومنظومهم .

وألف أبو عبيدة كذلك (معانى القرآن) و (غريب القرآن) و (غريب الحديث) ومن قبله ألف عبد الحميد بن يحيى (١٣٢) فى مجاز القرآن . ثم ألف قطرب (محمد ابن المستنير) (٢٠٦) معانى القرآن ، وألف الكسائى (١٨٩) « معانى القرآن » و « كتاب القراءات » وألف الفراء (٢٠٧) وتلميذه سَلَمة بن عاصم ، وسعيد الأنصارى (٢١٥) والأخفش (٢١٥) وألف الجاحظ (نظم القرآن) (والمسائل فى القرآن) وألف مثله معتزلة آخرون من قبله مثل واصل بن عطاء (١٣٨) ومن بعده ، مثل الرمانى والزمخشرى — وألف ثعلب كتاب (معانى القرآن) وكتاب (غريب القرآن) وألف المبرد (ما اتفق نطقه واختلف معناه من القرآن المجيد) . وتتابعت الكتب فلا تكاد تجد فى القرون الأولى أديباً كبيراً لم يتبحّر فى لغة القرآن وأسلوبه .

الشعر والتفسير :

الشعر مضمار البلاغة بإيجازه وحشده المعانى والصور فى أضيق نطاق ، وقوة تأثير الكلمات المنظومة والعبارة الموزونة . لذلك غدا الميدان الطبيعى لفرسان البلاغة ، والثبت الحافل بروائع التعبير . يقول الجرجانى : (الشعر الذى هو ديوان العرب وعنوان الأدب ، الذى لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا فى الفصاحة والبيان ، وتنازعوا فيها قصب الرهان) وعلى من يريد أن يعرف وجه إعجاز القرآن أن (يبحث عن العالم التى بها كان التباين فى الفضل وزاد بعض الشعر على بعض) بل إنه ليرى الصادّ عن الشعر (صاداً عن أن يعرف حجة الله تعالى)

وتذيع الكلمة المنظومة فتحدث أعظم الأثر . قال كعب بن زهير بن أبى سلمى أبياتاً ضد أخيه بجير عندما أسلم ، وأنشدها بجير النبى وأجاب بأبيات أخرى ، ثم بعث إلى أخيه « أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقتل أحداً جاء تائباً » . فأتى رجل فجلس إلى النبي قال : يا رسول الله إن كعب بن زهير أتاك تائباً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال نعم . قال : فأنا كعب . . فأنشد فى مدح النبى قصيدة « بانت سعاد » ، وقد سلف المقال فيها ، وفى احتفاله عليه الصلاة والسلام بأمر الشعر .

حوى شعر الجاهلية أخبار العرب ، وكان شعر الفتوح الإسلامية ديوان وقائعها وأبطالها من الشعراء ، مثل عمرو بن معد يكرب والقعقاع بن عمرو ، وفيه قول أبى بكر : « لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل » ولم يستطع العرب بعد الإسلام أن ينشغلوا عن الشعر . وإن كان من الصحابة من تبدّل به حفظ الكتاب العزيز كما استعاض لبيد عن الشعر بسورة البقرة . ونصح على أبا الفرزدق أن يُحفظه القرآن . . ومع ذلك صار الفرزدق شاعر العصر . وكان على يقول الشعر .

ولا يعاب من الشعر إلا شعر الهائمين فى غير أودية الفضيلة . قالوا : لم يمتنع النبى عن تعلم الشعر إلا كمثل أنه لم يتعلم الخط ، فكان لا يقرأ ولا يكتب ، لتكون الحجة كما يقول الجرجانى : (أبهر وأقهر ، والدلالة بها أقوى وأظهر) .

ولم يتخذ الجرجانى ، كالأصمعى ، النثر المأثور مصدراً من المصادر التى يستنبط

منها قوانين البلاغة . وأكثر المفسرون عموماً من الاستشهاد بشعر الجاهلية وشعر امرئ القيس فى تفسير القرآن وغريبه وغريب الحديث .

والشعر رسم العرب وموسيقاهم وفنهم ، وديوان أخبارهم . . خذ مثلا شعر المعلقات ، أو الأراجيز أو خطب الجاهلية ، أو الأشعار التى رواها الأصمعى أو حماد أو غيرهما ، هى فوق أنها جامعة أخبار العرب وتاريخهم ووقائعهم ولغتهم وصور حياتهم ، رسوم ناطقة مثل جواد امرئ القيس ، أو وصف المحبوب أو مشيته أو صورته أو الغزال الخائف . وأمثال ذلك لا حصر لها ناقلة للواقع فى وضوح شفاف وجزالة معبرة — فالصدق التسجيلى أو التطابق الهندسى من خصائص الشعر الجاهلى . وأمثلة ذلك تترى فى شعر الهذليين والجاحظ يقول : (وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير) .

والأعرابى — كأمير المؤمنين ، كعالم الطب والفلك — يدهور البيت من الشعر بين شدقيه كالحلوى وكاللحن ، وينظم الروائع .

لكم سمع النبى الشعر واستنشده ، كما أسلفنا المقال . . . وذات يوم أنشده العباس ابن مرداس شاكياً إعطاءه من غنائم حنين أقل من الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن :

أتجعــل نهى ونهب العبيْـ ـد(١) بين عيينــة والأقرع

فقال عليه السلام : يا على اقطع لسانه عنى . فقبض على يده وخرج به

فقال : أقاطع أنت لسانى يا أبا الحسن ؟ فقال على : إنى لممض فيك ما أمر . ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال : خذ ما أحببت .

هكذا تظهر المعانى وتغيب حسب إدراك السامع للأساليب .

كان عمر على المنبر فقرأ قوله تعالى (أو يأخذَهم على تخوّف) ثم سأل عن معنى التخوف . فقال له رجل من هذيل : هو عندنا التنقص . وأنشد قول الشاعر :

تخوف الرحل منها تامكا قــرداً كما تخوف عود النبعة السفــن

(السفن الحديدة يبرد بها خشب القوس . والقرد الكثير القرد . والنامك العظيم السنام . يقول إن الرحل تنقص الناقة كما تأكل الحديدة خشب القوس) .

---

(١) العبيد بالتصغير اسم فرس الشاعر .

والعرب تقول : تخوف ماله الإنفاق . أى أنفقه جزءاً جزءاً

وقال عمر ليلة لعبد الله بن العباس وهم سائرون إلى الشام : أنشدنى شعر أشعر القوم . قال : ومن ذاك ؟ قال : زهير . قال بم استحق عندك ذلك يا أمير المؤمنين ؟

قال : رأيته لا يفاضل بين الكلام ، ولا يتبع حوشى الألفاظ ، ولا يمدح الرجال إلا بما يكون للرجال . وما ذاك إلا لتنقيحه شعره وترداد نظره فى كلامه . .

ولقد صدق الفاروق . فزهير هو القائل :

وإن أشعـــر بيت أنت قائـــله بيت يقال إذا أنشدته ، صدقا

وكان عمر مشهوراً بالرواية وبراعة الاستشهاد بالشعر . تمثل مرة بشعر ثم قال لفرات بن زيد الليثى : أتدرى من يقوله ؟ قال لا أدرى . . قال عمر : هذا شعر أخيك قسامة بن زيد . . . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : مر من قبلك بتعلم الشعر . فإنه يدل على معانى الأخلاق . وصواب الرأى . ومعرفة الأنساب .

وأشار المسلمون على النبى بأن يعهد إلى على بالرد على المشركين شعراً فلم يرذلك قال : لا . ليس هناك .

وكان على يستشهد بالشعر . كما مر بنا وكما استعان ببيت الأعشى فى خطبته المعروفة بالشقشقية حيث يقول :

شتان ما يومى على كورهـــا ويـــوم حيان أخى جـــابر

وكان ابن عباس يقول : إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب .

قال المهاجرون لعمر : ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس ؟ قال : ذاكم فتى الكهول . له لسان سئول وقلب عقول .

أسباب التنزيل :

ومعرفة أسباب التنزيل لازمة لمن رام علم القرآن : فمقتضيات الأحوال وجه من وجوه توضيح إعجازه . والجهل بأسباب التنزيل موقع فى الشبهة . . وليس كعمر وابن عباس أدلة . . .

اتهم عمر قدامة بن مظعون بشرب الخمر ، وأراد عمر جلده فقال قدامة : والله لو شربت الخمر كما يقولون ، ما كان لك أن تجلدنى لأن الله يقول : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طَعِموا إذا ما اتقوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوْا وآمنوا ثم اتقوْا وأحسنوا والله يحب المحسنين » وأنا منهم .

قال عمر : ألا تردون على هذا ؟

فقال ابن عباس : إن هذه الآيات أنزلت عذراً للماضين وحجة على الباقين ، لأن الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا فإن الله قد نهى أن يشرب الخمر . قال عمر : صدقت .

كذلك يتعين أن يعرف دارس القرآن والسنة ، عادات العرب وأحوالها وأقوالها حالة التنزيل ، وإلا وقع فى الشبهة .

ولا يحل القول فى أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ، ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وملابساتها .

ومن عرف التنزيل عرف أيام الإسلام العظمى ووحى السماء إذْ كان يوحى ، فسما فى حسه الروحى وتقديره الفكرى إلى أعلى الذرى ، استمتاعًا وإيمانًا وفهمًا ، والإحاطة بها — قبل كل هذا — ضرورة منهجية تتعلق بالأساس .

وكثير من أسباب التنزيل يروى فيه عن ابن عباس فعل أومقال .

خذ مثلا على أن من يعرف سبب نزول الآية غير من لا يعرف : تفسير كلمة الميت فى هذه الآية « أو من كان مَيْتًا فأحييناه » فإن معناها الظاهر أن رجلا ميتًا ردت عليه الحياة . لكنها نزلت فى حمزة عم النبى إذا أسلم بعد أن كان مشركًا . قال ابن عباس : يريد حمزة بن عبد المطلب وأبا جهل ، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرث ، وحمزة لم يؤمن بعد ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس ، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه ويقول :

يا أبا يعلى . أما ترى ما جاء به . سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا .

قال حمزة — بطل أحد وشهيدها فيما بعد : ومن أسفه منكم : تعبدون الحجارة

من دون الله ! أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله .

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ومثلا آخر : أهل بيت رسول الله إذ الوحي ينزل بالآية الكريمة : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً » عن ابن عباس أيضاً وفى صدد أستاذه : أن على بن أبى طالب رضى الله عنه آجر نفسه يسقى نخلا بشىء من شعير ليلة حتى أصبح ، وقبض الشعير وطحن ثلثه ، فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه يقال له الخزيرة ، فلما تم إنضاجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام . ثم عمل الثلث الثانى ، فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه ، ثم عمل الثلث الباقى ، فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين ، فأطعموه وطووا يومهم ذلك . فأنزلت هذه الآية .

ومثلاً ثالثاً عن الصحابة : عن عبد الله بن عمر قال : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة . فقال : إن أخى فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله سبعة أهل أبيات ، حتى رجعت إلى أولئك . قال فنزلت فيهم الآية : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

قال مروان بن الحكم وهو والى المدينة يوماً لأبى سعيد الخدرى وزيد بن ثابت ورافع بن خديج عنده : أرأيت قوله تعالى : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » والله إنا لنفرح بما أوتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل ؟ . . قال أبو سعيد : ليس هذا فى هذا . إنما كان رجال يتخلفون عن الرسول وعن أصحابه فى المغازى ، فإذا كانت النكبة وما يكره ، فرحوا بتخلفهم . فإذا كان فيها ما يحبون ، حلفوا لهم وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا . !

* * *

وسنرى بعد ، كيف كان الشعر والبلاغة ومعرفة السنن والسير ، قوة ضاربة فى يد محمد بن إدريس . فلم يك فى عصره أحد أجدر منه بقوله عليه الصلاة والسلام : « إن لله أهلين من الناس » قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « أهل القرآن أهل الله وخاصته » .

الفصل الثانى

فى فناء زمزم

رأس محمد بن إدريس بمكة حلقة كانت فى انتظاره من بضعة عشر عاماً ، لم تشهد مثلها البلدة المباركة ، من عهد ترجمان القرآن : عبد الله بن عباس .

فى هذه الحلقة ، جلس رجل فى عنفوان شبابه . طوال حسن الخلق ، نظيف الثياب محبب إلى الناس ، فصيح اللسان ، كثير الإحسان إلى الخلق ، شديد المهابة ، حسن التلاوة للقرآن قوى البيان ، لا يضازعه فيه أحد . قالوا عن فصاحته (إذا حدث كأنما يقرأ سورة من القرآن) .

وسيبقى فى هذه الحلقة بضع عشرة سنة ، فتظفر البلدة المباركة بأطول مدة قضاها فى التدريس فى عاصمة من عواصم الإسلام ، ويظفر هو بالإدراك الدقيق والحس العميق المنبعث من جواره للكعبة .

وكان أقدر الأئمة فى تفسير القرآن وأوضحهم حجة فيما فسر معتمداً على الأخبار الثابتة والبرهان الذى يؤدى إليه اللسان العربى ، مزوداً بأشعار العرب وآثار السلف من الصحابة والتابعين . وكانت فى حوزته كتب العراقيين ، فعكف على مراجعتها وتفنيد ما يستحق التفنيد منها ، وبدأت تأخذ الطريق إلى الظهور مدرسة جديدة فى الفقه .

كان الفقهاء جد حريصين إذ يفسرون أو يفتون . ومن قبل ، قال الصديق فى الكلالة برأيه وأضاف : (فإن يك صواباً فمن الله وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان) وقال (أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى ، إن قلت فى القرآن ما لم أعلم) . وذات يوم خرج على إلى أصحابه وهو يمسح بطنه ويقول : يا بردها على الكبد ! سئلت عما أعلم ، فقلت لا أعلم والله أعلم .

وسئل ابن عباس مرة فقال : لا أدرى . قال السائل : قل فيها برأيك . قال

ابن عباس (إني أخاف أن أقول فيها برأيي فتَنزِلَّ قدم بعد ثبوتها) .

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه .

وسئل مالك عن ثمانية وأربعين مسألة ، فقال (لا أدرى) في اثنتين وثلاثين .

ولقد كان يقال أجرأ الناس على الفتيا أدناهم علماً ! قال سحنون : إني لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال ، من ثمانية أئمة من العلماء . . . فلم ألام على حبس الجواب ؟

وكان الأصمعي شديد التأله — التنسك — لا يفسر شيئاً من القرآن ولا شيئاً من اللغة له نظير واشتقاق في القرآن وكذا الحديث . ويؤثر أن يقول (العرب تقول : معنى هذا كذا . ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو)[1] .

ومع ذلك استفاد من الأصمعي المفسرون . كمثل قوله : إن العرب تقول : فدى لك ثوبي تقصد نفسي . وأنشد دليلا على ذلك قول الشاعر :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخي ثقة إزاري

وإنما يقصد بذلك نفسه فقوله تعالى : « وثيابَكَ فطهِّر » مقصود به نفسه .

ولقد شرط العلماء في المفسر بضعة عشر علماً ، هي العلم باللغة ، والنحو ، والصرف ، والاشتقاق ، والمعاني ، والبديع ، والقراءات ، والأصول ، وأسباب النزول ، والناسخ ، والمنسوخ ، والحديث ، والفقه .

أما الشافعي فقد درس ذلك كله ، وكل علم وجده ، ومن كل مصدر : شيعياً كان ، كمقاتل بن سليمان وكان يشيد بذكره[2] ، أو معتزلياً كإبراهيم بن أبي يحيى ،

---

(١) بلغ أبا عبيدة أن الأصمعي يعيب عليه تأليف كتاب (المجاز في القرآن) وأنه قال (يفسر ذلك برأيه !) فسأل عن مجلس الأصمعي . . وجلس عنده قال له : يا أبا سعيد ما تقوله في الخبز : قال هو الذي نخبزه ونأكله قال أبو عبيدة : فسرت كتاب الله برأيك قال تعالى : (أراني أحمل فوق رأسي خبزاً) قال الأصمعي هذا شيء بان لي فقلته ولم أفسره برأيي . قال أبو عبيدة : وهذا الذي تعيبه علينا كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا .

(٢) لمقاتل مؤلفات كثيرة منها التفسير الكبير : كتاب الناسخ والمنسوخ ، تفسير الخمسمائة آية ، كتاب متشابه القرآن ، كتاب نوادر التفسير ، كتاب الجوابات في القرآن ، كتاب الوجوه والنظائر ، وكتاب الرد على=

وكان يبين أن إبراهيم قدرى ، أو حنفيًّا كمحمد بن الحسن . وبهذا تلاقت شتى الروافد فى النهر العظيم الواحد لتصير مذهبًا خالداً للمسلمين .

كان يدرك أن من ورع العالم العامل أن يتكلم ، مثلما أن من ورع الجاهل العامل أن يسكت . وكانت آلات التفسير طوع بنانه من علمه بالسنة التى اكتملت لديه وفقه مدرسة العراق التى أسلمت كنوزها إليه . إلى جوار العلم بعلوم القرآن جميعًا — وأولها إمامته فى اللغة .

قال : « وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى » . .

قال الله : « وإنه لتنزيل رب العالمين . . بلسان عربى مبين » . . . وبعد أن أورد كثيراً من الآيات كمثلها قال : « فأقام حجته بأن كتابه عربى فى كل آية ذكرناها .

فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك .

وما ازداد من العلم باللسان ، الذى جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيراً له . كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ويأتى البيت وما أمر بإتيانه ويتوجه لما وجه له ، ويكون تبعًا فيما افترض عليه وندب إليه لا متبوعًا .

فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها . وأن فطرته أن يخاطب بالشىء عامًا ظاهراً يراد به العام الظاهر . ويستغنى بأول هذا منه عن آخره . وعامًا ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب فيه . وظاهراً يعرف فى سياقه أنه يراد به غير ظاهر . وكل هذا موجود عامه فى أول الكلام أو وسطه أو آخره . . وتبتدئ بالشىء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره . وتبتدئ بالشىء يبين آخر لفظها منه عن أوله . وتكلم بالشىء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ كما تعرفه بالإشارة . ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها ، لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها . وتسمى الشىء الواحد بالأسماء

= القدرية ، كتاب الأقسام واللغات ، كتاب التقديم والتأخير ، كتاب الآيات والمتشابهات . والشافعى يقول : (من أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك . ومن أراد الجدل فعليه بأبى حنيفة . ومن أراد التفسير فعليه بمقاتل بن سليمان) مات سنة ١٥٠ بالبصرة .

الكثيرة وتسمى بالاسم الواحد المعانى الكثيرة » .

وانطلق الشافعى يفسر عن علم وثقة .

• • •

قال حرملة : سمعت الشافعى يقول فى حديث عائشة « اشترطى لهم الولاء » معناه اشترطى عليهم . قال تعالى : « أولئك لهم اللعنة » بمعنى عليهم .

وقال حرملة : سمعت سفيان بن عيينة يقول فى تفسير « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال يستغنى به . قال الشافعى : ليس هو هكذا لو كان هكذا لقال : يتغانى . إنما هو يتحزن ويترنم به ويقرؤه حدْرا (عدم تمطيط) وتحزيناً (ترقيق الصوت الحزين) . وقد سلف تفسيره لسفيان حديث (وأقروا الطير فى مكناتها) .

فكان يشير له كلما جاءه شيء من التفسير ، ويقول : سلوا هذا .

كان سفيان يحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم مر به رجل فى بعض الليل وهو مع امرأته صفية فقال : تعال هذه امرأتى صفية . فقال : سبحان الله يا رسول الله . قال النبى : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم . قال سفيان للشافعى : ما فقه هذا يا أبا عبد الله ؟ قال : إن كان القوم اتهموا النبى كانوا بتهمتهم إياه كفاراً . لكن النبى صلى الله عليه وسلم ، أدب من بعده فقال : إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا . حتى لا يظن بكم ظن السوء . لا أن النبى يتهم وهو أمين الله عز وجل فى أرضه . فقال : جزاك الله خيراً يا أبا عبد الله . ما يجيئنا منك إلا كل ما نحبه .

كان مجلس الشافعى قبالة ميزاب الكعبة . . فما زال المجلس يقدم حتى صار بقرب حلقة سفيان ، أقدم الحلق لأعظم المحدثين .

قال قائل : كنت عند سفيان بن عيينة فقيل لى : (هاهنا فتى — يعنى الشافعى — يقول عليكم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا الرأى. قال سفيان — جزى الله هذا من فتى خيراً . . قال الله تعالى « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

قالوا : كان إذا أخذ فى التفسير ، كأنه شاهد التنزيل ، وذكروا أنه قال : نظرت بين دفتى المصحف ، فعرفت مراد الله تعالى من جميع ما فيه إلا حرفين أشكلا على (ونسى الراوى الحرف الأول وتذكر أن الثانى كلمة « دساها » فى قوله تعالى « وقد خاب

من دسّاها » فإنى لم أجده فى كلام العرب . ثم قرأت لمقاتل بن سليمان ، أنه لغة السودان وأن دساها أغواها .

وظاهر من تفسيره للآيات اقتدار أستاذ اللغة والأدب . خذ مثلا على ذلك تفسير قوله تعالى : « ومن حيثُ خرجت فولّ وجهكَ شطر المسجد الحرام » . . يقول فى الرسالة « وشطره جهته فى كلام العرب . إذا قلت (أقصد شطر كذا) معروف أنك تقول : أقصد قصد عين كذا . يعنى قصد نفس كذا . وكذلك (تلقاءه) جهته ، أى أستقبل تلقاءه وجهته ، وقال خفاف ابن ندبة :[1] .

ألا من مبلـغ عمـراً رسولا   وما تغنى الرسالة شطر عمرو

وقال ساعدة بن جؤية[2] :

أقول لأم زنبـاع أقيمى   صدور العيس شطر بنى تميم

وقال لقيط الإيادى[3] :

وقد أظلـكم من شطر ثغركم   هول له ظلم تغشاكم قطعًا

وقال الشاعر[4] :

إن العسير بها داء مخامرها   فشطرها بصر العينين مسحور

وهذا كله مع غيره من أشعارهم يبين أن شطر الشىء قصدُ عين الشىء : إذا كان مُعاينًا فبالصواب ، وإذا كان مغيبًا فبالاجتهاد بالتوجه إليه . . . . »[5]

وأمثالا أخرى فى « الأم » حيث يستشهد بالشعر فى اللمس الموجب للوضوء

---

(١) ابن عم الخنساء . وهو من فرسان العرب وشعرائهم المخضرمين .

(٢) شاعر هذيل (ساعدة بن جؤية بن كعب بن كامل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة) روى شعره أبو ذؤيب الهذلى الشاعر الجاهلى الإسلامى . ينسب صاحب اللسان البيت إلى أبى زنباع الجذامى . والشافعى أعلم من صاحب اللسان بشعر هذيل وساعدة بن جؤية منها .

(٣) شاعر جاهلى .

(٤) لم يسمه الشافعى . والبيت لشاعر جاهلى أو هذلى من هذيل نسبه الطبرى إلى شاعر هذلى ولم ينسبه المبرد فى الكامل . . ولا صاحب اللسان فى مادة شطر . ونسبه فى مادة خسر إلى قيس بن خويلد الهذلى .

(٥) عرض الشافعى فى كتاب الرسالة وحده مائتى مرة وست عشرة مرة ببيان أو تفسير لآية أو سورة من القرآن . ولو نشر تفسيره أو تعليقه على الآيات التى عرض لها فى شتى مصنفاته ، لانضافت ثروة جديدة لعلوم الدين ، كثل ما تضاف ثروة كبرى للغة بتجميع ألفاظه وأساليبه ونحوه ودراستها .

وقد سلف بيانه ، ويحدد الرمة بأنها العظم البالى — فيستشهد الشعر « قال الشاعر »

. . . أمــا عظامها فرم وأمــا لحمها فصليب[١]

ويتردد الاستشهاد بالشعر على المعانى فى أكثر من مجال ، مثل « السر » فى قوله تعالى (ولكن لا تواعدوهن سرًّا) مقصود به الجماع — يفهم ذلك من يعرف لغة الجاهلية وصدر الإسلام . ويستشهد الشافعى فى ذلك بشعر امرئ القيس وشعر جرير فيقول : قال « امرؤ القيس » :

ألا زعمت بسبـاسة الحى أننى كبرت وألا يحسن السر أمثالى
كذبت لقد أصبى على المرء عـرسه وأمنع عرسى أن يـزنّ بها الخالى

وقال جرير يرثى امرأته :

كانت إذا هجر الخليل فراشهـا خزن الحديث وعفت الأسرار

قال الشافعى : فإذا علم أن حديثها مخزون — فخزن الحديث ألا يباح به سرًّا ولا علانية . فإذا وصفها فلا معنى للعفاف غير الأسرار والأسرار الجماع .

ومثل قوله عن معنى قوله تعالى : « وقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ » إن معناه ما بين الزوجين من المباضعة . . فثم لغة عالية وكناية تسمو عن التعبير الدارج .

ومثل قوله فى باب المشى إلى الجمعة فى قوله تعالى : « إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلىَ ذِكْرِ اللهِ » ومعقول أن السعى فى هذا الموضع العمل قال عز وجل : « وإنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى » وقال : « وإذا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها » . قال زهير :

سعى بعدهم قوم لـكى يدركو همو فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا

ومثل حديثه عن يوم الجمعة ، فالعرب كانت تسميه عروبة . ويستشهد على ذلك بقول الشاعر :

نفسى الفداء لأقوام همو خلطـوا يوم العـروبة أزواداً بـأزواد

---

(١) البيت لعلقة الفحل — شاعر جاهلى — سقط جزء منه من نسخ الأم صحته :

به جيف الحسرى فأما عظامها فرم وأما لحمها فصليب

— والحسرى النياق التى هلكت تعبا .

ومثل قوله فى باب دخول مكة لغير إرادة الحج ولا عمرة قال الله عز وجل : « وإذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وأَمْنًا » . والمثابة فى كلام العرب الموضع يَثُوب الناس إليه . . ويقال ثاب إليه اجتمع إليه فالمثابة تجمّع الاجتماع . . . قال ورقة بن نوفل يذكر البيت :

مثابًا لأنحاء القبائــل كلها تخب إليه اليعْمُلات الذوابــل

وقال خداش بن زهير النصرى :

فما برحت بكر تثــوب وتدعى ويلحــق منهم أولــون وآخر »

ومثل قوله فى كتاب قتال أهل البغى والردة « والفيء الرجعة عن القتال . قال أبو ذؤيب يعير نفراً من قومه انهزموا عن رجل من أهله فى وقعة :

لا يَنْسأ الله منا معشراً رجعــوا يوم الأميلح لا غابوا ولا جرحوا

عقوا بسهم فلم يشعر بهم أحد ثم استفاءوا وقالوا حبذا الوضح »

وأحيانًا يستشهد بالشعر لرواية التاريخ كمثل ما يروى شعر أبى سفيان يوم أُحُد عندما استنقذوه ، وهو تحت آخر يقتله .

ويستطرد فى الاستشهاد ، فيرجع إلى « شعر تأبط شرا » لبيان المعنى الدقيق للفظ ، ليثبت أن « العرب تقول للمرأة تربّ أمرهم أمنًا . وأم العيال . وتقول ذلك للرجل يتولى أن يقوتهم : أم العيال . بمعنى أنه وضع نفسه موضع الأم التى ترب العيال » .

* * *

وكما يتجلى إدراكه الدقيق لمعانى الألفاظ يتجلى إدراكه العميق لمعانى الأساليب . وإليك مثلا : رأيه فى آية الطهارة :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاة فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إلَى المِرافِقِ وامْسَحُوا بِرءُوسِكُمْ وأَرْجلَكُمْ إلَى الكَعْبَيْنِ وإنْ كُنْتُمْ جُنُباً فاطَّهَّروا »

وظاهر منها نظْم الكلام على الوجه الأحسن من مجاورة الملائم للملائم مراعاة لحسن الجوار ليكون لفظ الكلام مؤتلفًا مع معناه . ولذلك عدل عن الترتيب إلى التقديم والتأخير البلاغى ، فجعل المسح للرءوس قبل الغسل للأرجل . ولو كانت الآية قد وردت فى التنزيل : فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم ،

لما اختلف العلماء فى المسح والغسل . وكل من وصف وضوء الرسول وأصحابه لم يروِ أن أحداً منهم غسل رجليه قبل مسح رأسه . وإذا علم أن مسح الرأس مقدم على غسل الرجلين ، علم أن الواجب غسل الرجل (لا مسحها إلى الكعبين) حيث إنه سبحانه قدم ذكر مسح الرأس ليعلمنا ترتيب غسل الأعضاء فى الوضوء كما كانت فى الغسل . فإن الغسل يختم فيه بغسل الرجلين ، ولما أخر ذكر الرجلين أتى بالتحديد ، ! ليعلم أن الأمر فيهما معطوف على الأعضاء المغسولة لا على العضو الممسوح .

ولمعرفة الشافعى بكنه بلاغة العرب رأى وجوب الترتيب فى الوضوء لكون الآية جاءت مرتبة للأعضاء ، ولم يحتمل بالتقديم والتأخير ، وإن أوجب لبسًا ، إتكالا على ما فى التحديد من دفع ذلك اللبس . يقول : متمثلاً بأعمال الحج : « فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفا . وقال نبدأ بما بدأ الله به . ولم أعلم خلافًا أنه لو بدأ بالمروة ألغى طوافًا . حتى يكون بدؤه بالصفا . وكما قلنا فى الجمار . إن بدأ بالآخرة قبل الأولى أعاد حتى تكون بعدها . وإن بدأ الطواف بالصفا والمروة قبل الطواف بالبيت أعاد . فكان الوضوء فى هذا المعنى أوكد . . . والله أعلم » .

وقال : « أخبرنا مالك عن عمرو بن يحيى عن أبيه أنه قال لعبد الله ابن زيد : هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضأ ؟

قال عبد الله بن زيد : نعم . فدعا بوضوء فأفرغ على يديه ثم مضمض واستنشق ثلاثا . ثم غسل وجهه ثلاثة . ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين . ثم مسح برأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر . بدأ بمقدم رأسه . ثم ذهب إلى قفاه . ثم ردهما إلى المكان الذى بدأ منه . ثم غسل رجليه » .

قيل شرح رأيه الكثير . ومنه أنه تعالى قال : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم » والفاء للتعقيب . وظاهر الآية يقتضى وجوب تقديم غسل الوجه ، فإذا ثبت هذا وجب الترتيب فى سائر الأعضاء ، ضرورة أنه لا قائل بالفرق . وحرف الفاء داخل على غسل الوجه صريحًا ، وقد بدأت به الآية ، وعلى مجموع أفعال الوضوء التى تتابعت بعده .

ومن ناحية أخرى فهذه الأعمال متتابعة الترتيب فى الآية ، متتابعة الترتيب فى

السنة ، فالأمر واقع بالوضوء على هذا الترتيب ، فيجب القيام به على هذا الترتيب . قال النبي أعمال الحج « ابدأوا بما بدأ به الله » .

والبدأ بما بدأ به الله ، والترتيب على ما ورد فى قوله ، أحوط . وفيه تعبد . وقياس على الترتيب فى أعمال الصلاة .

ومثلا آخر : رأيه فى القرء .

يقول تعالى : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) والقرء يطلق على الحيضة كما يطلق على الطهر .

والعرب تقول عن القرء إنه الوقت المعتاد . «للحمى قرء » أى دور معتاد تكون فيه . و « للمرأه قرء » أى وقت معتاد تحيض فيه وتطهر فيه .

نقل البخارى فى صحيحه عن أبى عبيدة معمر بن المثنى قال : (أقرأت المرأة إذا دنا حيضها . وأقرأت إذا دنا طهرها) وقال ابن قتيبة فى غريب القرآن : (وإنما جعل الحيض قرءاً والطهر قرءاً لأن أصل القرء فى كلام العرب الوقت . يقال رجع فلان لقرئه ، أى لوقته الذى كان يرجع فيه . ورجع لقارئه أيضاً) .

وقد اختار الشافعى أنه الطهر ، لا أنه الحيضة .

قالوا : ناقش الشافعى أبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣)[١] فى القرء . هل هو الطهر أو الحيضة . وكان الشافعى يقول إنه الحيضة والقاسم يقول إنه الطهر . فلما انتهيا من المناقشة صار كل منهما إلى قول صاحبه . . والظاهر أن هذا الذى قالوه بعض طريقة الشافعى فى الحوار . فقد اشتهر عنه أنه كان يقول لخصمه أحياناً تقلد قولى وأتقلد قولك ليصلا إلى أعماق المسألة . كما سنرى بعد . فالطهر رأيه أولا وآخراً . .

قالت أم المؤمنين عائشة لزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وغيرهما : الأقراء الأطهار . وقال صحابة آخرون الأقراء الحيضات . والشافعى يختار قول عائشة وزيد وعبد الله ابن عمر ويرجحه باللغة والسنة وبالقرآن . ويقول فى الرسالة « الحيض هو أن يرخى الرحم الدم حتى يطهر. والطهر أن يقرى الرحم الدم فلايظهر . ويكون الطهر والقرْى الحبس

---

(١) تلميذ الشافعى فى الفقه ، وأبى زيد الأنصارى والأصمعى وأبى عبيدة فى اللغة والأدب . له كتب فى غريب القرآن وغريب الحديث وفضائل القرآن وعدد آى القرآن والناسخ والمنسوخ وكثير سواها .

لا الإرسال . فالطهر — إذ يكون وقتًا — أولى فى اللسان بمعنى القرء لأنه حبس الدم » ثم يستشهد على رأيه الكتاب والسنة ويناقش الرأى الآخر .

* * *

ولكم أشهد الشافعى خُضّار حلقته آيات حريته وشجاعته : كان يرى الإمامة فى قريش[1] كما يراها الجمهور وأبو حنيفة ومالك وابن حنبل ، لا كما يراها فريق من المعتزلة ، أو يراها الخوارج .

وكان لا يرى الانتخاب شرطًا للإمامة ، بل قد يفرض الخليفة نفسه على الناس فيبايعونه . ولا يشترط الهاشمية — كالشيعة — الذين يرون النبى أوصى بالخلافة لعلى والخلفائه .

قال حرملة : سمعت الشافعى يقول كل من غلب على الخلافة بالسيف حتى يسمى خليفة ويجتمع الناس عليه فهو خليفة . قال حرملة يعنى من قريش ، يغزى معه ويصلى خلفه الجمعة ، ومن لم يفعل فهو صاحب بدعة .

ويرى الشافعى أبا بكر أولى من على بالخلافة ، وعمر أولى من على بها . ويأتى بعثمان قبل على فى الترتيب . ويرى عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين : وهو واحد من بنى أمية .

وحسبنا زواجه من حفيدة عثمان ، وتكنية ابنه بأبى عثمان ؛ دلالة على مكانته عنده مع حبه الذى لا يتناهى لعلى .

قال له قائل : ما رأيت هاشميًا يقدم أبا بكر وعمر على علىّ غيرك . قال : على ابن عمى وابن خالتى — ولو كان كما قلت لكنت بهذه الكرامة أولى . ولكن ليس الأمر كما تتمنى .

ومع أنه كان يرى معاوية وأصحابه الفئة الباغية ، واتخذ فى كتابه (السير) سنة على فى معاملة البغاة حجة ، كان كأبى حنيفة وعمر بن عبد العزيز والحسن البصرى ،

---

(١) حدث الشافعى فى الأم « . . أن قتادة بن النعمان وقع بقريش فكأنه نال منهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا ياقتادة لا تشتم قريشاً فإنك لعلك ترى منها رجالا ، أو يأتى منها رجال ، تحتقر عملك مع أعمالهم ، وفعلك مع أفعالهم ، وتغبطهم إذا رأيتهم — لولا أن تطغى قريش لأخبرتها بالذى لها عند الله » .

لا يستحسن الخوض فى حديث معاوية على نحو ما قال السابقون : (تلك دماء طهر الله منها يدى فلا أحب أن أخضب بها لسانى) .

ومن قبله بايع أستاذه ابن عبـاس ليزيد بن معاوية ثم لم يتدخل فى السياسة حتى مات .

قيل للشافعى يوماً إن فيك بعض التشيع لأنك تظهر حب آل محمد . قال : « يا قوم ألم يقل رسول الله : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » أليس من الدين أن أحب قرابتى وذوى رحمى إذا كانوا من المتقين » ؟.

وحضر ذات يوم مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال : لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم . هم أحق بالكلام . ولهم الرياسة والفضل .

ولما نسب إليه التشيع فى مجلس الإمام أحمد بن حنبل قال أحمد : والله ما رأينا منه إلا خيرا . . اعلموا أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله تعالى شيئاً وحرم قرناءه وأشكاله ، حسدوه فرموه بما ليس فيه . وبئست هذه الخصلة من أهل العلم .

قال رجل فى مجلسه ما نفر الناس من على إلا لأنه كان لا يبالى بأحد . فقال الشافعى : كان فيه أربع خصال ما اجتمعت خصلة واحدة لإنسان إلا ويحق له ألا يبالى بأحد : كان زاهداً والزاهد لا يبالى بالدنيا وأهلها . وكان عالماً والعالم لا يبالى بأحد . وكان شجاعاً والشجاع لا يبالى بأحد . وكان شريفاً والشريف لا يبالى بأحد .

فالشافعى يعلن آراءه لا يهمه خلاف غيره من الخوارج أو المعتزلة أو الشيعة أو أصحاب مذهب السلطان ، أو الدولة التى نكلت بالشيعة ، وجاءت على جثث بنى أمية . ويعطى أهل البيت كل قلبه . ومع أنه كان يرفض شهادة الرافضة لقولهم الزور . فقد كان لا يهاب أن يسلقه المرجفون بألسنتهم من أجل حبه لأهل البيت . ويقول فى جسارة :

إن كان رفضاً حب آل محمد   فليشهـد الثقلان أنى رافضى

وسيعلن فيما بعد ما هو كامن فى عقله الباطن ، من عروة وثقى تربطه بعلى . . قال : « رأيت وأنا باليمن فى المنام كأنى جالس فى سواء الطواف ، إذ قيل هذا على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فقمت إليه وسلمت عليه وصافحته وعانقته . فخلع خاتمه من

إصبعه فجعله فى إصبعى فلما أصبحت قلت . . جئنى بالمعبر . . . فقال أبشر . . أما رؤيتك على بن أبى طالب فى المسجد الحرام فهو النجاة من النار . وأما مصافحتك إياه فهو الأمان يوم الحساب . وأما نقله الخاتم فى إصبعك فسيبلغ اسمك فى الدنيا حيث يبلغ اسم على بن أبى طالب » .

* * *

جلس أحمد بن حنبل فى حلقة الشافعى إذ قدم أحمد مكة فى سنة ١٨٧ ، وسنة١٩١ فراعه كل ما رآه عنده من علوم القرآن والسنة والبلاغة ، إلى آيات الشجاعة وشريعة الإنصاف التى هى ديدن الأئمة ، وملاك الأمر فى الحلقة .

فالأستاذ يقول : « إن أصبتم الحجة فى الطريق مطروحة فاحكوها عنى فإنى قائل بها » ويقول « ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ، ويكون عليه رعاية من الله » و« ما ناظرت أحداً إلا ولم أبال بين الله الحق على لسانى أو لسانه » .

ويقول : « ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها إلا هبته ، واعتقدت مودته ، ولا كابرنى على الحق ودفع الحجة الصحيحة إلا سقط من عينى ورفضته » ويقول: «وددت أن كل ما أعلمه يعلمه الناس ، أوجر عليه ، ولا يحمدوننى » .

كان فى حلقته والناس يتقاطرون عليه من كل أرجاء العالم ، وسفيان بن عيينة يحدث فى حلقته ، وإسحاق بن راهويه (١٦١ — ٢٣٧) أستاذ البخارى وداود بن على ، أو « شهنشاه الحديث » كما يسميه أهل خرسان ، يكتب أحاديث سفيان . فإذا أحمد ابن حنبل يجذب إسحق مرات ويقول له : قم حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله . . . فأتى به فناء زمزم ، فإذا الشافعى هناك ، وعليه ثياب بيض ، فأجلسه إلى جانبه وقال : يا أبا عبد الله هذا إسحق بن راهويه الحنظلى . فرحب به ، وحياه ، فتذاكرا . . فانفجر له منه علم أعجبه . . لكن إسحق لم يحسب أنه الرجل الذى دعاه لرؤيته ، فقال لابن حنبل : هلم بنا إلى الرجل .

قال ابن حنبل : هذا هو الرجل .

قال إسحق : يا سبحان الله أقمتنا من عند رجل يقول حدثنا الزهرى ، فما توهمت إلا أن تأتى بنا إلى رجل مثل الزهرى أو قريب منه ، فأتيت بنا إلى هذا الشاب !

قال ابن حنبل : يا أبا يعقوب اقتبس منه فإنى ما رأت عيناى مثله . . فكان إسحق يجلس يسأل ويناظر .

ناظره مرة فى جلود الميتة إذا دبغت . .

وسأله مرة عن جواز إجارة البيوت بمكة فأجازها .

فروى له إسحق حديثاً عن عائشة عن النبى فى كره إجارتها ، فلما فرغ إسحق سكت الشافعى برهة يستجمع ويسترجع ثم شرعا يتناقشان . فالشافعى يحتج بأحاديث النبى ، وإسحق يحتج بأقوال الفقهاء .

قال الشافعى : لو قلت قولك احتجت أن أسلسل . أنا أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت تقول : عطاء وطاوس وإبراهيم والحسن وهؤلاء لا يرون ذلك ! هل لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ؟

والتفت إسحق إلى بعض من معه من أهل مرو ، وقال بلغتهم ما معناه أنه رجل « متعالم » ، فأدرك الشافعى من هذا التراطن أن محدثه بحاجة إلى مزيد فهم وعلم ، فعرض عليه الشافعى أن يتناظرا .

وتناظرا فكانت حجة الشافعى بنصوص الآيات ومعانى الكلمات ، وهيهات أن يلحقه فى ذلك عالم خراسان .

وسكت إسحق ولم يتكلم . . قال بعد أعوام طوال فى القرن التالى « فلما تدبرت ما قال من قول رسول الله . علمت أنه قد فهم ما غاب عنا » .

وبقى فى خلده من مفاوهة الشافعى الكثير ، فصار يذكره بأنه « خطيب العلماء » . وكلما تذكر أنه خطئ الطريق قال : واحيائى من محمد بن إدريس .

ويمضى الدهر فيروى داود الظاهرى قول إسحق له (ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعى بمكة فسألته عن أشياء فوجدته فصيحاً حسن الأدب . فلما فارقناه أعلمنى جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم أهل زمانه بالقرآن وأنه قد أوتى فيه فهماً . فلو كنت عرفته للزمته) . قال داود . . ورأيته يتأسف على مافاته منه .

وكان ابن حنبل يلازم إسحق . قال : « لولا الشافعى ما عرفنا فقه الحديث »

وقال عن تبحر الشافعي فى القرآن والسنة : « كانت أقضيتنا فى أيدى أصحاب أبى حنيفة ما تنزع ، حتى رأينا الشافعي ، فكان أفقه الناس فى كتاب الله وسنة رسول الله »

تذاكر ابن حنبل فى مسألة فقال قائل : يا أبا عبد الله لا يصح فيها حديث فقال : إن لم يصح فيها حديث ففيه قول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه .

ذلك قول ابن حنبل صاحب المسند الأعظم .

وقف واقف فى مكة على حلقة عامرة حول رجل فسأله فقيل : هذا محمد بن إدريس الشافعي يقول : سلونى عما شئتم أخبركم بآية من كتاب الله ، وسنة عن رسول الله ، وقول صحابى . فقال فى نفسه : إن هذا الرجل جرىء ! وبدا له أن يعاجزه ، فسأله عن المحرم يقتل الزنبور .

قال الشافعي : قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عجيز عن ربعى بن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر » . وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعد عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب أن عمر رضى الله عنه أمر المحرم بقتل الزنبور » .

فهو يجادل بنصوص الكتاب ، وبنصوص الأحاديث والسنن ، وهى ، فى كل حوار حاوره ، عمدته وعدته وأساس منهاجه .

فى فناء زمزم جاءه كتاب عبد الرحمن بن مهدى بن حسان » (١٣٥ — ١٩٨) شيخ المحدثين بالعراق[١] يلتمس أن يضع كتاباً يذكر فيه معانى القرآن وشروط قبول الأخبار وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة فوضع له كتاباً سيسمى فيما بعد

---

(١) كان خصيماً لأهل الرأى وزعيماً لأهل الحديث بالعراق . أملى على القواريرى عشرين ألف حديث حفظاً ، ولم يره أحد ضاحكاً ضحكاً بقهقهة إلا التبسم . فإن خشى أن يغلبه الضحك أمسك على فمه . . وكان يقول . ما يدرى أبو حنيفة ما العلم . . ! ! ومع ذلك أراد رجل أن يتقرب إليه بسوء فى أبى حنيفة فصده . قال الرجل : إنما وضعت كتباً فى الرد على أبى حنيفة . قال : إنما ترد عليه بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار الصالحين فأما ما فعلت فرد الباطل على الباطل . . فذهب الرجل يتكلم فقال له : محرم عليك أن تتكلم أو تتمكن فى دارى . وكان لا يتحدث فى مجلسه . ولا يبرى قلم فى مجلسه . كأن الناس فى صلاة . قال الشافعى عنه : لا أعرف له نظيراً فى الدنيا .

الرسالة ، وضع فيها منهاجه فى أصول الفقه لاستنباط الأحكام من القرآن . وما تزال حتى اليوم لم يزد عليها الفقهاء ، فى نحو ألف عام ومائتى عام ، إلا تفاصيل .

* * *

فى فناء زمزم كذلك تلمذ له جماعة من الفقهاء منهم الحميدى ، صاحبه عند سفيان ابن عيينة ، وقد جالس سفيان عشرين عامًا وصار من كبار شيوخ البخارى . ومنهم أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن شافع — ابن عمه — نشأ بمكة وروى عن ابن عيينة وغيره . وحدث عنه جماعة ، لكن لم ينتشر عنه كبير فقه ، مات سنة ٢٣٧ .

ومنهم وراق الحميدى : أبو بكر محمد بن إدريس .

ومنهم أبو الوليد موسى بن أبى الجارود . ستجرى بينه المكاتبات غداً وبين داود بن على فى معنى القياس وإبطاله — وكان ابن أبى الجارود يقول : ما رأيت أحداً إلا وكتبه أكبر من مشاهدته إلا الشافعى فإن لسانه أكبر من كتبه . . ويقول : محمد بن إدريس وحده يُحتج به كما يحتج بالبطن من العرب . وستؤول إليه رياسة الحلقة فى مكة .

كانت مكة والمدينة قد أثخنتهما الدولتان الأموية والعباسية بالجراح ، نحو قرن ونصف قرن من الزمان ، من ضرب الكعبة بالمجانيق ، إلى قتل الصحابة والتابعين ، إلى الفتك بأهل البيت من أبناء على وأبناء الزبير ، وكان أهل البلدتين المباركتين يتبادلان مع الدولتين أزمة ثقة . والخلفاء فى الدولتين يبتغون إليهم الوسيلة من كل وجه . لكنهم كانوا أعزة متعالين . أراد الخليفة عبد الملك بن مروان أن يمد إلى سعيد بن المسيب فقيه المدينة بسبب [1] . فخطب بنت سعيد لابنه الوليد بن عبد الملك عندما ولاه العهد . فأبى سعيد. وبعد ذلك جاءه تلميذه أبو وداعة ، بعد إذ تخلف أيامًا ، فسأله فأنبأه بوفاة زوجته وفاقته وانشغاله بإصلاح أمر العيال . فزوجه ابنته . . . وصيرها إليه . . أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله وسنة رسوله .

وفى سنة ١٦٠ حج المهدى ففرق فى الحجاز ٣٠ مليون درهم ووزع ١٥٠ ألف ثوب جاءته من مصر و ٣٠٠ ألف دينار ، وحمل إليه الثلج من الشام . فكان أول ثلج يدخل

---

(١) رفض سعيد بيعة ابن الزبير فضرب ستين صوتاً ، ورفض بيعة سليمان بن عبد الملك فضربه والى المدينة ستين سوطاً . والشافعى يأخذ بأحاديثه المرسلة .

مكة . وتزوج بفتاة من أهل المدينة . واختار خمسمائة من الأنصار ليكونوا حرساً خاصاً له فى بغداد .

وفى سنة ١٨٦ أنفق الرشيد مليوناً وخمسمائة ألف دينار فى الحج . وكان يتلمس العلماء . قصد إلى الفضيل بن عياض فوعظه فلما هم ليخرج قال : هل عليك دين ؟

قال الفضيل : دين لربى .

قال الرشيد : أعنى ديناً للعباد .

قال الفضيل : إن الله لم يأمرنى بهذا .

فأعطاه الرشيد ألف دينار ، فردها .

قال الفضيل : أنا أدلك على النجاة وتكافئنى بهذا !! سلمك الله ووفقك .

وعرض الرشيد على المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى قضاء المدينة وجائزته أربعة آلاف دينار فامتنع . . قال : يا أمير المؤمنين يخنقنى الله أحب إلى من القضاء !! فأعفاه وأجازه بألفى دينار .

* * *

استعصمت مكة والمدينة . فهما إن لم تكونا عاصمتى دولتين ، إنهما عاصمتا الإسلام الخالدتان اللتان لا تُنافسان .

إلى الأولى يتجه المسلمون على مدار اليوم وعلى مدار الزمن . وفى الثانية يرقد جثمان سيد الخلق أجمعين وأحبهم إلى قلوب المسلمين .

كان احتضان الدولة العباسية لفقه أبى حنيفة حرياً بأن تدفع مكة أو المدينة إلى الوجود بعالم يعيد سيادة الفقه إلى مهبط الوحى فى مكة والمدينة . فما أعظمها آية أن يجىء هذا العالم المأمول عربياً قرشياً ، يملأ طباق الأرض علماً .

ولقد طوع له الزمان أن تثبت قدمه أحد عشر عاماً فى حمى البيت الحرام ، حيث المسلمون جميعاً يتمنون مجرد رؤيته أو البقاء ساعات عنده ، وحيث العلم الإسلامى كله يتناظر فيه الحجيج كل عام . فما كان أروح للشافعى أن يبقى هنالك ، فى هدوء الزمن وراحة البدن . لكنّ هذه العوامل جميعاً لم تصرفه عن قدره المقدور عليه وهو أن

ينقل كفاحه إلى ميادين جديدة ، بعيدة ، فيها المواقع الحاسمة . فقصد إلى العاصمة ، كأنما يستعجل المعركة .

كان الجهاد فى سبيل الرأى والاجتهاد بالرأى طبيعة فيه ، وطريقة له ، وهما كلمتان، من أصل واحد ، معناهما عنده واحد . فالإسلام علم وعمل .

البابُ الخامِسُ

فى العراق

إن تكلم أصحاب الحديث
يومًا فبلسان الشـــافعى »
« محمد بن الحسن »

الفصل الأول

بغداد مدينة السلام : عاصمة العلوم

دخل الشافعي بغداد وهي تضطرب بالأفكار، وبالناس من كل الأجناس ، وبها المجوس والزنادقة والشعوبيين الكارهين للإسلام، ومنهم الزرادشتيون والمانويون والمزدكيون والراوندیون والمقنعيون والخرّمية .

أما المسلمون فمنهم شيعة وخوارج وقدريون ومرجئة ومتكلمون ومعتزلة. ولكل فرقة فرق. وأما أهل السنة فهم الدولة وجمهور الأمة ، لكنهم مذاهب شتّى . وكان المسلمون يقودون العالم فى العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية لتتعالى فى الأسماع ، أسماء من أعظم الأسماء فى الرياضيات العالية ، والفلسفة والأدب ، إلى جوار أعظم الأسماء فى الفقه العالمى وأعظم الخلفاء بعد الخلفاء الراشدين .

لقد كان المسلمون فى النصف الثانى من القرن الثانى ، طوال حياة الشافعى ، يحققون معجزة أخرى فى فتوح الفكر . وبهذا دخل عالم قريش بغداد كما يدخل المعدن الحر فى البوتقة .

الزنادقة :

دان الفرس قبل الإسلام بأخلاط من الديانات :

الزرادشتية : (أتباع زرادشت ـــ مات نحو سنة ٥٨٣ ق. م) يؤمنون بإلهين للخير والشر . والمانوية (أتباع مانى ولد سنة ٢١٥ق.م) يرون للعالم أصلين هما النور والظلمة . ووجود الناس عندهم جناية فلا داعى للزواج . والمزادكة (أتباع مزدك ٤٨٧م) يرون شيوع المال والنساء . ولما طرد جوستنيان العلماء الوثنيين فى أثينا ، وأغلق الأكاديمى ، رحل علماء اليونان إلى جنديسابور فآواهم كسرى أنوشروان (٢٥٩م). وبدأ تخليط وثنى إغريقى فى الأفكار الوثنية الفارسية .

وفى عهد المنصور ظهر الراوندية (من راوند من أعمال أصفهان) ينادون بأن الروح انتقل من عيسى عليه السلام حتى الأئمة من أبناء على ! وبأن المنصور إله، فخرج من قصره يحارب جموعهم وكادوا يقتلونه !.

وهم فى خبئ أمرهم أشياع أبى مسلم الخراسانى الذى فتك به أبو جعفر .

وفى عهد المهدى سنة ١٦١ ادعى حكيم المقنع الألوهية . ونادى أتباعه بتناسخ الأرواح . وأن الخلافة آلت إلى محمد بن الحنفية فالعباسيين فأبى مسلم . عطلوا الصلاة والزكاة والحج . وفتك المهدى بهم وبآلهتهم . وأنشأ ديوان الزنادقة لملاحقة الزنادقة ، وأنشأ هيئة علمية لمناظرتهم وتأليف الكتب ضدهم .

وفى عهد المأمون ظهر بابك الخرّمى بقصد تحويل الملك من العرب إلى الفرس . يسقط أتباعه الفروض الدينية ، ويكثرون الصلاة على فيروز بن بنت أبى مسلم !

الخوارج :

شجر النزاع على الخلافة بعد وفاة النبى ، وبويع لأبى بكر فعمر فعثمان . حتى إذا قُتل ، بايع المسلمون علياً إلا كبراء بنى أمية وبعض الصحابة ، وقامت الحرب بين على وطلحة والزبير بدعوى قعود علىّ عن قتلة عثمان ، فظفر بهما فى « وقعة الجمل » ثم تلاقى مع جيش معاوية فى العالم التالى فى « صفين » . ولما استيقن معاوية وجيشه الهزيمة رفعوا المصاحف ، طلباً للتحكيم ؛ فقبل علىّ . واختار صحبه أبا موسى الأشعرى ، فاختاره . واختار معاوية عمرو بن العاص ، فاتفق الحكمان على خلع صاحبيهما ، فخلع أبوموسى علياً ، لكن عمراً أقر معاوية !

وخرج على أمير المؤمنين على ، طائفة سموا أنفسهم «الخوارج» لخروجهم فى سبيل الله . وظفر بهم فى «النهروان» . وتواعد جماعة ابن ملجم الثلاثة لليلة من رمضان سنة ٤٠ على قتل على ومعاوية وعمرو غيلة . فقتل أمير المؤمنين ،وأصيب معاوية ولم يهلك . أما عمرو فكان استخلف « خارجة » على الصلاة فحسبه القاتل عمراً فقتله . «فأراد عمراً وأراد الله خارجة » . وقامت دولة بنى أمية من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٢ (٦٦١ — ٧٤٩) .

كان الخوارج — مع خطيئتهم — عرباً خلصاً ، تظهر البساطة والأصالة فى مبادئهم . يوادعون العدو وهم يحاربون حتى يصلّوا . وكانوا يأخذون الناس وأنفسهم بالشدة ويؤاخذون

علياً لعدوله عن حكم الله إلى التحكيم . ويؤاخذون عثمان بعد سنوات ستة من حكمه ، ومعاوية وعمراً . ويردون أحاديث الصحابة الذين ليسوا مثلهم . ثم انقسموا فرقاً ، جملة نظرياتها أن الخلافة بانتخاب حر بين عامة المسلمين ، وأن الإيمان عقيدة وعمل وورع وتضحية نفس .

قال عبد الملك بن مروان بعد محاورة واحد منهم : لقد كان يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم . وقال عمر بن عبد العزيز نفسة لمن جادله منهم : (إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا أو متاع . ولكنكم طلبتم الآخرة فأخطأتم سبيلها) .

الشيعة :

صالح معاوية الحسن بن على ثم نكث . وأخذ العهد لولده يزيد بالسيف . ولم يكد يهلك حتى خرج الحسين وقتل فى كربلاء سنة ٦١ فأرث النار فى قلوب المسلمين ، وبخاصة المتشيعين لعلى ، ومنهم كثيرون فرس الأصول . وكانت (شاه زنان) إحدى بنات يزدجرد آخر الأكاسرة زوجة للحسين ، فرأى الفرس أولاد الحسين وارثين لملوكهم وهم يعتنقون مبادئ الحق الإلهى للملوك ، ومنها أن الملك يورث واختلط التفكير الفارسى فى نظرية الدولة بالحب لعلى وأبنائه فصار مذهباً مكنت له الكوارث التى كرثت أهل البيت . وتوالت انتفاضات الشيعة ضد الأمويين . وتعاقبت فتكات الأمويين بهم . حتى إذا تقلد المقاليد بنو العباس كانوا أشد نكالا ببنى عمومتهم .

وانشعب المتشيعون لعلى ، فصاروا شيعاً : أجاءوا كلهم علياً بعد النبى مباشرة . لا يجعلون بينهما إلا رتبة النبوة . وأجمعوا أن الإمامة لعلى ثم ولديه الحسن والحسين ، ثم ينقلها فريق إلى أخيهما — من غير فاطمة الزهراء — محمد بن الحنفية . وينقلها الآخرون من الحسين إلى أبنائه ، على زين العابدين فابنه زيد أو ابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق ، ثم ينقسمون : فمنهم « الإسماعيلية » نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، ومنهم الخلفاء الفاطميون . ومنهم « الاثنا عشرية » يسلسلون أئمتهم إلى اثنى عشر إماماً .

وفى الإمام عندهم قبس إلهى قالوا إنه نقل من النبى لعلى ومن على إلى من بعده . والإمام ممتاز بين البشر ، قيم على الناس ، معصوم . وهو المشرع الوحيد . وهم يؤمنون بالتقية أى إظهار ما لا يبطنون اتقاء للمكروه .

ويمتاز فقههم بأنه يقوم على أحاديث منسوبة إلى أهل البيت .

والشيعة الزيدية يحصرون الإمامة فى أولاد على من فاطمة ، ولا يكفرون أبا بكر وعمر . وعلى أفضل الصحابة عندهم .

وقد رفض شيعة العراق مذهب الزيدية لأنه لم يتبرأ من أبى بكر وعمر . وسموا رافضة لذلك ، أو لرفضهم إجماع الأمة على أبى بكر وعمر .

وانقسم الرافضة أقساماً منها المهدية يقولون برجعة الإمام المنتظر .

المعتزلة :

اعتزل واصل بن عطاء أستاذه الحسن البصرى ، وانضم له آخرون فسموا « المعتزلة » لذلك ، أو لأنهم اعتزلوا سائر المسلمين . ولم يسلم المعتزلة من الانقسامات الداخلية . وباعدت طريقتهم بينهم وبين الجمهور فبدّعهم . فمن مبادئهم أن : من رأى منكراً فعليه أن يغيره بلسانه ، فإن لم يستطع فبيده ، وإلا فبالسيف . فساروا فى الناس سيرة قسوة . وخرجوا بذلك على مبدأ حرية الفكر . كما صنعوا فى محنة خلق القرآن .

وهاجموا القائلين بالجبر ، وغالبية الشيعة ، والمارقين من الخوارج والمرجئة ، وأنزلوا الصحابة منزلة سائر الناس .

لكنهم مكنوا لعلم الكلام ليردوا على أعداء الإسلام بأدلة عقلية لا نقلية من النصوص ، فالذين لا يؤمنون بالإسلام لا تحجهم نصوصه .

يقولون : إن معنى التوحيد أن الله منزه عن المثل لا تنفصل عنه صفاته . وإن الإنسان حر يختار أفعاله . ويتوقفون فى الحكم على أصحاب الجمل وصفين ، وعلى وعثمان وخاذليه — فثمت — فى رأيهم — فريقان أحدهما مخطئ ، غير معلوم . .

والكبيرة عندهم ما نزل فيها وعيد . ومنها ما يصل إلى الكفر . ومنها ما هو أقل . ويقول أكثرهم بوجوب وجود الإمام (الخليفة) وبعضهم يراه واجباً بانتخاب شعبى وبعضهم يرى أن يكون من قريش .

وكان منهم أكبر الكتاب ضد الزنادقة ، كواصل ، له كتاب : (الألف مسألة) للرد على المانوية . ومنهم أبو الهذيل العلاف . ألف سبعين كتاباً فى الرد على الزنادقة

وعاش مائة عام (١٣٥ — ٢٣٥) فى الدفاع عن الإسلام ، وأسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل . وله كتاب اسمه (ميلاس) باسم مجوسى أسلم على يديه . ومنهم الجاحظ مات عن سن عالية (١٦٠ — ٢٥٥) وكان أمة وحده . . أبدع كل فى علم . ونقد أرسطو قبل روجير بيكون ببضعة قرون . وبهذه الطبقة من العلماء وتلاميذهم الجهابذة تبوأ المعتزلة مكانتهم .

المتكلمون :

الكلام عند ابن خلدون (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية ، بعد فرضها صحيحة من الشرع ، بالأدلة العقلية . والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة) .

خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بالفلسفة بعد ترجمة الكتب اليونانية ، ليستعملوا أسلحة خصوم الإسلام ضدهم . واستعملوا الأدلة العقلية لا الأدلة النقلية المستندة إلى النصوص ، أو التى تخاطب الإحساس . فأوّلوا آيات الجبر والآيات التى تشير إلى الجسمية والمكان ، كاستوائه سبحانه على العرش . واختلفوا مع الجمهور ، فى مسألة خلق القرآن .

قالوا : إن القرآن كلام الله والكلام محدث من الذات الإلهية . والآيات تفيد ذلك « إنا أنزلناهُ » و « ما نَنْسَخْ مِنْ آية أو نُنْسِها نأتِ بخير منها أو مثلها » فالقرآن عندهم مخلوق . أما أهل السنة فيؤمنون بالآيات كما نزلت . فالله سبحانه « ليسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » — والصحابة لم يتعرضوا للمعانى وهم صفوة المسلمين . فمن يفتحون أبواب الجدل فى المعانى « أصحاب بدعة » . وسيجىء بعدُ ، من يتوسطون فيقولون : إن الكلام معنى نفسى يعبر عنه بالألفاظ — فالمعنى النفسى القائم بذاته قديم ، أما القرآن بمعنى المقروء فهو مخلوق .

ودخلت فى محيط الكلام كل المسائل الخلافية بين المفكرين ، مثل الجبر والاختيار ، والإيمان أهو قول أم قول وعمل ، والخروج على السلطان الجائر ، واستعمال السيف دفاعاً على العقيدة ، ونظريات الملائكة [illegible]

المرجئة :

لم ينضم بعض الصحابة إلى أى من الفرق بعد مقتل عثمان ، مثل سعد بن أبى وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر . فوجدت نظرية الحياد . ثم صار الحياد مذهباً فكرياً هو إرجاء الحساب حتى يوم القيامة . . ولا كبيرة مع الاستغفار . قالوا : يكفى للتدليل على وجود الإيمان كاملا الإقرار بالشهادتين (١) ولا يجب للتدليل عليه القيام بالأعمال الواجبة بالأوامر الدينية ، وتاركها ليس بكافر ، بل الناس يزوجونه ويرثهم ويرثونه . وتمادى بعضهم واكتفى بالتصديق بالقلب دون الإقرار باللسان .

ولما قتل أسامة بن زيد عباس بن نهيك بعد أن قال (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، إذ رأى أنه نطق بالشهادة تعوذاً من القتل ، قال النبى : كيف أنت إذا خاصمك يوم القيامة بلا إله إلا الله ؟ فتمنى أسامة لو أن إسلامه كان يومئذ .

قال قائل للنبى يوماً : يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال : قل آمنت بالله ، ثم استقم .

القدرية :

قال بالقدر معبد الجهنى وقد قتله الحجاج لسبب سياسى ، هو خروجه مع ابن الأشعث سنة ٨٠ بدمشق . كان يقول إن الإنسان حر الإرادة . يصنع أفعاله ، ويقدرها بعلمه وإرادته ، وينفذها بقدرته .

وقال قوله غيلان الدمشقى . جادله عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالا فهديتنى ، والله لا أتكلم فى شىء من هذا أبداً . فلما مات عمر ، عاد غيلان يسيل فى الأمر سيل البحر .

الجبرية :

يقولون إن الله قدر أعمال العباد فى علمه وأرادها بارادته وأنفذها بقدرته . واشتهر

---

(١) راجع فى نظرية أبى حنيفة فى [illegible] أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام) للمؤلف – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

عنهم أن قدرة العباد مسلوبة واختيارهم ظاهرى ، فهم مجبورون . وهذا كذب على الله .

سأل عمر سارقاً : ما حملك على السرقة . قال قضاء الله وقدره . . . فضربه ثلاثين سوطاً وقطع يده وقال : قطعت يدك لسرقتك ، وضربتك لكذبك على الله .

والمعتزلة يقولون إن الله أحاط علماً بما سيقع أو لايقع من أفعاله وأفعال العباد . وهو يريد أفعاله ويخلقها كما علم . أما أفعال العباد فقد فوض الأمر فيها يفعلون ما يشاءون . وهو يعلم ما يفعلون من خير أو شر ، وينذرهم عقوبته أو مثوبته .

والطائفتان من المعتزلة والجبرية مسلمون و إن خطئوا الطريق .

أما القدرية فيقول فيهم عبد الله بن عمر : (إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أنى برىء منهم وهم برآء منى . والذى يحلف به عبد الله بن عمر ، او أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر) .

أجل . . إنما نحن نسعى والله يرزق . ولا تفويض صرف ولا جبر صرف . ومبالغة أهل الجبر تجعل التكليف صورياً ! ومن الإيمان الإيمان بالقدر خيره وشره . . وأن مشيئتنا فى العمل لا تكون من دون الله سبحانه .

العلوم الأدبية واللغة والتاريخ

كانت بغداد ملتقى مدرستى الكوفة والبصرة لتدوين الأدب العربى واستنباط قواعد اللغة . وحسبنا فى هذا المقام أن نشير إلى الخليل بن أحمد الذى نزح العباقرة من بحوره — وسيبويه (١٨٠) والكسائى والفراء وأضرابهما أو تلاميذهما — دع عنك رجال الأدب الذين قد يحصون ، ولكن تلاميذهم لا يحصون . وفى الفترة ذاتها وجاء المؤرخون الكبار . . . فبعد طبقة أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وشرحبيل بن سعد ووهب بن منبه جاءت طبقة القرن الثانى ومنها ابن شهاب الزهرى وعاصم بن قتادة وعبد الله بن حزم الأنصارى (١٣٥) وموسى بن عقبة (١٤١) وابن إسحاق صاحب المغازى (١٥١) ومعمر بن راشد ، ثم الواقدى (٢٠٧) وابن هشام صاحب السيرة (٢١٣) والمدائنى (٢٢٨) وابن سعد صاحب الطبقات (٢٣٠) .

العلوم الأجنبية :

دعا خالد بن يزيد بن معاوية (٨٥هـ) ٧٠٤ م المفصحين بالعربية من مصر فنقلوا كتب الصنعة — الكيمياء — من اللسان اليونانى . فكان أول نقل فى الإسلام . ونقلت له أو لمروان بن الحكم كراسات أهرون الطبيب الإسكندرى . وكان خالد قد جاء إلى مصر مع مروان سنة ٦٤ . وأمر عمر بن عبد العزيز بعض الروم فنقلوا كتاباً فى الطب إلى العربية أخرجه للناس بعد تردد . وجاءت دولة بنى العباس فشجع المنصور الترجمة من السريانية والهندية واليونانية والقبطية . وقيل إنه كلف الفزارى بترجمة كتاب الفلك الهندى « السدهنتا » أو السندهند الكبير . كما يسميه العرب

وفى عصر المهدى تعرف العرب على الأدب اليونانى فاستقبحوه او ثنيته . ثم جاء الرشيد فأدار عجلات الترجمة بقوة . وأنشأ داراً كبيرة للكتب . وكان يأتى بكتب الروم فى غزواته أو معاهداته لترجمتها . فى حين لم يكن أصحابها يعرفون ما بها .

وأقام المأمون مرصدين فى بغداد وصحراء تدمر قرب دمشق . وسمى دار الكتب دار الحكمة . وانطلق يساعد النقلة حتى أنشأ واحد منهم (حنين بن إسحق) مدرسة خاصة به للترجمة . وكان المأمون يدفع فيما يترجمه حنين بنفسه وزن الكتاب ذهباً . . . . !

ولما علم المأمون أن بصقلية مكتبة طلبها من أميرها الرومى لترجمتها فتوقف . فأنذره فوصلت .

وبلغ دخل أولاد موسى بن شاكر ، الذين رباهم المأمون ، أربعمائة ألف دينار يغدقون منها على العلماء والتراجمة لحسابهم . وكان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ، يعطى الناسخين ألفى دينار فى الشهر لينسخوا لحسابه .

العلوم الرياضية والطبيعية :

استعمل العرب الورق للكتابة على نطاق واسع ابتداء من القرن الثانى للهجرة — وفى أثنائه بدأت العلوم الرياضية والطبيعية فى بغداد بداية عالمية . بفحول عالميين . . والتواصل جلى حتمى ؛ بين النهضة العلمية وبين النهضة الفقهية . فكلاهما نتاج نهضة علمية انبثقت من الدين الذى صنع هذه الأمة . ووجهها إلى البحث فى كل فن وضرب

وحسبنا ، فى هذا المقام ، أن نذكر معاصرى الشافعى :

١ – جابر بن حيان: ولد فى سنة ٧٢١ أو ٧٢٢م – أى فى فاتحة القرن الثانى للهجرة وتعلم على كتب الكيمياء المترجمة لخالد بن يزيد ، وعلى الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة ، فشملته نفحات الإمام وكان يحلف به[1] . وتجلت طريقته العلمية فى تعبير من تعبيراته (عملته بيدى – وبعقلى – وبحثته حتى صح – وامتحنته فما كذب) . وهى طريقة العرب تعلمتها أوربة عليهم فى كل العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والطبية . ولهذا يدعوه الرازى (الطبيب) أستاذنا . ويقول عنه علماء الغرب : إنه أول من يستحق لقب الكيميائى .

استُقبل جابر فى بلاط الرشيد . وسيره الرشيد إلى القسطنطينية لإحضار الكتب لترجمتها . وقد قيل إنه فى أخريات أيامه قرب المأمون إلى على الرضا (حفيد الإمام جعفر) الذى صيّره المأمون ولى عهده ، وإنه عاش خمسة وتسعين عامًا .

٢ – الخوارزمى : ولد فى القرن الثانى ومات سنة ٢٣٢ – دعاه المأمون من خوارزم إلى بغداد حيث أقام مرصداً للنجوم ، وولاه عملا فى بيت الحكمة ليستمر فى كشوفه التى أبلغت الحضارة العلمية العالمية أوجها . بأمرين عظيمين فى تاريخ الإنسانية ، عاديين فى حياة رجل ! قد أحسنت أوربة استعمالهما : أولهما أنه كتب الحساب بالأرقام الهندية فصيرها عربية . وثانيهما أنه اخترع علم الجبر وكان من علماء الفلك العظام . له جداول رياضية وفلكية خالف فيها السابقين من فرس وهنود .

راعى فى ميل الشمس مذهب بطليموس فى كتاب (المجسطى) الذى بقى معمولا به حتى كوبرنكس سنة ١٥٣٠ للميلاد[2] .

---

(١) الإمام جعفر الصادق (٨٠ – ١٤٨) = ٧٠٠ – ٧٦٥ يمثل صميم الإسلام يجتمع فى نسبه النبى عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعلى . وهو إمام فى الدين والفقه وبحر فى العلوم الطبيعية .

(٢) ولم يكن من سبيل للعمل به إلا كتب العرب التى نقلته إلى كل العصور منذ نقل كتاب (السنتكس) تحت اسم كتاب المجسطى . وقد نقده فيما بعد جابر بن الأفلح فى كتاب أسماه إصلاح المجسطى . وكانت النظرية العربية – ويوافقها القرآن – أن الشمس لا الأرض مركز الكون ، فى حين كان بطليموس يرى أن الأرض مركز الكون . وكانت النظرية العربية أن الأرض جسم كروى سابح فى الفضاء . وكروية الأرض حقيقة عربية عبر عنها ابن طفيل (توفى سنة ١١٨٥ م) بأسلوب أدبى فى رسالة (حى بن يقظان) وما يزال كثير من المصطلحات الفلكية وأسماء النجوم عربية فى كل اللغات الأوربية .

نقل الأوربيون من كتبه الأرقام العربية فراعتهم سهولتها . فى حين كانت الأرقام الأوربية إذ تكتب بالحروف اللاتينية عسرة الاستعمال . يستحيل استخدامها فى الأرقام الكبيرة على ما نعرف الآن . فسهلت عليهم كل عمليات الحساب والمعادلات والمتواليات ليصلوا بالحساب إلى غير حدود . فتسابقوا إلى نقل كتبه منذ القرن السابع للهجرة . وبقيت المرجع الوحيد لأوربة حتى القرن السادس عشر للميلاد .

وإلى علامة الصفر (٠) والكسور العشرية التى كشفها العرب . يرجع الفضل فى بلوغ علوم الحساب والرياضيات العالمية مبلغها فى عصورنا الحالية .

ألف الخوارزمى كتاب الجبر والمقابلة بتشجيع المأمون . كما قال فى صدر كتابه . وما يزال الاسم العالمى للجبر هو الاسم العربى Algebre إقراراً بالفضل للغة العربية وللخوارزمى ذاته ، مثلما أن كلمة (ڤولت) تحية لالساندر ڤولتا . وكلمة وات تحية لجيمس وات ، وكلمة رونتجين تحية لوليم كونراد رونتجين . وكلمة أمبير تحية لاندرية مارى أمبير ، مع فارق ضخم ، هو أن الجبر علم بتمامه وليس مجرد باب من الأبواب أو مبدأ أو اختراع [١] .

٣ – الكندى : عنوان الحضارة العربية (١٧٥ – ٢٥٢) كان أبوه أميراً على الكوفة ، فلما ترعرع درس الفلسفة ومارس الطب . وصارت له مكتبة كبيرة تسمى « الكندية » . كما صار مؤدباً لابن المعتصم . ومال فى أغلب أمره إلى الرياضيات والفلك وعرف أنه واحد من كبار الفلكيين فى العالم ، إلى جوار أنه كان كاتباً وشاعراً يساجل أبا تمام فى مجلس المعتصم ! ويجيد السريانية واليونانية . وله رسائل فى صناعة الساعات وطريقة نصبها ، وفى الكيمياء ، وفى (إبطال دعوى من يدعى صنعة الذهب والفضة) وفى التقطير . وكان يقرر ضرورة دراسة الرياضة حتى تفهم الفلسفة عن دراية لا عن رواية .

---

(١) الإنجليز يستعملون كلمة (جوردزم) بدلا من خوارزمى فكتاب إسكندر ويلاردى يسمى (كارمن دى الجوردزمو) وكتاب يوحنا الهاليفاكسى أو (جون أف هاليفاكس) يسمى الجوردزم . والكتابان فى الحساب .

يقول كاجورى مؤرخ الرياضيات : إن القوى العجيبة فى علم الحساب تعزى إلى الأرقام العربية الهندية والكسور العشرية واللوغاريتمات . ولكن البحث لم يقف عند هذا الحد ، فقد استمر العلماء يبحثون ويحاولون كشف أسرار جديدة عن نشأة الكسور العشرية وإلى من يرجع الفضل الحقيق فى ذلك . وأخيراً أعلن العالم الرياضى بول لوكى فى سنة ١٩٤٨ أن اختراع الكسور العشرية يرجع إلى غياث الدين جمشيد الكاشى الذى توفى حوالى سنة ١٤٣٠ – وقد سبق ستيفن البلجيكى بمائة وستين عاماً وله مؤلفات رياضية منها مفتاح الحساب . ومنه نسخ مخطوطة بمكتبة ليدن وبمكتبة جامعة برنستون .

وهى نظرية علماء مدرسة الإسكندرية ونظرية أفلاطون .

عدد له ابن النديم عشرات المؤلفات منها رسالة فيها أن كل ما فى العالم كروى الشكل .

واستخدم الفرجار لقياس الزوايا الهندسية ، وقاس أثقال السوائل ، وأجرى تجارب جاذبية الأرض ، قبل إسحق نيوتن بثمانمائة عام .

ولئن كانت الفلسفة تمثل حضارة الأمة إن الكندى ، وهو العربى الخالص العروبة ، مثل على أن حضارة الإسلام حضارة علمية ، تستفيد من العلم وتفيده ، وتدلل بالدلائل على أن للعالم خالقًا خلقه . فلا عجب أن سمى فيلسوف العراب . يقول فيه جليوم كاردانو الإيطالى (١٥٧٦) : (هو واحد من الاثنى عشر عبقريًا الذين ظهروا فى العالم) .

حسبُنا فى هذا الباب هذه الأسماء الثلاثة من معاصرى الشافعى فى حياته ، مظهراً لبداية عصر العلوم الطبيعية والرياضية التى ازدهرت فى القرون التالية ، لتسلم اللواء إلى الحضارة المعاصرة وقد انتفعت أكبر انتفاع برياضيات عربية ، وعلوم طبيعية عربية ، ترجمت إلى الجامعات الأوربية[1] .

---

(١) أساتذة أوربة :

إليك بعض الأسماء : الرازى أو جالينوس العرب (٢٤٠ — ٣٢٠) كبير أطباء مستشفى الرى . ترجم كتابه فى الطب (الحاوى) لملك صقلية سنة ١٢٧٩ ، فبقى مرجعاً لجامعات مونبلييه وباريس وكل أوربة حتى القرن السادس عشر . وصورته معلقة اليوم على جدران جامعة باريس مع صور ابن سينا وابن زهر جراح العظام — وبجامعة برنستون جناح مخصص لآثاره وبعض المال لنشر المخطوطات العربية .

والفارابى فيلسوف المسلمين (٢٥٠ —٣٣٩) وابن الهيثم (٤٣٠) أعظم علماء العصور الوسطى فى الطبيعة ، نقل عنه روجبر بيكون وكيلر وليوناردو دافنشى بايعت له أوربة أنه مكتشف علم الضوء وخطأت معه نظريات بطليموس وإقليدس أن العين ترسل أشعة بصرية وأخذت بقوله إن الجسم المرئى يرسل الأشعة .

ثم الزركلى (١٠٢٨ —١٠٨٧ م) وقد ذكره كوبر نكس مع البتانى فى كتابه المشهور Du Revolu tionibus Orbum celestium .

وعرفه الأوربيون تحت اسم : Arzachel

والبيرونى (٣٦٢ — ٤٤٠ : ٩٧٣ — ١٠٤٨) يقول عنه سخاو إنه (أكبر عقلية فى التاريخ) تدين له أوربة ، بنظرية أن الشمس مركز الكون ، قبل كوبرنكس بخمسة قرون ، وبمعلوماتها عن الهند وبتجارب الوزن النوعى .

وابن سينا : الرئيس (٣٧١–٤٢٨–٩٨٠ – ١٠٣٧) عمل فى القضاء وألف فى الطب والطبيعة والموسيق =

= والفلسفة والرياضيات والكمياء . ترجم كتابه (القانون) فى الطب إلى اللاتينية مرات . وظل يدرس فى جامعات أوربة حتى العصور الحديثة وطبع ١٥ مرة بين سنتى ١٤٧٣ و ١٥٠٠ – وشغلته الفلسفة . قال عنه سارتون (إن فكره يمثل المثل الأعلى للفلسفة فى القرون الوسطى) .

وابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥ : ١١٢٦ – ١١٩٨م) وتوافقه العجيب مع كتابات القديس توماس الأكوينى الدينية يشى بالنقل عنه . والواقع أن نشاط توماس كان انعكاساً واضحاً لكتب عربية للغزالى وابن رشد ، ترجماتها فى متناوله بجامعتى باريس ونابولى حيث درس ، أو بلاط ملك صقلية الذى التحق به ، وكان البلاط يجيد العربية وكان توماس الأكوينى الكبير – عمه – سفيراً إلى بلاط الملك الكامل ، ومنحاه ومنحى ابن رشد متفقان فى الطريقة والنتيجة وهى أن العقل يتفق مع العقيدة .

وتتابع ركب العلماء قرناً قرناً ، حتى تسلمت اللواء منهم أوربة الحديثة . فى القرن السادس : الخيام ، وابن باجة ، وابن الطفيل ، وفى السابع : نصير الدين الطوسى وفى الثامن : الطيبى وابن الهائم وفى التاسع : غياث الدين بن جمشيد والماردينى والقلصادى وفى العاشر: ابن حمزة المغربى – وفى الحادى عشر : ابن القاضى والروداني وغيرهم . ممن علمهم هؤلاء أو تعلموا على تلاميذهم .

كان روجير بيكون فيلسوف أوربة (١٢١٢ – ١٢٩٤) من أوائل الذين درسوا علوم المسلمين فى باريس واكسفورد – بعد إذ ترجمت من نحو قرنين عن طريقين هما الأندلس وصقلية . وتم الاتصال الوثيق عن طريق ثالثة هى طريق الحروب الصليبية .

وهو من أوائل المبشرين بالطريقة العلمية العربية . طريقة ، « الملاحظة والاختبار ثم الاستخلاص » وجاء بعده فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) فاتبع منهاجه . . وادعى الأوربيون فيما بعد أن هذه الطريقة التى نقلوها إنما هى « كشف أوربى » .

الفصل الثانى

فى سبيل وحدة فقهية

قدم الشافعى بغداد سنة ١٩٥ ليبقى فيها عامين كاملين . وكان طبيعياً أن يقصد ، أول قدومه ، إلى مقابر الخيزران حيث دفن الإمام الأعظم (أبو حنيفة) ويصلى ركعتين ، ولا يرفع يديه . سئل لماذا خرج عن قواعده إلى قواعد أبى حنيفة ؟ قال أدباً مع هذا الإمام أن أظهر خلافه بحضرته .

وكان يجىء إلى قبره ويقول : إنى لأتبرك بأبى حنيفة .

وهذا الأدب فى الإشارة والعبارة والزيارة ، دروس فى الوفاء والتواضع ، وعلامات إحساس رفيع من صاحب الفكر الحى نحو صاحب الفكر الذى قضى . . ونحو المسلمين الذين لا ينقضون إلى يوم الدين .

وسيتكرر منه الوفاء ذاته لأستاذ آخر فى بلد آخر فى أخريات أيامه ، عندما يدخل مصر فيقصد إلى قبر الليث بن سعد .

وسيتكرر إذ يضع كتابه خلاف مالك ويحبسه عن النشر عاماً كاملا يستخير الله فى حبسه أو إصداره .

نزل أول قدومه فى دار محمد بن أبى حسان الزيادى ، وكانت دار أبيه دار علم وكتب . فأبو حسان (الحسن بن عثمان الزيادى) كان قاضياً فاضلا ناسباً جواداً ، يعمل الكتب وتعمل له الكتب ، وله خزانة حسنة كبيرة . وسيمتحن فيما بعد ، فى محنة خلق القرآن .

وكانت بغداد قد خلت من بهجتها إذ خبا نجمها محمد بن الحسن من ست سنين . . وقضى الرشيد نحبه من عامين . وتولى الخلافة محمد الأمين .

لم تأخذ الشافعى خلافات بغداد أخذ الفجاءة . . فلقد مرت به كل السحب

وتقشعت . فحدد من كل شيء مواقفه بأمور أصولية ، كدأبه ، تستغرق كل المشاكل والمسائل .

فأما الجدل الكلامى من المعتزلة والمتكامين فخطر على عقائد المسلمين . . ينهى عنه . . ولما قال له قائل : القرآن مخلوق ، قال : كفرت بالله العظيم . .

وسأله سائل : ما تقول فى حديث الرؤية ؟ قال له : اقض علىّ سواء كنت حيًّا أو ميتًا : إن كل حديث يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنى أقول به وإن لم يبلغنى .

أما عن الجبر والقدر والإرجاء فهو يصدع بقوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » فالمشيئة له دون خلقه : وإن مشيئتهم لا تكون دونه . وفحوى هذا القول أن صدور الفعل من العبد موقوف على أن يحصل فى قلبه مشيئة الله لذلك الفعل ، وحصول تلك المشيئة ليس بمشيئة أخرى من فعل العبد . والناس لم يخلقوا أعمالهم بل هى خلق من الله عز وجل ولكنها كذلك فعل للعباد .

خطب علىّ الناس . . فقام رجل ممن شهد معه وقعة الجمل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر فقال : بحر عميق فلا تلجه . فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر فقال . سرُّ الله فلا تبحث عنه . فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر .

قال : لما أبيت : أمر بين أمرين . لا جبر ولا تفويض .

فقال : يا أمير المؤمنين إن فلانًا يقول بالاستطاعة . وهو حاضر . قال : علىّ به . . فأقاموه فلما رآه قال : الاستطاعة تملكها مع الله أو دون الله ؟

فإياك أن تقول أحدهما فترتد .

قال : فما أقول يا أمير المؤمنين ؟

قال : قل أملكها مع الله الذى إن شاء ملكنيها .

وكان بطل الأبطال فى كل نزال يقتل من يبارزه . رووا أنه كان إذا هب للمبارزة قال :

أىَّ يومىَّ من الموت أفر ... يوم لا يُقدر أم يوم قــدر
يوم لا يقدر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجو الحذر

وأما عن الإيمان والإرجاء فالإيمان عند الشافعى قول وعمل . يزيد وينقص . وقال

لا يحتج على أهل الإرجاء بآية أقوى من قوله تعالى« وما أمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » . . ومعنى هذا أن الدين هو الأعمال التى بها الإسلام ، والله تعالى يقول : « ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » وإذا كانت الأعمال تزيد وتنقص فالإيمان يزيد وينقص بزيادة الطاعات ونقصها . يقول تعالى « فأمَّا الذينَ آمنُوا فزادتْهُمْ إيمانًا » .

أما موقفه من الخوارج والشيعة فيحدده إعظامه للخلفاء الراشدين الأربعة (أبى بكر وعمر وعثمان وعلى) يقول : (رضى الله عنهم أجمعين) ويؤيد بالاحتجاج لإمامة أبى بكر وعمر بحجج كثيرة .

ومع هذا الوضوح فى موقفه يصفه يحيى بن معين المحدث فى بغداد بأنه رافضى ، لأنه لم يذكر فى (كتاب السير) إلا على بن أبى طالب .

قال أحمد بن حنبل ليحيى : يا عجبًا لك . فبمن كان يحتج الشافعى فى قتال أهل البغى ؟ فإن أول من ابتلى من هذه الأمة بقتال أهل البغى هو على بن أبى طالب ! نخجل يحيى .

وسيمضى الدهر فيقول يحيى بخلق القرآن ، تقية ، وينفطر قلب ابن حنبل حزنًا . ومع ذلك فيحيى بن معين نفسه يقول فى الشافعى : (لو كان الكذب مطلقًا لمنعته مروءته عن أن يكذب) .

* * *

قرأ الشافعى كتب أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد بن الحسن ، وناقش العراقيين بمكة وعلمهم ، وناظر القادمين إليها من كل أرجاء العالم بمذاهب الآخرين وعلمهم ما انتهى إليه فى مناهجه التى ستحتويها كتبه ، وحوت بعضها الرسالة التى أرسلها إلى ابن مهدى ، لتمسى مع سائر الكتب أسسًا للتفكير القانونى الإسلامى ، وموردًا من موارد الشرائع الإنسانية .

لم يعد يكفيه أن يعالن الناس برأيه ، ولا بأس أن يقبلوه أو يردوه ، فإن ما ركب فى طبعه من الكفاح قد دفعه إلى منازلة معارضيه ، فى ميادينهم فى بلدانهم . وبهذا الخلق الإيجابى نذر نفسه للترحال إلى أى مكان تسنح فيه بارقة للإفادة أو الاستفادة .

وفى حين لم يبرح مالك الحجاز ، ولم يبرح أبو حنيفة العراق إلا بين الحجيج ، يترامى الاغتراب بالشافعى متعلماً ومعلماً لنشر مذهبه، فلما تلاقى بالأمة الإسلامية فى بقاعها عامة وحفظ علومها كافة، راح يشرع لها أسباب وحدتها الفكرية، وأملى كتبه بنفسه ، ولم يترك آخرين يقومون بالتدوين مستقلين . وكتب بيده . وتميزت أعماله بثبوتها عنه ، وبضخامتها ، ووضوح الفكر الواحد ، فى شتى القواعد . وتميزت بالاستقلال الفكرى عمن سبقوه وبالسعى إلى الوحدة بالتزام القاعدة .

كانت مدرسة أبى حنيفة بالكوفة قد فتحت الأبواب على مصاريعها للاجتهاد ، وردت الكثير من الأحاديث ، فوجب على العالم القرشى أن يبين وجوه الاحتياط من مخاطر هذه الطريقة على الحديث والسنة واستنباط الأحكام من آيات الكتاب . ولابد لذلك من قواعد علمية يسير عليها المتفقهون .

وكان القياس أكبر الكشوف فى فقه أبى حنيفة ، يضاف إليه الاستحسان والعرف ، فى حين كانت السنن والآثار وعمل أهل المدينة ، حجر الزاوية فى فقه مالك يضاف إليها المصالح المرسلة .

ولقد وجد فى بغداد صورة كاملة للمدرستين الفكريتين من أصحاب الحديث وأصحاب الرأى . الأولون يحفظون الأخبار والسنن حقاً ولا يجتهدون إلا فى النازلة إذا نزلت . . . فإذا أورد عليهم أصحاب الرأى سؤالا أو إشكالا وقفوا عند حدود النصوص . أما أصحاب الرأى فكانوا أصحاب النظر والجدل . وهم ليسوا كأصحاب الحديث معرفة بالآثار والسنن .

والفرقتان لا تعرفان مثل ما يعرف محمد بن إدريس من أدلة الشرع من الكتاب والسنة . . وكان أعلم منهم بلغة الكتاب والسنة ، وأبصر بالمعانى ، وأقوى جدلا .

فجاءهم يقول : الاجتهاد واجب فى الشريعة : والاجتهاد هو القياس . بأن يلحق الأمر غير المنصوص على حكمه بالأمر المنصوص ، فالرأى فى هذه الحالة حمل على النص وليس بدعاً فى الشرع . أما الاستدلال المرسل أو التعليل المطلق للأحكام ، من غير البناء على أساس ، فهو البدع فى الشرع . ثم وضع الشافعى للقياس ضوابطه وموازينه حتى فاق الحنفية فى تحريره وإثباته .

ولم ينج الذين لايلتزمون الموازين من تصويراته الرمزية . يقول فيهم « ما أشبه أصحاب

الرأى إلا بخيط سحارة . تمده هكذا فيجئ أصفر . وتمده كذا فيجئ أخضر » ويستطرد بريشة الرسام أو تعبيرات الشاعر ، فيروى عن أيام القدمة الأولى إلى العراق : « . . قدمنا على هرون . . ومعى خمسون ديناراً . . ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقة . فأنفقت الخمسين ديناراً على كتبهم ، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم مثل رجل كان عندنا يقال له فروخ ، وكان يحمل الدهن فى زق له . فكان إذا قيل له : عندك فرشنان ؟ قال : نعم . فإن قيل له : عندك زئبق ؟ قال نعم . وإن قيل له عندك خيزى ؟ قال : نعم . فإن قيل له أرنى —وللزق رءوس كثيرة — فيخرج له من تلك الرءوس . وإنما هى دهن واحد ! كذلك وجدت كتاب أبى حنيفة . إنما يقولون كتاب الله وسنة نبيه ، عليه الصلاة والسلام ، وإنما هم مخالفون له ».

وعندما يصنع الشافعى صنيعه فى بغداد سيلقبونه « ناصر الحديث » كمثل ما ستسميه العصور اللاحقة « واضع علم الأصول » . يقول الفخر الرازى (نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة أرسطاليس إلى علم المنطق ، وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض . وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة . . فلما رأى ذلك أرسطاليس اعتزل الناس مدة مديدة استخرج فيها علم المنطق ووضع للخلق بسببه قانوناً كلياً يرجع إليه فى معرفة الحدود والبراهين . . . وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعاراً وكان اعتماد هم على مجرد الطبع . فاستخرج الخليل علم العروض فكان بذلك قانوناً كلياً فى معرفة مصالح الشعر ومفاسده . كذلك الناس ها هنا كانوا قبل الإمام الشافعى يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون بدون قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة) .

كان الفقه الإسلامى بحاجة إلى المنهج . فالمنهج يعمل على المعجزات دون خوارق . وحسبه أن تجرى القرائح على سننه لتنتج الصواب باستمرار ، ودون ارتجال . كمثل ما تصنع القضبان للقاطرات ، تضاعف سرعتها وتضمن سلامتها وقوتها وقدرتها على الخدمة ، واستمرارها فى الجريان ما شاء الله .

كان منهاج الشافعى لازماً لفقه أبى حنيفة نفسه وطريقته فى العمل بالرأى أو القياس . وكان لازماً لفقه مالك نفسه وهو كيف يعمل النصوص والسنن .

وتعددت كتب الشافعى فى الأصول وأولها « الرسالة » ومنها كتابه « أحكام القرآن »

وكتاب « إختلاف الأحاديث » وكتاب « إبطال الاستحسان » وكتاب « جماع العلم » وكتاب « القياس » وغيرها .

والحق أنه إذا كانت الحضارة الغربية تقوم على الفكر الأرسطى من علوم مدرسة أرسطو ، فإن « الأصول » التى وضعها الشافعى قد نظمت التفكير الفقهى فى الحضارة التشريعية فى الإسلام .

* * *

رأت بغداد إماماً هو قمة فى تواضعه ، قدوة فى إخلاصه . كلما أورد عليه سؤال ، أجاب إجابة شافية بحجة من الكتاب أو حجة من السنن أو من تفسيرها ، فى صوت خفيض مهيب . قال ابنه أبو عثمان محمد : ما سمعت أبى يناظر أحداً قط فيرفع صوته .

يقول أستاذ بغداد أبو يوسف : (يا قوم أريدوا بعلمكم الله ، فإنى لم أجلس مجلساً قط فى الناس أنوى فيه أن أعلوهم ، إلا لم أقم حتى أفتضح) والشافعى يقول . « ما ناظرت أحداً قط على الغلبة » ويقول : « ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ » ويقول : ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة » ويقول « ما عرضت الحجة على أحد فقبلها إلا عظم فى عينى ولا عرضتها فردها إلا سقط فى عينى » .

وبهذا المعيار يأخذ نفسه ، فيقول لإسحق بن راهويه : لو كنت أحفظ كما تحفظ لغلبت أهل الدنيا . بل هو ينصف أصحاب السنن من نفسه فيروى عنه أحمد بن حنبل قوله : أنتم أعلم بالحديث منى ، فإذا صح عندكم الحديث على النبى صلى الله عليه وسلم خلاف قولى فخذوا بالسنة ودعوا قولى .

ومن أجل هذا ينصفه إسحق بن راهويه فيقول عنه فيما بعد : (ما تكلم أحد بالرأى — وذكر الثورى والأوزاعى ومالكاً وأبا حنيفة — إلا والشافعى أكثر اتباعاً وأقل خطأ منه) .

وللشافعى مسند مشهور . واحترام « البخارى » و « مسلم بن الحجاج » صاحبى الصحيحين ، ودعاء « ابن حنبل » فى كل صلاة ، وثناء سفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن ابن مهدى وإسحق بن راهويه وأئمة المحدثين المعاصرين له ، كل أولئك ، يضعه فى القمة من أهل السنن .

كان رحمه الله يقول « اشهدوا أنه إذا صح الحديث عندى ولم آخذ به ، فإن عقلى قد ذهب » .

وكما يخضع للحديث إذا صح ، ويوجب الاجتهاد إيجابًا ، ينهى عن المجازفة قال : « فالاجتهاد والقياس هما اسمان لمعنى وحد ولا يقيس إلا من جمع الآلة التى له القياس بها وهى العلم ... » و « لا يحل لفقيه عاقل أن يقول فى ثمن درهم ولا خبرة له بسوقه . ومن كان عالمًا بما وصفناه بالحفظ لا بحقيقة المعرفة ، فليس له أن يقول أيضًا بقياس » .

وكما ينهى عن المجازفة ينهى عن المكابرة . ويشترط للإنصاف فى المجتهد : أن « لا يمتنع عن الاستماع ممن خالفه لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ، ويزداد به تثبيتًا فيما اعتقد من الصواب . وعليه فى ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه ، حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك . ولا يكون بما قال أغنى منه بما خالفه ، حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك . إن شاء الله » .

ولهذا يقول « ما كلمت أحداً إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان .. » ويقول لتلاميذه : « إذا ذكرت لكم دليلا فلم تقبلها عقولكم فلا تقبلوها فإن العقل مضطر إلى قبول الحق » .

وكما ينهى عن المجازفة وعن المكابرة ، ينهى عن التقليد ، حتى تقليده هو ، ويوجب الاجتهاد والفهم لا الاتباع المتجرد . . ويضع لنا القاعدة التى يلزم بها الإسلام أبناءه فيرفعهم درجات وهى أن يفكروا . . قال : « من تكلف ما جهل ولم تثبته معرفة كانت موافقته للصواب غير محمودة والله أعلم ، وكان بخطئه غير معذور إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب » فلا محمدة للمقلد ولا عذر له ، بل إنه ليغتبره جديراً بالاستغفار . قال : « وبالتقليد أغفل من أغفل منهن والله يغفر لنا ولهم » .

ذكر أمامه من يحمل العلم جزافًا ولا يعلمه قال : « هذا مثل حاطب ليل ، يقطع حزمة الحطب فيحملها ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يدرى » .

والإخلاص يقتضى استجماع الفكر والتثبت . سئل عن مسألة فسكت . فقيل : ألا تجيب رحمك الله ؟ قال : حتى أدرى الفضل فى سكوتى أم فى الجواب . وما كان ذلك قصور باع أو ذراع ، ولكنه كان يحسب للبيان الفقهى الحساب . فنسمع عنه وهو فى قمة المجد العلمى قول تلميذه يونس : كلمنى الشافعى مرة فى مسألة وتراجعنا فيها ، فقال

إنى لأجد فُرقانها فى قلبى ، وما أقدر أن أبينه بلسانى !

فإذا ذكر أبا حنيفة فحاش أو شغاب ، سفّهه وتمثل بشعر تلميذ أبى حنيفة عبد الله ابن المبارك :

أمثلك – لا هُديت إلى مقال –   يعيب أخا العفاف أبا حنيفة

فمن كأبى حنيفــة فى نداه   لأهل الفقر فى السنة الجحيفة

ومطلعها :

لقد زان البلاد ومن عليها   إمام المسلمين أبو حنيفـــة

بل إنه ليعلن فى كل مكان ما لأبى حنيفة من مكانة فى الإسلام بقوله (من أراد الفقه فهو عيال على أبى حنيفة) . ولم يذكر أبو حنيفة فى « الأم » على لسان الشافعى إلا مشفوعاً بالدعاء له « رضى الله تعالى عنه » أو « رحمه الله تعالى » . فإذا استعمل ريشة الرسام أو تعبيرات الشاعر استعملها فى « كتاب أبى حنيفة » لا فى أبى حنيفة[1] .

* * *

وفد الشافعى على بغداد وهو فرد الدهر . ولم يكن ثمت إلا ثلة ممن جلسوا إلى أبى حنيفة من نحو نصف قرن ، كالحسن بن زياد ووكيع بن الجراح . أما تلاميذ أبى يوسف ومحمد فكأنما أخلوا المكان له . ومع ذلك فقد أفاد لنفسه من العلماء هنالك ، كدأبه حيثما ذهب ، وسيروى عن شيوخ العراق مثل وكيع ، وحماد بن أسامة . وإسماعيل بن عليه ، وعبد الوهاب ابن عبد المجيد : الأولان من الكوفة ، والآخران من البصرة .

كانت مجالس بغداد عجباً من العجب . تجردت العقول الإسلامية فيها للدرس والتخريج ، فى كل ضرب من العلوم ، من كل لغة معروفة ، من الهندية والفارسية إلى اليونانية والسريانية . وكان المتفقهون ، من أصحاب الرأى وأصحاب الحديث ، يفعلون الأفاعيل فيمن يقعد فى حلقة من الحلق ليطمئنوا على حفظه وإتقانه . فعندما قدم البخارى (١٩٤–٢٥٦) بغداد عمل أهل الحديث على امتحانه ، فاجتمع منهم نفر جم ، فعمدوا إلى مائة حديث فلبسوا الحق بالباطل ، وجعلوا متن هذا الحديث لإسناد ذلك الحديث وإسناد ذلك لمتن هذا ، ودفعوا عشرة من مجادليهم ليلقوها عليه بالمجلس . فكان كلما

---

(١) انظر ص ١٣٩ .

سأله واحد عن حديث يقول لا أعرفه ، ولا يزيد ، حتى فرغوا . فالتفت إلى الأول منهم فقال أما حديثك الأول فهو كذا.... وأما الثانى . . . حتى فرغ من كل ما ألقاه عليه كل من ألقوا . . . . وعندئذ أقروا له بالحفظ والضبط والإتقان .

لكن الشافعى كانت تسبقه إلى هذه المجالس شهادات المتفقهين والعلماء ، مثل إسحق وأحمد ، وكانا فى فتاء السن . ومثل عبد الرحمن بن مهدى شيخ المحدثين وكان فى الستين : من جرحه جرحه الناس ومن عدله عدلوه واجتمعوا على توثيقه . ولم تك شهادته مجرد تزكية ، بل كانت اعترافًا كاملاً بمكانة الشافعى فى الإسلام وعلومه مذ بعث إليه بكتاب (الرسالة) وكان يعلن للناس قول مالك : ما أتانى قرشى أفهم من هذا الفتى . وشهادته وشهادة مالك إقراران من بغداد والمدينة لإمام مكة . . فالشافعى يسعى إلى بغداد على أرض ممهدة . ويزداد شيخ المحدثين فى التمجيد ، فيزداد التمهيد ، إذ يقول : ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل .

بل يقول : ما أصلى صلاة إلا وأنا أدعو للشافعى فى كل صلاة أو فى كل يوم .

ومع هذا كله لم يقلع المتفقهون فى حلق بغداد عن أفاعيلهم ، وقعدوا للشافعى كل مرصد — قال أبو ثور بعد إذ صار إمامًا له مذهبه الخاص : كنت أنا وحسين الكرابيسى من أصحاب الرأى ، فلما قدم الشافعى العراق قصدناه وامتحناه بمسائل عويصة من فقه أبى حنيفة فأجاب فيها .

لكن الشافعى ، كدأبه ، لا يقف عند حد النجاة من المشكلات حيث لا يلحق شأوه أحد . وسيروى لنا إذ هو بمصر ، ذكرياته لما دخل بغداد ونزل باب الشام فانصب الناس إليه فاستووا فى مجالسهم حتى جاء أبو ثور بمسألة فراح يعلمه أن دخول البيوت من من أبوابها أنجح للحاجة ، فألان شماسه وطأطأ رأسه . قال له يا أبا ثور ، « الإيناس قبل الإسناس » . فلم يدر ما قال . فقال ما هو يا أبا عبد الله . قال الشافعى : « الإيناس مسح الناقة بيدك حول ضرعها ، والإسناس حلب ضرعها بيدك » .

وسيروى لنا أبو ثور أنه قال له : (يا أبا ثور . بماذا تفتتح الصلاة بفرض أو بنفل ؟ قلت بفرض . قال أخطأت . قلت بنفل . قال أخطأت . قلت بم تستفتحها ؟ قال بهما

وهما التكبير ورفع اليدين . التكبير فرض . ورفع اليدين سنة . وبهما تستفتح الصلاة — ثم صرنا بعد ذلك من أصحابه) .

لقد هبط بغداد كما تهب العواصف فلا يثبت أمامها إلا ما يقدر على الصمود . وراح يقتلع التلاميذ والشيوخ من الحلق اقتلاعاً . قالوا : كان فى الجامع إما نيف وأربعون حلقة أو خمسون حلقة . فلما دخل بغداد ما زال يقعد فى حلقة حلقة ويقول لهم : قال الله وقال الرسول . وهم يقولون : قال أصحابنا . حتى ما بقى فى المسجد حلقة غيره .

هكذا ألقت بغداد السلم إلى الشافعى ، وانقبع الذين مردوا على الشقاق فى دورهم ، أو قعدوا يتعلمون . وفرح المحدثون بنصر الله . قال الزعفرانى (كان أصحاب الحديث رقوداً فأيقظهم الشافعى فتيقظوا) .

كان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر فى العراق ، ويأتيه من لا يطلبون شيئاً وإنما يسمعونه يتكلم — كما نقلنا عن الزعفرانى قبلُ .

وكما حدث الزعفرانى أيضاً : كنا نحضر مجلس بشر المريسى ». فكنا لا نقدر على مناظرته فمشينا إلى أحمد بن حنبل فقلنا له : إيذن لنا فى أن نحفظ الجامع الصغير الذى لأبى حنيفة لتخوض معهم إذا خاضوا فقال«: اصبروا . الآن يقدم عليكم المطلبى الذى الذى رأيته بمكة . فقدم علينا الشافعى . فمشينا إليه وسألناه شيئاً من كتبه فأعطانا كتاب (اليمين مع الشاهد) فدرسته فى ليلتين ثم غدوت على بشر المريسى . فلما رآنى قال ما جاء بك يا صاحب حديث ؟ قلت ذرنى من هذا : إيش الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد ؟ فناظرته فقطعته فقال : ليس هذا من كيسكم : هذا كلام رجل بمكة معه نصف عقل الدنيا .

ولم يكن من كيس بغداد كذلك ما تحدث عنه أبو ثور إذ قال (لما قدم علينا الشافعى ، دخلنا عليه فكان يقول : إن الله تعالى قد يذكر العام ويريد به الخاص ويذكر الخاص ويريد به العام . وكنا لانعرف هذه الأشياء . فسألناه عنها فقال : إن الله تعالى يقول : «إنَّ الناسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » والمراد أبو سفيان «وقال يا أَيُّها النبىُّ إذا طلقتُمُ النِّساءَ » فهذا خاص والمراد عام . فعلمت أنه كلام ليس على نهج كلام غيره) .

إنما كان حديث الأصول إبداعاً وفد على بغداد مع الأستاذ . ذلك قول الكرابيسى أيضاً (ما كنا ندرى ما الكتاب ولا السنة ولا الإجماع حتى سمعنا الشافعى يقول الكتاب والسنة والإجماع) .

هكذا تتجلى شجاعة النفس والفكر فى أروع الصور ، فيهاجم آراء محمد فى بلاط الرشيد ، ومحمد يسهر على براءته . ويهاجم مدرسة بغداد ، إذ هو فى بغداد . ويجلى فقهاءها عن مقاعدهم . . ولسوف يهاجم مذهب مالك وهو يملك من قلبه شغافه ، ويهاجمه فى مصر حيث كانت للمذهب الغلبة ، بل حيث عبد الله بن عبد الحكم شيخ المالكية ، والشافعى وعبد الله كالنفس الواحدة .

ولم يروَ عن الشافعى أنه ناظر الحسن بن زياد اللؤلؤى (٢٠٤) مع أنه من تلاميذ أبى حنيفة . بل رووا أنه كان يتأبى على مناظرته : قال الفضل بن الربيع للشافعى : أحب أن أسمع مناظرتك مع الحسن بن زياد . قال الشافعى : ليس الحسن فى هذا الحد . ولكن أحضر بعض أصحابى حتى يكلمه بحضرتك . ثم أحضر الشافعى رجلا كوفياً كان على مذهب أبى حنيفة ثم صار من أصحاب الشافعى . فلما دخل اللؤلؤى قال له الكوفى : ما تقول فى رجل قذف محصنة وهو فى الصلاة ؟ فقال الحسن صلاته فاسدة . فقال ما حال طهارته ؟ قال الحسن : طهارته باقية . قال : ما تقول إن ضحك فى صلاته ؟ قال الحسن : يعيد الطّهارة والصلاة . قال : الكوفى : قذف المحصنات الصلاة أيسر من الضحك فيها . . ! ! فوثب الحسن وأخذ نعله ومضى .

ولما ضحك الفضل بن الربيع . قال الشافعى : ألم أقل لك إنه ليس فى هذا .

وفى هذه القدمة كتب كتابه « الحجة » ، وسافر إلى البصرة وصحبه الحميدى تلميذه وتلميذ سفيان بن عيينة ، كما سافر إلى الكوفة وناقش علماءها . وسجل مناقشاته .

قال الحميدى : كان يستفيد منى الحديث وأستفيد منه المسائل .

التلاميذ :

كان أحمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١) يسعى إليه بمكة ويقول : « إن فاتك عقل هذا الفتى فإنى أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة » ويقول : « ما رأيت أحداً أفقه فى

كتاب الله تعالى من هذا القرشي » فجاءته فرصة العمر إذ جاءه الأستاذ . فصار أحمد فى بغداد أطول صحبه ملازمة له ، وأعظمهم فهماً لعلمه .

وكان يمشى مع بغلته ، قال يحيى بن معين : كيف تمشى مع بغلة هذا الرجل ! فقال أحمد : لو كنت أنت من الجانب الآخر لكان أنفع !

بل إنه ليعلن أثر الشافعى فى دين الله بقوله : (ما علمت أحداً أعظم منّة على الإسلام فى زمن الشافعى من الشافعى) ويقول راوياً عن النبى : (إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها) ، فكان فى رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ، وأرجو أن يكون على رأس المائة الثانية الشافعى رضى الله عنه .

ويقول عن نفسه لتلاميذه : هذا الذى ترونه أو عامته منى ، هو عن الشافعى . . ويعلن أن الشافعى هو « عالم قريش الذى يملأ طباق الأرض علماً » .

قال قائل فى حوار : « أستاذ الأستاذين » قيل من هو ؟ قال الرجل : الشافعى ــ أليس أستاذ ابن حنبل . . ؟ وإنما قصد أنه أستاذ كبار الأساتذة .

وبهذا كان الشافعى أول إمام هو أستاذ (ابن حنبل) وتلميذ إمام (مالك) . فاجتمع فيه علم الأئمة الثلاثة . وآل إليه علم الإمام الرابع أبى حنيفة على يد صاحبه الذى دونه وزاده . فهو الإمام الوحيد الذى اجتمع فيه الأئمة الأربعة ، بالفعل وبالفكر ، أى جماع علم أهل السنة .

تأثر ابن حنبل بالشافعى فى فقهه وعمله وزهده وعفوه . وصارت له فيما بعد اختيارات فى الفقه بناها على الأحاديث . وخرج عنه من دقيق الفقه ما صيره الإمام الرابع للمسلمين . وكان بذاته استمراراً رائعاً لمعارك الانتصار للسنة التى سالت فى وطيسها حياة أستاذه ، قطرة قطرة . وكأنما تحصلت رسالة التلميذ فى حاصل جهد الأستاذ ، مع التعمق فى بعض الأبواب ، مثل جمع الأحاديث فى أعظم مسند ، حوى أقل من أربعين ألفاً تخيرها من ثلاثة أرباع مليون من الأحاديث . ومثل تضحياته وهو فى أقياده لتأييد السنة ؛ ليُعلم المسلمين أن أعظم الدين هو البذل فى سبيل الدين . ويومئذ تحقق قدَرُه فصار للمسلمين إماماً .

وكمثل أحمد ، جلس أبو ثور ، والزعفرانى ، والكرابيسى ، وأحمد بن محمد الأشعرى البصرى ، وسليمان بن داود الهاشمى وآخرون .

أما أبو ثور ، إبراهيم بن خالد الكلبى (٢٤٠) فكان حنفياً تتلمذ على محمد بن الحسن ثم انتقل إلى مذهب أستاذه ، ثم صار له مذهب خاص به . وهو يذكر أستاذه فيقول : من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس فى علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكينه فقد كذب . . وكما بهره بعلمه ، بهره بسخائه – قال : (كان الشافعى قلما يمسك الشيء من سماحته) .

سئل يوماً عنه وعن محمد بن الحسن : أيهما أفقه ؟ فقال : الشافعى أفقه من محمد ابن الحسن وأبى يوسف وأبى حنيفة ، وحماد وإبراهيم والأسود وعلقمة[١] . . ولم يبق أبو ثور من مدرسة الكوفة إلا أستاذها الأعلى عبد الله بن مسعود . « صاحب النبى الذى كان كأنه من أهل بيته » . . . وقد أخذ عن أبى ثور أكثر أهل أذربيجان بأرمينية .

أما الحسين بن محمد الصباح البزاز الزعفرانى (٢٦٠) فكان كأبى ثور على فقه العراقيين ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعى . وكان وحده الذى يقرأ كتب الأستاذ فى الحلقة . ولم يكن فى بغداد أحسن صورة منه ولا أفصح . قال فيه الشافعى : رأيت فى بغداد نبطياً يتنحى[٢] علىّ . حتى كأنه عربى وأنا نبطى ! ويقول الزعفرانى بعد فراق أستاذه : إنى لأتعجب اليوم من انطلاق لسانى بين يدى الشافعى وأتعجب من جسارتى ! ويقول : ما قرأت على الشافعى رضى الله عنه من الكتب إلا وأحمد بن حنبل شاهد . ولقد روى المبسوط عن الشافعى على ترتيب ما سيرويه الربيع فيما بعد بمصر ، مع خلاف يسير . وكتبه كثيرة ضاع أكثرها .

وكان الكرابيسى – كزميليه – على فقه أبى حنيفة ثم تبع الشافعى ، وكان نظاراً جدلا . فيه كبر عظيم . وله أكثر من مائتى جزء صنفها . فلما قال (لفظى بالقرآن مخلوق) طعن فيه ابن حنبل . فذهبت ريحه ، وسقط شأنه عند أهل السنة .

وأما أحمد بن محمد يحيى الأشعرى البصرى ، فسيتولى الدفاع عن مذهب الأستاذ بعد إذ يفصل عن بغداد ، وسيخلفه فى حلقته ، ويكتب كثيراً مثله ، فيلقب بالشافعى . كان عليماً بالآثار والحديث مكيناً فى الجدل . فأمسى واحداً من العشرة الذين اختارهم

---

(١) حماد بن إسماعيل أستاذ أبى حنيفة . وإبراهيم النخعى أستاذ حماد . والأسود بن يزيد النخعى أستاذ إبراهيم . وعلقمه النخعى خال إبراهيم وعم الأسود .

(٢) استعمل النحو .

المأمون لمجالسته والكلام بحضرته ، وسماهم إخوته ، ورسمهم فى الديوان بذلك .

ومن التلاميذ سليمان بن داود الهاشمى (٢٢٠) كان من بنى عباس . والشافعى يقول عنه : ما رأيت أعقل من هذين الرجلين . أحمد بن حنبل وسليمان بن داود الهاشمى .

ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام وقد سبق ذكره .

الهجرة :

بقى الشافعى فى بغداد عامين حتى ١٩٧ . لكنه كان يستعد لرحلات أطول بعد إذ أحس أنه أدى فى بغداد واجبه، فرجع إلى مكة ، ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩٨ ؛ ليقيم فيها أشهراً ثم يبرحها سنة ١٩٩ إلى خارج الجزيرة العربية .

أوصى الرشيد على بن مبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين بقوله : (كن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار . وعلمه السنن . وبصره بمواقع الكلام وبدئه) . فلما تولى الأمين الخلافة سنة ١٩٣ بوصية من أبيه تجعل لأخيه المأمون ولاية عهد الأمين ، تعلق أمل العرب بالأمين ، وكان عربياً خالص الدماء . . أمه زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور ، وأبوه الرشيد بن المهدى بن أبى جعفر المنصور . لكن تقدير السماء غلب تدبير البشر .

ومع أن المأمون أكبر سناً بشهر ، وأرجح عقلا بكثير ، فقد كرر فيه التاريخ العباسى نفسه . كان جده « أبو جعفر » أكبر سناً من أخيه أبى العباس (السفاح) لكن أم المنصور كانت — كأم المأمون — أم ولد . فأوصى إليه السفاح بالخلافة لأن أمه عربية .

كان الأمين صاحب لهو وسرف . . تحيط به بطانة عربية على رأسها (الفضل ابن الربيع) ، توجس خيفة من نُذُر الغد . أما بطانة المأمون ، فكانت كأمه فارسية يتزعمها (الفضل بن سهل) ، وهو حديث عهد بالإسلام فارسى الأصل . وأخذت كل حاشية تركض جوادها نحو غاياتها . فخلع الأمين المأمون من ولاية العهد وجعلها فى عقبه . فسارت إليه الجيوش من خراسان حيث كان المأمون . فقُتل فى ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨ — واعتذر المأمون بخطأ قواده لزبيدة . قال : يا ستاه لا تأسى فإنى عوضه لك .

قالت حفيدة المنصور ، وزوج الرشيد ، وأم الأمين أبلغ الكلم للمأمون : كيف لا آسف على ولد خلف خليفة مثلك . . وبكت وبكى حتى غشى عليه .

وعوض بعض أبناء الأمين ، حقاً ، بتزويجهم من بناته . وكان « زواج الدولة » بعض سياساته ، سواء زواج بناته ، أو زواجه هو من بوران بنت الحسن بن سهل أخى الفضل ، وقد ولاه على العراق وفارس . وطلب طاهر بن الحسين وهرثمة ، للشخوص إلى خراسان . وهما القائدان اللذان حققا له النصر . . فأحدث بلبلة فى الناس . وخرج عليه ابن طباطبا الشيعى سنة ١٩٩ فى الكوفة ، وإبراهيم بن موسى فى اليمن . بل إن الفضل بن سهل ليستطيع أن يجعل المأمون يوصى بالخلافة كلها بعده إلى إمام الشيعة « على الرضا » بن موسى بن جعفر الصادق . ويزوجه وابنه من بنتين له ! . وأعلن عمه إبراهيم بن المهدى فى بغداد نفسه خليفة وبقى كذلك عامين إلا أياماً (٢٠٢ — ٢٠٤) .

وحارب المأمون فى كل جبهة حتى استقر الأمر له ، وانطلق يضرب الأمثال على عفو القادر . ويقول : « لو عرف الناس حبى للعفو لتقربوا إلى بالجرائم »[1]. وكان يستحب الجدل : دعا أربعين فقيهاً ، ذات يوم يجادلهم ليثبت لهم فضائل على !

كان فقيهاً وشاعراً وفيلسوفاً . . وكان شيعياً . ووزيره يحيى بن أكثم سنى . وقاضيه أحمد بن أبى داؤد من المعتزلة !

هكذا كانت بغداد تتنفس هواء فارسياً قاسياً فى سنة ١٩٩ . والمأمون ، مركز الثقل ، فى خراسان شبه مغترب .

ورجوع الشافعى إلى مكة من بغداد سنة ١٩٧ فى حياة الأمين ، يسوغ القول بأنه برم بالبلدة التى يعميها يومها عن غدها ، كمثل ما يجوز القول بأنه ترك بغداد إلى مصر ، كارهاً ، بعد قتل الأمين بشهور .

على أنه رجع إلى بغداد والفتنة تتفقأ . فلم يلق عصا التسيار . ومضى يبتغى الوسيلة إلى الهدوء والطمأنينة . وهما ضروريتان للطلب وللتدريس . فإذا التمس مهاجَراً فحيث

---

(١) عفا عن إبراهيم بن المهدى وصيره من ندمائه . وقدم إليه قواده الفضل بن الربيع بعد دخوله بغداد ، فوثب المأمون عن عرشه فصلى ركعتين ، ثم التفت إليه فقال : أتدرى لماذا صليت يا فضل قال لا يا أمير المؤمنين . قال : شكراً لله الذى رزقنى العفو عنك .

أقدم الأمم حضارة ، وأوفرها ثراء ، وأكثرها عدداً . وفيها المستقبل . والهجرة سنة الرسل .

كانت غريزته تهتف به لتخليد فقهه تخليداً للفكر الإسلامى ، فى بلادٍ قانونُها تخليد الحضارة . وآثارها شهود على الخلود .

وكانت السماء توجهه إلى مصر كما ستتجه إليها ، وتعتمد عليها ، قوة الإسلام . والاتجاه من الشرق إلى الغرب هو اتجاه الحضارة ذاتها ، فى اتجاه الشمس أو النور من الشرق إلى الغرب . . إلى مصر .

وسأل فقيل له إن بمصر فرقة مالت إلى مذهب أبى حنيفة وناضلت عليه ، وأخرى إلى مذهب مالك وناضلت عليه . فقال إنى لأرجو أن أقدم مصراً إن شاء الله ، فآتيهم بشىءٍ أشغلهم به عن القولين جميعاً . قالوا : ففعل ذلك والله حين دخل مصر .

وراح يجمجم الشوق إلى مصر . ويردد شعر أبى نواس :

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ومن دونها جوب الحزونة والوعر
فوالله ما أدرى أللخفض والغنى أساق إليها ، أم أساق إلى قبرى

وتهيأت أسباب رحلته . . إذ ولى المأمون العباسَ بن موسى (من بنى العباس) على مصر فقدّم العباس ابنه عبد الله أمامه إلى مصر ، فقدم إليها سنة ١٩٩ ومعه محمد ابن إدريس الشافعى ، ومع الشافعى ابنه أبو عثمان محمد .

فالأمل العلمى هو الذى أجاءه إلى مصر . وليس الخوف من سيطرة الفرس كما ظن البعض ، أو من تفاقم نفوذ المعتزلة (القائلين بخلق القرآن) كما ظن آخرون . . فالمعتزلة لم يظفروا بالصدارة عند المأمون إلا بعد قدومه إلى بغداد من خراسان فى أوائل سنة ٢٠٤ . والشافعى مات بمصر ، فى رجب سنة ٢٠٤ .

وقال المأمون : لولا مكان يزيد بن هرون لأظهرت القول بخلق القرآن . فقال له بعض جلسائه : ومن يزيد بن هرون حتى يتقيه أمير المؤمنين ؟ قال : إنى أخاف إن أظهرته يرد على ، فيختلف الناس وتكون فتنة . وأنا أكره الفتنة . ويزيد مات سنة ٢٠٦ . ولما عزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضى القضاة سنة ٢١٧ ، خلفه أحمد بن أبى داؤد زعيم القائلين بخلق القرآن . وفى العام التالى أخذ المأمون فى امتحان الناس فى خلق القرآن ، وإن كان تكلم برأيه ابتداء من سنة ٢١٢ .

وفى جمادى الآخرة سنة ٢١٨ ورد كتاب المأمون لواليه على مصر بامتحان من حضر للشهادات . فمن أقر بأن القرآن مخلوق . وكان عدلا ، قبلوا شهادته . كذلك بعث إلى واليه ببغداد ليمتحن القضاء والشهود والفقهاء والمحدثين ومنهم أحمد بن حنبل وأبو حسان الزيادى ومحمد بن نوح .

كل أولئك . . والشافعى كان مقيماً بمكة . والهجرة من مكة . وما قدم الشافعى بغداد إلا ليلتحق بقطار الوالى الجديد إلى مصر . ولو أنه كان يعتزم المقام فى العاصمة فلا يسوغ فى الذهن أن تفجأه العاصمة بأوضاع مجهولة له . وهو قد كان هنالك . وأخبار شبه الجزيرة تطويها كلها فى أيام . والعاصمة لا تغيب أخبارها عن أستاذ مكة . ومكة عاصمة العواصم . لها سمّاعاتها .

البـاب السادس

فى مصر

« من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل
الله حتى يرجع » .

« حديث شريف »

الفصل الأول

مصر العربية

تفردت مصر وتاريخها بظاهرتين فى الزمان والمكان – هما : القدم ، والاستمرار ، أو السبق ، والاستقرار . تلتقى فيها القارات القديمة وتفترق . وتتواصل فيها البحار المعروفة فى الشمال والجنوب . من الهندى إلى الأطلسى ، عن طريق بحريها الأبيض والأحمر . وكأن مناخها وماءها وثراها هبات من السماء ، منحتها بسخاء ، لتولد فوق أرضها أول حضارة إنسانية . ظهرت فيها الزراعة فى نهاية الألف السادسة قبل ميلاد المسيح ، واستمرت حتى اليوم فى الذروة . والزراعة أخطر الاختراعات البشرية أثراً فى تاريخ الإنسان . ومع أن مصر غيرت دينها ولغتها ، فإنها لم تغير زراعتها ولم يتغير الفلاح فيها .. وما يزال ريفها يحمل سماته الأولى .

هذان القدم والاستمرار ، تدين بهما مصر للنهر العظيم الذى يتهادى فى قلبها ، نحو البحر الأبيض الذى يتوسط العالم . فأصبحت نقطة تلاق وانطلاق للرسالات العالمية . ونهضت (مصر . القاهرة) فى الإسلام ، بما نهضت به الإسكندرية قبل الإسلام ، مع فارق بين اتجاه الثقافة الوثنية إلى الشمال ، وبين اتجاه الثقافة الإسلامية فى مهاب الرياح الأربع ، مع اختصاص الوطن العربى والإسلامى بالمقام الأول .

كان لها من آلاف السنين نظمها الإدارية والفنية والقضائية ووزير يشرف على القضاء . تقدم الشكاوى مكتوبة إلى المحاكم حيث المواعيد والسجلات والوثائق ويشترط تصديق الملك أحياناً على الأحكام . وفى كل إقليم محكمة تتبع المحكمة العليا فى العاصمة . وكانت لها فنونها التطبيقية والهندسية والتعدينية والزخرفية ، وموازينها ومكاييلها ومقاييسها ، ونظامها التعليمى ، وعلومها الرياضية وفلسفتها ، وآدابها ، وتماثيلها ومعابدها ، وصناعات الورق والمنسوجات والخزف والنحت والتصوير . وما تزال قراطيس البردى ودور الآثار فى العالم تنطق بمكانة الطب المصرى من أقدم العهود ، وتفرده بأسرار التحنيط الذى لم يصل إليه

العلم بعد . وكان بالإسكندرية عندما فتحها العرب أربعة آلاف حمام عام للشعب ، مزودة بالتدفئة الصناعية ! ! . . يحسدها عليها إلى اليوم كل عواصم أوربة وأمريكا .

بنت الأهرام أضخم آثار الإنسان حتى اليوم . وأقامت السدود وبنت المعابد والصروح الممردة . وبنت العواصم وجيشت الجيوش وأقامت الإمبراطوريات العالمية قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً . فكان تحتمس الثالث أول قائد عظيم عرفه التاريخ . أقام أول إمبراطورية من أعالى الفرات من آسيا ، إلى الشلال الرابع فى وسط أفريقيا . ومن أربعة عشر قرناً قبل الميلاد ، وألفى سنة قبل الإسلام ، عرفت التوحيد بعبادة إله واحد . واعتقدت فى النشور والحساب فى الحياة الآخرة .

كان بها من ثلاثة آلاف عام حكام فى اثنتين وعشرين مقاطعة فى مصر العليا ، وأقل من ذلك فى مصر السفلى . لهم بعض الاستقلال عن الحكومة المركزية ، ككل حكومة عصرية . والأرض للحكومة أو حكام المقاطعات ، يزرعها الفلاحون . وخراجها خمس المحصول .

ولها الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، مواخر بتجاراتها فى البحار الأربعة : الأحمر والأبيض والهندى وبحر إيجه . . أما البحر الخامس — النيل — فيجمعها بالصومال والسودان ويبلغها البحر الذى يربطها بالشرق الأقصى ، والبحر الذى يربطها بالشام وكريت واليونان وروما ولبنان وفينقيا .

وكان المصريون أول شعب استعمل الكتابة قبل ميلاد المسيح بثلاثة آلاف عام . وما تزال كتاباتهم كالوشى المنمنم والرسم المنمق ، تحلى آثارهم حتى هذه الساعة ، ناطقة بمظاهر حياتهم الفكرية والعسكرية

مدرسة الإسكندرية :

فتح الإسكندر مصر وتركها بين أتباعه فاستقلت بهم عن الأغريق ، كما ستستقل بعدُ بحكامها العرب ، وصار لها بالإسكندرية جامعة ودار كتب كالجامعة . ولما فتحها الرومان بطشوا جبارين بالمصريين ، فحقت عليهم الهزيمة التى أنزلها بهم المسلمون ، عند الفتح .

ظلت الإسكندرية عاصمة للبلاد منذ أسسها الإسكندرسنة ٣٣٢ ق. م. حتى دخلتها جيوش العرب بعد نحو ألف عام . كانت العواصم تظهر فى العالم ، مثل أثينا وروما ، لكن الإسكندرية بقيت دائماً مدينة الحضارة ، بمدرستها ومتحفها ، ومكتبتها ، ومرصدها . وكانت كعبة العلماء الرياضيين والفلكيين فى العالم . وفى القرون الخمسة ، من الثالث قبل الميلاد إلى الثانى بعد الميلاد ، كان جميع علماء الفلك والرياضيين العالميين من علماء مدرسة الإسكندرية أو من تلاميذها .

كانوا يعتقدون فى دوران الأرض قبل أن يكتشف ببضعة عشر قرناً ، وقاسوا قطرها قياساً علمياً صحيحاً . ومنهم بطليموس صاحب « المجسطى » الذى ظل إنجيل العلوم خمسة عشر قرناً ، أثبت فيه كروية الأرض ، وكروية الكون ، وأن الأرض فى وسطه ليست إلا هباءة . وما تزال الدقة البالغة فى المنشآت الهندسية المصرية كالمعجزات . وقد استنبط منها علماء الرياضة الأولون قواعد الهندسة . وكان أفلاطون يدعو قومه ليتعلموا ما يتعلمه الناشئ المصرى من فروع المعرفة — كما كان كثير من علماء الأغريق يفاخرون بأنهم درسوا بمصر ! !

ورصد المصريون النجوم ، واستعملوا التقويم الشمسى بعد محاولة استعمال التقويم القمرى ، وقسموا السنة إلى اثنى عشر شهراً ، وكان الأساس العددى عندهم رقم ١٠ وعبروا بزهرة اللوتس عن (١٠٠٠) وبجزء من سلسلة مقياس النيل عن (١٠٠) . وكانت المزولة واحداً من اختراعاتهم الفلكية .

وفى سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد كتب المصريون أقدم سجل رياضى فى التاريخ ، يسمى مخطوط أحمس فى العدد وكتابة الأرقام والكسور والمربع والجذر التربيعى والمعادلات والمتواليات . ولم تولد الثقافة اليونانية إلا بعد ذلك الكتاب بنحو ألف عام . فاستفادت بكل ما قدمته العقول المصرية ومارسته فى عشرة قرون . نقل (تاليس) المعارف الهندسية والفلكية عن المصريين عاش فيهم زماناً يتعلم هندستهم . كما قضى بينهم أفلاطون ثلاثة عشر عاماً يتعلم . ونقل (فيثاغورس) علمى الحساب والهندسة وعاش فيهم اثنى عشر عاماً يتعلم ، أما (أقليدس) فمصرى من الإسكندرية ، وإن كان يونانى الأصول ، سجل فى كتابه « المبادئ » ما هو حاصل بالفعل من الفن الهندسى بمصر ، وهو أعظم مرجع هندسى قديم . . أما أرشميدس فتلميذ إسكندرى لأقليدس . اخترع الطنبور المصرى ، ليسقى الزرع ويرفع المياه من المناجم .

وكانت عبادة إيزيس هى عبادة جنوب أوربة عند ظهور المسيحية .

* * *

دخلت المسيحية مصر فى منتصف القرن الأول للميلاد ، فرفعها الشعب شعاراً فى وجه الرومان الوثنيين . وأصبح فى كل دير مكتبة ، وفى كل كنيسة مكتبة ، وفى الإسكندرية وحدها سبعمائة ألف مجلد على الأقل . واستعذب المصريون العذاب فى سبيل الدين ، فذاقوه مستبسلين على أيدى البراطرة الوثنيين والمسيحيين ، من تراجان إلى ڤاليريان إلى دقلديانوس ، الذى خلدت الكنيسة القبطية آثامه فجعلت التقويم القبطى يبدأ ببداية حكمه . واستشهد نحو ١٤٤ ألفاً كانوا يترنمون بالأناشيد فى طريقهم إلى ساح الاستشهاد ، وسمى التقويم القبطى ذاته تقويم الشهداء .

وفى سنة ٣١٩ انقض المسيحيون على السرابيوم حيث جامعة الإسكندرية ومكتبتها فحطموها مذ كانت فى نظرهم ، كآثار الفراعنة ، رمزاً للوثنية .

ومثلت (كنيسة الإسكندرية) المذهب المصرى بين مذاهب روما والقسطنطينية وأورشليم فكانت أولى الكنائس فى التعليم والذود عن الدين . وفى مجمع نيقية المسكونى (٣٢٥ م .) كان البطريرك ألكسندروس وشماسه إثناسيوس المصريان أروع حضّاره . ولما صار إثناسيوس بطريركاً نفى خمس مرات فى عهود أربعة من البراطرة . وانقسم أبناء المسيحية فصارت الكنيسة المصرية (أرثذوكسية) وصارت الرومانية (كاثوليكية) . ولما انعقد مجمع خليقدونية سنة ٤٥٠ بآسيا الصغرى وقرر (عقيدة الطبيعتين) أعلن بطريرك الإسكندرية حرْم أعضاء مجمع خليقدونية ، فنفاه الإمبراطور واستخدم القوة لإرغام المصريين على قبول عقيدة (الطبيعتين) فرفضوا . وفى سنة ٤٥٩ أنشطرت كنيسة روما ، والكنيسة المصرية . وظلتا كذلك حتى اليوم .

* * *

ازدهرت علوم الطب فى القرنين السادس والسابع . وكان الأطباء مثل سرجيوس يتقنون العلوم والآداب السريانية . وفى القرن السابع ترجم الأسقف بولس الكتاب المقدس إلى السريانية . ووضع أهرون مقالاته الطبية بالسريانية ليترجمها ماسرجويه بأمر عمر بن عبد العزيز إلى العربية فيما بعد . وفى سنة ٦٨٠ رحل يعقوب الرهاوى إلى مدرسة اللاهوت

بالإسكندرية . وفى العهد ذاته ألف بولس الأيجينى كتب الطب فى الإسكندرية ، وأرخ « يوحنا النيقوسى » للفتح العربى . وبدأ النقل إلى اللغة العربية بتكليف خالد بن يزيد بن معاوية للمتفصحين بالعربية بمصر ، ومنهم (اصطفن) الإسكندرانى . واعتمد عمر بن عبد العزيز على (ابن ابجر) طبيب الإسكندرية ، وبعد سبعين عاماً ، رحل (بليطان) بطريق الإسكندرية إلى بغداد يطبب جارية للرشيد .

كانت القوة الرومانية فى البلاد — عندما دخلها الإسلام — مركزة بين ساحل النيل عند مصر القديمة الآن وبين عين شمس الحالية (آون) وقد أنشأها الفراعنة من أربعة آلاف عام ، وهى منطقة عرفها العرب باسم مصر فوسعوا مفهوم الاسم فيما بعد ، فصار يشمل مصر كلها . فتسمية « مصر » تسمية عربية سابقة على الإسلام .

وكانت قرى هذه المنطقة الصغيرة وأديرتها وحصونها بقايا مدن قديمة أنشئت فى طول تاريخ مصر القديم ، على الضفة الشرقية للنيل فى مقابل العاصمة (منف) ، وفى موقع مثالى للسيطرة على الوجهين القبلى والبحرى . وكان حصن بابليون قائماً فى مواجهة جزيرة الروضة قريباً من العاصمة . ولما انتصر عمرو على الروم فى (أم دنين) نقل معسكره من مكان المعركة إلى شمال الحصن وشرقيه بين البساتين والكنائس — وانضوى أهل مصر إلى العرب فكانوا عوناً لهم على الروم . . مذ كان الخلاف بين المصريين والرومان فى عنفوانه والبطريرك « بنيامين » مختف من ثلاثة عشر عاماً عن الرومان — فأعطاه المسلمون الأمان ، فظهر ، وصرح له بفتح الكنائس .

مصر العربية :

بلغ جيش عمرو بن العاص « العريش » فى ١٠ من ذى الحجة سنة ١٨ (١٢ من ديسمبر سنة ٦٣٩) ودانت له مصر . ثم طار على جناحى نسر إلى أنطابُلس (برقة) ففتحها بصلح فى آخر سنة ٢١ . ثم طار إلى أطْرابلس ففتحها عنوة فى العام التالى .

وأتبع عمرو الفتح الحربى بفتوح فى السياسة والحكم . منها إعادة حفر خليج تراجان أو (سيزوستريس) وسماه خليج أمير المؤمنين ، ليربط البحر الأحمر بالنيل والبحر الأبيض .

(١) قرب محطة سكة الحديد فى وسط القاهرة الآن .

ومنها النزاهة المثلى فى جباية الضرائب وتعمير البلاد . وتعالت ألوية الإسلام خفاقة فوق الماء فى الشمال والغرب ، فى « معركة ذات الصوارى » البحرية (شمال غربى قبرص) ، حيث غُلبت الروم ، فغدا البحر الأبيض بحيرة عربية لأول مرة فى تاريخ الإسلام وأوربة (٣٤هـ — ٦٥٥م) .

ولم تصبح مصر بالإسلام ولاية ، غلبها على أمرها غزاة . . وإنما أصبحت أصلاً أصيلاً من الدولة الإسلامية . فذلك جلال الإسلام . أنْ لم يكن أصحاب الدين الجديد ، كالرومان أو خلفائهم فى أوربة وأمريكا ، عنصراً يمارس السيادة فى البلاد المفتوحة . فالناس فيه سَواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالورع والتقوى .

وفى عهد الدولة الأموية فتح الموالى أعظم الفتوح . . حتى إذا جاءت الدولة العباسية اختفت فكرة الأصول تماماً . وكان قد مضى نحو قرن صار فيه الحجاز أقل بلاد الدولة الإسلامية حظاً من الرياسة والقيادة الفعلية .

ويوم سيطرت العمارة البحرية الإسلامية على البحر الأبيض فى ذات الصوارى ، كان بينها سفائن كل بحارتها من القبط . ينضحون عن رايات مصر الإسلامية .

وأقبل العرب على المصريين مستبشرين . فقد خصت مصر بالذكر فى القرآن مراراً . وكان أهلها محل تكريم من الرسول . وهو يقول : « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » . . والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل . أمه هاجر القبطية . وهو والد عرب الحجاز ومنهم النبى . . وأنهم أخوال إبراهيم بن محمد رسول الله . أمه مارية القبطية من حفن كورة أنصنا [1] فأعظم به من نسب ، بين المصريين والعرب .

روى عبد الله بن عبد الحكم أنه كان بمصر عندما دخلها العرب ثمانية ملايين شخص يدفعون الجزية . فإذا أحصى الشيوخ والنساء والأطفال — فهم لا يدفعون — فربما تضاعف العدد . وكانوا بعد الفتح بنصف قرن يسكنون عشرة آلاف قرية ، ليس فى أصغرها أقل من خمسمائة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية .

وبلغت الضرائب ١٠ — ١٥ مليون دينار . . والدينار نحو نصف جنيه ينفق أكثرها

---

(١) مدينة قديمة من نواحى الصعيد قبالة الأشمونين بصعيد مصر فى البر الشرق للنيل . أقيم بها مقياس للنيل من أقدم العصور ، جدد فى عصر معاوية بن أبى سفيان .

فى تعمير البلاد . . حتى كان ما تبقى للدولة فى بداية القرن الثالث الهجرى ١٠٠ ألف دينار فحسب .

وصار للمصريين دور فى الفتنة فى عهد عثمان ، وكانوا بعدُ أنصاراً لعلى . ثم ضلعوا مع عبد الله بن الزبير ضد الأمويين . ثم صار هواهم مع العباسيين . وفى مصر كانت آخر معركة لبنى أمية . فلفظ آخر خلفائهم أنفاسه سنة ١٣٣ بإقليم الجيزة .

مُنع الجند بعد الفتح منافسة الناس فى أرزاقهم من الزراعة أو التجارة أو الصناعة . أما من عداهم من العرب المهاجرين فكانوا كالبحر الأتىّ الذى غمر الأرض .

كانت البلاد أيامئذ مقسمة إلى ثمانين كورة أو مقاطعة ، يديرها موظفون من أهل البلاد ، وبعم الأقباط بحرية عظمى لم ينعموا بمثلها قبلُ ، فبقى (الملكانى) إلى جوار (اليعقوبى) يظللهما تسامح الإسلام ، ولم تحول الدولة كنيسة إلى مسجد ، وفى القرن الثانى كان الأمير يشيد الكنائس للأقباط ولا يكتفى بالأذن بإقامتها ، فتفتحت قلوبهم . ودفعت خلافات المذاهب القبطية بعضهم إلى الإسلام .

ولم ينته القرن الأول حتى أقيمت المنابر للصلاة بالريف وتغلغل فيه الإسلام . وفى خلافة عمر بن عبد العزيز صار عمد البلاد مسلمين . ومن قبل ذلك عربت الدواوين ، وتزوج نساء القبط من المسلمين . وتعلم المسلمون الجدد اللغة العربية للصلاة . ثم زاحمت اللغة العربية اللغة القبطية فى المعاملات والأسواق فزحمتها . وفى سنة ٢١٦ — ٢١٩ أسقط المعتصم (العرب) من الدواوين وقطع أعطياتهم ، فاتحد العرب مع الأقباط فى الثورة عليه ، وكثر زواج الذميات من العرب فى عصر ابن طولون ، فى منتصف القرن الثالث . واتسع نشاط العرب فى الريف فزرعوه وتناسلوا فيه ، وازداد إقبال القبط على الإسلام وعلى اللغة العربية حتى رأى رجال الدين أن الشعب القبطى لم يعد يفهم الصلاة باللغة القبطية . فترجموا جزءاً منها إلى اللغة العربية ، ودخلت العربية فى صلاة الكنيسة المصرية ، ثم صارت لغة القبط عموماً ابتداء من القرن الرابع .

كانت التجارات مع شبه جزيرة العرب بالبر أو بالبحر الأحمر ، عن طريق خليج أمير المؤمنين الذى ينبع من النيل شمال الفسطاط ، ومع بلدان البحر الأبيض عن طريق خليج

آخر يصل خليج أمير المؤمنين وبحيرة المنزلة ، فالبحران يلتقيان بما يشبه امتداد قناة السويس الآن . وكانت ثمت تجار يعرفون العربية والفارسية واليونانية والفرنجية يبحرون من بلاد فرنسا ويتجهون إلى الفرما [١] . يحملون سلعهم على ظهور الجمال ، ويسافرون إلى القازم [٢] . ثم يبحرون من القازم إلى الجار (ثغر المدينة) وإلى جدة (ثغر مكة) ويذهبون إلى الهند والصين ليعودوا بغلات الشرق إلى القازم ثم الفرما ، حيث يركبون بحر المغرب (البحر الأبيض المتوسط) . فيقصد بعضهم القسطنطينية ليبيع سلعه ، ويؤم آخرون مقر ملوك فرنسا .

أما المواصلات الداخلية بسواقى النهر وجداوله فضرب المثل . وأما الجسور والقناطر والجزائر فنى خدمتها فى بعض السنين مائة وخمسة وعشرون ألفًا من العمال للتطهير والتعمير . والرحلة فى الماء بين الفسطاط الإسكندرية تستغرق أيامًا ستة ، وتستغرق بين الفسطاط وقوص من ثمانية أيام إلى خمسة عشر يومًا — وهناك تنقل على متون الإبل إلى البحر الأحمر أما الفسطاط فيربطها بجزيرة الروضة والجيزة جسران متحركان من السفن .

وكان لأوراق البردى مصانع فى الفيوم والفسطاط والمنزلة . وكانت المنسوجات فى كل مكان تحمل الطرز المصرية ، حتى لتسمى « قباطى » نسبة إلى صناعها المهرة وهى تصدر ، كمصنوعات الورق ، إلى إيطاليا وفرنسا وبغداد وغيرها .

ولما قدم المأمون لقمع الثورة على نائبه « المعتصم » استضافته مارية القبطية ، فأهدته عشرة أكياس ذهبًا !

كان القضاة ينظرون القضايا أحيانًا فى المسجد لو كان المترافعون مسلمين ، أو على باب المسجد على المعارج ، لو كان منهم ذميون حتى لا يضطر أحد إلى ما لا يريد .

استقبل القبط أصحاب الدين الجديد مطمئنين ، لأنه دين توحيد وبعث . ولأن المسلمين مأمورون بتركهم وما يدينون . وأغرم العرب بمصر . وأحسن المقال فيها عمرو ، فى خطابه المشهور لعمر — واجتاحها سيل القبائل .. أربعة آلاف فى جيش عمرو ، واثنا عشر ألفًا أو نحو ذلك فى جيش المدد .. يختطون حول المسجد الجامع فى الفسطاط قبيلة قبيلة .. ولم يتوقف السيل ولم يخف .

وانتقلت همدان إلى الجانب الغربى من النيل فكانت بالجيزة . ووفد بنو « هذيل » مع

---

(١) قرب مدينة العريش الآن .

(٢) ميناء السويس الآن .

المدد الذى أمد به عمر عمراً . ولما اختط عمرو الفسطاط منحهم موضعاً خاصاً بهم . وكانت مرابع جند « هذيل » فى بناوبوصير قريباً من سمنود . حيث ترعى دوابهم فى الربيع . ونزلوا فى عهد معاوية بالصعيد (المنيا وأخميم) . . ونشروا الشعر فى مصر فكان منهم الشعراء الفحول : أبو العيال الهذلى . وبدر بن عامر . ومليح بن الحكم بن صخر القردى . وشعرهم فى ديوان الهذليين .

وانتشرت قضاعة حول أخميم . وانتشرت جهينة وغيرها فى القصير . وأرسلت الفرق إلى الإسكندرية فكانت لخم فيها أعز القبائل . وتكاثرت الأمداد فى زمن عثمان ومعاوية عشرة آلاف ، وخمسة آلاف . فكان بالإسكندرية وحدها سبعة عشر ألفاً ، وفى مصر أربعون ألفاً فى عهد معاوية . وأقبلت الآلاف تترى . . إلى كل مكان ، إليك بعض الأمثال : فنى الحوف الشرقى بنو سليم والقيسية وجذام . . وبنو عقبة بين أيلة (أيلات) أو العقبة وبين الحوف .. ثم انتقلت بطون من قريش إلى الأشمونين . وكان بينهم بنو جعفر بن أبى طالب وإليهم ينسب الجعافرة اليوم . . وكانت جهينة حول أسيوط ، وفى الفيوم بنو كلاب . وانتقلت إلى الغربية وقليوب . وفى الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قريش . وسكن حول دمياط قوم هوازن . ثم بدأت فى القرن الخامس الهجرى هجرات أخرى ، فنزلت سنبس فى البحيرة ، يجاورهم قوم من كنانة بن جذيمة ، ومن بنى عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب ، ونزل العمريون البرلس . . وكان آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد يذهبون فى الربيع إلى منوف وسيم ، وتذهب عدوان إلى بوصير . وتذهب فهم إلى أتريب وعين شمس ومنوف .

كانت مصر كما خلقها الله أقرب وأطيب ما يألفه العرب . نخلة باسقة سمراء ، تضرب جذورها فى خط الاستواء ، وتهتز فروعها الخضراء فى الدلتا . وهناك تنشر جناحيها فى آسيا وإفريقية ، لتربط العرب بأصولهم وفروعهم فى قارتين . وكأنما أعدت كثبانها الصفراء فى الصحراء ، وشطآنها الخضراء فى جنات الوادى ، لتكون مغدى ومراحاً للعرب .

فى القرن التاسع للهجرة اورد المقريزى (٧٦٩ — ٨٤٥) اسماء القبائل العربية ومقارها مفصلة بالديار والقرى ، يظهر منها القارئ على ديارهم فى خريطة مصر المعاصرة ، وكأنهم لم يتركوا منها موقعاً إلا عمروه ، ليصيروا الأرض الخضراء عربية ، ويصيروا أجيالها

اللاحقة عرباً أبناء عرب (١) . ومن أسلم تعرب .

---

(١) من جرم وجذيمة ، وسنبس بالبحيرة وبنى قرة — وقد عظم أمرهم أيام الفاطميين والأيوبيين ولهم وقائع فى سخا من الغربية — وعذرة ومدلج وكنانة وبنى عدى بن كعب رهط أمير المؤمنين عمر وكانوا فى نوبة دمياط هم والكنانيون . ومنهم من ولى كتابة السر للملوك بالقاهرة ودمشق نحو مائة عام . وجذام وفيها بطون ، سويد وزيد ، وروح ، وقراط ، وحرام ، وحشم ، وغطفان ، ونبيح وحطمة ، وطريف . . وكان من بنى سويد الأمير زين الدولة طريف بن مكنون . وفى جذام خمس سعود . . أكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ، ومساكنهم من منية غمر إلى زفيتا ومنهم الوزير شاور وإليه ينسب بنو شاور كبار منية غمر . ومنهم أهل برهمتوش .

ولما قدم الغز صحبة أسد الدين شركوه إلى مصر ، كان بها من العرب طلحة وجعفر وبلى وجهينة ولخم وجذام وشيبان وعذرة وطى وسبنس وحنيفة ومخزوم . وفى جرائد الدولة الفاطمية منهم ألوف . وجذام قدموا مع عمرو بن العاص . وكانت لهم إقطاعيات منها هربيط وتل بسطة ونوب ورم . وكانت فاقوس لهلها سويد .. والبرامون للحيادرة . ولهيا بن علوان كفر برسوط بنواحى مرصفا . وللشواكرة شنبارة بنى خصيب . وقرارة بنى سعد تل طنبول إلى نوب طريف . ومنهم بدقدوس ودمريط وضواحى القاهرة إلى أطراف الشرقية . وبالإسكندرية جذام ولخم وبالبحيرة والغربية طوائف من مزاته وبقليوب طوائف من فزارة ومنهم بنو تفايه بأطراف الشرقية والمنوفية وفرقد . . وفى طينة تنيس عرب كانوا بعمل تنيس . . وفى الدقهلية والمرتاحية عرب الحماسة . .

وأذن هشام فى إلحاق ثلاثة آلاف من بنى سليم فأنزلهم الحوف الشرقى . . بلبيس فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم (السويس) فكان الرجل يصيب فى الشهر عشرة دنانير . . وبلغوا بعد ذلك بسنين خمسة آلاف وخمسمائة أهل بيت ما بين صغير وكبير

وفى الصعيد . فى أسوان بنو هلال . وفى أخميم وما تحتها بلى . وفى منفلوط وأسيوط جهينة وفى بلاد الأشمونين قريش وفى معظم بلاد البهنسا لواته . ومنهم طوائف بالجيزة والمنوفية والبحيرة . وببلاد الفيوم بنو كلاب .

وبنو هلال بأخميم منهم بنو قرة — وساقية قلته بنو عمر . وبأصفون وإسنا بنو عقبة . وسير عمر من الشام ثلث قضاعة إلى مصر . . ومنهم بنو شاد . . وهم بطوخ وبنو حماد وهم بمنفلوط وبنو حيار وهم بفرشوط . وأكثر عرب الصعيد من جهينة ونزلوا فى بلاد أخميم . . وقريش . . ومن بطونها الجعافرة بنو جعفر الطيار نزل بعضهم بجرجة مير من أعمال أسيوط . . وبجرجة منفلوط قوم من بنى الحسن بن على . . وفى سيوط طائفة من أولاد جعفر الصادق . . يعرفون بأولاد الشريف قاسم وكانت بلاد الأشراف التى ينزلون بها هم ومواليهم . . من الأشمونين بحرى اتليدم . . ومنهم ينتسبون إلى أبى بكر الصديق ومنازلهم بالبرجين وطما . والعمريون ينسبون إلى عبد الله بن عمر وبلادهم البهنسا ومايليها . وبنومخزوم يزعمون أنهم من خالد بن الوليد . . وبنو شيبة . . بنواحى سفط [illegible] أمة [illegible] ولد أبان بن عثمان [illegible] . . وبنو سهم من ولد عمرو بن العاص بفسطاط مصر .

وقدم صعيد مصر أولاد الكنز . . فى خلافة المتوكل . . وكانت عيذاب لبنى يونس ومنهم كنانة . وبنو الليث منهم سكان ساقية قلته . . والأنصار من قبائل الأزد . . ومنهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحرى منفلوط . . ومنهم عوف بالفيوم والبحيرة ومنهم فزارة : منهم جماعة بالصعيد وجماعة بضواحى قليوب . ومنهم لواته . . ومنهم بنو بلال بالبهنساوية وبالجيزية ولهم سمالوط إلى الساقية . ولبنى بركين أقلوصنا إلى بحرى طنبدى ولبنى حد وخاص الكفور =

وصارت لمصر مدرستها القوية فى آداب اللغة العربية والشعر والنثر والسير والتاريخ منذ ولى عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦) فأقبل على تعريبها وتعميرها ، وبنى مدينة حلوان الضاحية العظيمة للقاهرة الآن . وكانت الخلافة مفضية إلى عبد العزيز بعد أخيه عبد الملك فغدا أمل الشعراء . جاءه كثير عزة بين مادحيه ، وجميل بثينة ، وأيمن بن خريم ، وعبد الله بن الحجاج ، وجاءه نصيب ، فأبقاه عبد العزيز معه ، وجاءه عبد الله بن قيس الرقيات .

وكان يستبقى الشعراء بمصر ليملؤوها أدبًا .

وتولى مصر بعده أخوه عبد الله . . فتتابع وفود الشعراء ومواكب الشعر منذ القرن الأول ، تنتعش وترتاش من سيب الولاة وعيون الدولة .

ووفد أبو العباس الناشئ الأكبر ، وكان من كبار النحاة والشعراء ، والمعلى الطائى الشاعر .

ومن بضع سنين قبل مجئ الشافعى كان أبو نواس بمصر يمدح الخصيب والى الخراج . كما وفد أبو تمام بعد وفاة الشافعى ببضعة أعوام ، كما سيفد البحترى والمتنبى . كما وفد دعبل الخزاعى والشافعى بمصر ، فولاه المطلب الخزاعى إقليم أسوان فلم تطب نفسه .

ولم يتوقف تيار رواة السير والمغازى والتاريخ . فوفد إليها عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية وكان من كبار الأدباء فبقى فيها إلى ما بعد وفاة الشافعى .

=وسقط وجرجة واهربت ومنهم بنو زيد ومساكنهم نويرة دلاص .

وفى المنوفية من لواته بنو يحيى . . وهوارة تتناسب بطونها كما ينتسب العرب. نزلوا و بلاد البحيرة وبلاد الصعيد أنزلهم الظاهر برقوق سنة ٧٨٢ ، تخمينا ، إذ أقطع إسماعيل بن مازن ناحية جرجا .

وبصعيد مصر لخم . منها بالبر الشرقى بنو سماك : وهم بنو مر ، وبنو مليح ، وديارهم من طارف ببا إلى منحدر دير الجميزة . . وبنو أشتوه من مسجد موسى إلى أسكر ونصف بلاد أتفيح . . ولبنى الشريف من ترعة الشريف إلى معصرة بوش. . ولبنى عمر منهم نصف حلوان. ولبنى حجرة النصف الآخر من حلوان ونصف طرا .. إلخ .

روى القلقشندى (٧٥٦ — ٨٢٧) فى صبح الأعشى إن إمرتهم كانت فى الوجه البحرى فى خمسة أعمال : فى الشرقية . وفى المنوفية . وفى الغربية . وفى البحيرة . وفى برقة . وفى الوجه القبلى كانت فى ثلاثة أعمال : فى قوص وفى البهنسا وفى الأشمونيين . ومنهم من سمت نفسه إلى السلطنة حتى ظفر به الظاهر بيبرس . قال القلقشندى (أما فى زماننا فمنذ وجهت عرب هوارة وجوهها من عمل البحيرة إلى الوجه القبلى فنزلت به انتشرت فى أرجائه انتشار الجراد وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث أسوان وما والاها) .

وسيفد كثيرون آخرون منهم ابن جرير الطبرى والمسعودى والبخارى ، وطلاب الحديث والفقه ، من أرجاء العالم الإسلامى كله .

فترة إقامة الشافعى بمصر :

كان الشافعى بمكة سنة ١٩٤ عندما ثار أهل تنووتمى (زمام الجيزة وميت غمر الآن) على الوالى حاتم بن هرثمة . وبعث إليهم الأمين جنداً بين قوادهم السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الجروى ، فهزموا الثوار . وفى سنة ١٩٥ ولى مصر جابر بن الأشعث الطائى ، فلما خلع الأمين أخاه المأمون شغب عليه الأمراء والولاة .

وافترص السرى بن الحكم الفرصة ليبحث لنفسه عن مكان ، فظهر أمره . . وظل منذ قدوم الشافعى حتى وفاته مركز الأحداث بمصر .

ولما عين المأمون والياً جديداً صار « السرى » من قواده ، ثم عزل المأمون الوالى سنة ١٩٨ . وولى العباس بن موسى فقدم ابنه عبد الله نائباً عنه سنة ١٩٩ — وكان معه محمد ابن إدريس الشافعى .

وتشغب الجند على عبد الله ، فقطع أرزاقهم فأعادوا الوالى المعزول . ومات العباس ابن موسى مسموماً . وثار « الجروى » فى تنيس [1] وعبأ جنده فى مراكب حتى نزل بشطنوف ، فسير إليه الوالى جيشاً على رأسه « السرى » فأسر السرى فى سنة ١٩٩ . ثم أطلق الجروى سراحه ليحارب معه ضد الوالى . فانتصرا . وخرج الوالى فى البحر الأحمر إلى مكة سنة ٢٠٠ .. وولى الجند السرى بن الحكم على مصر ، فسار الجروى إلى الإسكندرية واستولى عليها فبقيت معه الإسكندرية وتنيس فأمسى شبه مستقل بمنطقة تدعى مملكة الساحل — وكان السرى والياً مسيطراً فى الداخل ، شبه مستقل بالبلاد عن بغداد هو الآخر .

وفى سنة ٢٠٠ احتل الإسكندرية خمسة عشر ألفاً من أهل قرطبة يقال لهم

---

(١) اسم يطلق على بحيرة المنزلة وعلى جزيرة فى الشمال الشرقى منها قريباً من بور سعيد الحالية ، وعلى أكبر مدينة فى هذه الجزيرة — كانت بها مجار ، وجنان وكروم وأشجار ومزارع . أهلها مياسير ، وبها تحاك ثياب لا يصنع مثلها فى الدنيا . ومنها . ثوب للخليفة لا يدخل فيه من الغزل سوى أوقيتين ، والباقى نسيج من الذهب ، قيمته ألف دينار — يبلغ عدد دكاكينها فى أيام ازدهارها عشرة آلاف . منها مائة دكان عطار . ويرابط حولها دائماً ألف سفينة للتجار وللسلطان .

« الربضيون » ، طردوا من الأندلس لثورة قاموا بها . فسار إليهم الجروى فى خمسين ألفاً . . وخالفه السرى إلى حاضرته — تنيس — فانكفأ « الجروى» راجعاً من الإسكندرية. وفتحت الإسكندرية أبوابها لجند السرى فى سنة ٢٠١. وعزله المأمون بوال جديد ، هزم « السرى » وقبض عليه ونفاه إلى أخميم .

وآثر الوالى الجديد بطانته على الخراسانيين فثاروا عليه ، فهرب . وجاء كتاب المأمون لتولية « السرى » فأخرج من الحبس ليعود والياً فى الفساط سنة ٢٠١ .

وخطب السرى ود المصريين ، وكان يقدّم الشافعى ولا يؤثر أحداً عليه ، حتى إذا ثبتت أقدامه أدار وجهه لأعدائه ، فأعمل فيهم القتل والصلب والنفى من البلاد . لكن إعظامه للشافعى ظل فوق مشاكل الساعة .

ولما ثار على المأمون عمه إبراهيم ، كتب إبراهيم إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بالوثوب بالسرى ، فثاروا عليه ومعهم « الجروى » ، وخرج « السرى » يلاقى أعداءه واحداً إثر واحد فى الإسكندرية وفى الصعيد وفى شطنوف ، حيث انهزمت جيوشه ، وأقبلت جيوش « الجروى » فى مراكبه إلى الفسطاط لتحرقها . فخرج إليه أهل المسجد — والمسجد على الشاطىء — وسألوه الكف عنها ، فانصرف عنها سنة ٢٠٣ .

وثار الأندلسيون بالإسكندرية على عامل الجروى — وكان قد غلب عليها ثانية — فسير إليهم جنده فبلغوا الإسكندرية فى شعبان سنة ٢٠٤ . ونصب « الجروى » عليها المجانيق . وأصابته فلقة حجر منجنيق فمات سلخ صفر سنة ٢٠٥ . ومات السرى فى العام نفسه . وتولى ابنه ليحارب ابن الجروى من جديد . . وبعث المأمون والياً وجيشاً يحارب ابناً آخر للسرى ، وانهزم الوالى سنة ٢٠٧ . وكأنما خلصت مصر لولدى السرى والجروى يتحاربان عليها . فبعث المأمون أعظم قواده عبد الله بن طاهر . فدخل الإسكندرية سنة ٢١٢ . وأخرج الأندلسيين إلى جزيرة كريت فملكوها . . ثم انتفض الوجه البحرى ، عربه وقبطه ، سنة ٢١٦ . فقدم المأمون نفسه سنة ٢١٧ ليقيم تسعة وأربعين يوماً يخمد فيها الفتنة ، ويقضى منها أياماً ثلاثة فى حلوان ، حيث أقام خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز . .

ولقد كانت جيوش بعض الفريقين المتحاربين تبلغ الخمسين ألفاً . والحرب لا تشهد

معركة حاسمة . مما يشير إلى أن الفيالق متكافئة . وتعبئة مائة ألف أو أكثر من المحاربين تحتاج لمئات آلاف أو أكثر من غير المحاربين . دعك من المحايدين . فالعرب بمصر من المحايدين والمحاربين وغيرهم تجاوزت عدتهم المليون بكثير ، وربما بلغوا ملايين فى ذلك العهد أو قريباً منه ، فى حين لم تبلغ عدة الروم بها عند الفتح العربى مائة ألف ، بعد قرون ستة .

* * *

كانت أيام غدر من الولاة وغدر بالولاة . فيها انعكاس صادق لحال المسلمين أيامئذ . فالعرب من أهل البلاد منقسمون انقسامهم فى كل مكان . وفى البلاد مستراد ومذهب للطامعين . وعلى الساحل دولة تضاهىء دولة الداخل . والوالى الذى يصحب ابنه الشافعى تتعثر أولى خطاه ، أما الوالى الآخر « السرى » فيصفيه الود . لكن الأيام لا تكاد تصفو للسرى ، فتحدق جيوش أعدائه بالفسطاط . ويخرج أهل المسجد ليكفوا عنها خطر الغزاة .

كل أولئك يجرى بمصر ، لا تكاد تقلب صفحة واحدة من صفحات الزمن حتى يحدث خطب قد يكون جديراً باشتراك الإمام الشافعى . . لكنه يتراءى للتاريخ بعيداً كأنه لم يكن هنالك . . لقد أجاءه إلى الجامع العتيق قدره ليجلس فيه مجلس الأئمة . . فوق العباسيين والخراسانيين والربضيين ، والمتحاربين . . درس تعلمه على أستاذ مكة عبد الله بن عباس يوم بايع لمعاوية ثم لم يتدخل فى السياسة حتى مات .

ومع أن حلقة الشافعى كانت تضم جوانبها أحياناً على مناقدات الشعراء والفقهاء فلم نسمع أنه تطرق إلى خلافات الحكام ، أو مس ، ولو بالرأى ، الحرب التى تدور رحاها قيد خطوات من الجامع العتيق . . تريد رأس الوالى . والوالى يكرمه يعظمه ويستمع إلى موعظته « انظر من يكون صاحبك فإنه يحبك أو يبغضك . وانظر من يكون كاتبك فإنه يعبر عن عقلك الظاهر إلى الناس . وعف عن أموال الناس يكثر شكرهم لك . وإياك والانبساط إلى رعيتك فتذهب بذلك هيبتك » .

لقد سبق الأستاذ فسما بفكره على خلافات الساسة ونزاعات الساعة . وما كانت

السفائن التى ألقت مراسيها عند عتبات الجامع العتيق إلا ذكريات منفرة ، أو صوراً مصغرة ، للمتن التى عرفها من سنوات طويلات واتخذ منها مواقفه بشجاعة .

ولقد استطاع أن يسمو بنفسه صعداً فيحدد مقامه من هؤلاء وأولاء ، فلا تتلاقى آفاقهم مع آفاقه . فحروب الجروىّ والسرى والربضيين وأمثالهم ، تدور فى فلك أدنى لا يكاد يراه .

والسلطة مد وجزر ، هما مشغلة لأهل الشاطئ ، لا للربابنة الكبار ، فى أعالى البحار .

الفصل الثانى

الفقه فى مصر

صدر جوستنيان مدونته التشريعية للشباب فى القسطنطينية سنة ٥٣٣ للميلاد بقوله : « لا يجد صاحب الجلالة الإمبراطور بدآً من الاعتماد على ركنين : الأسلحة والقوانين » وسيبقى ذلك القول طابع الحضارة الغربية التى توارثت حضارة الرومان : حضارة القوة تخدمها القوانين . أما الحضارة الإسلامية فحضارة الدين تخدمه القوانين ، ومن ثمة الفوارق العظيمة بين « المادية التشريعية » فى الغرب حيث المال والقوة والسيطرة — وحيث الإنسان مجال لإنسان آخر يستثمر فيه اقتداره ، وبين «الحنيفية السمحة » التى تتغيا مصلحة الجماعة فى نطاق القيم الإسلامية .

تعاقبت على مصر ثلاثون أسرة مصرية ، وغزاها الرومان سنة ٣٠ ق . م حتى إذا كانت سنة ٢١٢ منح « كراكلا » الجنسية الرومانية إلى رعايا البلاد المفتوحة فطبقت القوانين الرومانية بمصر .

دون الرومان مصادر القوانين الرومانية فى الألواح الاثنى عشر من خمس قرون قبل الميلاد سنة ٤٤٩ — ٥٤٠ ق . م ، لكن القوانين المصرية كما قال ديو دور الصقلى منذ عهد الرومان « كانت منذ آلاف السنين وما تزال جديرة بالإعجاب ، وأعجب بها العالم فعلا » . فلم تتغير القواعد المصرية التى تحكم علاقات الناس بقواعد رومانية . بل دلت الكشوف الحديثة على أن القوانين الرومانية ذاتها ترجع إلى القوانين المصرية القديمة فلا تفهم القوانين الرومانية، وخاصة المدنية منها ، إلا إذا ألم الإنسان بأصولها التى وضعها قدماء المصريين . وهم أول من فحص أحكام البيع والشراء . . وأوجبوا الكتابة أو الإقرار لإثبات ما ينشأ عن العقد المكتوب ، وحرموا زيادة الفوائد عن ثلث رأس المال فى السنة وعن أصل الدين مهما طال الأجل ، وحرموا الربح المركب ، ومنعوا استرقاق المدين للوفاء بدينه . بل إن ما فى الألواح الاثنى عشر ذاتها ، من قانون طبيعى ، كان تقليداً لمصر . . »

وقال ديودور « ارتقت مصر إلى حد بعيد لم تبلغه دولة سواها ، بفكرة الحقيقة والخير والعدل المجردة ، وقدستها ، فحولتها إلى مبادئ دينية . . فلا عجب أن يكون منها قول الإنسان أمام قاضيه الأعلى يوم الحساب إنه لم يصنع الأذى بمخلوق آخر . ولم يقصر فى واجباته قبل الآخرين . . . تلك الواجبات التى تصل إلى واجب الإحسان للآخرين » .

كان الشعب طبقات هى الأمراء والكهنة والجنود والمزارعون والصناع والعبيد . . الأبناء يتوارثون حرف الآباء . وللزوجة ، حق التصرف فى أموالها ، أو الحق الذى يتفق عليه الزوجان ، من جعل المال شركة بينهما ، أو يخصصان بعضه لنفقات الأسرة ، وللزوجة الشرعية الأولى منع الزوج من التصرف فى ماله دون موافقتها ، وللزوجة الرهن العام على أموال الزوج . وكانت الأراضى موزعة على القرى . لأهل القرية الزرع وللدولة الرقبة . وليست محلا للتعامل ، حتى ملكها (بوكوريس) للناس ، فلما غلب على أمره عادت للمعبود آمون ، وكان للقاضى تحرير العبد إذا ظلمه سيده .

وكانت مصر بحاجة إلى الإسلام لينقلها من واقعها المغلوب على أمره ، إلى فرصتها الكبرى لتمكن لدين الله ، ولتنقل رسالته إلى إفريقية وأوربة .

ودخل الإسلام مصر سنة ٦٣٩ — ٦٤٠ بعد الميلاد . وجاء الشافعى بعد ذلك بشيراً بذيوع الإسلام وحاجة الشعب والعلماء إلى التفقه فى الدين . . وانشغل بالواقع المصرى الذى سيطر على الرومان واليونان والغزاة أجمعين ، والذى استبقى لمصر حضارتها ، مذ وضع الملك (بوكوريس) القوانين المصرية قبل ألواح الرومان بقرون .

* * *

لقد استقبل المصريون المسيحية متدينين بدين قديم يقرر النشور والحساب . فلما صاروا نصارى حملوا المشاعل المسيحية ، حتى إذا دخلوا فى الإسلام حملوا مصابيح الهداية الإسلامية بقدم صدق وقوة . كان منهم غير واحد صحب النبى ، مثل جبر بن عبد الله (٦٣) وأبى رافع القبطى مولى النبى ، راوية الحديث عن عبد الله بن مسعود عن النبى . وسيكون أبو حنيفة الأسوانى القبطى — قحزم — (٢٧١) آخر من مات من تلامذة الشافعى .

وانتشرت قراءة ورش بمصر وانتقلت إلى إفريقية فكانت مشاركة مصرية فى علوم

القرآن — وهو عثمان بن سعيد أجداده من الأقباط . ولد بمصر سنة ١١٠ ، وقرأ على نافع بالمدينة ، وعاد ليموت بمصر سنة ١٩٧ .

وجاء إلى مصر بعد الفتح مائة وأربعون صحابياً ونّيف ، يسميهم المؤرخون (المحدثين المصريين) . منهم أبو ذر الغفارى يقول فيه عبد الله بن عمر (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر)[1] ومنهم الزبير بن العوام قائد المدد الذى أمد به عمر عمراً وفاتح حصن بابليون ، وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق ، وعبد الله بن عمرو (٦٥) كان يلوم أباه على الدور الذى لعبه فى فتنة على ومعاوية ، ولما مات أبوه ولاه معاوية بدله ، ثم لم يلبث أن عزله . قرأ التوراة وعرف السريانية وأصاب جملة من كتب أهل الكتاب . وحمل عنه المصريون علماً كثيراً . واستقى أصحاب الكتب الستة بعض الأحاديث من تلاميذ تلاميذه المصريين . وكانت الصحيفة التى جمع فيها الأحاديث تسمى « الصادقة » وهى من أول المدونات فى السنن . وجاء فى أثرهم علماء آخرون منهم ابن هرمز (١١٧) وأبو يونس مولى أبى هريرة (١٢٣) وعمرو بن الحارث حافظ السنن (١٤٨) ويونس ابن يزيد الأيلى (١٥٢) صاحب الزهرى .

وجاء إلى مصر نافع مولى عبد الله بن عمر ، أرسله عمر بن عبد العزيز ليفقه المصريين ، وعمر نفسه قد سبقت له الإقامة فى « حلوان ضاحية الفسطاط . ثم أذن عمر بالإفتاء لجعفر ابن ربيعة وعبد الله بن جعفر ويزيد بن حبيب (١٧٤) :

ويزيد أستاذ ابن لهيعة والليث بن سعد . ولى القضاء للمنصور عشر سنين (١٥٥ — ١٦٤) . مرض يوماً فعاده الأمير فسأله : يا أبا رجاء . ما تقول فى الصلاة فى الثوب وفيه دم البراغيث ؟ فحول وجهه ولم يكلمه . . فنظر يزيد وقال : تقتل كل يوم خلقاً وتسألنى عن دم البراغيث !

* * *

وفى القرن الثانى سطع فى مصر نجم ثاقب هو الليث بن سعد (٩٣ — ١٧٥) ولد

---

(١) مذهب أبى ذر إنفاق ما فضل عن الحاجة من المال ومن لم يفعل كان من الكانزين . وكان لا يفتأ يغلظ القول للاغنياء فى الشام لاكتناز الأموال . فكتب معاوية إلى عثمان يشكوه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة . وكان منه فيها مثل ما كان منه فى الشام . فأشار عليه عثمان بالتنحى عن المدينة . فاختار الربذة — على ثلاث مراحل من المدينة — إلى أن مات سنة ٣٢ .

فى قلقشندة من أعمال القليوبية فامتاز من بين العلماء منذ حداثته . وذات يوم وردت مسألة فذُكر فيها قول الليث فقال رجل ما أحسن ما قال الليث . كأنه كان يسمع مالكًا يجيب فيجيب ! قال ابن وهب تلميذ مالك (بل لعل مالكًا كان يسمع الليث يجيب فيجيب . والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أحدًا قط أفقه من الليث) .

ولقد أسف الشافعى على فوات لُقيّه ، فهو من أساتذته وإن لم يلقه .

تعلم الشافعى فقه الليث من يحيى بن حسان فى اليمن وسيتعلمه فيما بعد بمصر . يقول الشافعى فيه (العلم يدور على ثلاثة — مالك والليث وسفيان بن عيينة) وسيتأثر الشافعى بالواقع المصرى ، فيكون له بمصر آراء فقهية جديدة فى مسائل ، كما سيتفق مع الليث فى مسائل . . وسيبقى الليث فى تاريخ الفقه إمامًا مسموع الكلام يمثل العلم فى مصر فى القرن الثانى للهجرة . كما سيمثله الشافعى فى كل تاريخها بعده . . . .

كان لليث فى اليوم أربع مجالس : مجلس يشير فيه على الوالى ، ومجلس للحديث ، ومجلس للقضاء ومجلس لحوائج الناس . رحل مرة إلى الإسكندرية فى ثلاث سفائن — واحدة لعياله ، وأخرى لأضيافه ، وثالثة لمطبخه . وكان يطعم الفقراء الخبز والحلوى ويطعم نفسه خبزاً رديئًا — ومن رواياته عن الرسول أحاديث « كان رسول الله ينهى إذا كان ثلاثة نفر أن يتناجى اثنان دون واحد » و « لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه » و « وجدت امرأة فى بعض مغازى الرسول مقتولة . فأنكر قتل النساء والصبيان » .

قالوا : كان مالك يعنيه عندما يقول : أخبرنى من لا أتهم من أهل العلم . وكان يجادل مالكًا فى العلم والفقه فى حلقات المدينة ، وفى الكتابات المتبادلة[1] .

---

(١) نثبت هنا بعض المناقضات بين الأمامين . فنهى نواة نظريتين فقهيتين ومحاورات شخصيتين متكافئتين — جاء فى كتاب من مالك (سلام عليكم . فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد . عصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكروه .

واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة عما عليه الناس عندنا وببلدنا الذى نحن فيه . وأنت فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك ، حقيق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه . فإن الله تعالى يقول فى كتابه : (والسابقون الأولون من المهاجرين الأنصار) الآية . وقال تعالى : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الآية . فإنما الناس تبع لأهل المدينة التى كانت إليها الهجرة ، وبها تنزل القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، يحضرون الوحى والتنزيل وبأمرهم فيطيعونه ويسن لهم فيتبعونه ، =

ولما عارض على بن سليمان إقامة الكنائس المحدثة بمصر استشار خليفتُه موسى بن عيسى العباسى الفقهاء ، فأجاز الليث وابن لهيعة بناءها . واحتج الفقهاء بأن الكنائس التى بمصر ما بنيت إلا فى عهد الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين .

أراد المنصور أن يولى الليث أمر مصر فأبى . فأمر ألا يتصرف الوالى إلا بموافقته فكان إذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فعزل ، وكانت له قرية بتمامها يجيء إليه خراجها

= حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله وسلامه عليه) .

ثم يتكلم إمام دار الهجرة عن مكانة الصحابة فيقول : (ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولى الأمر من بعده . فما نزل بهم ، وما لم يكن عندهم فيه علم ، سألوا عنه ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى اجتهادهم وحداثة عهدهم ، وإن خالفهم مخالف أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره) وينتقل الكتاب إلى دور التابعين فيقول . (ثم كان التابعون بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن . فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولا به لم أر لأحد خلافه ، للذى فى أيديهم من تلك الوراثة التى لا يجوز انتحالها أو ادعاؤها . ولو ذهب أهل الأمصار يقولون . هذا العمل ببلدنا . وهذا الذى مضى عليه منا . لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة . .)

وفى رد الليث عليه يقول :

(ولا أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه ، منى . . فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قضوا لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد الفتيا فى أشياء كثيرة ثم اختلف التابعون . . سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف . ثم اختلف الذين من بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها ، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن عبد الرحمن .

وكان من خلاف ربيعة لبعض ما مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه وقول ذوى الرأى من أهل المدينة . . حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه ، وذاكرتك أنت ، وعبد العزيز بن عبد الله . . فكنتما من الموافقين ، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير . وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه . وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب له فى الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه ثلاثة أنواع ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك . .

ومن ذلك القضاء بشهادة الواحد ويمين صاحب الحق . .)

وانتقل الليث من العموم إلى الخصوص . إلى مالك نفسه يصوبه :- (قد بلغنا عنكم شيء من مستكره ، وقد كنت كتبت إليك فى بعضها فلم تجبنى .. فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك..) ويختتم كتابه بكلمات فى إخوة العلماء فيقول (وقد تركت أشياء كثيرة أشباه هذا وأنا أحب توفيق الله إياك. وطول بقائك لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استئناسى بمكانك وإن نأت الدار . فهذه منزلتك عندى ورأيى فيك فاستيقنه . ولا تترك الكتابة إلى بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل به . فإنى أسر لذلك والسلام عليكم ورحمة الله) .

فيعطى الناس منها صرة ، صرة ، فلا يبقى إلا اليسير :

أفتى الرشيد فى يمين حلفها مرة فأمر له بخمسة آلاف درهم . قال : أعطها لمن هو أحوج منى . . وذات يوم دخل دمشق فقال له قائل : إنى عبد أبيك ومعى تجارة بألف دينار . فخذ مال أبيك وأعتقنى إن شئت . فوهبه المال . . ووهبه نفسه .

وكان عبد الله بن وهب (١٩٧) يسمى (ديوان العلم) . روى عن الليث وتلمذ لمالك. وكان مالك يكتب إليه (إلى عبد الله بن وهب فقيه مصر — وإلى (أبى محمد ، المفتى) قالوا : ما من أحد إلا زجره مالك إلا ابن وهب . وهو صاحب « الجامع فى الحديث » أقدم جامع للسنن فى مصر ، جمعها عن مالك فى المدينة وابن لهيعة بمصر . هرب من ولاية القضاء حتى عثروا عليه فى صحن داره يتوضأ . قال له قائل : ألا تخرج إلى الناس فتقضى بينهم بكتاب الله وسنة رسوله ؟ قال : إلى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء ، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين !

وأما عبد الرحمن بن القاسم (١٢٣ — ١٩١) فتلقى العلم على مالك وعاد إلى مصر . وروايته للموطأ من أشهر رواياته . قال مالك (ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه) . ومدونة سحنون لفقه مالك أسئلة إلى ابن القاسم وإجابات منه ، رتبها سحنون واحتج لبعض مسائلها بالآثار من روايات ابن وهب وغيره للموطأ . وعن سحنون انتشر المذهب المالكى بالمغرب .

ولما أتم أسد بن الفرات الدرس على مالك بالمدينة قصد إلى الفسطاط وجمع حاصل الدراسات على ابن القاسم ، فى مجموعته المسماة « الأسدية » . ومن أجلها رفعت أول قضايا الملكية الأدبية يوم عزم الطلابُ أن يستنسخوها فأبى فترافعوا إلى عمرو بن مسروق الكندى فرفض دعواهم قائلا : وأى سبيل لكم عليه . رجل سأل رجلا فأجابه . ها هو ذا المسئول بين أظهرُكم فاسألوه كما سأل .

وتوجه القاضى — خارج الخصومة — برغبته إلى أسد فسلمها لهم حتى فرغوا منها .

وأما أشهب بن عبد العزيز (٢٠٤) تلميذ مالك والليث فانتهت إليه الرياسة بعد وفاة ابن القاسم . . وعن هؤلاء المصريين الثلاثة نقل المصريون مذهب مالك النقل الكامل ، وإن كان قد سبقهم فى نقله إليها عبد الرحمن بن خالد وعثمان بن الحكم الجذامى المتوفى سنة ١٦٣ .

وفى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث كان بمصر سعيد بن عفير ، ويحيى بن

بكير وعبد الله بن صالح ، شيوخ « البخارى » ، وأحمد بن يونس ويحيى بن يحيى التميمى وغيرهما من شيوخ « مسلم » .

وكان بمصر كذلك عبد الله بن عبد الحكم تلميذ مالك وسفيان بن عيينة والليث وابن لهيعة . ولد بالإسكندرية سنة ١٥٥ ومات سنة ٢١٤ ، وله مؤلف مشهور فى سيرة عمر ابن عبد العزيز ومؤلفات المختصر الصغير والمختصر الأوسط واختصار كتب أشهب ، وهى فى فقه مالك .

وكان بمصر فى الوقت ذاته — (ذو النون) المصرى — أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ، من كبار المتصوفين (١٥٥ — ٢٤٥) ينحو منحاه الفلسفى الخاص فى التصوف والمعرفة ومحبة الله — ويحدث عن مالك والليث وابن لهيعة .

* * *

إلى جوار الفقهاء العظام ، وجد القضاة الكبار ، منهم : عبد الرحمن بن حجيرة . من سنة ٦٩ حتى سنة ٨٣ . سأل رجل ابن عباس عن مسألة . قال له من أى الأجناد أنت ؟ قال من أهل مصر . قال تسألنى وفيكم ابن حجيرة ؟ كان له اجتهادات جميلة : يرى المال جديراً بالتداول فلا يحجر على سفيه فى ماله ، ولكن يشهره وينهى الناس عن معاملته ، ويقر ماله بيده يصنع ما يشاء . وهو الرأى الذى صار إليه أبو حنيفة . وابن حجيرة هو الذى يقول : لأن أسلف دينارين فيردان على ، ثم أسلفهما فيردان على ، أحب إلى من أن أتصدق بهما .

ولما ولى القضاء توبة بن نمر الحضرمى (١١٥ — ١٢٠) قال لامرأته لا تعرضن لى فى شىء من القضاء ولا تذكرنى بخصم ، ولا تسألنى عن حكومة . فإن فعلت شيئاً من هذا فأنت طالق . . فكانت ترى دواته قد احتاجت إلى الماء فلا تأمر بها أن تمد خوفاً من أن يدخل عليه فى يمينه شىء .

لم يملك شيئاً إلا وهبه ووصل به إخوانه وأفضل عليهم . . وكان يرى الحجر على السفيه والمبذر . فرفع إليه غلام لا تحوى يده شيئاً إلا وهبه وبذره .

قال أرى أن أحجر عليك يا بنى .

قال الغلام : ومن يحجر عليك أيها القاضى ؟ والله ما نبلغ فى أموالنا عشر معشار

من تبذيرك . فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد . . وقد اشتهر عنه أنه يقضى فى الرجل الذى يفلس بصداق امرأته كاملا . . فما بقى من ماله كان الغرماء فيه أسوة .

وفيما بين سنوات (١٢٠ — ١٢٨) جعل القضاء والقصص لخير بن نعيم فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين . ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين النصارى . .

روى الراوى عنه : كنت ألازم خير بن نعيم . . وكنت أراه يتجر فى الزيت .فقلت له : وأنت أيضًا تتجر ؟ قال : انتظر حتى تجوع ببطن غيرك . قلت فى نفسى . وكيف يجوع إنسان ببطن غيره ؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم .

وفى سنوات ١٤٤ — ١٥٤ ولى القضاء أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد . كان يعمل الأرسان كل يوم رسنين (لجامين) . واحد ينفق ثمنه على نفسه وأهله . والآخر يبعث به إلى إخوان له من أهل الإسكندرية . لكل واحد منهم رسن لنفسه . فلما ولى القضاء انقطع فبعثوا إليه يقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن كانت الدنيا مالت بك حتى تقطع ما كان الله يجريه على يدك . . قال معاذ الله . فكان يعملها ويبعث بها إليهم .

كان إذا اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه نظير ما اشتغل . وقال : أنا عامل للمسلمين ، فإذا اشتغلت بغير عملهم فلا يحل لى أخذ ما لهم .

وولى القضاء عبد الله بن لهيعة (١٥٥ — ١٦٤) فكان أول قاض خرج لرؤية هلال رمضان إلى الجيزة . أعطاه الإمام الليث ألف دينار ليصلح حاله .

ووليه إسماعيل بن اليسع الكندى (١٦٤ — ١٦٧) وهو أول قاض حنفى . . قضى برأى أبى حنيفة فى إبطال الوقف ، فثقل أمره على الناس . وكانت له مع الليث بن سعد وقائع ، فكتب الليث فى عزله فأعفى .

ووليه غوث بن سليمان مرات . وهو الذى قضى بين أبى جعفر وبين أم المهدى ، إذ لم تقبل إلا حكمه . قال بعث إلى أمير المؤمنين أبو جعفر قال : ياغوث إن صاحبتكم الحميرية خاصمتنى إليك فى شروطها . قلت أيرضى أمير المؤمنين أن يحكمنى عليه ؟ قال نعم — فقلت : إن الأحكام لها شروط . . يأمرها أمير المؤمنين أن توكل وكيلا . فوكلت خادمًا . وبعثت معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالتها . فقلت قد تمت الوكالة .

فإن رأى أمير المؤمنين أن يساوى الخصم فى مجلسه ؟ . . فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم ودفع إلىّ الوكيل كتاب الصداق . فقرأته عليه . فقلت : يقر أمير المؤمنين بما فيه ؟ قال نعم . قلت فى الكتاب شروط مؤكدة . . أرأيت يا أمير المؤمنين لو خطبت إليهم ولم تشترط لهم هذا الشرط أكانوا يزوجونك ؟ قال : لا . قلت . . وأنت أحق من وفى لها شروطها . قال : علمت إذ أجلستنى هذا المجلس أنك ستحكم على .

ثم أمر له بخلعة وجائزة . ثم أمر باحتباسه ليقضى بين أهل الكوفة . فقال : ليس البلد بلدى . . . إيذن لى يا أمير المؤمنين فى الرجوع إلى بلدى .

وشفع الطائى صاحب البريد فى خصم إلى الحزمى القاضى (١٧٠ — ١٧٤) فكتب إليه القاضى : عليك تدبر دوابّك وبراذعها وكنس بولها ... فكتب صاحب البريد إليه : تبطىء بالجلوس إلى الناس ؟ ! وكتب إليه القاضى : إن كان أمير المؤمنين أمرك بشىء ، وإلا فإن فى أكفك وبراذعك ودبر دوابك ما يشغلك عن العامة . ثم استعفى .

* * *

كانت التقاليد المصرية ومجتمعها وحلقات جامعها العتيق معروفة للشافعى . وهو « الأصولى » لا يرحل رحلة إلا أن يتحراها ، كمثل ما يتحرى المقدمات فى قضايا المنطق .

فهبط أرض مصر ومعه تلميذه أبو بكر الحميدى . وسأله بعض الأكابر أن ينزل عنده . فقال أريد أن أنزل عند أخوالى من الأزد — قبيلة أمه — فذلك درس فى الوفاء ، تعلمه على النبى ، عندما هاجر للمدينة فنزل عند أخواله بنى النجار .

وقصد الشافعى بعد ذلك إلى دار عبد الله بن الحكم — وربما توشّجت بينه وبين ضيفه الصلات فى إبان دراسات عبد الله على مالك وسفيان ، وستنتهى إليه رياسة المالكية بعد أشهب — فلم يمنع ذلك الشافعى أن ينزل بداره . فتلك قربى العلماء .

قال له عبد الله : إذا أردت أن تسكن مصر فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به .

قال : يا أبا محمد من لم تعزه الدنيا فلا عزّ له . وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة . وما بتنا جياعاً قط .

وعبد الله هو عبد الله بن الحكم بن أعين بن الليث — والليث من موالى عثمان بن

عفان أو رافع مولاه ، وزوجة الشافعى من حفدة عثمان . وبهذا قد تُفهمُ بعض أسباب حفاوة عبد الله بالإمام أو نزوله بداره ، فإنما كان بعضه حفاوة بعالم قريش ، ووفاء لرابطة الولاء ، وهو من قِبَل الشافعى وفاء وتحية .

وسنرى آثار ذلك فيما بعد ، فى تعليم ولدىْ عبد الله ، وفى الحفاوة التى لازمت الإمام حين دفن فى مقبرة القرشيين بين قبور أبناء عبد الحكم ، فيكتب الخلود لابن عبد الحكم ذاته ، من أجل وفائه .

الفصل الثالث

فى جامع عمرو

فتح عمرو الإسكندرية — فرأى بيوتها وأبنيتها مفروغًا منها فقال : مساكن كُفيناها. وأرسل إلى أمير المؤمنين يستأذنه فى أن يتخذها عاصمة للبلاد . فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول بينى وبينهم الماء فى شتاء ولا صيف . فتحول عمرو من الإسكندرية وأقام « الفسطاط » سنة (٢١ — ٦٤١م) فى موقعها الحالى على النيل . فاختط المسجد الذى يحمل اسمه ، وأمامه دار الإمارة . واختط حوله الزعماء والقبائل .

ولما انتصر العباسيون بمصر أقاموا العسكر سنة ١٣٣ إلى شمال الفسطاط للأمير وللجند. وفى عهد السرى بن الحكم — أُذن للناس بالبناء حول العسكر . ثم أنشأ ابن طولون القطائع سنة ٢٥٦ بجوارها . وصارت كلها بعدُ ، مدينة ، واحدة يطلق عليها : مصر ، أو الفسطاط .

وأُطلق على المسجد حين أنشىء « مسجد أهل الراية » لتوسطه خطط أهل الراية من القبائل التى شاركت فى الفتح . وسيزيده فيما بعـــد مسلمة بن مخلّد سنة ٥٢ ويجعل له منارة . وسيعيد بناءه عبد العزيز بن مروان سنة ٩٧ وسيزيده قرة بن شريك وينصب المنبر الجديد سنة ٩٤ . (فلا يعلم اليوم فى جند من الأجناد أقدم منه بعد منبر رسول الله) كما يقول الكندى (٣٥٠). ثم يزيد فيه عبدالله بن طاهر مثله لتبلغ مساحته الحالية (١١٢,٥ × ١٢٠ متراً) . وسيحمل أحيانًا اسم (تاج الجوامع) أو الجامع العتيق ، ليمتاز من المساجد التى ستشتهر بها الفسطاط أو القاهرة — مدينة المساجد .

هذا المسجد الذى لم تنقطع فيه الصلاة حتى اليوم ، والذى سيدخل التاريخ باسم جامع عمرو ، فيصير أشهر المساجد حتى ينشأ الأزهر ، كان مثابة للناس وجامعة علوم ،

وملتقى للعلماء والفحول من الصحابة الأكرمين : أبى ذر الغفارى . والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص . وعبد الله بن عمرو ثم أجيال أخرى من الفقهاء والمتفقهين فى الآداب واللغة والقصص والقراءة والفقه وغيرها .

كان يأتى دروس القصص فيه أبو رجب بن عاصم عندما دخل الشافعى مصر ، وصلى خلف أبى رجب وأثنى على صلاته ، تحية للسابقين ودرساً فى الأدب .

وصنع الإمام بالفسطاط ما صنعه ببغداد عندما زار قبر أبى حنيفة أول ما وفد . فوقف على قبر إمام مصر الليث بن سعد تحية . وقال (لله درك يا إمام . حزت أربع خصال لم يكملن لعالم : العلم والعمل والزهد والكرم) . . وكأنما كان يعنى نفسه . . .

وكانت السيدة نفيسة حفيدة زيد بن الحسن بن على قد تحولت إلى مصر مع زوجها إسحق بن الإمام جعفر الصادق ، بعد أن حبس المنصور أباها مدة ، وكان والى المدينة. وكانت ذات علم ، تكبر الشافعى بخمسة أعوام ، فلم يفت « ناصر الحديث » أن يسمع ما لديها منه .

أما مشيخة العلم فى الفسطاط فكانت موزعة بين الحنفية وهم ضعفاء ، وبين المالكية وهم قوة يتصدرها أشهب وعبد الله بن عبد الحكم معاً . ومع أن مدرسة مصر جميعها قد تفقهت بالليث فإنها آثرت مذهب مالك .

* * *

دخل الإمام المسجد الجامع فتلاقت جماعات عطشى على المورد العذب كثير الزحام ، تسبقه سمعته من مكة عاصمة الإسلام ؛ أو المدينة دار السنة ، أو بغداد عاصمة الخلافة — فلم يكن مجرد عالم أو أستاذ . وكان ابن عم النبى عليه الصلاة والسلام . . فأعظم به من إمام !

وانقسم أهل العلم بين مالكية وشافعية ، وكان أول صدع فى هيأة القيادة بدار عبد الله بن عبد الحكم ذاته . فأوجس المالكية خيفة . . قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : كنت أتردد على الشافعى فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبى — وكان على مذهب مالك —

قالوا له يا أبا محمد . إن محمداً انقطع إلى هذا الرجل وتردد إليه ، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه . فجعل يلاطفهم ويقول : هو حدث ويحب النظر فى اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك . ويقول لى فى السر : يا بنى الزم هذا الرجل .

ولما أعلن محمد فيما بعد ، أن الفقيه هو الذى يستنبط أصلا من كتاب الله تعالى أو من سنة رسول الله لم يُسبق إليه ، ثم يشعب من ذلك الأصل مائة شعبة ، قيل له فمن الذى هو كذلك ؟ قال : محمد بن إدريس الشافعى . . .

قالوا : قدم رجل من قريش فجئناه وهو يصلى فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجهاً ، فلما تكلم ما رأينا أحسن كلاما منه ، فافتتنا به .

وأهرع الناس فى البلد المضياف إلى « زاوية الخشابية » التى عرفت به فى جامع عمرو . فبهر الجمهرة بفعله وهو يتعبد ، وخلب ألبابهم بقوله وهو يتكلم . فتحلقوا حوله : الأسماع مصيخة والعيون محدقة ، فى صلاته ونسكه دروس وعبر . وفى حديثه وقوله متعة للعين والأذن . يجيئهم بخلاصات العلم الإسلامى ومعانى الآى وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام فى سمو وأصالة ويسر . . عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله . . سلسلة الذهب — أو مالك عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر — أو مالك عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله . . أو من مدرسة الرأى مدرسة أبى حنيفة أو تلامذته أو أساتذته : يجادلها أو يصوبها ويزكى أساتذتها مع ذلك . . فاجتمع فى دروسه المنهاجان : أهل الرأى وأهل السنة . . . أسمر خفيف العارضين يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية ، حسن السمت حسن الصوت ، طويلا ، معتدل القامة واضح الجبهة رقيق البشرة ، يلبس الثياب الرقيقة من الكتان والقطن البغدادى ، وربما لبس قلنسوة ، ويلبس كثيراً العمامة والخف .

وكان خطيباً أىّ خطيب ، (إذا أخذ فى التفسير كأنه شاهد التنزيل) كما يقولُ تلميذه يونس . وفى جامع عمرو كذلك تجلت خصيصة أخرى هى عذوبة الصوت فى الأسماع ، كالنغم ينصب فى الأذن أو الفن ، يأسر النفس ويسكر البصر . قال تلميذه المزنى (كان إذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته) .

وكان مهيباً أعظم المهابة . قال الربيع : والله ما جرؤت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلىّ هيبة له .

* * *

وكان بذال أموال ، لا تعلم يمينه ما تنفق شماله . قالوا جمع له عبد الله بن عبد الحكم ألفي دينار عندما قدم . . . ولو جمعت لذهبت إلى الناس تفاريق . دخل عليه جار له بمصر خياط ، فأمره بإصلاح أزراره فأصلحها فأعطاه ديناراً ذهباً ، فنظر إليه الخياط وضحك . قال الشافعي : خذه فلو حضرنا أكثر منه مارضينا لك به . قال أصلحك الله إنما دخلنا عليك لنسلم عليك .فال الشافعي : فأنت إذن ضيف زائر . وليس من المروءة الاستخدام بالضيف الزائر .

وعندما تزوج الربيع ، سأله كم أصدقتها ؟ قال : ثلاثون ديناراً . قال كم أعطيتها ؟ قال ستة دنانير ، فأرسل إليه بصرة فيها أربعه وعشرون ديناراً . . وسيكون فيما بعد راويته وسيقوم على حوائجه . وسيدخله الشافعي فى أذان الجامع سنة ٢٠١ .

وكان لا يدعه دون توجيه إذا بدرت البادرة . . قال الربيع :

كان الشافعي مريضاً فقلت : كيف تجدك . فقال : ضعيفاً يا ربيع . فقلت : قوى الله ضعفك . فقال : إذن يقتلني ، لأنه إنما هو ضعف وقوة ، فإذا قوى الله الضعف قتل صاحبه .

فإذا صوب الربيع أو عاتبه ، ياسره وداعبه .

روى الربيع أنه عمل وليمة ، فلما أكل الناس قال البويطى اجلس فكل . فقلت من أذن لنا أن نأكل ؟ فسمع الشافعي فقال : يا سبحان الله ، أنت فى حل من مالى كله . . . ورآنى كتبت حساب النفقة ، فقال : لا تضيع قراطيسك باطلا ، فلست أنظر لك فى حساب . فقلت فإن أم أبي الحسن – يعنى أم ولده – ربما طلبت الشيء فأشترى لها ، ولم تأذن (أنت) لى . قال : يا طويل الرقاد ، أنت فى حل من مالى كله .

والسماحة واليسر والحلم سنة سيد المرسلين فى كل ما علّمه وعمله . . عرضت له – عليه السلام فى – الحج امرأة جميلة من خثعم فسألته عن أبيها الشيخ الذى لا يستمسك على الراحلة ، فأمرها أن تحج عنه . . وكان قد أردف ابن عمه الفضل بن العباس (١٣) . وأخذ الفضل ينظر إليها . وكان وسيماً . فوضع الرسول الأمين يده على وجه الفضل ، وحوله إلى الشق الآخر .

وكان لأبى بكر غلام كلفه حفظ الزاملة التى تحمل متاعه ومتاع الرسول . فأضلّها . فقام أبو بكر يضربه ويقول : بعير واحد تضله ! فأخذ عليه السلام يبتسم ويقول : « انظروا إلى هذا المـُحرِم ما يصنع » .

والناس لا يصدقون إلا أن يكونوا مطمئنين . . والعلم لا يدخل الآذان إلا أن ترضى الأنفس عن صاحبه وتستحب طرائقه وترفقه

كان ابن حزم (٣٨٣ — ٤٥٧) باقعة العصر بالأندلس . تخلى عن الوزارة ليخلص للعلم ، وكان شافعيًّا متعصبًا . . ثم ظاهريًّا من نفاة القياس متعصبًا شديد التعصب . قالوا فيه : (لسانه وسيف الحجاج صنوان) . فأمكن خصومه من نفسه وأضاع فرصته . قال ياقوت : « إن أكثر معايبه عند المنصف له جهله بسياسة العلم التى هى أعوص من إتقانه . فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض . ولا بزُرقه بتدريج . بل يصك به معارضه صك الجندل . . . حتى استهدف إلى فقهاء وقته . . فأجمعوا على تضليله . . وحذروا سلاطينهم . . ونهوا عوامهم . . وطفق الملوك يقصمونه . . إلى أن انتهوا به . فتقطع أثره بتربة بلده . . وبها توفى .

أما حلقة إمام السنة فجديرة به وبالسنة ، من تعليم للأدب العظيم ، وألسنة عفيفة العذبات ، نظيفة الجنبات ، مع الصدق والنصفة . خرج يومًا من سوق القناديل فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعى إلى التلاميذ ، وقال نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به . فإن المستمع شريك القائل : إن السفيه ينظر إلى أخبث شىء فى وعائه ويحرص أن يفرغه فى أوعيتكم . ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقى منها قائلها .

سأله رجل عن أهل العراق ما يقول فى أبى حنيفة ؟ قال : سيدهم . . قال فى أبى يوسف ؟ قال أتبعهم للحديث : قال . فى محمد ؟ قال : أكثرهم تفريعًا . قال فزفر ؟ قال : أحدّهم قياسًا . .

ولا إبذاء فى الحلقة ولا إفحاش : قال المزنى أمامه يومًا : فلان كذاب . قال : اكس ألفاظك أحسنها . لا تقل كذاب . قل : حديثه ليس بشىء . فإذا ضعّف الشافعى مـُرسَل أبى العالية الرياحى أن (على الضاحك الوضوء) قال « حديث أبى العالية

الرياحى . . رياح » وإذا ضعف حرام بن عثمان أن قال « حديث حرام كاسمه حرام » وهو فى كتبه ، كما هو فى حلقته ، يجادل الآراء لا أصحاب الآراء . ويكلف تلاميذه أن يأخذوا إخذه . . قال الربيع فى ختام أحد الأبواب فى الأم (فقلت للشافعى : فلست أريد مسألتك ما كرهت من ذكر أحد . ولكنى أسألك فى أمر أحب أن توضح لى فيه الحجة . قال : فسل) ومن ذلك قوله الذى يتردد فى كتبه : خالفنا بعض الناس ؛ وغيره من أساليب إغفال الأسماء .

* * *

وللدرس أولويات ، فالقرآن أول العلوم يستفتح به نهاره ، ثم يجىء الحديث فى الدرس الثانى . فهذان الدرسان أحق بالمباكرة واستجماع الفكر . تليها المناقشة المفتوحة للناس جميعاً فى القرآن والسنة . وأخيراً تجىء علوم العربية من لغة وشعر وعروض ونحو . والأستاذ يسقى الناس من بحره الواسع — وبهذا تكاملت بجامع عمرو دورة تدريس المنهج الكامل فى يوم واحد فى حين تتكامل فى سنين بالنسبة للأستاذ الجامعى فى العصور الحديثة ، وتتكامل على يد كثيرين من الأساتذة بالنسبة للتلاميذ .

وفى تقييم عناصر المنهج يقول الإمام « من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نبل قدره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى اللغة رق طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه » .

والمجالس تخرج وتدرب . ولقاءات الرجال تلقيح لألبابها ، كما يقول عمر بن عبد العزيز ، ولهذا كان الحوار طريقته المثلى ، طريقاً ذات اتجاهين — يستفيد فيها المناظر علم صاحبه مثلما يفيده .

يدعو الشافعى من يتدارس معه اللغة والأدب ، فيقول للربيع : ادع لى « سرجاً » . فيأتى الربيع « بسرج الغول » عالم اللغة ، وكان الشعراء يعرضون شعرهم عليه ليتيقنوا صحته. ويجلس الشافعى وسرج يتعاودان الحديث ، والمجلس غاص بالناس ، ليروى الشافعى ظمأه إلى الفصاحة مع رجل يستطيع أن يرقى إلى مستوى المناظرة معه . حتى إذا قضى معه وقتاً عاد إلى الربيع يقول : يا ربيع نحتاج أن نستأنف العلم . . . وإنما يقصد التعليم أو الإملاء فى الفقه ، أو فى الحديث أو فى التفسير .

وللتلاميذ وللفقه من وقته مقام الصدارة : ذاكره طبيب مصرى حيال المسجد فى الطب فبهر لبه حتّى ظن أنه لا يحسن غيره وسأله: هل قرأت كتب « أبقراط » . فأشار إلى الجامع وقال : إن هؤلاء لا يتركوننى . .

كان يقول « لا تسكنن بلداً ليس فيه عالم يفتيك عن أمر دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك » ويقول « إنما العلم علمان علم الدين وعلم الدنيا . فالعلم الذى للدين هو الفقه . والعلم الذى للدنيا هو الطب » .

فإذا خلا فى بيته هدر كالسيل فى أيام العرب . .

هكذا تبحر فى علوم الدنيا وتخصص فى علوم الدين .

ولقد كان عبد الملك بن هشام بمصر ، مبايعاً بأنه عالم مصر والعرب بالغريب والشعر والسيرة النبوية . قيل له لو أتيت الشافعى ؟ فأبى حيناً . ثم قيل له لو أتيته ؟ فأتاه ، فذاكره أنساب الرجال . فقال الشافعى بعد أن تذاكرا طويلا : دع عنك أنساب الرجال . فإنها لا تذهب عنا ولا عنك . . وخذ بنا فى أنساب النساء . . فلما أخذ فيها اشرأبت الأجياد إلى الإمام . فكان ابن هشام بعد ذلك يقول : « ما ظننت أن الله عز وجل خلق مثل هذا » .

وكثيراً ما يتناشدان الشعر . . ثم صار ابن هشام إذا شك فى شىء من اللغة بعث إليه فسأله . وكان من رواد الحلقة الحسن بن عبد السلام الشاعر .

كان الجامع العتيق مركز الثقافة ، واللغة وآدابها طلبة العرب المقيمين ، والمصريين الذين شرعوا يسلمون أفواجاً فى هذه الفترة وما تلاها من الزمن . سبق أبو نواس الشافعى بأعوام إلى مصر ، يقرض الشعر ويمليه أو يرويه بالمسجد الجامع . ولحقه بعد أعوام أبو تمام ، يجمع الأراجيز والقصائد ويقرض الشعر ويسقى الماء خمس سنين فى المسجد الجامع ، ثم يُستدعى إلى بغداد ليكون شاعر « المعتصم » ويصير أستاذاً للبحترى ويخلف للفصحى ديوانه ، لتوجد أشعاره فى رحل المتنبى عند وفاته (٣٥٤) . وسيفد البحترى إلى مصر بعد خمسين عاماً أو ستين ، أو تفد إليها آماله وأشعاره فى انتظار الإنعام عليه . ثم يفد عليها المتنبى بعد سنين لينظم فيها أماديحه المبدعة ، وأهاجيه المقذعة ،

فى حاكم يلتمس أعاطيه . . واتصال مصر بهولاء الثلاثة اتصال بشوامخ الشعر العربى ، تتأثر بها وتؤثر فيها .

* * *

كان عمر بن عبد العزيز عند الشافعى ، هو الخليفة الخامس (من الراشدين) . تربى بحلوان على مبعدة فراسخ من المجلس النبيه فى جامع عمرو . فكان الشافعى يعيش معه بفكره كلما سرح طرفه فرآها .

ويشفه الوجد إلى الأرض المقدسة إذ يحج من مصر ، فيبث خلجات صدره فى نفثات شعره . فما كان يصعد شرفًا ولا يهبط واديًا إلا وينشد :

يا راكبًا قف بالمحصب من منى ۞ واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ۞ فيضـًا بملتطم الفرات الفـائض
إن كان رفضًا حب آل محمد ۞ فليشهد الثقـلان أنى رافضى

ويتملكه الشوق إلى العراق ، فيقول مقال مشتاق ، لتلميذه يونس : هل رأيت العراق ؟ فيقول لا . فيقول ما رأيت الدنيا . ويهزه الحنان إلى قرة العين هناك : فيقول : وعدنى أحمد بن حنبل أن يقدم إلى مصر .

وظاهر أن قلة ذات اليد حالت بين أحمد وبين الوفاء بالعدة .

وأحيانًا يأخذ فى أطراف شتى من الكلام ، ولُسمع من السيرَ تندى الأكباد ، وتقر الأعين . من كل قطر طرفة .

يقول عن عجائب المدينة : رأيت بالمدينة أربع عجائب : جدة لها إحدى وعشرون سنة ! ورأيت رجلا فلسه القاضى فى مُدَّيْن نوى (مكيالان نوى — أربعة أرطال) ! ورأيت شيخًا قد أتى عليه تسعون سنة يدور نهاره حافيًا راجلا على القيان يعلمهن الغناء ، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً ! وكان بالمدينة وال ، وكان رجلا صالحًا ، فقال : مالى لا أرى الناس يجتمعون على بابى كما يجتمعون على أبواب الولاة ؟ قالوا : إنك لا تضرب أحداً ولا تؤذى الناس . فقال أهكذا ؟ على بالإمام ينصب بين العقابين ، وجعل يضرب ، والإمام يقول : أعز الله الأمير (أيش جرى — أى شىء جرى) وهو يقول : حملنا بنفسك . فاجتمع الناس ببابه .

ويروى : كنا فى سفر بأرض اليمن فوضعنا سفرتنا[١] لنتعشى ، وحضرت صلاة المغرب فقلنا نصلى ثم نتعشى . فتركنا سفرتنا كما هى ، وكان فى السفرة دجاجتان ، فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين ، فلما قضينا صلاتنا أسفنا عليها وقلنا حرمنا طعامنا . فبينا نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفى فمه شىء كأنه الدجاجة فوضعه ، فبادرنا إليه لنأخذه ونحن نحسبه الدجاجة قد ردها . فلما قمنا لخلاصها فإذا هو قد جاء إلى الأخرى فأخذها من السفرة . . وأخذنا الذى قمنا إليه لنأخذه . . ليفةٌ قد هيأها مثل الدجاجة .

وتتراءى سماحة الفكر والنفس والمنحى العلمى جميعاً فى سخريته من المتزمتين فيقول : حضرت بمصر رجلا مزكياً يجرح رجلا ، فسئل عن سببه وألح عليه فقال : رأيته يبول قائماً . قيل وما فى ذلك ؟ قال يرد الريح من رشاشه على يديه وثيابه فيصلى فيه . قيل : هل رأيته أصابه رشاش وصلى قبل أن يغسل ثيابه ؟ قال لا ولكن أراه سيفعل !

ويحدث عن محمد بن علي بن شافع[٢] أنه قال : « إنى لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وفيه ابن أبى ذئب والحسن بن زيد والى المدينة . فأتى الغفاريون[٣] فشكوا إليه شيئاً من أمر الحسن . فقال يا أمير المؤمنين سل فيهم ابن أبى ذئب . فسأله فقال : أشهد أنهم أهل تحكم فى أعراض المسلمين كثير والأذى لهم .. فقالوا : سله عن الحسن . فقال . . أشهد أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه . . قال محمد : فجمعت ثيابى والسياف قائم على رأس أبى جعفر مخافة أن يأمر به فيقتل فيصيب دمه ثوبى . فقال أبو جعفر : قد سمعت يا حسن ؟ فقال : سله عن نفسك .

فقال أبو جعفر : فما تقول فىّ ؟ قال أو يعفينى أمير المؤمنين فقال والله لتخبرنى . .

فقال : أشهد أنك أخذت المال من غير حقه وجعلته فى غير أهله . فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفاه . قال محمد فجمعت ثيابى مخافة . . فيصيب دمه ثوبى . قال أبو جعفر : والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والترك والديلم ، هذا المكان منك . فخلى قفاه وأطلق سبيله . وقال : والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك . قال ابن أبى ذئب : أنا والله أنصح لك من المهدى (ابنه) .

---

(١) السفرة طعام المسافر وما يبسط على الخوان من جلد أو غيره .

(٢) محمد بن على بن شافع — ابن عم جده .

٣) قبيلة الغفاريين. ينسب إليهم أبو ذر .

ويتحدث عن ابن عباس وعمرو بن العاص فيروى كيف دخل على عمرو وهو ابن بضع وثمانين ... قال عمرو أصبحت وقد ضيعت من دينى كثيراً وأصلحت من دنياى قليلا . فلوكان الذى أصلحت هو الذى أفسدت والذى أفسدت هو الذى أصلحت لقد فزت ... فعظنى بعظة أنتفع بها يا ابن عباس ؟ قال : هيهات .... قال . . ابن بضع وثمانين وتقنطنى من رحمة الله ! ! ثم رفع يديه وقال : اللهم إن ابن عباس يقنطنى من رحمتك فخذ منى حتى ترضى . قال ابن عباس : هيهات يا أبا عبد الله تأخذ جديداً وتعطى خلقاً . قال: من لى منك يا ابنى عباس . ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها .

ويقول ويملى عن عمرو كذلك : قدم ابن عمامة على عمرو فألفاه صائماً وقد أحضر إخوانه طعاماً وصلى صلاة فأتقنها . ثم أتى بمال فأمر بتفريقه . قال ابن عمامة : يا أبا عبد الله . . واتاك مال أنت أحق به من غيرك ففرقته . بم ذاك يا أبا عبد الله ؟ قال : ويحك يا ابن عمامة . فلوكانت الدنيا مع الدين أخذناها وإياه . ولوكانت تنحاز عن الباطل أخذناها وتركناه . فلما رأينا ذلك كذلك ، خلطنا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى أن يرحمنا الله .

* * *

وينتهى الشافعى من الصلاة فتلقى إليه طنفسة فيجلس عليها إلى جوار إحدى الأساطين وينحنى لوجهه ثم يأخذ فى الكتابة . وفى بعض الأوقات يملى وابن هرم يكتب له ، والبويطى يقرأ والحاضرون يسمعون ثم ينسخون بعد ، وإذا غاب الربيع عن الدرس ثم حضر قرأ عليه ما فاته . وكان الأستاذ حسن الدخلة حسن الصلة بتلاميذه يستنهض هممهم ويدفع السأم عنهم ، ويحضهم على التخريج ، كمثل ما كان يصنع أبو حنيفة . . وربما ألقى المسألة على الحميدى وعلى ابنه أبى عثمان محمد . وقال : أيكما أصاب فله دينار .

فإذا أوى إلى داره لم ينم من الليل إلا ثلثه أو نقص منه قليلا ، كالطير يحسو الماء حسوات ، ثم يستأنف تحليقه — قسم الليل ثلاثة أثلاث . ثلثاً يكتب فيه . وثلثاً ينام فيه . وثلثاً يصلى فيه .

وكانت له جارية سوداء يوقظها كلما عن له أن يدون باباً فى العلم .

ودام ذلك سنة حتى ليقول له الربيع : إنها منك فى جهد . .

ترى كم أجهد نفسه إذا كان أجهدها بذلك وحده . !

قالت الجارية : ربما قدمنا — فى ليلة واحدة ثلاثين مرة ، أو أكثر أو أقل — المصباح بين يدىْ الشافعى . وكان يستلقى ويتذكر ثم ينادى : يا جارية هلمى مصباحاً . فتقدمه ويكتب ما يكتب . ثم يقول ارفعيه . .

كان ساكناً فى العلو والحميدى فى الأوساط . فربما خرج الحميدى فى بعض الليل فرأى المصباح فصاح بالغلام ، فسمع الأستاذ صوته فدعاه ليرقى فيرقى . فإذا بقرطاس ودواة فيقول : مه يا أبا عبد الله ، فيقول : تفكرت فى معنى حديث أو مسألة فخفت أن يذهب على فأمرت بالمصباح وكتبته .

لقد كان الشافعى أعظم مثل لتلقى العلم وإلقائه ، وعبادة الله به ، فليس لتفانيه فى تحصيله حدود جغرافية أو زمانية . يسعى إليه فى البلاد سعيه ، ويقوم الليل النهار له . قال أبو يوسف (العلم شىء لا يؤتيك بعضه إلا أن تؤتيه كلك) وسيقول جون دالترن بعد ثلاثة عشر قرناً (إذا كنت نجحت أكثر من غيرى فبسبب خاص بى — سبب واحد — هو المثابرة) أو كما يعبر توماس أديسون (فى العبقرية إلهام بقدر واحد فى المائة . أما التسعة والتسعون الباقية — فهى من المثابرة) . وظاهر أن الواحد هو الذى يعطى سائر المائة « مزايا العبقرية » ولكل فضل . والله لا يضيع عمل عامل .

أقام الشافعى بمصر نحواً من خمس سنين حتى آخر رجب سنة ٢٠٤ أملى فيها أكثر فقهه .

كل أولئك ، وقد كان مسقاماً شديد العلة بالبواسير ، حتى إن صدره أصبح ضيقاً . وكان يقول : إنى لآتى الخطأ وأنا أعرفه ، يعنى ترك الحمية ، فلا ينزل عند نصح الطبيب له بالانقطاع عن سبب الداء . وهو الجلوس الطويل والحركة المجهدة . لأنه يعرف أن أيامه معدودات ، وأن رسالته فى حاجة إلى الإتمام . لكأنما كان يسابق ختام أيامه .

* * *

هو فى مصر كما كان فى كل مكان ، لا يحب الجدل فى وجود الله وصفاته ، ومرد ذلك إلى ما يرويه عنه الربيع : « رأيت أهل الكلام يكفر بعضهم بعضاً ، ورأيت أهل الحديث يخطئ بعضهم بعضاً . والتخطئة أهون من الكفر» وفى عبارة أخرى له :

« إياكم والنظر فى الكلام : فإن الرجل لو سئل عن مسألة فى الفقه أخطأ فيها ، كما لو سئل عن رجل قتل رجلا فقال ديته بيضة – كان أكثر شىء أن يُضحك منه . ولو سئل عن مسألة فى الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة » .

بل يروى الربيع عنه : لو أن رجلا أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام – لم تدخل كتب الكلام فى هذه الوصية .

لقد كان يُوجس خيفة من فتح أبواب أثبتت الأيام حكمته فى إغلاقها . بالنهى عن المحاورات التجريدية التى أجراها المتكلمون والمعتزلة ، ليكرهوا المفكرين على طريقتهم ، فأساءوا إلى أنفسهم وألبوا جمهور المسلمين عليهم .

كان التلاميذ يتناظرون فى الكلام فسمع ما كانوا فيه ، فرجع عنهم وما خرج إليهم إلا بعد سبعة أيام ، قال : ما منعنى من الخروج إليكم إلا أننى سمعتكم تتناظرون فى الكلام . أتظنون أنى لا أحسنه ؟ لقد وصلت فيه حتى بلغت مبلغًا عظيمًا ، إلا أن الكلام لا غاية له . تناظروا فى شىء إن أخطأتم فيه يقال أخطأتم ولا يقال كفرتم .

جاءه بالجامع العتيق رجل من بلخ فسأله : ما الإيمان ؟

قال الشافعى : فما تقول أنت فيه ؟

قال الرجل : الإيمان قول .

قال الشافعى : ومن أين قلت ؟

قال : من قول الله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فصارت الواو فصلا بين الإيمان والعمل . .

قال الشافعى : وعندك الواو فصل ؟

قال : نعم .

قال الشافعى : فإذن كنت تعبد إلـهين إلـها فى المشرق وإلـها فى المغرب لأن الله تعالى يقول : « رب المشرقين ورب المغربين » .

قال : سبحان الله . أجعلتنى وثنيًّا .

قال الشافعى : بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل . .

وود الرجل من خزيه لو تسوى به الأرض ، واستغفر . فصار يقول قول الشافعى إن الإيمان قول وعمل ، وأنفق على باب الشافعى مالا عظيماً ، وجمع كتب الشافعى وخرج من مصر إلى دياره يقول : إن الإيمان قول وعمل .

وروى شاهد عيان أن حفصاً الفرد — وكان من أكاابر المجبّرة بمصر (القائلين بالجبر) ثم انتقل إلى البصرة يناظر أبا هذيل العلاف — حضر مجلس الشافعى وفيه عبد الله بن عبد الحكم ، وآخر ، فقال حفص لعبد الله ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله . وسأل الآخر فقال مثله — فأومأ إليه الناس أن يسأل الشافعى .

قال حفص : يا أبا عبد الله يحيلون عليك ... ما تقول فى القرآن . ؟

قال الشافعى : أقول القرآن كلام الله غير مخلوق .

وتناظرا حتى عصب ريق حفص ، وانصرف منكسر النفس ، فلما لقى الشاهد فى الغداة قال — منكسف البال — رأيت ما فعل بى الشافعى أمس ؟ كفرنى . . ثم مضى ثم رجع فقال : أما إنه مع هذا ما أعلم إنساناً أعلم منه . ذلك تطبيق لقول محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم : كنت إذا رأيت من يناظر الشافعى رحمته . لو رأيت الشافعى فى المناظرة لقلت : أسد يريد أن يفترسنى !

* * *

والشافعى يأمر بالاجتهاد ويحض عليه . بل هو حرب على المتبعين والمقلدين الذين لا يفكرون .. أليس الكفار هم الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ؟ .

وتقرأ له فى أكثر من موضع الاستشهاد بحديث الرسول « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد ثم أخطأ فله أجر » .

ويقول فى خلاف الآراء وتقليدها آراءه المأثورة . « وإذا قاس من له القياس فاختلفوا ، وسع كلا أن يقول بمبلغ اجتهاده ، ولم يسعه اتباع غيره فيما أدى إليه اجتهاده بخلافه » .

وأصبح نهيه عن التقاليد معلما من معالم مذهبه ، فيفتتح تلميذه المزنى مختصره المشهور بقوله للناس : (اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعى ومن معنى قوله رحمه الله ، لأقرّبه على من أراده . مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره) .

هكذا فتح الشافعى باب الاجتهاد على مصراعيه . وبدأت الكتابة الفقهية المنهجية

على نطاق واسع فى مصر ، بقلم أبلغ العرب فى عصره وفيما بعد عصره . وبدأت مرحلة تدوين مذهب فقهى جديد متكامل أضاف إلى المذهب المالكى والمذهب الحنفى أسباب بقاء ونماء . . بل ليصير هو جديداً بالنسبة لنفسه ، بعد إذ أطل صاحبه على حضارة جديدة غير حضارة الجزيرة العربية .

ورأت مصر طريقة جديدة فى الجدل . فهو يستعرض الرأى ونقيضه لتتم له الحجة أو إدحاضها بالدليل ونقيضه ، وبأكثر من وجه . فيقول لمجادله : تقلد أنت قولى وأتقلد قولك ، ثم يناظره فيقطعه . فإذا كان يكتب أو يملى — افترض وجود الخصم ينافح عن رأى عكسى فيناظره . .

وفى الاجتهاد عبادة وقربى . والخطأ ليس منقصة . والرجوع إلى الحق صدق .. وهو لا يرجع عن الخطأ فحسب ، ولكنه يحل الآخرين عن خطئه ، بل ينبه بقوة على احتمال وجود الخطأ فى جهده الإنسانى ؛ ويدعو الناس إلى التوقى منه . يقول : « لقد ألفت هذه الكتب ولم آل فيها ، ولابد أن يوجد فيها الخطأ لأن الله تعالى قال : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كثيراً » فما وجدتم فى كتبى هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه » .

ويربدّ وجهه ويرتعد لينبّه على منزلة الاجتهاد من السنة .

سئل عن مسألة فقال : يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كذا . . قال رجل : يا أبا عبد الله . أتقول بهذا ؟ فارتعد الشافعى واصفر لونه ، وحال وتغير ، وقال : ويحك ... أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أقل به . نعم : على الرأس والعين .

* * *

كانت حياته فى مصر ختام رحلات هذا العالم العلمى الطريقة ، الذى لا يتوقف إلا لينطلق لنشر فقهه . يفنى نفسه فى كل أبواب الدين والعلم واللغة والتجربة والتطبيقات والاختيارات .

فلا عجب أن يغير بعض آرائه فى بعض الفروع إذ يجيء إلى مصر .

كان : الكرابيسى والزعفرانى ، قد دونا كتبه ببغداد حيث صنف كتابه الحجة . وفيه

علمه الذى أنضجته السنون وحلق الدرس فى مكة وبغداد ، كما دوّن تلاميذه فى مصر كتبه التى تلقوها بمصر ، وقد آل إلينا أكثرها فى « الأمّ » بروايات الربيع . وبهذا وجد فى فقه الشافعى قديم وجديد ، أو عراقى ومصرى .

ويروى ابن النديم إذ أتم كتاب الفهرست عام ٣٧٧ : أن الزعفرانى روى المبسوط عن الشافعى على ما رواه الربيع وفيه خلف يسير . وليس يرغب الناس فيه . ولا يعملون عليه . وإنما يعمل الفقهاء على ما رواه الربيع . وأنه لا حاجة لتسمية الكتب التى رواها الزعفرانى لأنها قلت . ودرس أكثرها ، وليس ينسخ منها بعد .

وهكذا أصبحت كتب الشافعى هى الكتب المصرية وحدها منذ القرن الرابع . . وربما دل ذلك على أن ما تضمنه الحجة أو المبسوط تضمنته الأم . وربما دل على أن الكتب المصرية وحدها كانت هى المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث ، قول أحمد ابن حنبل (١٦٤ — ٢٤١) لمحمد بن وارة إذ قدم إلى بغداد من مصر : هل كتبت كتب الشافعى ؟ قال لا : قال ابن حنبل : فرطت . فرجع إلى مصر فنسخ الكتب . . ولقد رووا أن ابن حنبل قال (عليك بالكتب التى وضعها بمصر . فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يُحكمها ، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك) .

ذهب الشافعى مذهبًا جديداً فى أمور بعد إذ سمع آراء الفقهاء المصريين وما صح عندهم من أحاديث ، وسمع تلاميذ الليث بن سعد بمصر ، وبصر بحالات اجتماعية وحضارية جديدة ، فنراه يضرب الأمثال بصدقة دار بالفسطاط ، ويتكلم عن الكورة وهى مصرية ، وعن طين رآه يزعم أهل العلم أنه أرمنى ، وطين يقال له طين البحيرة والمختوم يدخلان فى الأدوية ، ويتكلم عن القراطيس وهى مصرية ، وغير ذلك مما ورد فى كتبه .

ولا يمنع تعدد أقواله أن يُختار منها ما يعضده حديث ، فالشافعى هو القائل « إذا صح الحديث فهو مذهبى » . فإذا لم يوجد معضد جاز اعتبار الأحدث ناسخا لما سبقه . ويروى البعض فى هذا الصدد قوله « لا أجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى » . ومن لا يقبل النسخ يقول إن للإمام قولين . وقد نص الشافعى فى مواضع من كتبه على قولين نبه على اختيار الذى يختاره بقوله هذا أصحهما .

ولا على العالم أن يكون له فى المسألة قولان مبرران ، أو أن يعدل عن رأى إلى آخر .

قال : عمر لقاضيه (لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فالرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل) .

* * *

وظاهر أن الكتب القديمة لم تنقل كلها معه إذ قدم إلى مصر ، فأصبح يروى الأحاديث من حفظه فتبدو منقطعة ، فى حين سمعها هو متصلة أو مشهورة برواتها . ولكن عدم تثبته من أسماء الرواة جعله يرويها من دونهم حفاظاً منه على الصيغة الموضوعية للنص ، واكتفاء به . يقول فى كتاب اختلاف الحديث : .... « والأصل يوم كتب هذا الكتاب غائب عنى » . ويقول فى كتاب الرسالة « وكل حديث كتبته منقطعاً فقد سمعته متصلا أو مشهوراً عمن روى عنه بنقل عامة من أهل العلم يعرفونه عن عامة . ولكنى كرهت وضع حديث لم أتقنه حفظاً ، وغاب عنى بعض كتبى وتحققت بما يعرفه أهل العلم مما حفظت ، فاختصرت خوف طول الكتاب ، فأتيت ببعض ما فيه الكفاية دون تقصى العلم فى كل أمره » .

لم تكن رسالة الشافعى تحمل اسم الرسالة ، فالشافعى يسميها « الكتاب » ويشير إليها على أنها « كتابى » أو كتابنا : « ولكن معاصريه سموها «الرسالة » فبقيت لها تسميتها — وهى بها جديرة . فأبوابها جميعا أصول دفاعه عن السنة وحديث الواحد وشروط صحة الحديث والخبر المرسل وهى أدق ما كتب فى أصول الفقه . وكل ما كتب بعدها عالة عليها . فهى بالمعنى العلمى العصرى « رسالة » ، وردت على غير مثال سبق . ولقد تعتبر هذه الرسالة على صغر حجمها ، أصغر كتاب ، يحدث أكبر أثر ، فى أقصر زمن ، فى أعظم علم من علوم الإسلام .

فلا عجب أن يقول ابن مهدى عندما قرأها : (لما نظرت الرسالة للشافعى أذهلتنى لأننى رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح . فأنى لأكثر الدعاء له) .

قال ابن سعيد الأنماطى (٢٨٨) : أنا أنظر فى كتاب الرسالة منذ خمسين سنة ما أعرف أنى نظرت فيه مرة إلا وأنا أستفيد منه شيئاً جديداً .. ويقول المزنى تلميذ الشافعى : قرأت كتاب الرسالة للشافعى خمسمائة مرة ، وما من مرة منها إلا استفدت فائدة جديدة لم أستفدها فى الأخرى .

انتشرت الرسالة بمجرد إرسالها إلى عبد الرحمن بن مهدى ، عن طريقه ، لكن

النسخة التى بين أيدينا الآن هى نسخة الربيع المرادى ، عن الشافعى وهو بمصر . وهكذا كتبت بمكة ، وأذيعت فى بغداد ، وأعيدت كتابتها بمصر ، لتؤول إلى كل العصور .

بلغ إنتاج الشافعى أعظم قدر من الضخامة . قيل إنه ألف ١١٣ كتاباً . فى التفسير والفقه والأدب وغير ذلك وقيل ١٤٢ كتاباً . وفى معجم ياقوت والفهرست لابن النديم ثبت مؤلفاته . . و « الأم » برواية الربيع بين أيدينا. وهو يقع وحده فى مجلدات سبعة ضخمة . كأنها أعمال فرقة كاملة من الأئمة !

ويزيد عمله جلالا أن يؤلفها فى مدة قصيرة ، من حياة قصيرة ، بالنسبة لحياة الأئمة الثلاثة الآخرين . ويزيدها قصراً طول ما قضاه منها طلباً للعلم فى شبابه بمكة وهذيل والمدينة ، وعملا فى اليمن ، وأسفاراً مضنية فوق أديم الصحراء فى آسيا وأفريقية .

* * *

رأى من الناس من يتبركون بقلنسوة مالك فيستسقون بها المطر . ومن يقال له قال الرسول . . . ويقول قال مالك .

فوضع كتابه « خلاف مالك » فى هذه الفترة . . ليعلن للناس بلسان تلميذ وفىّ أن أستاذه بشر يصيب ويخطىء ، وأخفى الكتاب عن الناس حتى حال الحاول عليه ، وهو يستخير الله فى دفعه إلى الملأ ، مخافة أن يكون قد خرج على الواجب ، نحو « الأستاذ » . وخار الله له فخرج « خلاف مالك » للناس [1] .

---

(١) كتاب خلاف مالك مطبوع فى « الأم » .

يحتوى كتاب الأم أكبر مجموعة من فقهه ، برواية متعددة الطرائق عن الربيع فهو يقول أحيانا : (كتبت هذا الكتاب من نسخة الشافعى من خطه بيده ولم نسمعه منه) وأحيانا يقول (أملى علينا الشافعى) وأحيانا نجد التاريخ (أخبرنا الربيع بن سليمان المرادى بمصر سنة سبع ومائتين وقال أخبرنا محمد بن إدريس الشافعى قال . .) وأحيانا يروى أسئلة وإجابات وأحيانا يروى رواية عادية .

والنسخة المطبوعة بين الجمهور طبعت على نفقة المرحوم الأستاذ أحمد بك الحسينى المحامى ، وكان رابع أربعة من تلامذة الأزهر هم المحامون الأولون بمصر هم · سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ بمصر . إبراهيم الهلباوى أول نقيب للمحاماة بمصر . و إبراهيم اللقانى. والثلاثة مع الإمام محمد عبده أظهر تلاميذ جمال الدين الأفغانى. أما المحامى الرابع فهو أحمد الحسينى الذى تفرغ بعد أن ترك المحاماة لطبع (كتاب الأم) وقد نبه فى صدره على أنه قد حصلت له عدة نسخ من الأم ، منها بعض أجزاء عتيقة بخط الإمام سراج الدين البلقينى تفردت بزيادات مفردة لبعض مؤلفات الشافعى مثل اختلاف الحديث واختلاف مالك والشافعى وأنه رأى — لما لهذه الزيادات من فوائد — أن يثبتها فى الهامش أو فى الصلب . فالكتاب لهذا أشبه بالموسوعة فى أبواب فقه الشافعى مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيع والفرض والرهن =

يقف القلم مُديدة أمام تردد الشافعي الطويل في نشركتابه هذا ، بعد إذ أدى بكتابته واجبه في الدين والعلم. فإحجامه عن النشر، وقد زايل مالك عالم الأحياء من نحو ربع قرن، درجة وفاء تتكافأ وفريضة بيان العلم ، عاما كاملا ، حتى يفتح الله عليه فيغلب حق العلم على العلماء ! . وقد أخذ الله عليهم موثقا لبيانه .

والشافعي هو الذي يقول في الرسالة عن أستاذه الأعلى عبد الله بن عباس (فابن عباس أفضل من أن يتوقى أن يقول له أحد حقا رآه) .

لكنها مهابة مالك في رمسه، وذكريات «إمام دار الهجرة» التي أعزته في حاضره وأمسه، وفروسية الفارس الذي كانه .

= والتفليس والضمان والغصب والشفعة والإجارة ، والحجر والصلح والشركة والوكالة والمواريث والوصايا وقتال أهل البغي وأهل الردة ، والسبق والنضال ، والزواج والطلاق والخلع والجنايات والديات والحدود والقصاص ، واليمين والشاهد – وفيه كتاب اختلاف مالك والشافعي وكتاب الرد على محمد بن الحسن – وكتاب جماع العلم ، وإبطال الاستحسان واختلاف على وعبد الله بن مسعود ، وما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبي ليلى عن أبي يوسف . وخلاف ابن عباس وسير الأوزاعي وبهامش الأجزاء الخمسة الأولى مختصر المزنى . أما الجزءان الأخيران فعلى هامشيهما مسند الإمام الشافعي واختلاف الحديث للشافعي .

وكتاب خلاف مالك في جملته مناظرة لأصحاب مالك فيما قيل من اشتراط عمل الأئمة لتأييد الحديث وانتصار من الشافعي لحديث الآحاد ، وأن الحديث الثابت عن الرسول مستغن بنفسه لايحتاج لموافقة . وأنه أولى أن يؤخذ به لو روى عن غيره ما يخالفه .

وكتاب الرد على محمد بن الحسن دفاع عن الشافعي عن أهل المدينة . إذ يقول محمد قال أهل المدينة عما يريد أن يقول فيه قال مالك ، وكثير من أهل المدينة يخالفون مالكا فيه .

وكتاب خلاف على وابن مسعود مقصود به خلاف أبي حنيفة وأصحابه لإمامى العراق على وابن مسعود . وكتاب سير الأوزاعي دفاع عن الأوزاعي ضد أبي يوسف . وكتاب إبطال الاستحسان رد لأصحاب أبي حنيفة إلى قواعد القياس . وكتاب جماع العلم انتصار للسنه ، وكتاب اختلاف الحديث دفاع عن السنن عموماً وخبر الواحد خصوصاً .

فالشافعي يصوب الحنفية والمالكية ، وينصف علياً وابن مسعود والأوزاعي وأهل المدينة ، لينصر السنة وينبه على القاعدة . ولا عليه إن عارض أستاديه مالكاً أو محمداً أو سواهما .

وقد صدر الجزء الأول من أجزاء الأم السبعة « بالرسالة » فشغلت ثمانين صفحة واثنتين ، باعتبارها أصول الفقه . وكثيراً ما تتردد عباراتها في أبواب من الكتاب .

تصدى صديقنا المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر رئيس المحكمة الشرعية لكتاب « الرسالة » فجلاه في نحو سبعمائة صفحة تقربه إلى أسلوب القارىء العصرى وذيله بفوائد علمية فبدا في مظهر مونق ، وختمه بدراسة لبعض ألفاظ الرسالة ونحوها ، اعتمدنا عليه في كثير مما أشرنا إليه في الهامش بالفصل الثانى من الباب الثانى .

ولعل من أهل العلم من يحذو حذوه في بعض كتب الأم ؛ بل لعل جهة مختصة تتولاها كلها بإخراج عصرى وتجلية ، فليس أجدى من هذا الصنيع على الفقه الإسلامى والعالمى .

كان الشافعي أقرب للمحدثين وهم إليه أميل . فاقه بعضهم فى معرفة الحديث وأسانيده ورجاله . وفاقهم بفقهه فى الحديث والاستدلال به . ولذلك كان من أنصاره عبد الرحمن بن مهدى وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وسفيان بن عيينة . وهؤلاء من كبار المحدثين فى كل الأعصر . . كما كان أقرب إلى نفوس الحنفية من المحدثين ، لأنه لم ينكر القياس والاجتهاد بل أوجبهما ، وقعد القواعد لهما ، بما لم يبلغ شأوه أحد . حتى عدل البعض عن مذهبهم إلى مذهبه .

فالتقريب بين المذهبين أوجمعهما ، وانتخابه ما رأى الحق فى كليهما ، هو أوضح ظاهرة فى مدرسته .

* * *

لقد ظفرت مصر بفرصة التاريخ . بالإمام القرشى الذى اجتمع فيه الأئمة الأربعة لأهل السنة . وتكونت فيها خلية النحل التى ستنطلق للعمل فى كل بلدان الإسلام ، وفيها ، فتجعلها كمثل عاصمة الخلافة ، ولكن أهدأ وأهنأ . وكمثل مكة والمدينة ، ولكن أقوى هجوماً ومدافعة : وأشرقت فيها شمس العلم لتظل فى السماء ، عن طريق مصر الفسطاط — مصر القاهرة .

التلاميذ :

١ — الربيع المرادى (٢٧٠) ، لزم الإمام يقضى مصالحه ويتعلم عليه فهو أطول أصحابه صحبة وأكثرهم رؤية ، قال الشافعي : (الربيع راويتى) وهو أول من أملى الحديث فى جامع ابن طولون فى مدينة القطائع ، التى أنشأها أحمد بن طولون إلى جوار الفسطاط ، فلما مات صلى عليه أمير مصر خمارويه بن أحمد بن طولون .

وذات يوم حط على بابِ داره سبعمائة راحلة جاء أصحابها لسماع كتب الإمام . . . عاش الربيع بعد أستاذه ستة وستين عاماً .. فكم من فقهاء المشرق والمغرب تعلموا على الربيع وحده ! !

٢ — الربيع الجيزى (٢٥٦) : كان أقل التلاميذ رواية عن الإمام .

٣ — يوسف بن يحيي البويطى (٢٣٢) : كان الشافعي يصحبه فى الفُتيا . فلما حانت وفاته توقع محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أن يكون خليفته لمكانته فى قلب الشافعي ، والشافعي يقول عن محمد : وددت لو أن لى ولداً مثله وعلىّ ألف دينار . لكن محمداً كان فى باكورة الشباب والإمام لا ينزل بأمانة العلم إلى المجاملة . فبعث الحميدى إلى الحلقة

يقول : إن الشافعي يرى أنه ليس أحد أحق بالجلوس مكانه من (البويطي) . فمن شاء أن يجلس فليجلس . ومن شاء أن يذهب فليذهب . فملك محمداً الغيظ فذهب إلى حلقة أبيه .

وربما كان الرجل يسأل فيقول له الشافعي : سل أبا يعقوب (يوسف البويطي) ، فإذا أجاب قال هو كما قال . كان عالمًا لطيفًا فى أسبابه ، يدنى الغرباء ويعولهم إذا قدموا للطلب ويعرفهم فضل الشافعي وفضل كتبه ، حتّى كثر الطالبون لها . وكان يصرح بأنه أمر بذلك وقال له : اصبر للغرباء وميزهم من التلاميذ . . روى أنه أنشده :

أهين لهم نفسى لأكرمها بهم ولن يكرم النفس الذى لا يهينها

روى ابن الأثرم : كنا فى مجلس البويطي فقرأ علينا عن الشافعي أن التيمم ضربتان — فرويت حديث عمار بن ياسر عن النبي . (أن التيمم ضربة واحدة) . فحك من كتابه ضربتين وصيره ضربة واحدة على حديث عمار وقال : قال الشافعي : إذا رأيتم عن رسول الله الثبت ، فاضربوا على قولي وخذوا به فإنه قولي .

وكان موقفه لدى الامتحان جديراً بمن استحافه الشافعي ، رفض القول بخلق القرآن وآثر الموت مقيداً بأربعين رطلا من الحديد ، وأغلالها فى عنقه ! !

٤ — المزنى أبو إبراهيم إسماعيل بن يحى (٢٦٤) . خلف البويطي فى رياسة الحلقة وألف كتباً عظيمة فى فقه الشافعي ، وكان كأستاذه جدلا ، يغوص على المعانى الدقيقة . قال عنه الإمام . لو ناظر الشيطان لغلبه . . وقال : المزنى ناصر مذهبي .

ولقد أشيع عنه القول بخلق القرآن فانفضّ التلاميذ من حوله حتّى لم يعد يجلس إليه إلا نحو عشرة .

٥ — يونس بن عبد الأعلى (١٧٠ — ٢٦٤) : تلميذ الشافعي وابن عيينة وابن وهب . رويت عنه قراءة ورش للقرآن وكان يروى قراءة حمزة . . روى عنه مسلم .

قال فيه الشافعي : ما رأيت أحداً أعقل من يونس بن عبد الأعلى .

٦ — عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (٢٥٧) : أقدم مؤرخي مصر الإسلامية والأستاذ الفكرى للبلاذرى واليعقوبي والإصطخرى والطبرى — دفن إلى جوار الشافعي .

٧ — محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (١٨٢ — ٢٦٨) تفقه بأشهب وابن وهب — واتصلت أسبابه أوثق اتصال بالشافعى ثم رجع إلى حلقة أبيه غضبان أسفاً ، يتعلم مذهب مالك ، ومع ذلك ألف كتاب السنن على مذهب الشافعى . وقال (لولا الشافعى وأنه هو الذى علمنى القياس ما علمته . وبه عرفته . فرحمه الله . فإنه كان صاحب سنة وأثر وفضل) — وامتحن محمد فى بدْعة خلق القرآن ، وحمل إلى الواثق سنة ٢٢٧ وأهين وعذب ، وحكم على بنى عبد الحكم بمليون دينار . وهدمت الدار العظيمة ، التى طالما تكفلت بالعلم فى مصر ، وعذب عبد الحكم أصغر الإخوة . ومات فى السجن . حتى إذا جاء عفو الخليفة المتوكل عنهم ، كانوا قد انتهوا

فلقد طلب الخليفة الواثق كل الفقهاء فى عهده (٢٢٧— ٢٣٢) ليقولوا بخلق القرآن . وكان قاضى مصر محمد بن أبى الليث شديداً فى تنفيذ أمر الخليفة ، حتى كان غلامه يأخذ بقلانس العلماء ! .. وأخيراً رأى هذا القاضى أن يكتب على مساجد الفسطاط : (لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق) ! وتمادى فتدخل فى شئون الوالى ، وشكاه إلى الخليفة المتوكل ، (٢٣٢ — ٢٤٨) إذ ولى الخلافة بعد الواثق ، واتهمه بأنه يميل إلى أولاد الثائر عبد العزيز الجروى فعُزل الوالى .

ودارت الأيام فعزل المتوكل هذا القاضى ، وحبس أولاده وصادر أموالهم . وأمر بحلق لحيته ورأسه وإطافته بالفسطاط ، على هذه الصورة ، سنة ٢٣٧ . ومكث محبوساً هو وأصحابه إلى سنة ٢٤١ .

٨ — حرملة بن يحيى (٢٤٣) . صار له مذهب لنفسه .

٩ — أبو بكر الحميدى (٢١٩) : كان راوية سفيان بن عيينة — تلمذ للشافعى فى مكة ، وخرج إلى مصر لما خرج إليها ، ولازمه حتى مات فلم يبق ما يشد الحميدى إلى مصر بعده ، فعاد إلى مكة .

١٠ — ابن مقلاص ، عبد العزيز بن عمر (٢٣٤) . كان من أصحاب ابن وهب ، فلما قدم الشافعى لزمه وأخذ عنه .

١١ — أبو عثمان محمد (٢٣٢) : ابن الشافعى . تفقه بأبيه . ولى قضاء الجزيرة فيما بعد ، وحمدت سيرته .

١٢ ــ أبو حنيفة الأسوانى (٢٧١). وهو قحزم بن عبد الله بن قحزم. وأصله من القبط آخر من مات من التلامذة. كتب كثيراً من كتب الشافعى وروى عشرة أجزاء من السنن والأحكام.

وعلى قاعدة النظم فى اللغة والفقه والعلم والرياضة والفلك، نظم الحافظ السانى تلاميذ الشافعى فى عقد نضيد قال:

فعليك يامن رام دين محمد ... بالشافعى وما تلاه وقالا
أعنى محمداً ابن إدريس الذى ... فاق البريّة رتبة وكمالا
وأجب كذا عن صحبه وأحبهم ... وأجلهم لله جل جلالا
فأجلهم شيخ الأئمة أحمد[1] ... فيما رواه من الحديث وقالا
والأعينى[2] ويونس[3] الصدفى والـ ... ـمزنى آخر من إليه مالا
وكذاك حرملة بن يحيى والـ ... ـبويطى الذى قد أعجز الأشكالا
واذكر أبا ثور رفيق عراقه ... وفريدها والحارث النقّالا[4]
ثم الربيعين اللذين تفننا ... فى فقهه وتحملا الأثقالا[5]
والزعفرانى الصدوق ورهطه ... فى كل قطر واعرف الأبطالا

* * *

وثمت تلاميذ عظام لم يجلسوا إلى الأستاذ وإنما هم تلاميذ فكريون. من أبرزهم:

داود بن على الظاهرى (٢٠٢-٢٧٠) وكان يجلس فى حلقته أربعمائة طيلسان. وكان شديد التعصب للأستاذ وألف فى مناقبه. وتمادى داود فى التزام النصوص، فصار مذهبه الأخذ بظاهر النصوص، واستطرد فى حجيه النص بظاهر عباراته فصيرها كاملة ومطلقة. فالنص

(١) أحمد بن حنبل.

(٢) محمد بن عبد الله بن الحكم بن أعين بن ليث.

(٣) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدفى.

(٤) الحارث بن سريج الذى نقل رسالة الشافعى إلى عبد الرحمن بن مهدى فى بغداد. ولهذا سمى النقال. وتسميته دليل على أن الشافعى كتب الرسالة فى مكة، بعيداً عن بغداد، فلا يتصور أن يبعث بها إلى ابن مهدى على يد رسول، ينقلها إليه، وهو بجواره فى المسجد ببغداد.

(٥) الربيع المرادى والربيع الجيزى.

عندة حجة ما لم يدل نص على أن المقصود غير الظاهر . وكان يرى أن فى عمومات الكتاب والسنة ما يفى بحاجات المسلمين .

أما الإجماع عنده فإجماع الصحابة وحده . وكأستاذه الشافعى ، رفض التقليد . . وقد درس مذهبه على رأس المائة الخامسة .

محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠) — هو إمام المفسرين والمؤرخين . قال قائل : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير ، لم يكن ذلك كثيراً . . ظل أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة . وقد خرج إلى مصر سنة ٢٥٣ ، فأكثر الكتابة عن شيوخها . ولقى المزنى . وكان الطبرى قد ابتدأ فى بغداد على مذهب الشافعى ، وظهر فى الجدل على الزعفرانى .

وكتابه فى التاريخ من أصدق كتب التاريخ عن العالم القديم ، يتفق مع ما فى تواريخ روما واليونان ، مما يدل على أن كتبهم كانت فى يده .

استقل الطبرى بمذهب ، واحتج له فى كتاب : « لطيف القول فى أحكام شرائع الإسلام » ، وهو يبيح للمرأة أن تلى القضاء فى جميع الأحكام . ولم ير ذلك غيرُه . وكان يقول إن ابن حنبل محدث لا فقيه . .

جرت يوماً مسألة بينه وبين داود بن على ، فوقف الكلام على داود . فشق ذلك على أتباعه . وكلم إنسان منهم الطبرى بكلمة مضة ، فقام الطبرى من المجلس . . أما داود فقطع كلام ذلك الإنسان سنة .

وانقطع أتباع الطبرى فى القرن الرابع .

وسيكون من كبار التلاميذ الفكريين أئمة آخرون مثل الغزالى ، حجة الإسلام (٥٠٥) وأستاذه أبى المعالى عبد الملك بن عبد الله الجوينى ، إمام الحرمين (٤٧٨) ، ومحمد بن عمر الرازى صاحب التفسير (٦٠٦) ، وأبى إسحاق الشيرازى صاحب المهذب (٤٧٦) ، والقفال الكبير الشاشى (٥٠٧) . والبيهقى (٤٥٨) والأسفراييني أبو حامد (٤٠٦) الأسفراييني أبى إسحق (٤١٨) ، وعز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء (٦٦٠) ، وتقى الدين السبكى (٧٥٦) والماوردى (٤٥٠) وتقى الدين بن دقيق العيد

(٧٠٢) والنووى (٦٧٦) وسراج الدين البلقينى [١]

إنما يتواصل الأئمة والتابعون لهم وإن لم تجمعهم صلة الزمان والمكان . فصلات الفكر — كالقوى ، أو الموجات ، أو الأشعة ، التى يزدحم بها الوجود — فى انتظار من يتلقاها لتعمل أو تضىء ، ولا يُلقّاها إلا أولو الحظ العظيم .

---

(١) فى سنة ١٩٠٦ تلقى جوزيف تومسون جائزة نوبل للعلوم . قالوا : كانت الجائزة من حقه لسبب آخر : أن ثمانية من تلاميذه قد منحوها . وأين تومسون ممن تعلموا على تلاميذ من ذكرناهم ، وقد تخرج على تلاميذهم أئمة !

الباب السابع

ناصر السنة

« إذ حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران .
وإذ حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر »

« حديث شريف »

الفصل الأول

الفقه من القرآن والسنة

اجتهد الفقهاء فى القرن الأول للإسلام غير مقيدين إلا بأهداف الشريعة . وكانوا موفقين لقرب العهد بصاحب الرسالة ، وهدى الصحابة لهم ، ومخالطتهم كبار التابعين ، وندرة المسائل التى تحوج إلى اجتهاد . لكن القرن الثانى جاء بمجتمع جديد ومجتهدين جدد . وفتح الفقه الحنفى الأبواب للاجتهاد . وبدأت ترتفع أصوات جديدة فيها خطر ومجازفة ، فكان حقّاً أن تجيء الأمة التى أنبتت أبا حنيفة من نصف قرن . بواحد من أترابه يضع القواعد العلمية للاجتهاد ، حتى لا يفرُط مجتهد ، أو تزل قدم .

لم يسرد القرآن الأحكام سرداً ، بل عللها وبين أسبابها بإجمال أو بتفصيل . فلقد يذكر الوصف ويرتب عليه الحكم ، فيفهم القارئ دوران الحكم على الوصف . أو يأمر بشىء ويزكيه مبيناً المصلحة فيه أو يحرمه مبيناً المفسدة فيه . وأحياناً يلجأ إلى التدرج كما صنع فى تحريم الخمر . ليضاف إلى وضوح الحكم وظهور سببه ، الاقتدار على اتباعه . . فسلكت أحكام الله طريقاً سهلة فى بيان المصالح وتبريرها للناس ، لا تُكلَّف نفس إلا وسعها . وجرت السنة مجراها : ما خير الرسول بين أمرين أحدهما أيسر ، إلا اختار ما هو أيسر للناس . وهو القائل « إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » .

يبالغ عبد الله بن عمرو فى صومه حتى يشكوه أهله للرسول فيقول له : « ألم أُخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ » قال إنى أفعل ذلك . قال : « إنك إذا فعلت هجمت عينك (غارت وضعف بصرها) وتفهت نفسك (كلت وأعيت) وإن لنفسك حقّاً ولأهلك حقّاً . فصم وأفطر ، وقم ونم » .

وذات يوم جاءه رجل بمثل البيضة ذهباً قال : يا رسول الله هذه صدقة ما ترك أبى مالا غيرها . فحذفه بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فلو أصابه لأوجعه ، ثم قال : « ينطلق أحدكم فينخلع من ماله ثم يصير عيالا على الناس » !

وكان الرجل يخطب المرأة بما توصف له حتى إذا تم العقد ظهر مالا يرضاه ، وربما أدى إلى الفراق . فأباح الرسول النظر . فقال لمن أراد الزواج : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما (يؤلف بينكما) » .

قال له رجل : يا رسول الله اعدل !! وثار عمر بن الخطاب وقال : دعنى يا رسول الله أقتل هذا المنافق . قال عليه الصلاة والسلام : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » .

وكثيراً ما كان يجيب عن السؤال الواحد إجابات تختلف باختلاف حال السائلين . وكثيراً ما يشاور أصحابه فيأخذ بأصوب الآراء . وكان يأذن للمفتين الذين يرسلهم إلى البلدان أن يجتهدوا آراءهم .

* * *

واجه الصحابة بعد الرسول دنيا جديدة فيها بعض التعقيد . فكانوا يفتون فى المسائل بقدر . ويدلى المفتون منهم بأحكامهم فى ضوء فهمهم للدين من عمومات مقاصده وآيات الكتاب ونصوص السنن . . تهديهم فيوض الهداية النبوية وفضل الصحبة ، إلى أسرار الشريعة التى نزلت للوجود كله ، والزمان كله ،، فيجتهدون ، معللين فتاواهم بنص من الكتاب أو السنة ، أو علة النص ، وأحياناً يغيرون الرأى تبعاً لتغيير العلة .

وتحرك المجتهدون منهم فى منطقة المصلحة العامة ولم يتحرجوا وإليك أمثالا :

— فالكتابيات فى عداد الحلائل للمسلمين بقوله تعالى :

« والمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ ولا مُتَّخِذِى أَخْدانٍ » .

لكن حذيفة تزوج من يهودية ، فكتب إليه عمر : لا . . ولكنى أخاف أن تواقعوا المومسات منهن . وفى رواية لمحمد بن الحسن أنه كتب إليه : أعزم عليك ألا تضع كتابى هذا حتى تخلى سبيلها ، فإنى أخاف أن يقتدى بك المسلمون فيختاروا أهل الذمة لجمالهن . وكفى بذلك فتنة لنساء المسلمين . وأضاف صاحب أبى حنيفة : (وبه نأخذ . لا نراه حراماً . ولكنا نرى أن يُختار عليهن نساء المسلمين . وهو قول أبى حنيفة) .

— وحكى أبو يوسف : رأى عمر فى قسمة العروض على المقاتلة وإبقاء الأرض ووضع

الخراج عليها . قال : إن عمر شاور أصحاب محمد فى . . . وفى قسمة الأرضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام . فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا ، فقال عمر : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . قال عبد الرحمن بن عوف فما الرأى ؟ ما الأرض وما العلوج إلا مما أفاء الله عليهم . فقال عمر : (ما هو إلا كما تقول) ، لكنه أضاف : (ولست أرى ذلك . والله لا يُفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل . بل عسى أن يكون كلا على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟)

وأكثروا على عمر . . قالوا استشر . فاستشار المهاجرين الأولين . فاختلفوا . . فأرسل إلى عشرة من الأنصار من أشرافهم ورؤسائهم فأخبرهم برأيه . فوافقوه عليه ، فأمر بوضع الخراج .

— وسرق غلمة لحاطب ناقة لرجل من مزينة فانتحروها . فرُفع ذلك إلى عمر . فأمر بقطع أيديهم ثم قال لحاطب : أراك تجيعهم؟ ثم قال : والله لأغرمنك غرمًا يشق عليك . ثم قال للمزنى كم ثمن ناقتك ؟ فقال : كنت والله أمنعها من أربعمائة درهم . . فقال عمر : أعطه ثمانمائة درهم ووقف تنفيذ الحكم . إذ فهم أن القطع عقاب للجانى إذا لم تضطره الحاجة .

وعمر — وهو يطبق قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » — نهى عن القطع فى عام المجاعة

وعمر فى اجتهاداته مثل للصحابة ، الذين كانوا يفتون ناظرين إلى الشريعة فى مجموعها ، ملاحظين مبادئها العامة ، ومثل لقبول الخلفاء للرأى من سواهم. ناقض عمر أبا بكر . وناقض آخرون عمر . وكلهم على أرفع سنن الإسلام

— وجاء عهد التابعين . فاختلفت مشاربهم . فوجد من أهل العراق من اجتهد ، وحرص أهل الحجاز على النصوص ، وإن كان فيهم مجتهدون . كمثل ما أفتى سعيد بن المسيِّب وربيعة بن عبد الرحمن بجواز التسعير ، وكان النبى لا يجيزه . فى السنة الثامنة للهجرة غلا السعر فجاءه رجل قال يارسول الله سعر لنا .. قال : إن الله هو المسعر والقابض والباسط .. لكن دفع الضرر عن الناس اقتضى التسعير ، فأجازه التابعون وتابعو التابعين ، ولو كان الخطر

الذى نجم فى أيامهم قائمًا أيام الرسول ، لكان رأيه دفع الخطر ورفع الظلم .

— وكانوا يختلفون . . سأل رجل سعيد بن المسيب فى رجل نذر فى معصية . قال سعيد: يوفى بنذره . فسأل عكرمة (مولى عبد الله بن عباس) فقال لا يوفى به . فذهب الرجل إلى سعيد فأخبره بقول عكرمة فقال سعيد : ألا ينتهى عبد ابن عباس حتى يُلقى فى عنقه حبل ويطاف به ؟

فجاء الرجل إلى عكرمة وأخبره الخبر . فقال عكرمة : أنت رجل سوء . . قل له : هذا النذر لله أم للشيطان ؟ فوالله إن زعم أنه لله ليكذبن . ولئن زعم أنه للشيطان ليكفرن . . وإنما نظر سعيد للنص « ولْيوفوا نذورهم » ونظر عكرمة للمعنى المقصود من الأمر بالوفاء بالنذر .

— وكان الولاة والفقهاء يسألون عمر بن عبد العزيز . كتب إليه عامل على مصر: إن أهل الذمة أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية . فكتب إليه أما بعد فإن الله بعث محمداً داعيًا ولم يبعثه جابيًا . وبعث إليه آخر : أنه رُفع إلىّ رجل يسبُّك ، فهممت أن أضرب عنقه ، وكتبت إليك لأستطلع فى ذلك رأيك . فأجاب عمر : إنه لا يقتل أحد يسب أحداً إلا من سب النبى صلى الله عليه وسلم ، فاسببه إن شئت أو خل سبيله .

ولم يكن الصحابة سواء فى الفقه أو فى العلم بأحوال الرسول . إذ النبى لم يكن يجلس للتعليم مجلسًا عامًّا إلا أحيانًا نادرة ، وإلا أيام الجمعة والعيدين ، وفى الوقت بعد الوقت .

قال ابن مسعود : كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة تلو الموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا .

ولذلك اختلفوا . واختلف الناقلون عنهم والمقتدون بهم فى العصور التالية .

* * *

ولم تدون السنن تدويناً رسميًّا كما دون القرآن. ولقد عاش النبى بعد الرسالة ثلاثاً وعشرين سنة فكان تدوين سنته (أقواله وأعماله وإقراره) أمراً غير يسير . لكن العرب أمة خُصت بالحفظ ، تعى صدورهم النصوص فى دقة باهرة ، وخاصة بعد أن صارت النصوص دينًا لهم . ولم يقع لأمة أخرى أن وجد فيها الحفاظ والرواة يحفظون كتاب القرآن ، فى الحداثة ،

أو بالسرعة ، أو يحفظون الأحاديث بالضخامة العددية ، مع دقة الحفظ والإسناد وصحته . جيلا بعد جيل ، كما صنع العرب والمسلمون .

ولقد أسلفنا مثل ابن عباس بمكة . . وإليك مثلا آخر من الزهرى : أرسل عبد الملك ابن مروان إلى أهل المدينة يلومهم على موقفهم من فتنة ابن الزبير . فتلى كتابه على الناس بالمسجد وفيهم سعيد بن المسيب . فسأل سعيد تلاميذه عما فيه ، فأخبروه بما لم يشف الغلة — لكن الزهرى قرأه من ذاكرته حتى جاء عليه كله .

وكان الزهرى يقول عن حفظه : (والله ما دخل أذنى شيء قط فنسيته) .

ولما ولى الخلافة هشام بن عبد الملك أراد أن يمتحن الزهرى فسأله فى أواخر عمره (٥١—١٢٥) أن يملى . فدعا كاتباً فأملى عليه أربعمائة حديث . ثم دعاه بعد شهر فقال له : إن ذلك الكتاب ضاع . فدعا بكاتب ، فأملاها عليه ، كما أملت قبلُ ، لم يخرم منها حرفًا . .

وكان عبد الملك قد أشار على الزهرى بجمع أحاديث الأنصار فى المدينة ، مثلما بعث عمر بن عبد العزيز إلى والى المدينة لكتابة حديث رسول الله مخافة ضياع العلم وذهاب العلماء .

كانت فتنة معاوية بداية شر قدر له أن يقع . فالأمة مع على رضى الله عنه ، والخوارج مع على ثم ضده ، حتى إذا اغتالوه انقسم المسلمون شيعاً ، وبرزت شيعة علىّ بين الأحزاب . وبدأ وضع الأحاديث من المسلمين كما بدأ الافتراء عليها من أعداء المسلمين .

ولقد أقلّ ابن عباس من رواية الأحاديث وقال : إنا كنا نحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لم يكن يُكذّب عليه ، فلما ركب الناس الصعبة والذلول تركنا الحديث عنه .

انقضى العهد الذى كان عمر يخطب فيه ضد المغالاة فى المهور ، فتقول له امرأة : مهلا يا عمر . يعطينا الله وتحرمنا أنت ؟ أليس يقول الله عز وجل «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا» ؟ فيقول عمر : (امرأة أصابت ورجل أخطأ) .

ويحيل الخليفة العبقرى طلاب الفتوى على علىّ بن أبى طالب ، أو يُصوّب علىّ فتاواه . فيرجع عمر عن حكمه وهو يقول : (لولا علىّ لهلك عمر) .

ثم انقضى ذلك العهد فأصبح لرجل الدولة مآرب أخرى.. وأمسى الحاكم نفسه فى دولة بنى أمية سفاكاً وكذاباً !

خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير بدل كلام الله. قال ابن عمر : لم يكن ابن الزبير يستطيع أن يبدل كلام الله . ولا أنت . قال الحجاج : أنت شيخ خرف ، قال ابن عمر رضى الله عنه : أما إنك لو عدت لعدت .

وروى الشافعى أن الخليفة هشام بن عبد الملك سأل عن تفسير قوله تعالى : « والَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ » فقال سليمان بن يسار : هو عبد الله بن أبىّ بن سلول . قال هشام كذبت . إنما هو على بن أبى طالب . قال سليمان : أمير المؤمنين أعلم بما يقول . ثم دخل ابن شهاب الزهرى ، فسأله هشام فقال : عبد الله بن أبى بن سلول . قال هشام كذبت . إنما هو على بن أبى طالب . قال الزهرى وقد ملأه الغضب : أنا كذبت ! فوالله لو نادانى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت ! !

قال الشافعى . فما زالوا يغرون به هشامًا حتى قال له : ارحل . فوالله ما كان ينبغى لنا أن نحمل عن مثلك .

فقال الزهرى . ولم ذلك ؟ أنا اغتصبتك لنفسى أو أنت اغتصبتنى لنفسك ؟ فخل عنى .

قال الخليفة : لا ولكنك استدنت ألفى ألف .

قال الزهرى : قد علمتَ ، وأبوك قبلك ، أنى ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك . . ثم خرج غاضبًا .

قال الخليفة للجالسين حوله : إنا نهيج الشيخ . ثم أمر فقضى عنه من دينه ألف ألف فلما أخبر ابن شهاب الزهرى قال : الحمد لله الذى هذا هو من عنده(١)

* * *

(١) قال الليث بن سعد (كان ابن شهاب يعطى كل من جاء يسأله حتى إذا لم يبق شىء يستلف من أصحابه فيعطونه ، حتى إذا لم يبق شىء معه استلف من عبيده) . نزل مرة بماء فشكا إليه أهل الماء أن لهم ثمانى عشرة عجوزاً ليس لهن خدم ولم يكن معه شىء . فاستلف ثمانية عشر ألفا وأخدم كل واحدة منهن جارية ! — قال له رجاء بن حيوة : لا تأمن أن يمسك عنك هؤلاء القوم (الخليفة) فوعده أن يقصر . . . مر به يوماً وقد وضع الطعام ومد موائد العسل . قال رجاء : هذا الذى افترقنا عليه ؟ قال الزهرى : انزل فإن السخى لا تؤدبه التجارب .

وعرف عن بعض الرافضة أنهم يختلقون الأحاديث ويتخذونها دينًا . وفيهم يقول الشافعى : « مارأيت فى أهل الأهواء قومًا أشهد بالزور من الرافضة » . وضعوا فى فضائل على وأهله آلاف الأحاديث ! وقابلهم جهال أهل السنة بوضع أحاديث ! ! وأتباع بنى أمية بأحاديث ! ثم يجئ دور بنى العباس فيجئ أتباعهم بأحاديث : مثل أن النبى قال لجدهم (إذا كان سنة خمس وثلاثين ومائة فهى لك ولولدك السفاح والمنصور والمهدى) !

ونشط أعداء الإسلام من الزنادقة والشعوبيين لاختراع الأحاديث لزلزلة عقائد المسلمين. وجاراهم وضّاع آخرون من المسلمين ابتغاء رضى ، أو تأييد فكرة ، أو تزيين رغبة !

اعترف ابن أبى العوجاء وهو مقدم للقتل — لزندقته — أنه وضع أربعة آلاف حديث يحرم فيها الحلال ويحرم الحرام .

واخترع بعض الوعاظ أحاديث ! قيل لهم إن النبى يقول : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . فقالوا نحن نكذب للنبى لا عليه !

واخترعت أحاديث وسير لمجرد إرضاء السامعين . . وكانت الجماهير تصغى .

جلس أحد القصاص ببغداد يروى تفسيراً لقوله عز وجلّ « عسى أن يبعثك ربك مقامًا محموداً » فزعم أن النبى يجلس مع الله على عرشه ! ! وناقض الطبرى هذا القول فرجم العامّة بيته بالحجارة .

وحسبك دليلا على الوضع أو التكرار أو الاختلاف فى الأحاديث أو على التحرى عند الجمع أن الإمام أحمد بن حنبل جمع فى مسنده أقل من أربعين ألفًا ، فيها كثير مكرر ، تخيرها من نحو ثلاثة أرباع مليون من الأحاديث . وأن البخارى جمع فى الجامع الصحيح ٧٣٩٧ حديثًا ، أكثرها مكرر ، جمعها من ستمائة ألف حديث كانت متداولة فى مطالع القرن الثالث ومع ذلك يقول : (لم أخرج من هذا الكتاب إلا صحيحًا ، وما تركت من الصحيح أكثر) .

وكان مالك يقول : (أدركت بهذه البلدة أقوامًا لو استسقى بهم المطر لسُقوا . قد سمعوا العلم والحديث كثيراً . فما حدثت عن أحد منهم شيئًا . لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله . وهذا الشأن يحتاج إلى رجل معه تقى وورع وصيانة وإتقان وعلم وفهم . فيعلم ما يخرج من رأسه ويصل إليه) .

ولم تثبت على الخوارج رذيلة الكذب على الرسول ، لأن الكذب عندهم من الكبائر ، لكنهم ردوا الأحاديث التى خرجت بعد الحرب بين على ومعاوية . وأسقطوا العدالة عن الصحابة الذين اشتركوا فى النزاع مع على أومعاوية . . فأسهموا فى الخطأ والاضطراب ، وبخاصة فيما ثبت على بعضهم من إباحة الجمع بين المرأة وعمتها أوخالتها ، أو إنكار حكم الرجم الوارد فى السنة ، لردهم الأحاديث التى وردت فيه .

ولم يكد يطلع القرن الثانى للهجرة ، حتى بدأت مدارس الاعتزال وعلماء الكلام تدخل فى المعترك . وكان من أهل الفرق من يطوى أضالعه على الكفر ، فأنكر حجية السنن جملة ، ووُجد من أنكر حجية خبر الواحد ، أى حديث الآحاد . بل كان من غلاة الرافضة من أنكر الاحتجاج بالسنة ، لأنهم يعتقدون أن الرسالة كانت لعلى لا للنبى صلوات الله عليه ! .

وبدأ تدوين السنن ، ووجد من يجمعون حديث النبى مختلطاً بأقوال الصحابة ، وانبرى أئمة الفقه (أبو حنيفة ومالك والثورى والأوزاعى وأبو يوسف ومحمد وغيرهم) يميزون صحيح الحديث من غيره ، ويرتبون الأحكام على الصحيح . وكانت مدرسة أبى حنيفة بالعراق لا تتردد فى الاجتهاد والقياس ، وتتردد أمام كثير من الأحاديث . أما مدرسة المدينة فكانت تدافع عن السنن ، ولا تفترض الفروض ، وتجتهد بحساب .

فلما انتهى بهم العمر ، انتهى عصر وابتدأ عصر ، بظهور محمد بن إدريس الشافعى ومنهاجه لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة .

الفصل الثانى

رسالة الشافعى — الأصول

اختصت السماء الشافعى بميلاده ونشأته ودراسته ولغته. فتلاقت بين يديه علوم القرآن والسنة وعلوم عظماء الإسلام، من خراسان حتى الأندلس. وكانت لديه قوة التعبير التى لا تضارع، مطبوعة ومصنوعة، مع علم يقينى بالتاريخ وأدوار الرسالة وأيامها، وأعمال الرسول، وأقواله ومناسباتها، ومراميها ومعانيها، وما تلا ذلك العهد، فأحاط إحاطة كاملة بالعلم الدينى.

وتتبدى مظاهر الشمول فى مجموع كتبه. وهى تنتظم شتى أبواب الفقه. يتداولها تداول الدارس المجادل بقوانين اللغة وأساليبها، وأصول الشريعة وأسانيدها ووجوه الأمور فيها، وكأنما علا فوق كرة الأرض علواً كبيراً فبَصُرَ بوجهيها معًا . . .

وبهذا استطاع أن يستقرىء ويستنبط القوانين التى سميت بأصول الفقه. ومكن له تقدم الزمان بالمدارس التى سبقت، ففرّعت وجمّعت، وأصّلت وقعّدت، طوال نصف قرن، فشقت للفقه طرائق متباينة. وكان حقيقًا عليها أن تجتمع على ميزان واحد، توزن به الآراء. . فحمل الشافعى هذه الأمانة فى كتاب الرسالة وفى سائر كتبه.

وإنك لترى — بادئَ الرأى — أن الأصول التى عرضتها «الرسالة» أصول مسلمة لا شبهة فيها، تسليم الكشوف العلمية. وأنها قواعد عملية قبل أن تكون فلسفية أو نظرية. ولهذا عبرت العصور عصراً بعد عصر، عماداً للعلماء العاملين فى حقول الفكر. وأنها ولدت كاملة، إذ كانت وليدة الاستقراء الشامل، فغدت، مذ وجدت، من المسلمات. يتتابع عليها الفقهاء فى شتى المذاهب. بما فيهم رافضو القياس الذين يعتمدون على النصوص وحدها.

وفيما يلى قليل من النقول من كتاب «الرسالة» تغنينا عن السرد أو التدليل. . فمن ذا يتكلم عن الشافعى وأصول فقهه، إذا أمكن أن تكون للشافعى الكلمة ؟

إن قليلا من الفقرات يضع أصابعنا على أسس منهاجه . وهى فى الوقت ذاته تضع تحت أبصارنا أمثالا بارعة من فهمه لخصائص اللغة ، والإفادة منها ، والإفادة بها . وهى ، بعد ، آيات فى بلاغة التعبير الفقهى .

الكتاب والسنة والإجماع والقياس :

يستفتح الشافعى كتابه الرسالة بأصل جامع فيقول :

« فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله دليل على سبيل الهدى فيها » .

ويبين الأدلة من الآيات : مثل قوله تعالى : « وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورَحْمَةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » .

ثم يتكلم عن البيان ، فيراه صادراً عن القرآن بنص ، مثل جمل الفرائض ، أو بتبيين كيفية الفريضة المنصوصة ، بقول النبى وعمله ، أو بسنة منه فيما ليس فيه نص حكم . ثم يقول : « ومنه ما فرض على خلقه الاجتهاد فى طلبه . وابتلى طاعتهم فى الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم فى غيره مما فرض عليهم . . فوجههم بالقبلة إلى المسجد الحرام وقال لنبيه : «قدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها . فَوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ وحَيْثُما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

ويفسر الآيات بشعر الشعراء الجاهليين ، والمخضرمين ، والفرسان المشهورين ، وينتهى بأن شطر الشيء ، هو (تلقاء الشيء أى جهته) . وأن شطر الشيء هو قصد عين الشيء إذا كان معايناً فبالصواب . وإذا كان مغيباً فبالاجتهاد بالتوجه إليه ، وذلك أكثر ما يمكنه فيه . . فيقول :

« وقال الله : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » وقال : «وعَلاماتٌ وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» . فخلق لهم العلامات ، ونصب لهم المسجد الحرام ، وأمرهم أن يتوجهوا إليه — وإنما توجههم إليه بالعلامات التى خلقها لهم والعقول التى ركبها فيهم . . وقال : « وأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » وقال : «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ » وأبان أن العدل العامل بطاعته . فمن رأوه

عاملا بها كان عدلا . وقال جل ثناؤه : « لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وأَنْتُمْ حرُمٌ ومَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الكَعْبَةِ » . فكان المثل – على الظاهر – أقرب الأشياء شبهاً فى العظم من البدن .

وهذا الصنف من العلم دليل على ما وصفت قبل هذا . على أن ليس لأحد أبداً أن يقول فى شىء ، حل ولا حرم ، إلا من جهة العلم . وجهة العلم الخبر فى الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس . ومعنى هذا الباب معنى القياس لأنه يطلب فيه الدليل على صواب القبلة والعدل والمثل . والقياس ما طلب بالدلائل . على موافقة الخبر المتقدم . من الكتاب أو السنة . لأنها علَم الحق المفترض طلبه . كطاب ما وصفت قبله . من القبلة والعدل والمثل » .

ويقول « وموافقته تكون من وجهين . أحدهما أن يكون الله أو رسوله حرم الشىء منصوصًا ، أو أحله لمعنى . فإذا وجدنا ما فى مثل ذلك المعنى ، فيما لم ينص فيه بعينه ، كتاب ولا سنة ، أحللناه أو حرمناه ؛ لأنه فى معنى الحلال أو الحرام .

أو نجد الشىء يشبه الشىء منه والشىء من غيره ، ولا نجد شيئًا أقرب به شبهًا من أحدهما ، فنلحقه بأوْلى الأشياء شبهًا به . كما قلنا فى الصيد . .

ومن جماع علم الكتاب ، العلم بأن جميع كتاب الله إنما أنزل بلسان العرب ، والمعرفة بناسخ كتاب الله ومنسوخه . والفرْضِ فى تنزيله والأدب والإرشاد والإباحة . والمعرفةُ بالوضع الذى وضع الله به نبيه من الإبانة عنه فيما أحكم فرضه فى كتابه ، وبينه على لسان نبيه ، وما أراد بجميع فرائضه ومن أراد ، أكُلَّ خلقه أم بعضهم دون البعض ؟ وما افترض على الناس من طاعته والانتهاء إلى أمره .

ثم معرفةُ ما ضرب فيها من الأمثال الدوالِّ على طاعته ، المبينة لاجتناب معصيته ، وتركُ الغفلة عن الحظ والازديادُ من نوافل الفضل .

فالواجب على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا . .

بيان ما نزل من الكتاب عاماً يراد به العام ويدخله الخصوص :

تقول الرسالة :

«قال تبارك وتعالى : «اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» — و «خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ» و « وما مِنْ دابةٍ فِى الأَرْضِ إلا عَلَى اللهِ رِزْقُها» فهذا عام لاخاص فيه . . .

وقال الله : «ما كانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ ومَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ولا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » . وهذا فى معنى الآية قبلها .

وإنما أريد من أطاق الجهاد من الرجال . وليس لأحد منهم أن يرغب بنفسه عن نفس النبى ، أطاق الجهاد أو لم يطقه . فى هذه الآية الخصوص والعموم .

وقال « والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرجالِ والنساءِ والوِلدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها» .

وهكذا قول الله : «حَتَّى إذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما».

وفى هذه الآية دلالة على أن لم يستطعما كل أهل قرية . فهى فى معناهما . وفيها وفى « القرية الظالم أهلها » خصوص ، لأن كل أهل القرية لم يكن ظالماً وقد كان فيهم المسلم . ولكنهم كانوا فيها مكثورين وكانوا فيها أقل . . .

بيان ما أنزل من الكتاب عام الظاهر وهو يجمع العام والخصوص :

تقول الرسالة :

«قال تبارك وتعالى : «إنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا . إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ » . قال تبارك وتعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُم الصيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَياماً مَعْدُوداتٍ . فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَو عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » وقال : «إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً » .

فبين فى كتاب الله أن فى هاتين الآيتين العموم والخصوص : فأما العموم فيهما فى

قول الله : « إنَّا خَلَقناكُم مِن ذَكرٍ وأنثى وجَعلناكُم شُعوباً وقَبائِل لتَعارفُوا » .
فكل نفس خوطبت بهذا فى زمان رسول الله وقبله وبعده مخلوقة من ذكر وأنثى وكلها شعوب وقبائل .

والخاص منها فى قول الله : « إنَّ أكرَمَكم عِند اللهِ أتقاكُم » لأن التقوى تكون على من عقلها ، وكان من أهلها من البالغين من بنى آدم ، دون المخلوقين من الدواب سواهم ، ودون المغلوبين على عقولهم منهم ، والأطفال الذين لم يبلغوا وعُقل التقوى منهم .

فلا يجوز أن يوصف بالتقوى وخلافها إلا من عقلها وكان من أهلها ، أو خالفها فكان من غير أهلها .

والكتاب يدل على ما وصفت . وفى السنة دلالة عليها . قال رسول الله — « رفع القلم عن ثلاثة : النائم حتى يستيقظ ، والصبى حتى يبلغ ، والمجنون حتى يُفيق » .

وهكذا التنزيل فى الصوم والصلاة على البالغين العاقلين ، دون من لم يبلغ ومن بلغ ممن غلب على عقله ، ودون الحُيَّض فى أيام حيضهن » .

بيان ما نزل من الكتاب عام الظاهر يراد به كله الخاص :

تقول الرسالة :

« وقال الله تبارك وتعالى : « الَّذينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ ، فَزادَهُم إيماناً وقالُوا : حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ » .

قال الشافعى : فإذا كانَ من مع رسول الله ناس غير من جمع لهم من الناس . وكان المخبرون لهم ناساً غير من جمع لهم ، وغير من معه ممن جُمع عليه معه ، وكان الجامعون لهم ناساً فالدلالة بينة مما وصفت : من أنه إنما جمع لهم بعض الناس دون بعض .

والعلم يحيط أن لم يجمع لهم الناس كلهم . ولم يخبرهم الناسُ كلهم . ولم يكونوا هم الناسَ كلهم .

ولكنه لما كان اسم « الناس » يقع على ثلاثة نفر ، وعلى جميع الناس ، وعلى من بين جميعهم وثلاثة منهم ، كان صحيحاً فى لسان العرب أن يقال : «الذين قال لهمْ النَّاس» وإنما الذين قال لهم ذلك أربعة نفر « إن الناس قد جمعوا لكم » يعنون المنصرفين عن أحُد .

وإنما هم جماعة غير كثير من الناس . الجامعون منهم غير المجموع لهم ، والمخبرون للمجموع لهم غير الطائفتين ، والأكثر من الناس فى بلدانهم غير الجامعين ، ولا المجموع لهم ولا المخبرين . . . »[١] .

وقال الله جل ثناؤه : «وَقُودُها النَّاسُ والحِجارَةُ » فدل كتاب الله على أنه إنما وقودها بعض الناس ، لقول الله : « إنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ » .

الصنف الذى يبين سياقه معناه :

تقول الرسالة :

قال الله تبارك وتعالى « واسْأَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ إذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً . ويَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ . كذلك نَبْلُوهُمْ بما كانُوا يَفْسِقُونَ » .

فابتدأ — جل ثناؤه — ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحرَ . فلما قال : « إذ يعدون فى السبت » دل على أنه إنما أراد أهل القرية ، لأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان فى السبت ولا غيره . . . » .

الصنف الذى يدل لفظه على باطنه دون ظاهره :

قال الله تبارك وتعالى وهو يحكى قول إخوة يوسف لأبيهم : « وما شَهِدْنا إلاَّ

---

(١) يقول الشافعى : « ولا يقال بخاص فى كتاب الله ، ولا سنة ، إلا بدلالة فيهما أو فى أحد منهما ، ولا يقال بخاص حتى تكون الآية تحتمل أن يكون أريد بها ذلك . . » ويقول : « والقرآن على ظاهره حتى تأتى دلالة منه أو سنة أو إجماع بأنه على باطن دون ظاهر » .

وأدوات العموم نحو عشرين صيغة مثل : كل ، وجميع . .

وتخصيص الكتاب متفق عليه . وقد تخصص السنة الكتاب بلا جدال ، إلا فى شأن خبر الواحد . رفض عمر أن يخصص به الكتاب عندما روت له فاطمة بنت قيس أن النبى لم يجعل لها نفقة ولا سكنى وهى بائن ، فقال عمر : لا نترك كتاب ربنا ولا سنة نبينا ، لقول امرأة لا ندرى أصابت أم أخطأت .

والجمهور على أن خبر الواحد يخصص عام الكتاب كما يخصصه المتواتر . والتخصيص بالقياس محل خلاف . والجمهور يراه جائزاً . وآخرون يشترطون شروطاً .

بِما عَلِمْنا وما كُنَّا للْغَيْبِ حافِظِينَ. واسْأَلِ القرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيها والعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنا فِيها وإِنَّا لَصادِقُونَ ». فهذه الآية لاتختلف عند أهل العلم باللسان أنهم إنما يخاطبون أباهم بمسألة القرية وأهل العير ، لأن القرية والعير لا ينبئان عن صدقهم . .

* * *

منزلة السنة من القرآن :

وتستطرد الرسالة لبيان ما نزل عاماً فى القرآن وخصصته السنة فبدأ الشافعى بالفروض والعبادات و بالحدود لتكون الدلالة قاطعة . وتحدث عن فروض الميراث المحددة بالكتاب والتى تسبقها الوصية ، وأبان كيف أن النبى حدد الوصية فى الثلث لا تتعداه ولأهل الميت الثلثان . وأوجب سداد الدين قبل كل ذلك – وقال إنه لولا دلالة السنة والإجماع ، لكانت الوصية مبداة على الدين أو لكانت والدين سواء ، واستمر يعدد حالات خصصت فيها السنة الكتاب .

ثم تقول الرسالة « وقال الله : « إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرافِقِ وامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ » . فقصد ، جل ثناؤه فى القدمين بالغسل كما قصد الوجه واليدين . فكان ظاهر هذه الآية أنه لا يجزئ فى القدمين إلا ما يجزىء فى الوجه من الغسل أو الرأس من المسح . وكان يحتمل أن يكون أريد بغسل القدمين أو مسحهما بعض المتوضئين دون بعض . فلما مسح رسول الله على الخفين وأمر به من أدخل رجليه فى الخفين وهو كامل الطهارة ، دلت سنة رسول الله على أنه إنما أريد بغسل القدمين أو مسحهما بعض المتوضئين دون بعض » .

وقال تبارك وتعالى : « والسارِقُ والسارِقَةُ فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللهِ » . وسن رسول الله أن « لا قطع فى ثمر ولا كثر [1] » وأن لا يقطع إلا من بلغت سرقته ربع دينار فصاعداً » .

(١) جمار النخل : الشحم الذى فى وسطها .

بيان فرض الله فى كتابه اتباع سنة نبيه :

« قال الشافعى : « وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان ، جل ثناؤه ، أنه جعله علماً لدينه ، بما افترض من طاعته وحرم من معصيته . وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به . فقال . . وقال : « إِنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ وإذا كانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ »

فجعل كمال ابتداء الإيمان الذى ما سواه تبع له ، الإيمان بالله ثم برسوله . فلو آمن عبد به ولم يؤمن برسوله ، لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبداً ، حتى يؤمن برسوله معه » . .

ثم تستطرد الرسالة فى التدليل بآى كثيرة من الكتاب على أن السنة هى « الحكمة » المقصودة بآياته ، مثل قوله تعالى : « واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتابِ والحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ » . أو قوله : « هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ »

ثم يقول : « فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله . . . ولأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة وذكر الله منّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة . فلم يجز — والله أعلم — أن يقال « الحكمة » ها هنا إلا سنة رسول الله » . . .

ثم يبين وجوه السنن الثلاثة : الأول أن يكون الله تعالى أنزل نصاً فى مسألة ، فيبين الرسول مثل ما نص الكتاب . والآخر أن يكون قد أنزل الله نصاً مجملا ، فيبين الرسول عن الله معنى ما أراد ، والثالث ما سن فيه الرسول فيما ليس فيه نص كتاب الله سبحانه ، والناس يقولون فيه أقوالا يوردها الشافعى بقوله : « فمنهم من قال : جعل الله له ، بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه : أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب . ومنهم من قال : لم يسن سنة قط إلا ولها أصل فى الكتاب . . .

ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله . فأثبتت سنته بفرض الله .

ومنهم من قال : ألقى فى روعه كل ما سن . وسنته الحكمة . . » ثم يقول « فكان مما ألقى فى روعه سنته وهى الحكمة التى ذكر الله . . . »

ثم يقول : « وأىٌّ هذا كان . فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ولم يجعل لأحد من خلقه عذراً ، بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله . وأن قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه فى أمر دينهم . وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معانى ما أراد الله بفرائضه فى كتابه ، ليعلم من عرف منها ما وصفنا ، أن سنته صلى الله عليه ، إذا كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه ، فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب ، أخرى [1] ، فهى كذلك أين كانت — لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال » .

السنة لا ناسخة للكتاب ولا تنسخها إلا سنة :

ذكر الشافعى فى صدد النسخ قول الله تعالى « ... قُلْ ما يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحَى إِلَىَّ » . وقوله «يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ » . . قال الشافعى قوله : «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَو مِثْلِها » . وقوله « وإذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ واللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ ، قالوُا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ » .

فهذا بيان للناس « أنه إنما نسخ ما نسخ من الكتاب بالكتاب وأن السنة لا ناسخة للكتاب . وإنما هى تبع للكتاب مثل ما نزل نصًّا : ومفسرة معنى ما أنزله الله منه جملا » .

وتحدث عن السنة لا تنسخها إلا سنة مثلها فساق دلائل كثيرة فى الكتاب والسنة ، ثم قال بعد إيراد كثير من التطبيقات : « وفى هذا دلالة على ما وصفت قبل هذا ، فى هذا الكتاب ، من أن رسول الله إذا سَنَّ سنة ، فأحدث الله إليه فى تلك السنة نسخها أو مخرجًا إلى سعة منها ، سَنَّ رسول الله سنة تقوم الحجة على الناس بها ، حتى يكونوا إنما صاروا من سنته إلى سنته التى بعدها » . ثم قال : « فلو أن أمراً لم يعلم لرسول الله سنة مع كتاب الله إلا ماوصفنا مما سن فيه رسول الله معنى ما أنزله الله جملة ، وأنه إنما استدرك ما وصفت من فرض الله الأعمالَ وما يحرم وما يحل . . وما سكت عنه ، سوى ذلك من

---

(١) سنة أخرى .

أعماله : قامت الحجة عليه بأن سنة رسول الله إذا قامت هذا المقام مع فرض الله فى كتابه مرة أو أكثر ، قامت كذلك أبداً . واستدل أنه لا تخالف له سنة أبداً كتاب الله . وأن سنته ، وإن يكن فيها نص كتاب ، لازمة بما وصفت من هذا ، مع ما ذكرت سواه ، مما فرض الله من طاعة رسوله . ووجب أن يعلم أن الله لم يجعل هذا لخلق غير رسوله . وأن يجعل قول كل واحد وفعله أبداً تبعاً لكتاب الله ثم سنة رسوله » .

* * *

العلل فى الأحاديث :

« قال الشافعى : قال لى قائل : فإنا نجد من الأحاديث عن رسول الله أحاديث فى القرآن . مثلها نصاً وأخرى فى القرآن مثلها جملة . وفى الأحاديث منها أكثر مما فى القرآن. وأخرى ليس منها شىء فى القرآن ، وأخرى موتفقة[1] وأخرى مختلفة . ناسخة ومنسوخة وأخرى مختلفة ليس فيها دلالة على ناسخ ولا منسوخ . وأخرى فيها نهى لرسول الله. فتقولون ما نهى عنه حرام . وأخرى فيها لرسول الله نهى – فتقولون نهيه وأمره على الاختيار لا على التحريم . ثم نجدكم تذهبون إلى بعض المختلفة من الأحاديث دون بعض ، ونجدكم تقيسون على بعض حديثه ، ثم يختلف قياسكم عليها ، وتتركون بعضاً فلا تقيسون عليه . فما حجتكم فى القياس وتركه ؟ ثم تفترقون بعدُ . فمنكم من يترك من حديثه الشىء ويأخذ بمثل الذى ترك وأضعفَ إسناداً منه ؟ » .

ويضع الإمام القواعد واضحة فيقول : « كل ماسن رسول الله مع كتاب الله من سنة فهى موافقة كتاب الله فى النص بمثله وفى الجملة بالتبيين عن الله . والتبيين يكون أكثر تفسيراً من الجملة » وأن « رسول الله عربى اللسان والدار فقد يقول القول عاماً يريد به العام ، وعاماً يريد به الخاص كما وصفت لك فى كتاب الله وسنن رسول الله قبل هذا . . » .

وإن الرسول قد « يُسأل عن الشىء فيجيب على قدر المسألة ويؤدى عنه المخبر الخبر مُتقصى والخبر مختصراً ، والخبرَ فيأتى ببعض معناه دون بعض ، ويحدث عنه الرجل الحديث قد أدرك جوابه ولم يدرك المسألة فيدله على حقيقة الجواب ، بمعرفته السبب الذى يخرج عليه الجواب . ويسن فى الشىء سنة وفيما يخالفه أخرى ، فلا يخلِّص بعض

(١) متفقة .

السامعين بين اختلاف الحالين اللتين سن فيهما . ويسن سنة فى نص معناه . فيحفظها حافظ ويسن فى معنى يخالفه ويجامعه فى معنى ، سنة غيرها لاختلاف الحالين . فيحفظ غيره تلك السنة . فإذا أدى كل ما حفظ رآه بعض السامعين اختلافاً . وليس منه شيء مختلف .

ويسن بلفظ مخرجه عام جملة بتحريم شيء أو بتحليله . ويسن فى غيره خلاف الجملة فيستدل على أنه لم يرد بما حرّم ما أحل . ولا بما أحل ما حرم . ويسن السنة ثم ينسخها بسنته . ولم يدع أن يبين كلما نسخ من سنته بسنته » .

ثم يقول : « . . لم نجد عنه شيئاً مختلفاً فكشفناه إلا وجدنا له وجهاً يحتمل به ألا يكون مختلفاً ، وأن يكون داخلا فى الوجوه التى وصفت لك ، أو نجد الدلالة على الثابت منه دون غيره بثبوت الحديث . فلا يكون الحديثان اللذان نسبا إلى الاختلاف متكافيَيْن فنصير إلى الأثبت من الحديثين . أو يكون على الأثبت منهما دلالة من كتاب الله وسنة نبيه . . ولم نجد عنه حديثين مختلفين إلا ولهما مخرج أو على أحدهما دلالة بأحد ما وصفت . . » .

ويقول « وأما أن نخالف حديثاً عن رسول الله ثابتاً عنه فأرجو ألا يؤخذ ذلك علينا إن شاء الله . وليس ذلك لأحد . ولكن قد يجهل الرجل السنة فيكون له قول يخالفها لا أنه عمد خلافها ، وقد يغفل الرجل ويخطئ فى التأويل . . »

ويتعرض للترجيح بين الروايات فيرى « أن الأحاديث إذا اختلفت لم نذهب إلى واحد منها دون غيره إلا بسبب يدل على أن الذى ذهبنا إليه أقوى من الذى تركنا » وإذا أشبه أحد الحديثين كتاب الله كانت فيه الحجة . « فإن لم يكن فيه نص كتاب الله ، كان أولاهما بنا الأثبت منهما . وذلك أن يكون من رواه أعرف إسناداً وأشهر بالعلم وأحفظ له ، أو يكون رُوى الحديث الذى ذهبنا إليه من وجهين أو أكثر ، والذى تركنا من وجه ، فيكون الأكثر أولى بالحفظ من الأقل . أو يكون الذى ذهبنا إليه أشبه بمعنى كتاب الله ، أو أشبه بما سواهما من سنن رسول الله ، أو أولى بما يعرف أهل العلم ، أو أصح فى القياس ، والذى عليه الأكثر من أصحاب رسول الله . . » ثم يضع قاعدة أخرى ، – بين ما يضع من القواعد : « فكل كلام كان عاماً ظاهراً فى سنة رسول الله فهو على ظهوره وعمومه حتى يعلم حديث ثابت عن رسول الله – بأبى هو وأمى – يدل على أنه إنما أريد بالجملة العامة

فى الظاهر بعض الجملة دون بعض . . وإلزم أهل العلم أن يمضوا الخبرين على وجوههما ، ماوجدوا لإمضائهما وجهاً ، ولايعدونهما مختلفين ، وهما يحتملان أن يمضيا ، وذلك إذا أمكن فيهما أن يمضيا معاً ، أو وجد السبيل إلى إمضائهما ، ولم يكن منهما واحد بأوجب من الآخر »[1] .

علم الخاصة وعلم العامة وخبر الواحد :

وتستطرد الرسالة فى مستواها البلاغى الذى يستعذ به الفهمة الأثبات ، ويستروح له سائر الناس ، فتقول : « العلم علمان : علم عامة ، لا يسع بالغاً غير مغلوب على عقله جهله . . مثل الصلوات الخمس . . وماكان فى معنى هذا مماكلف العباد أن يعقلوه ويعملوه . وهذا العلم العام الذى لا يجوز فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ، ولا يجوز فيه التنازع » والثانى « . . . ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يُخَصُّ به من الأحكام وغيرها . مما ليس فيه نص كتاب ولا فى أكثره نص سنة . وإن كانت فى شىء منه سنة ، فإنما هى من أخبار الخاصة لا أخبار العامة، وماكان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً . . . »

ويتكلم عن خبر الواحد فيقول : « فقال لى قائل : احدُدْ لى أقل ما تقوم به الحجة على أهل العلم حتى يثبت عليهم خبر الخاصة — فقلت خبر الواحد عن الواحد حتى ينتهى إلى النبى أو من انتهى به إليه دونه . ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أموراً منها : أن يكون من حدث به ثقة فى دينه ، معروفاً بالصدق فى حديثه ، عاقلا لما يحدث به ، عالماً بما يحيل معانى الحديث من اللفظ ، وأن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمع ، لا يحدث به على المعنى . . وإذا أداه بحروفه فلم يبق وجه يُخاف فيه إحالتُه الحديث ، حافظاً إن حدث به من حفظه ، حافظاً لكتابه إن حدث من كتابه ، إذا شرك أهل

---

(١) يقول ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨) : وبالجملة فما عرفت حديثا صحيحا يخالف حديثا صحيحا لما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح . بل متى رأيت قياسا يخالف أثراً فلا بد من ضعف أحدهما . لكن التمييز بين صحيح القياس وفاسده مما يخفى كثير منه على أفاضل العلماء . فضلا عمن هو دونهم ، ويختم ابن تيمية بحثه فى هذا الموضوع بقوله عن الصحابة (وقد تأملت من هذا الباب ما شاء الله فرأيت الصحابة أفقه الأمه وأعلمها وقد بينت فيما كتبت أن المنقول فيها عن الصحابة هو أصح الأقوال قضاء وقياساً وعليه يدل الكتاب والسنة وعليه يدل القياس الجلى . وكل قول سوى ذلك تناقض فى القياس مخالف للنصوص . وما شاء الله من المسائل لم أجد أجود الأقوال فيها إلا الأقوال المنقولة عن الصحابة . و الى ساعتى هذه ما علمت قولا قاله الصحابه ولم يختلفوا فيه إلا كان القياس معه . لكن العلم بصحيح القياس وفاسده من أجل العلوم . وإنما يعرف ذلك من كان خبيراً بأسرار الشرع ومقاصده وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن يفوق التعداد) .

الحفظ فى الحديث وافق حديثهم : بريئًا من أن يكون مدلسا ، يحدث عمن لقى ما لم يسمع منه ، ويحدث عن النبى ما يحدث الثقات خلافه عن النبى . ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه ، حتى ينتهى بالحديث موصولا إلى النبى أو إلى من انتهى به إليه دونه . . »

ويقول « أقبل فى الحديث الواحدَ والمرأةَ ولا أقبل واحداً منهما وحده فى الشهادة . وأقبل فى الحديث (حدثنى فلان عن فلان) إذا لم يكن مدلسًا .ولا أقبل فى الشهادة إلا : سمعتُ أو رأيت أو أشهدنى . وتختلف الأحاديث فأخذ ببعضها استدلالا بكتاب الله أو سنة أو إجماع أو قياس . وهـذا لا يؤخذ به فى الشهادات هكذا . . ثم يكون بشر كلهم تجوز شهادته ولا أقبل حديثه . . إن إحالة معنى الحديث أخفى من إحالة معنى الشهادة . وبهذا احتطت فى الحديث . . » .

* * *

ويتكلم عن الحجة فى تثبيت خبر الواحد فيقول بين كثير من الأحاديث والحجج إن النبى قال : «نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » . فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرأ يؤديها ، والامر واحد ، دل أنه لا يأمر أن يؤدى عنه إلا بما تقوم به الحجة على من أدى إليه ، لأنه إنما يؤدى عنه حلال وحرام يجتنب ، وحد يقام ، ومال يؤخذ ويعطى ، ونصيحة فى دين ودنيا . »

وذكر كيف أن السنة إذا قبل الرجل زوجته وهو صائم قد نقلتها أم سَلَمَةَ أم المؤمنين إلى زوجة قبلها زوجها وهو صائم ، وكيف نقل رجل إلى الناس حكم القرآن فى تغيير القبلة ، إذ أتى آت أهل قباء يقول لهم إن رسول الله قد أمر أن يستقبل القبلة بقرآن نزل . فاستداروا إلى الكعبة ، وكيف أن رجلا نقل إلى الصحابة تحريم الخمر عندما حرمت فكسروا الجرار بالمهرَاس دون انتظار لينقل الخبر جماعة .

وكيف . . وكيف . . أنه فى كثير من الأحيان أرسل النبى رجلا واحداً لينقل أوامره أو أخباره وتكون مع من أرسله جماعة فلا يشركها الرسول فى نقل رسالته . وبعث فى دهر واحد اثنى عشر رسولا إلى اثنى عشر ملكا يدعوهم إلى الإسلام ، وولى العامل وحده بعد العامل . . ولم يكن لأحد أن يقول للوالى ، أو المبعوث ، أو الخليفة ، أو القاضى ،

أو أمراء السرايا ، وهم آحاد : (أنت واحد وليس لك أن تأخذ منا ما لم نسمع رسول الله يذكر أنه علينا) بل إن الرسل صلوات الله عليهم أرسلوا آحاداً . . كل ذلك يدل على عدم الحاجة للتعدد ، أو التواتر ، أو الاشتهار .

يقول : « والولاة من القضاة يقضون فتنفذ أحكامهم ويقيمون الحدود وينفذ من بعدهم أحكامهم . وأحكامهم أخبار عنهم » ويستشهد مرات بابن عباس وبكثيرين من الصحابة والتابعين ، قبلوا وأفتوا بخبر الواحد وبخبر الواحدة أيضاً . .

ولا يغير من قوة هذه الحجج أن عمر كان يستوثق ويطلب أن يزكى الراوى راو آخر فقد كان ذلك احتياطاً . « وليس الزيادة فى التأكيد مانعة أن تقوم الحجة بالواحد » يقول الشافعى « وقد رأيت من الحكام من يثبت عنده الشاهدان العدلان والثلاثة فيقول للمشهود له زدنى شهوداً . وإنما يريد بذلك أن يكون أطيب لنفسه . ولو لم يزده المشهود له على شاهدين لحكم له بهما » .

أما عثمان فقضى بخبر امرأة بين المهاجرين والأنصار . كذلك أفتى ابن عباس بخبر فلانة الأنصارية .

وتتوالى حجج الشافعى على الأخذ بحديث الآحاد ، عن الصحابة الآحاد ، رووا عن آحاد ، وروى عنهم آحاد ، وأفتوا وقضوا — وينتهى إلى أنه : « لو جاز لأحد من الناس أن يقول فى علم الخاصة : أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والانتهاء إليه ، بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبته — جاز لى » .

الحديث المنقطع :

قال الشافعى . « فقلت له : المنقطع مختلف .

فمن شاهد أصحاب رسول الله من التابعين فحدث حديثاً منقطعاً عن النبى ، اعتبر عليه بأمور :

منها أن ينظر إلى ما أرسل من الحديث : فإن شركه فيه الحفاظ المأمونون فأسندوه إلى رسول الله بمثل معنى ما روى ، كانت هذه دلالة على صحة من قبل عنه وحفظه . وإن انفرد بإرسال حديث لم يشركه فيه من يسنده ، قُبِل ما ينفرد به من ذلك ويعتبر عليه بأن ينظر :

هل يوافقه مرسل غيره ، ممن قبل العلم عنه ، من غير رجاله الذين قُبل عنهم ؟ فإن وجد ذلك كانت دلالة يقوى له مرسله . وهى أضعف من الأولى . وإن لم يوجد ، نظر إلى بعض ما يروى عن بعض أصحاب رسول الله قولا له ، فإن وجد يوافق ما روى عن رسول الله كانت فى هذا دلالة على أنه لم يأخذ مرسله إلا عن أصل يصح إن شاء الله — وكذلك إن وجد عوامُّ من أهل العلم يفتون بمثل معنى ما روى عن النبى .

ثم يعتبر عليه بأن يكون إذا سمى من روى عنه لم يسمّ مجهولا ولا مرغوبًا عن الرواية عنه . فيستدل بذلك على صحته فيما روى عنه . ويكون إذا شرك أحداً من الحفاظ فى حديث لم يخالفه ، فإن خالفه — وُجد حديثه أنقص — كانت فى هذه دلائل على صحة مخرج حديثه . . .

ولا نستطيع أن نزعم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالموتصل (المتصل) . . .

فأما مَن بعد كبار التابعين الذين كثرت مشاهدتهم لبعض أصحاب رسول الله فلا أعلم منهم واحداً يقبل مرسله لأمور . . . ومن نظر فى العلم بخبرة وقلة غفلة ، استوحش من مرسل كل مَن دون كبار التابعين بدلائل ظاهرة فيها[1] » .

* * *

الإجماع :

تقول الرسالة :

« أما ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية عن رسول الله فكما قالوا إن شاء الله. وأما ما لم يحكوه فاحتمل أن يكون قالوا حكاية عن رسول الله واحتمل غيره . . فكنا نقول بما قالوا به اتباعًا لهم . ونعلم أنه إذا كانت سنن رسول الله لا تعزب عن عامتهم وقد تعزب عن بعضهم ، ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله ولا على خطأ إن شاء الله . . أخبرنا سفيان عن . . « أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية فقال إن رسول الله قام فينا كمقامى فيكم فقال « أكرموا أصحابى . .ألا فمن سره بحبحة الجنة فليلزم الجماعة . فإن

(١) يقول الشافعى « وليس المنقطع بشىء ما عدا منقطع بن المسيب » ومع إعظامه للزهرى وقوله فيه إنه « إمام فى الحديث والتخير وثقة الرجال » فهو يقول عن نفسه وعن الزهرى « يقولون نحابى . ولو حابينا لحابينا الزهرى . وإرسال الزهرى ليس بشىء . ذلك أنا نجده روى عن سليمان بن أرقم » .

الشيطان مع الفذ . وهو من الاثنين أبعد . . » . . قلت إذا كانت جماعتهم متفرقة فى البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرقين . . فلم يكن فى لزوم الأبدان معنى لأنه لايمكن . ولأن إجماع الأبدان لا يصنع شيئًا . فلم يكن للزوم جماعتهم معنى إلا ما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما . ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم . . وإنما تكون الغفلة فى الفرقة .

وأما الجماعة فلا يمكن فيها ، كافةً ، غفلة عن معنى كتاب ولا سنة ولا قياس إن شاء الله » .

ويتصدى لقول القائلين « إن إجماع أهل المدينة حجة » كمثل ما تصدى له من قبل الليث بن سعد . فيقول فى حوار عن « الأمر المجتمع عليه » بالمدينة « . . لست أقول ولا أحد من أهل العلم — (هذا مجتمع عليه) — إلا لما لا تلقى عالمًا أبداً إلا قاله لك، وحكاه عن من قبله ، كالظهر أربع وكتحريم الخمر وما أشبه هذا ، وقد أجده يقول : (المجمع عليه) وأجد من المدينة ، من أهل العلم ، كثيراً يقولون بخلافه ، وأجد عامة أهل البلدان على خلاف ما يقول المجتَمَع عليه » .

* * *

القياس واستعماله :

يتساءل الشافعى ويجيب فى الرسالة عن القياس « أهو الاجتهاد أم هما مفترقان ؟ قلت هما اسمان لمعنى واحد . . كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم . أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة ، وعليه إذا كان فيه بعينه حكمُ اتباعه ، وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد . والاجتهاد القياس » .

« . . . ولا يقيس إلا من جمع الآلة التى له القياس بها : وهى العلم بأحكام كتاب الله ، فرضه ، وأدبه ، وناسخه ومنسوخه ، وعامه وخاصه ، وإرشاده، ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله ، فإذا لم يجد سنة فبإجماع المسلمين فإن لم يكن بإجماع فبالقياس . ولا يكون له أن يقيس حتى يكون عالمًا بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب . ولا يكون لأحد أن يقيس حتى

يكون صحيح العقل وحتى يفرق بين المشتبه ولا يعجل بالقول به دون التثبيت . ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه . .

فأما من تم عقله ولم يكن عالماً بما وصفنا فلا يحل له أن يقول بقياس . وذلك أنه لا يعرف ما يقيس عليه . كما لا يحل لفقيه عاقل أن يقول فى ثمن درهم ولا خبرة له بسوقه — ومن كان عالماً بما وصفناه بالحفظ ، لا بحقيقة المعرفة ، فليس له أن يقول أيضاً بقياس . لأنه قد يذهب عليه عقل المعانى — وكذلك لو كان حافظاً مقصر العقل أو مقصراً عن علم لسان العرب . لم يكن له أن يقيس من قبل نقص عقله عن الآلة التى يجوز بها القياس » . . [1]

الاستحسان :

قال الشافعى : « والاجتهاد لا يكون إلا على مطلوب . والمطلوب لا يكون أبداً إلا على عين قائمة تُطلب بدلالة يقصد بها إليها أو تشبيه على عين قائمة .

وهذا يبين أن حراماً على أحد أن يقول بالاستحسان إذا خالف الاستحسان الخبر والخبر من الكتاب والسنة عين يتأخى معناها المجتهد ليصيبه ، كما البيت يتأخاه من غاب عنه ليصيبه أو قصده بالقياس ، وأن ليس لأحد أن يقول إلا من جهة الاجتهاد . . ولو جاز تعطيل القياس جاز لأهل العقول ، من غير أهل العلم ، أن يقولوا فيما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان . وإن القول بغير خبر ولا قياس لغير جائز . .

(١) وفى كتاب الأم يكرر الشافعى حرية الاجتهاد وحرية الخلاف وينهى عن التقليد . ويلقى الأضواء لتوضيح ميكانيكية القياس والعناصر اللازمة له من الموضوعية والواقعية والمشاهدة والتجربة والانضباط يقول (وإذا قاس من له القياس فاختلفوا وسع كلا أن يقول بمبلغ اجتهاده . ولم يسعه اتباع غيره . فيما أدى إليه اجتهاده بخلافه) .

ويقول (. . . فإن عدم واحداً من هذه الخصال لم يحل له أن يقول قياساً . وكذلك لو كان عالماً بالأصول غير عاقل للقياس الذى هو الفرع ، لم يجز أن يقال لرجل قس وهو لا يعقل القياس ، وإن كان عاقلا للقياس وهو مضيع لعلم الأصول أو شىء منه ، لم يجز أن يقال له قس على ما لا تعلم . . . . . وهو لا يبصر ما قيل له . . . . أو يقال سر بلادا ولم يسرها قط ولم يأتها قط ، وليس له فيها علم يعرفه ولا يثبت له فيها قصد سمت يضبطه . لأنه يسير فيها على غير مثال قويم ، وكما لا يجوز لعالم بسوق سلعة من زمان ثم خفيت عنه سنة أن يقال له قوم . . . . لأن السوق تختلف . اولا لرجل أبصر بعض صنف من التجارات ، وجهل غير صنفه . . . قوم كذا . كما لا يقال لبناء انظر قيمة الخياطة ولا خياط انظر قيمة البناء . .) .

أما الكتاب والسنة فيدلان على ذلك ، لأنه إذا أمر النبي بالاجتهاد . فالاجتهاد أبداً لا يكون إلا على طلب شيء . وطلب الشيء لا يكون إلا بدلائل . والدلائل هي القياس. ولا يجوز أن يقال لفقيه عدل غير عالم بقيم الرقيق : أقم[1] هذا العبد ، ولا هذه الأمة ولا إجازة هذا العامل ، لأنه إذا أقامه على غير مثال بدلالة على قيمته كان متعسفاً .

فاذا كان هذا هكذا فيما تقل قيمته من المال وييسر الخطأ فيه على المقام له والمقام عليه، وكان حلال الله وحرامه أولى ألا يقال فيهما بالتعسف والاستحسان . وإنما الاستحسان تلذذ » .[2] .

الحكم بالظاهر :

– وتقول الرسالة عن الحكم بالظاهر ووجوه القياس (العلم من وجوه : منه إحاطة فى الظاهر والباطن ومنه حق فى الظاهر : فالإحاطة منه ما كان نص حكم لله أو سنة لرسول الله نقلها العامة عن العامة . فهذان السبيلان اللذان يشهد بهما فيما أحل أنه حلال وفيما حرم أنه حرام . وهذا الذى لا يسع أحداً عندنا جهله ولا الشك فيه . وعلم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء ولم يتكلفها غيرهم . . وهى موجودة فيهم أو فى بعضهم بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها . وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه .

وهو الحق فى الظاهر ، كما نقتل بشاهدين . وذلك حق فى الظاهر . وقد يكمن فى الشاهدين الغلط .

وعلم إجماع . وعلم اجتهاد وقياس . . . .) .

– ولا بأس على المجتهد إذا أخطأ فى فهم الظاهر أو خالفه غيره بل ترى الرسالة له أجر اجتهاده . تقول : (وأمرنا بإجازة شهادة العدل . . . . . وليس للعدل علامة تفرق بينه وبين غير العدل فى بدنه ونفسه وإنما علامة صدقه بما يختبر من حاله فى نفسه .

---

(١) قوِّم.

(٢) يقول فى الأم «وإن زعمتم أن واسعاً لكم ترك القياس والقول بما سنح فى أوهامكم وحضر فى أذهانكم واستحسنته مسامعكم حججتم بما وصفنا من القرآن ثم السنة وما يدل عليه الإجماع» ويقول الله عز وجل: أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ فلم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أن السدى الذى لا يؤمر ولا ينهى ومن أفتى أو حكم بما لم يؤمر به فقد أجاز لنفسه أن يكون فى معانى السدى » .

فإذا كان الأغلب من أمره ظاهر الخير قبل . وإن كان فيه تقصير عن بعض أمره . لأنه لا يعرى أحد رأيناه من الذنوب . . وإذا ظهر حسنه فقبلنا شهادته فجاء حاكم غيرنا فعلم منه ظهور السئ كان عليه رده . وقد حكم الحاكمان فى أمر واحد برد وقبول . وهذا اختلاف . ولكن كل قد فعل ما عليه . . . أخبرنا . . عن . . أنه سمع رسول الله يقول : (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر . .) وتقول الرسالة (وأيهما كان فقد فرقوا فيه بين حكم الظاهر والباطن . وألغوا المأثم عن المجتهد على الظاهر وإن أخطأ عندهم . ولم يلغوه عن العامد) .

الفصل الثالث

ناصر السنة

وضع الزنادقة على النبي أنه قال « ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله . فإن وافق كتاب الله فأنا قلته وإن خالف كتاب الله فلم أقله . وكيف أخالف كتاب الله وبه هدانى الله » .

ومجرد عرض هذا الحديث على الكتاب والسنة المجتمع عليها يظهر عواره . فالقرآن يأمر الرسول ويفوضه فى تبليغ الرسالة وبيان أحكامها ، فالسنة بنص القرآن مبيّنة للقرآن فى أحكام الفرائض والعبادات والمعاملات وفى تهذيب البشر . .

وقال قوم من المشككين فى الدين إن الحجة للقرآن وحده ، وليست للسنة . وشرط آخرون أن يكون مع السنة نص قرآن لتكون حجة

وكان هدم القولين أمراً يسيراً بالنسبة للشافعى . فاما أن الحجة للكتاب وحده دون السنة ، أو أن السنة لا حجة لها إلا بالنص معها ، فمؤداه تعطيل النص القرآنى ذاته . . لعدم العمل بالفرائض ، لورودها فى الكتاب أوامر موجزة العبارات ، فى حين وردت السنة تنفيذاً مفصلا لما يجب . وسنة القرآن ، أن ترد النصوص مجملة ، وأن يتولى الرسول البيان . فلو استبعدت السنة لما فصلت أصول الدين . ومن ناحية أخرى فستنفتح الأبواب للاضطراب . فلا تجتمع كلمة المسلمين على أصول دينهم . وذلك أول أغراض المشككين فى الدين بتمامه ، فوق تعطيله لأحكام الكتاب العزيز ، بدعوى أنه وحده مصدر الأحكام[1] .

---

(١) قال ابن حزم (٣٨٤ — ٤٥٦) ولو أن امرءاً قال لا نأخذ إلا ما وجدنا فى القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة . ولكان . . لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر لأن ذلك أقل ما يقع عليه اسم صلاة . ولا حد للأكثر فى ذلك .. ويقول : ولو أن امرءا لا يأخذ إلا بما اجتمعت عليه الأمة فقط أو يترك كل ما اختلفوا فيه مما جاءت فيه النصوص لكان فاسقاً بإجماع الأمة .

يقول الشافعي فيما يقول : « والله قد قرن الإيمان بالإيمان بالرسول وقرن الإيمان باتباع الرسول . . فاتباعه إيمان » . .

ويستشهد بقوله تعالى : « فآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ . واتَّبِعُوهُ » وقوله « إِنَّما المؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ وإذا كانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنوهُ » .

و يقول إن الله فرض على الناس سنة الرسول بما عناه فى الحكمة . والحكمة هى السنة . والحكمة ذكرت بعد القرآن ، فلا بد أن تكون شيئًا غيره . ولا شىء غيره يعلمه الرسول إلا سنة الرسول . . الذى جعل الله الإيمان به مقارنًا للإيمان بالله ، وجعل حكمته مقارنة لكتاب الله .

والمسلمون مأمورون بطاعة الرسول فى سنته لقوله تعالى : « وما كانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لهم الخِيَرَةُ » وقوله « إِنَّما كانَ قولَ المؤْمنين إذا دُعُوا إلىَ اللهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولوا سَمِعْنا وأَطَعْنا » .

ولقد أُمر الرسول أن يبلغ الرسالة ويبين الشريعة والوحى ، والتبليغ بإقراء القرآن وبيان النبى : فالشريعة هى القرآن و بيانه عليه السلام . قال تعالى :

« يا أَيُّها الرَّسُولُ بلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

والسنة لا تأتى بحكم ليس له أصل فى القرآن . فهو مصدر الشريعة . وهى مبينة لها . وكما يقول الشافعي عن الرسول « فما أحل وحرم فإنما بين عن الله . كما بين الصلاة» .

* * *

ورأى الشافعي أن النسخ يكون فى الكتاب ويكون فى السنة . وأن القرآن ينسخه القرآن ، ولا يمكن أن تنسخ السنة حكم القرآن لأنه « لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه . كما كان المبتدئ لفرضه فهو المزيل المثبت لما شاء منه ، جل ثناؤه ، ولا يكون ذلك لأحد من خلقة » .

ورأى أن السنة تبين نسخ القرآن كما تبين القرآن . ويرى أن السنة تنسخها السنة ، ولا ينسخها إلا السنة ، حتى القرآن لا ينسخها إلا ببيان من السنة ذاتها ،

لأنها مبينة دائمًا للقرآن . وأولى أن يظهر ما ينسخ من السنن بسنن أخرى . ولو خالف نص القرآن سنة، دون أن تجاريه سنة جديدة، لعمل بنص القرآن . وبذلك ترد سنن وأحاديث كثار دون أن نأمن العثار .

ولقد بينت السنة دائمًا النسخ الذى وقع فى الكتاب أو فى السنن . يقول الشافعى : « ولو نسخ الله حكمًا مما قال لسن رسول الله فيما نسخه سنة . ولو جاز أن يقال قد سن رسول الله سنة ثم نسخ سنته بالقرآن، ولا يؤثر عن رسول الله السنة الناسخة، جاز أن يقال فيما حرم رسول الله من البيوع كلها : قد يحتمل أن يكون حرمها قبل أن ينزل عليه « وأحل الله البيع وحرم الربا » وفيمن رجم من الزناة قد يحتمل أن يكون الرجم منسوخًا لقول الله : « الزانِيَةُ والزَّانِي فاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مائَةَ جَلْدَةٍ » . . وجاز أن يقال . . ولجاز رد كل حديث عن رسول الله بأن يقال : لم يقله ، إذا لم يجده مثل التنزيل . . »

ولولا وضوح البيان فى النسخ لوقع شر مستطير .

دخل أمير المؤمنين علىّ المسجد الجامع بالكوفة فرأى رجلا يتحلق الناس حوله وهو يخلط الأمر بالنهى والإباحة بالحظر . قال على : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال لا . قال هلكت وأهلكت . .

قال حذيفة بن اليمان : لا يقصن على الناس إلا ثلاثة : أمير ، أو مأمور ، أو رجل عرف الناسخ والمنسوخ . والرابع متكلف أحمق .

ولقد اختلف ابن عباس نفسه مع أستاذه على بن أبى طالب . قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس : ألمن قتل مؤمنًا متعمداً من توبة ؟ قال لا . فتلوت عليه الآية التى فى الفرقان . قال هذه آية مكية نسختها آية مدنية « ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » . ومع قول ابن عباس فقد أجمع المفسرون لقوله تعالى : « ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالدًا » أجمعوا على نسخها ، إلا عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ، قالا إنها محكمة . .

قيل ناظره على كرم الله وجهه قال : من أين لك أنها محكمة ؟ قال ابن عباس : تكاثف الوعيد فيها . . قال على : إن الله نسخها بآيتين . آية قبلها وآية بعدها فى

النظم : الأولى قوله تعالى « إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ومَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً » وأما التى بعدها فى النظم فهى قوله تعالى «إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ومَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا » . ويقول المفسرون كذلك إنها نسخت بقوله تعالى : «والَّذِينَ لا يَدعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلا بِالحَقِّ» إلى قوله «ويُخْلُد فِيهِ مُهاناً » ثم استثنى بقوله «إلا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالِحاً » .

* * *

أما القول بوجوب تواتر السنة لتكون حجة ، فللشافعى فى نقضه أثر من أبعد آثاره . فلقد ضيق التردد فى تلقى أخبار الآحاد دائرة الأخذ بالحديث . ومن ذلك إيجاب البعض تواتر الحديث : ترويه جماعة عن جماعة — بحيث يؤمن تواطؤ كل جماعة على الكذب — وعدم قبول خبر الواحد فيما يكثر وقوعه وتعم به البلوى ، وتقديم القياس الجلى على خبر الواحد ، وإشتراط عمل راوى خبر الواحد به دفعاً لمظنة نسخه . ومن المترددين كثيرون لم يصل إليهم ، أو يثبت لديهم ، كثير من أحاديث الآحاد . كما كان شأن أهل الكوفة . ومع أن أبا حنيفة رضى الله عنه لم يكن « يتيماً » فى الحديث أو قليل البضاعة منه كما زعم شانئوه ، بل عده البعض فى ثبت الحفاظ . جمع له تلاميذه بضعة عشر مسنداً ، منها مسند « ابن عقدة » ، يزيد — وحده — على ألف حديث . وكان يأخذ بأخبار الآحاد ، ويقبل مراسيل الثقات ، ويعرض خبر الآحاد على عمومات الكتاب والسنة المشهورة ، فإذ خالفهما عمل بهما أخذاً بأقوى الدليلين ، كما يرده إذا خالف العمل المتوارث أو يأخذ بالأخف فى العقوبات .

ولقد قدم أبو حنيفة أحاديث قيل إنها ضعيفة على القياس . مثل أخذه بحديث القهقهة فى الصلاة ، وحديث الوضوء بنبيذ التمر فى السفر ، وحديث قطع السارق فى أقل من عشر دراهم ، وحديث جعل أكثر الحيض عشرة أيام ، وحديث اشتراط المصر لإقامة الجمعة ؛

لكن من المحدثين فى عصره من أخذ عليه تركه لبعض الآثار التى صحت عندهم .. وهى لم تكن تصح عنده وفقاً لشروطه لقبول الأخبار .

أيناً ما كان الأمر ، فإن انطلاق مدرسة العرق فى اجتهاد الرأى والقياس والاستحسان ، وتشددها لقبول الرواة والروايات بحديث الآحاد ، قد تعدى الحدود لدى أهل الحجاز[1] . كما أثار الخطر على السنة صعود تيار المعتزلة والمتكلمين ، وتشكيك المشككين والزنادقة وأعداء الدين ، وقيام طوائف أخرى باختراع الأحاديث . فتعددت مهابّ الخطر على السنة فى نصها وتخريجها والعمل بها .

وفى الوقت ذاته كان مالك فى المدينة يقول : إن إجماع أهل المدينة على عمل واتفاق علمائها أقوى من القياس الصحيح — وإن عملهم يرجح خبر الواحد . . . ولقد بويع مالك على أنه « أحفظ أهل زمانه » وألف « الموطأ » من ١٧٢٠ حديثاً فى أبواب العلم المختلفة ، يجىء فى كل باب بما يتعلق به من أحاديث عن النبى ومنها المرسل ، وآثار الصحابة والتابعين ، وكثرتهم من المدينة .

لم يجلس الشافعى للحديث كما يجلس المحدثون . ولا عنى بجمع الآثار والأخبار لمجرد جمعها . وإنما طلب الأحاديث لتكون نواة للفقه . وكان من أبرز عمله الذى نصر به السنة إثبات القوة للسنة كأصل مبين ومفصل ومكمل ، وإثباتها للآلاف من الأحاديث لتكون مصادر للفقه . فوسع القاعدة للاحتجاج بالسنة .

وبهذا ، كان جديراً بلقبه عند المسلمين : « ناصر السنة » ، أو « ناصر الحديث » . وتحققت نبوءة محمد بن الحسن : إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعى .

والذى انتهى إليه فى هذا الشأن ، وليد حياته التى حييها فى القرآن والسنة بمكة والمدينة حيث النصوص المقدسة ، والسيرة العطرة ، هى الهواء الذى يتنفسه الناس .

يمكن إجمال رأى الشافعى فى أن الحديث متى صح بالسند المتصل إلى النبى ، وجب العمل به ، من غير تقييده بموافقة عمل أهل المدينة كما يشترط البعض[2] ، أو بالشروط

(١) ناقش الشافعى فى الأم ، الموضوع . ومن المناقشات بابان فى جماع العلم « باب حكاية الطائفة التى ردت الأخبار كلها » و « باب حكاية من رد خبر الخاصة » وكتاب اختلاف مالك فى جملته انتصار للسنة على العموم وخبر الواحد على الخصوص .

(٢) يقول الشافعى فى كتاب اختلاف مالك «إن الحديث إذا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم =

الكثيرة التي يقيده بها البعض الآخر . وبهذا اتسعت دائرة العمل بالسنة من أخبار الآحاد .

وقد أوردنا حججه فى هذا الشأن من قبل وأوردنا شروطه فى الرواة . والراوى الفرد أقرب إلى الدقة من الشاهد الفرد ، إذ المرء وهو يروى عن الرسول يكون فى تمام صحوه وعُظم احتراسه ، فقد قال « من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار » .

وكما يقول الشافعى « وللناس حالات تكون أخبارهم فيها أصح واحرى أن يحضرها التقوى منها فى أخرى . ونيات ذوى النيات فيها أصح وفكرهم فيها أدوم ، وغفلتهم أقل : وتلك عند الموت بالمرض والسفر ، وعند ذكره ، وغير تلك الحالات من الحالات المنبهة عن الغفلة . ولا شك أن من أعظم هذه الحالات الرواية عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه » .

وهو يحصر عمل خبر الواحد فيما هو دون الاعتقاد ، إذ ليس له قوة السنة المجمع عليها ، فهى كالكتاب العزيز قطعية الثبوت ، فمن شك فيهما خرج عن الإسلام ، أما خبر الواحد فقد جاء عن طريق الانفراد ، و « لو شك شاك فى هذا لم نقل له تب ، بل نقول : ليس لك إن كنت عالماً أن تشك ، كما ليس لك إلا أن تقضى بشهادة الشهود العدول ، وإن أمكن فيهم الغلط . ولكن تقضى بذلك على الظاهر من صدقهم . . » .

وتقول الرسالة : « يحكم بالكتاب والسنة المجتمع عليها ، الذى لا اختلاف فيها ، فنقول لهذا حكمنا بالحق فى الظاهر والباطن . ويحكم بالسنة قد رويت من طريق الانفراد ، لا يجتمع الناس عليها ، فنقول حكمنا بالحق الظاهر لأنه قد يمكن الغلط فيمن روى الحديث . ونحكم بالإجماع ثم القياس . وهو أضعف من هذا ، ولكنها منزلة ضرورة ، لأنه لا يحل القياس والخبر موجود . كما يكون التيمم طهارة فى السفر عند الإعواز من الماء ،

= لم يكن فى أحد بعده حجة او جاء عنه شىء يخالفه » .

ويقول « لو احتج علينا بأنه لم يرو عن أبى بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على قول ولا قضاء يوافق هذا استغنينا بالخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عما سواه » .

ويقول « . . . فكانت حجتى عليه أن قلت : الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتة . . وما ثبت عن رسول الله لم يوهنه أن لا يوجد عند غيره . ولم يتأول معه قرآن ولم يدفعه أن أنكره عروة وابن شهاب وعطاء . لأنه ليس فى الإنكار حجة . وإنما الحجة فى الخبر لا فى الإنكار . »

ولا يكون طهارة إذا وجد الماء ، إنما يكون طهارة فى الإعواز» .

* * *

والإجماع حجة عند الشافعى بعد الكتاب والسنة وقبل القياس .. فالرسول يقول «لا تجتمع أمتى على ضلالة» .

يقول الشافعى رداً على سؤال «فهل من إجماع ؟» «نعم بحمد الله كثير فى جملة الفرائض التى لا يسع جهلها . فذلك الإجماع هو الذى لو قلت أجمع الناس لم تجد حولك أحداً يعرف شيئاً يقول لك ليس بإجماع» و«لست أقول ولا أحد من أهل العلم : هذا مجتمع عليه إلا لما لاتلقى عالماً أبداً إلا قاله لك. وحكاه عمن قبله: كالظهر أربع وكتحريم الخمر وما أشبه ذلك» .

وهو إجماع خاصة الناس لا كل الناس . وبالتحديد أن يجتمع علماء العصر على أمر . فيكون إجماعهم حجة فيما اجتمعوا عليه .

والإجماع السكوتى ليس إجماعاً . . يقول فى الرسالة «ولا ينسب إلى ساكت قول قائل ولا عمل عامل . وإنما ينسب إلى كل قوله وعمله . وفى هذا ما يدل على أن ادعاء الإجماع فى كثير من خاص الأحكام ليس كما يقول مدعيه» .

وهكذا تقل المسائل المجمع عليها فلا تكاد تظهر إلا كما يقول الشافعى «فى جملة الفرائض التى لا يسع أحداً جهلها . . وفى أشياء من أصول العلم دون فروعه . . » .

أول إجماع يعتبره الشافعى هو إجماع الصحابة على ما اجتهدوا فيه لأننا «نعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة الرسول ولا على خطأ إن شاء الله» .

ولا يرى الشافعى إجماع أهل المدينة إجماعاً . وإنما هو رأى بعض العلماء . وتكاد لا توجد مسألة فقهية ادُّعى بإجماع أهل المدينة فيها إلا كان عند الشافعى من العلم بأخبار علمائها ما أوجد عنده فيها خلافاً لما سموه الإجماع . فالإجماع كما يقول : «لا يوجد بالمدينة إلا وجد بجميع البلدان عند أهل العلم متفقين فيه» فلا حجة لإجماع أهل المدينة بل الحجة لإجماع أهل العلم وهم منهم [١] .

---

(١) يقول فى اختلاف مالك «ولا تدعوا الإجماع أبدا إلا فيما لم يوجد بالمدينة فيه اختلاف . وهو لايوجد بالمدينة إلا وجد بجميع البلدان عند أهل العلم متفقين فيه. لم يخالف أهل البلدان أهل المدينة إلا ما اختلف

يقول: « إن من أهل مكة من كان لا يخالف قول عطاء . ثم أفتى الزنجى بن خالد فكان منهم من يقدمه فى الفقه ومنهم من يميل إلى قول سعيد بن سالم . وأصحاب كل واحد من هذين يضعفون الآخر . . » ويقول « إن أهل المدينة كانوا يقدمون سعيد بن المسيب ثم يتركون بعض قوله ثم حدث فى زماننا منهم مالك . كان كثير منهم يقدمه ، وغيره يسرف عليه ويضعف مذاهبه . وقد رأيت ابن أبى الزناد يجاوز القصد فى ذم مذاهبه » ويقول « رأيت بالكوفه قوماً يميلون إلى قول ابن أبى ليلى يذمون مذاهب أبى يوسف وآخرين يميلون إلى قول الثورى وآخرين إلى قول الحسن بن صالح .. »[1] ؛

وأما عمل أهل المدينة ، فما قلدوا فيه النبى فحجته أنه السنة ، وما اجتهدوا فيه رأيهم فعملوه ، فهو اجتهادهم .

أما حقهم أو حق بلدهم ففيه يقول الجاحظ : « . . إن عظم حق البلدة لا يحل شيئاً ولا يحرمه . وإنما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق والسنة المجتمع عليها والعقول الصحيحة فى المقاييس المعينة . . »

وظاهر من كتاب الليث الذى نقلنا فقرات منه قبلُ ، أنه لا يسلم باتباع إجماع المدينة على الوجه المرجو لديه من مالك .

= فيه أهل المدينة بينهم » .

ويقول فى باب جماع العلم ، عائباً دعوى الإجماع هذه : « إنما عبناه أنا نجد فى المدينة اختلافاً فى كل قرن فيما يدعى فيه الإجماع » .

ويقول « . . لأن الإجماع فى علم الخاصة ، إن لم يوجد فى فرقة كان أن يوجد فى الدنيا أبعد »

(١) خذ مثلا من المجادلات الكبيرة لأهل المدينة فى كتابه اختلاف مالك . يقول الربيع « فقلت للشافعى هل رويتم فى المستحاضة عن « صاحبنا » شيئاً غير هذا ؟ فقال نعم شيئاً عن سعيد ابن المسيب شيئاً عن عروة ابن الزبير . . أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه . قال مالك : الأمة عندنا على حديث هشام بن عروة فقلت للشافعى فإنا نقول بقول عروة وندع قول ابن المسيب . فقال الشافعى أما قول ابن المسيب فتركتموه كله ثم ادعيتم قول عروة وانتم تخالفونه فى بعضه فقلت وأين ؟ قال . . . فخالفتم الأحاديث التى رواها صاحبنا وصاحبكم عن النبى صلى الله عليه وسلم وابن المسيب وعروة . وأنتم تدعون أنكم تتبعون أهل المدينة وقد خالفتم ما روى صاحبنا عنهم كله . إنه لبين فى قولكم أنه ليس أحد أترك على أهل المدينة لجميع أقاويلهم منكم . ثم ما أعلمكم ذهبتم إلى قول أهل بلد غيرهم . فإذا انسلختم من قولهم ، وقول أهل البلدان ، وما رويتم وروى غيركم والقياس والمعقول ، فأى موضع تكونون به علماء . وأنتم تخطئون مثل هذا وتخالفون فيه أكثر الناس » .

القياس — والاستحسان والمصلحة :

انطلق القياسون من مدرسة العراق إلى حدود باعدت بينهم وبين أهل الحديث فتوسعوا فى التفريع ، استعداداً للبلاء قبل نزوله كما كانوا يعبرون . وعرفوا « بالأرأيتيين » من قولهم أرأيت لو حدث كذا وكذا ؟.. سأل مالكا تلميذ بقوله : أرأيت لو كان كذا ؟.. قال مالك مغضباً . هل أنت رأيت الأرأيتيين ؟ .

اجتمع أصحاب أبى حنيفة فى أثناء غيبته واستقروا فى مسألة على رأى . فلما عاد سألوه فأجاب بغير ما انتهوا إليه فتصايحوا معترضين . فناظرهم حتى غلبهم فأذعنوا لرأيه . قال : فما تقولون فيمن يزعم أن هذا خطأ والأول خطأ ؟ فاستمعوا . واخترع قولا ثالثاً أذعنوا له .. قالوا : يا أبا حنيفة علمنا .. قال الصواب هو الرأى الأول .. والمسألة لا تخرج عن هذه الأنحاء الثلاثة ، ولكل منها وجه فى الفقه ، وهذا هو الصواب فخذوه (١) .

وجدت التخريجات الشتى ، كهذه الأنحاء الثلاثة فى مسألة ، ووجدت تيارات فكرية شتى ولدتها الفرق والمذاهب التى ألمعنا إليها قبل ، وكان لزاماً أن يأتى الشافعى بضوابط للاجتهاد الذى يوجبه إيجاباً ويسميه القياس .

يقول الشافعى « كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم » ويقول « الخبر عين يتأخى معناها المجتهد ليصيبه » ويعتبر القياس اتباعاً للنص .

والقياس من وجهين — كما يقول — أحدهما أن يكون الشىء فى معنى الأصل فلا

---

(١) كانت المناقشة وسيلتهم لتخريج المسائل وكانوا يفتحون صدورهم للسائل ، ولو كان إمعة : سأله رجل متى يحرم الطعام على الصائم ؟

قال : إذا طلع الفجر . قال السائل : فإن طلع نصف الليل ؟ قال أبو حنيفة قم يا أعرج . . وهذا وجه آخر للمسألة :

قال أبو يوسف لرجل يطيل الصمت فى مجلسه : الا تتكلم ؟

قال : بلى : متى يفطر الصائم ؟

قال : أبو يوسف : إذا غابت الشمس .

قال : فإن لم تغب إلى نصف الليل .

قال أبو يوسف : أصبت فى صمتك وأخطأت أنا فى استدعاء نطقك .

يختلف القياس فيه — وأن يكون الشيء له فى الأصول أشباه . فذلك يلحق بأولاها به وأكثرها شبهاً فيه . . .

وليس خلاف المجتهدين مذموماً ، ما دامت شروط الاجتهاد قد كملت للقائسين .

ويمكننا بإجمال القول إن المصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب وسد الذرائع تدخل فى عموم كلمة الرأى (القياس أو الاجتهاد) .

* * *

يقول الشافعى فى الاستحسان : أفرأيت إذا قال الحاكم والمفتى فى النازلة ليس فيها نص خبر ولا قياس : استحسن . فلا بد أن يزعم أن جائزاً لغيره أن يستحسن خلافه، فيقول كل حاكم فى بلد ومفت بما يستحسن . فيقال فى الشيء الواحد بضروب من الفتيا .

تقول الرسالة « لا يجوز لأحد أن يقول بالاستحسان . ولو جاز تعدى القياس وتعطيله إلى الاستحسان ، جاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يقولوا فيما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان . والاستحسان . تلذذ » ويقول « من استحسن فقد شرع » .

يحمل العلماء مقالة الشافعى ضد الاستحسان — على أنه الاستحسان بالهوى دون سند شرعى — فلا ينطبق على مثل استحسان أبى يوسف أن يستدعى الحاكم البينة على مرتكب الجناية ، ولو شهدها الحاكم بنفسه ، لأنه بلغه قول أبى بكر : (او رأيت رجلا على حد من حدود الله ما أخذته ولا دعوت له أحداً حتى يكون معى غيرى) وهذا الاستحسان القديم من أبى يوسف هو المبدأ الذى استنبطه الأوربيون فى القرن العشرين أن : (لا يقضى القاضى بعلمه) ، كما لا ينطبق على ما فيه ضرورة ، تبيح المحظور . ولا على ما يراه المسلمون مصلحة ، لا ينفى تحقيقها نص . ولا على ما يأذن به العرف الشرعى أو المصلحة الشرعية .

الاستحسان فى واقع الأمر عدول من المجتهد عن الحكم فى المسألة بمثل ما يحكم به فى نظائرها إلى غيره ، لدليل أقوى يقتضى العدول عن الدليل الأول المثبت لحكم هذه النظائر . رجوعاً إلى ما علم من قصد الشارع فى أمثال الأشياء المعروضة . فهذا استدلال بأمر معلوم من الشريعة . ومسائل الاستحسان — على الجملة — مسائل خرجت عن حكم نظائرها ، سواء بنص الشارع كما فى المستثنيات بنص ، أو باتفاق المجتهدين ، أو برأى مجتهد بذاته تبعاً للمصلحة ، اعتماداً على دليل يعارض القياس أو قياس خفى غير القياس الجلى ،

أو فى تعبير وجيز : تخصيص قياس بدليل أقوى منه أو عدول عن قياس لقياس أقوى منه .

والمالكية يفتحون الباب واسعاً تحت عنوان المصالح المرسلة . وتوسيع الحنفية باب الاجتهاد إنما هو عودة إلى الأصول العامة فى الدين يتحراها المجتهد .. فهذه هى المنطقة المطلقة ، قد فتحها الله لعباده جيلا بعد جيل ، متأدبين بأدبه العظيم وسنن رسوله الكريم .

والشافعى يقول فى الرسالة : « فإن القول بما استحسن شىء يحدثه ، لا على مثال سبق . » . فالاستحسان المنهى عنه عنده هو أن يحدث القائس شيئاً ليس له مثال سبق . فإذا شفعت له مُثل سابقة بررته . .

وكل تعويل على الأصول من آيات الكتاب أو السنن ، اتباع للكتاب والسنة ، وعمل إسلامى لغاية إسلامية .

* * *

والمصالح المرسلة هى المصالح التى يبيحها العقل ولا يأباها الشرع ، فلا يشهد لها أو ضدها أصل شرعى ، ولكنها تحقق مصلحة أذن الله بها ، فالاجتهاد فى خدمتها واجب شرعى . والشافعى هو القائل : إن لله فى كل واقعة حكما معيناً على المجتهد طلبه والعمل به . ولما قال مالك إن الاستحسان تسعة أعشار العلم . كان يقصد هذه المصالح المرسلة .

ومن الحنابلة من يخصص نصوص القرآن والسنة بالمصالح فى المعاملات ، لا العبادات .

وما دامت المصالح يتلقاها العقل بالقبول ، ولا يشهد أصل خاص من الشريعة بإلغائها ، فكل نصوص الشريعة تعمل فى هذا الباب : لترفع المعاملات اليومية إلى مستوى المعاملات الخلقية العالية لحفظ النفس والنسل والدين والعلم والمال والعقل . فإذا كان المستحسنون أو المستصلحون فيما يستنبطونه لخدمة الجماعة الإسلامية موافقين لأصول الإسلام وأغراضه ، فى الكتاب والسنة وإجماع العلماء ، فلا عليهم .

وآية الحنيفية السمحة أنه ليس فى القرآن ولا السنة نصٌ غير موافق للمصالح التى تنجم للناس . والله تعالى يقول :

« وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ورسوله الكريم يقول : « لا ضرر ولا ضرار » ويقول « يسِّروا ولا تعسِّروا . وَبشِّروا ولا تُنفِّروا » .

كانت لمالك فى الأخذ بالمصلحة تطبيقات معلمة ، منها إجازة البيعة إذا خيف اضطراب الأمر ، لشخص يوجد من هو أولى منه بالخلافة . ومنها فرض الفرائض على الأغنياء فى أوقات حصاد الغلات وجنى الثمار ، لسد حاجة بيت المال إذا خلا من المال ، أو ارتفعت حاجات الجهاد . ومنها إباحته لمن وجد فى بلد لا تقام فيه الشريعة ، ويُعمل فيه بالحرام ، ولم يستطع تغيير الحال أو الانتقال إلى أرض تقام فيها الشريعة ، ويسهل الكسب الحلال ، أن ينال كارها من المكاسب الخبيثة دفعاً للضرر ، كمثل ما يباح أكل الميتة ولحم الخنزير اضطراراً .

وكثيراً ما نجد الفقهاء المالكية يمثلون بأمثلة للاستحسان مرة وللمصالح أخرى ، فيسمونها استحساناً لخروجها من عموم الدليل ، ويسمونها مصلحة مرسلة باعتبار أنها لم يرد فيها نص معين .

يقرر الإمام الجوينى[1] إمام الحرمين (ذهب الشافعى ومعظم أصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه إلى اعتقاد الاستدلال وإن لم يستند إلى حكم متفق عليه فى أصل ، ولكنه لا يستجيز النأى والبعد والإفراط ، وإنما يسوغ تعليق الأحكام بمصالح شبيهة بالمصالح المعتبرة وفاقا ، وبالمصالح المستندة إلى أحكام ثابتة الأصول ، قارة فى الشريعة . : والمذهب . . . المعروف من مذهب الشافعى : التمسك بالمعنى وإن لم يستند إلى أصل ، على شرط قربه من معانى الأصول الثابتة) .

وابن تيمية يقول (الشارع لا يحظر على الإنسان إلا ما فيه فساد راجح أو محض فإذا لم يكن فيه فساد أو كان فساده مغموراً بالمصلحة لم يحظره أبداً) .

ومن كبار الفقهاء من أرجع الاعتراض على المصالح المرسلة إلى أسباب سياسية : يقول القرافى (٦٨٤) : (وإنما فرّ أكثر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريراً صريحاً مع اعتبار كلهم له ، خوفاً من اتخاذ أئمة الجور إياه حجة لاتباع أهوائهم وإرضاء استبدادهم فى أموال الناس ودمائهم . فرأوا أن ينفوا ذلك بإرجاع جميع الأحكام إلى

---

(١) أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله الجوينى (٤١٩ — ٤٧٨) أستاذ الغزالى . جلس للتدريس مكان أبيه وهو ذ. العشرين . ثم خرج إلى مكه مجاورا أربع سنين . ثم عاد إلى نيسابور فبنى له نظام الملك المدرسة النظامية . وكان يحضر درسه أكابر العلماء يتلقون عليه مذهب الشافعى .

النصوص، ولو بضروب من الأقيسة الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلة من أدق مسالك العلة فى القياس . ولم ينيطوها باجتهاد الأمراء والحكام . وهذا الخوف فى محله . ولكن لم يق الأمة من أهواء الحكام كما ينبغى . إذ كان يوجد فى عهد كل ظالم من علماء السوء من يمهد له . ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى) .

والوقوف عند النص فى العبادات واجب بإجماع .

ومن المصالح مالا يتغير بتغير الأزمان مثل تحريم الظلم والقتل والسرقة .

ومن المسلم أن التشريع كان ينزل تبعاً للحوادث والمناسبات يراعى فيه التدرج . وكثيراً ما حدث نسخ الأحكام . ومعنى هذا وجوب أن يلاحظ الحكام والقضاة مقتضيات الأحوال .

إن عمر نفسه قدم الشام فوجد معاوية قد اتخذ الحجاب وسلك مسالك الملوك فسأله فأجاب : إنا بأرض نحن محتاجون فيها لهذا . فقال له آمرك ولا أنهاك . أى تركه وشأنه : ووقف عمر تنفيذ حد السرقة فى عام المجاعة استصلاحاً ، وورث زوجة المطلق الفارّ من توريثها استصلاحاً ، وجمع أبو بكر القرآن فى مجموعة واحدة استصلاحاً .

قالوا خالف مالك أبا بكر فى خمس قضايا وخالف عمر فى نحو ثلاثين . . ولا شك أنه اختلاف من أثر اختلاف الزمان . . . ذلك قول الشاطبى (إن اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد ليس فى الحقيقة باختلاف فى أصل الخطاب وإنما معنى الاختلاف أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى أصل شرعى يحكم به عليها) .

ولقد استطاع المسلمون بالنصوص العامة والخاصة من الكتاب والسنة ، وبضروب القياس ، أن يقعدوا القواعد الفقهية التى جعلت شريعتهم عصرية فى كل عصر . ومنها الانفتاح نحو المستقبل نقيضاً للانغلاق على الماضى ، وأنه لا ينكر تغير القضاء بتغير الوقائع . وأن التصرف على الرعية منوط بالمصلحة . وأن المشقة تجلب التيسير . والضرورات تبيح المحظورات . وإزالة الضرر الأشد بالضرر الأخف . فذلك أهون الضررين . ودرء المفاسد أولى من جلب المنافع . والحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة أو خاصة . والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً . وكل ما ورد فى الشرع مطلقاً يرجع إلى العرف . ولا ضرر ولا ضرار فى الإسلام . والعبرة فى العقود بالمقاصد والمعانى لا بالألفاظ والمبانى . والغرم بالغنم : بمعنى أن من ينال نفع شيء يتحمل ضرره .

وليست هذه مقولات نظرية فى الشريعة ، أو أصولا لم تطبق إلا فى القرون الأولى ، بل قد تضمنتها « الأحكام العدلية » التى كان معمولا بها فى الدولة العثمانية فى تسع وتسعين مادة تتصدر تقنيناً مدنياً عصرياً منقولا كله من الشريعة . جمعه العثمانيون وأصدروه من مائة عام تماماً فى سنة ١٢٨٦ هجرية فى ١٥٨١ مادة بدأ العمل بها فى سنة ١٢٩٣ ﻫ ولم يتوقف العمل بها إلا بعد سنة ١٩٢٢ م فى تركيا .

والشريعة اليوم مطبقة فى الدول الإسلامية جميعها فى العبادات وفى الأحوال الشخصية من قوانين الأسرة والميراث والزواج والطلاق والبنوة والميراث والنفقة والحضانة وما إليها مما يهم الإسلام ، ويهم المجتمع فى المقام الأول ، بل إن التشريعات فى نصوص قوانين الأمم العربية التى نقلت قوانينها المدنية عن الغرب ، تجعل الشريعة مصدراً من مصادر القانون عند تخلف النصوص .

الفصل الرابع

المنهج العلمى
أو
المنهج الفقهى

منهج القرآن فى بيان الأحكام :

القسم الأول

وبعد ــ فلقد أعلن الشافعى فى الرسالة أن « كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم . أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة » .

والاجتهاد فى الفقه واجب عنده . وليس لقدرة أدلة الأحكام ومرونتها فى الاستنباط حدود ... وما تناوُش المتفقهين فى الأدلة إلا تناوش فى المقولات الفنية ... وكل يعمل على شاكلته . فالذين يعترضون على الاستحسان أو الاستصلاح أو القياس يصلون إلى الحكم اللازم بضروب أخرى من الاستدلال .

يقول ابن القيم : (والأصل فى العقود والمعاملات الصحة حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم . . . فإن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه . . وما سكت عنه فهو عفو ، فكل شرط ، وعقد ومعاملة سكت عنها فإنه لا يجوز القول بتحريمها . فإنه سكت عنها رحمة من غير نسيان أو إهمال) .

وليس بخاف سبب اقتدار الشريعة على تخريج الأحكام لكل ما ينزل بالمسلمين فهى منزّلة من السماء ، مزوّدة بأسباب البقاء . مقدور لها الخلود ، بخصائص العالمية والأبدية والسمو . فلا تنقص ولا تزيد . « صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ » فاقتصرت النصوص على الأسس التى تقوم عليها الأحكام ، مع الاتجاه إلى التحديد ، بالتفصيل القليل ،

فى العبادات . مثل الصلاة والزكاة والحج — وهى قليلة التكاليف — وما يلحق بها من المواريث والزواج والطلاق وما إليها . إذ هى ليست بحاجة للتطور . فهى علاقة الله بالناس وأصل الجماعة الإسلامية . أكملها أصولا وفروعاً ، بنصوص القرآن والسنة ، فلم يبق لبشر بعد الرسول أن يقول فيها برأى أو تأويل .

وفيما عدا ذلك اتجهت النصوص اتجاه الإيجاز المفتوح نحو المستقبل . لتسع التغيير والتطور . تبعاً لحاجات مختلف البيئات فى كل عصر — فبينت الأصول وما مست إليه الحاجة فى شئون الحياة ، مثل بعض المعاملات ونظم الحكم وشئون الحرب . وكان من إعجاز القرآن أن تتفق النصوص الموجزة مع مصالح الجنس البشرى فى كل زمان ومكان ، فيكون أولو الأمر فى سعة من أمرهم . يفرعون ويفصلون حسبما يلائم أحوالهم .

خذ مثلا الأحكام الدستورية : يكتفى القرآن فيها بأسس ثلاثة يأمر بها الدولة . وهى العدالة والشورى والمساواة . وفيما عدا ذلك ترك للأجيال تقدير ما يلائمها لتحقيق الحكم الصالح ، مع التنبيه على ضرورات الجهاد ونفقاته ومسئولية الفرد عن الجماعة .

أما عن العدالة فى الداخل والخارج فأمثالها تترى : سجل خالد فى معاهدة له مع أهالى المدن المجاورة للحيرة (فإن منعناكم فلنا الجزية . وإلا فلا) ورد أبو عبيدة بن الجراح الجزية حينما بلغه أن الروم قد جمعوا له . وكلف عماله أن يقولوا لهم (إننا رددنا أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجمع .. وإنا لا نقدر .. ونحن لكم على الشرط) — ذلك فى الخارج . ومثله فى الداخل : يغضب على إذ يميزه عمر من خصمه فى مجلس القضاء حين يناديه : يا أبا الحسن . ويتحاكم ، وهو خليفة ، إلى القاضى مع يهودى على درعه . ولا تكون له بينة فيخسر الدعوى ، فيسلم اليهودى الذى يعرف أن الدرع لعلى . . إذ تهديه آية العدل فى القضاء .

وأما عن الشورى : فكان الرسول يستشير فيما لم ينزل فيه تشريع لقوله تعالى :
تعالى : « وشاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ » وقوله « وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

قال له على : يا رسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن . ولم تمض فيه منك سنة . ؟ قال : « اجمعوا له العالمين من المؤمنين . فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد » .

وكان يقول : « ما شقى امرؤ عن مشورة . ولا سعد باستبداد برأى » استشار فى أسارى

بدر، أبا بكر وعمر، وأخذ برأى أبى بكر ولم يأخذ برأى عمر . ونزل القرآن بموافقة عمر .

وصار الأمر للخلفاء الراشدين — وقد طالما اشتوروا — كمثل ما اشتوروا فى حد الخمر، وأخذوا فيه برأى على . قال : إذا شرب سكر — وإذا سكر هذى — وإذا هذى افترى — فحدوه حد المفترى .

وكان الأمر ينزل ليس فيه نص كتاب أو سنة ، فيخرج أبو بكر فيسأل المسلمين ، فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر قضاء لرسول الله — فإن أعياه أن يجد فيه سنة ، جمع رؤوس الناس وخيارهم ، فإن أجمع رأيهم على شىء قضى به .

وكان عمر إن أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نظر : هل كان لأبى بكر قضاء ، وإلا دعا رؤوس الناس ، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به . . وكان مع فقهه يقول : ادعوا لى عليًا . . . ادعوا لى زيداً . . . فكان يستشيرهم . ثم يقضى بما يتفقون عليه . وربما يتأمل فى ذلك شهراً عملا بقول الرسول « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » .

قال له عثمان يومًا : « إن تتبع رأيك فرأيك أسد ، وإن تتبع رأى من قبلك فنعم ذلك الرأى كان » .

استدعى امرأة فأجهضت ما فى بطنها ، بفزعها ، قال له عثمان وعبد الرحمن بن عوف : إنما أنت مؤدِّب — لا نرى عليك شيئًا . لكن عليًا قال له : (إن كانا قد اجتهدا فقد أخطآ ، فإن لم يجتهدا فقد غشاك . أرى عليك الدية) أو قال (أما المأثم فأرجو أن يكون منحطًا عنك . وأرى عليك الدية) فقال عمر : عزمت عليك ألا تبرح حتى تضربها على بنى عدى . يعنى قومه . . .

وكان عمر مجتهداً يعطى الاجتهاد حقه — لقيه رجل قال : جئت من عند على وقد قضى بيننا بكذا . فقال لو كنت أنا الذى يقضى لقضيت بخلاف هذا القضاء . قال الرجل : ما يمنعك وأنت أمير المؤمنين ؟ قال لو كنت أردك إلى كتاب الله وسنة رسوله لفعلت . ولكنى أردك إلى رأيى . والرأى مشترك .

وقال على فى أمهات الأولاد (اتفق رأيى ورأى عمر ألا يبعن . وقد رأيت الآن بيعهن) . فقال له عبيدة السلمانى (رأيك مع الجماعة أحب إلينا من رأيك وحدك) .

أما عن المساواة الفطرية .

فإليك مثلا من عمر وهو العابد الزاهد الباطش بالجبارين ، وفاتح فتوح الإسلام . قال لرجل : إنى لا أحبك . قال الرجل : أفتنقصنى من حقى شيئاً ؟ قال عمر : لا ، قال الرجل : ما يفرح بالحب بعد هذا إلا النساء .

وإليك مثلا من أبى ذر : تقاول مع زنجى فى مجلس النبى فقال له : يا ابن السوداء . وغضب النبى وقال : طفّ الصاع . طف الصاع . ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح .

فوضع أبو ذر خده على الأرض وقال لصاحبه : قم فطأ خدى .

وأما أحكام المعاملات . فلا يورد القرآن فيها إلا بعض نصوص فى بعض من العقود كالبيع والإجارة ، فى حين تتحدث الشرائع المعاصرة عن كل المعروف من العقود بمئات من النصوص ، تتلاحق عليها التعديلات ، لأنها تشريعات من عمل البشر ، مرهونة بحضاراتها وأوقاتها .

وفى أحكام الجنايات . . خمس عقوبات . لجرائم خمس . . وما عداها من مئات الجرائم التى تفصل فى نظائرها الشرائع العصرية ، متروك لأولى الأمر وضع ما يلائمها . .

وفى الاقتصاد — يأمر القرآن الناس أن ينفقوا مما هم مستخلفون فيه ، بقوله تعالى : « وأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » وأن يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة . وينبه على مسألتين أساسيتين هما تقرير حق الفقير فى مال الغنى وتقرير حقه فى مال الدولة ويترك للدولة ما يناسبها من أحكام .

وبهذا قال عمر فى أخريات حكمه (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من فضول الأغنياء ورددتها على الفقراء) وتعالت صيحات أبى ذر لحساب الفقراء فى الشام والحجاز ومصر . ووجدنا أبا حنيفة يعمل ويثرى ويفرق فى الناس ثراءه العريض المستفيض ، ليعيش فى قمة الزهادة والتقشف . وابن حنبل يعمل بيده . ومالكاً يتجر ليعيش ، ولا يأخذ جوائز الخلفاء إلا مثل ما تؤخذ جوائز العلم ، والشافعى يموت عن الحصر والخزف التى لا قيمة لها فى أثاث داره ، ويسدد الوالى ديونه .

* * *

تتمثل قوة التشريع الإسلامى وسعته فى حرية الفكر الإسلامى . فالمسلمون مكلفون بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . وفى تسامح الإسلام وحضه على الاجتهاد ، منادح للابتكار الذى لا يتوقف . قالوا : لو خرجت الكلمة من فم الرجل تحتمل وجوهاً للكفر ووجهاً واحداً للإسلام لم يكفر بها .

وتتمثل مرونة التشريع فى أن ما يشرع لمصلحة زمنية يدور مع المصلحة وجوداً وعدماً . وفى أن تحقيق مصلحة الأمة ومنها دفع الضرر ورفع المشقة غرض التشريع الأول .

كان معاذ بن جبل يؤم قومه فدخل « حرَامٌ » وهو يريد أن يسقى نخله . فلما رأى معاذا طوّل ، تجوز فى صلاته ، ولحق بنخله يسقيه . فلما قضى معاذ الصلاة قيل له ذلك قال : إنه لمنافق . أيعجل عن الصلاة من أجل سقى نخله ؟ فجاء حرام النبى صلى الله عليه وسلم ومعاذ عنده . فقال : إنى أردت أن أسقى نخلا لى فدخلت المسجد لأصلى مع القوم فلما طوّل تجوزت فى صلاتى . فزعم أنى منافق . فأقبل النبى على معاذ فقال « أفتان أنت ؟ أفتان أنت ؟ لا تطول بهم . اقرأ بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ونحوهما » وإنما الفتنة لخروج الناس من الصلاة وترك الجماعة . والتيسير مانع الفتنة . قال أنس : (ما صليت خلف إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من النبى صلى الله عليه وسلم) .

قال تعالى : «وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وقال الرسول : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه » .

والاجتهاد واجب ، والخلاف عرض له . . أثنى سبحانه وتعالى على داود باجتهاده . وأثنى على سليمان بإصابته . قال : « وداودَ وسُلَيْمانَ إذْ يَحْكُمانِ فى الحرْث . إذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القومِ . وكُنا لحُكْمِهِم شَاهدينَ . فَفَهَّمْنَاها سُلَيْمان . وكُلاًّ آتيْنَا حُكْماً وَعِلْماً » .

أباح القرآن تأليف القلوب بالصدقات وكان النبى يقول : « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىّ تأليفاً لقلبه » . ولقد أعطى مائة من الإبل لكل من أبى سفيان ، وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام بن خويلد ، وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس . وجاء أبو بكر بعده فمنح الأخيريْن أرضاً بكتاب ، فلما جاءا به عمر محاه ، لأن الله أعز الإسلام ولا حاجة لتأليف القلوب بالصدقات .

ومع ذلك نرى عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب يعطى « بطريقاً » ألف دينار ليتألفه .

ويمتد حبل الاجتهاد من عمر إلى ابن عمر إلى حفيد آخر لعمر . .

قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائذنوا للنساء إلى المساجد بالليل » وقال ابن له : والله لانأذن لهن فيتخذنه دغلا ، والله لانأذن لهن . . فسبه أبوه وغضب وقال : أقول قول رسول الله : ائذنوا لهن ، وتقول لانأذن لهن !

وكان النساء أحدثن مالم يكن فى عصر النبوة ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها : (لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل) .

وكان الطلاق الثلاث يقع طلقة واحدة فى عهد النبى وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر . . . لكن عمر بعدئذ قال : إن الناس استعجلوا أمراً كانت لهم فيه أناة . . فلو أمضيناه عليهم — فأوقع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ثلاثًا . . لأن المصلحة تبدلت . وسيجىء بعده ابن تيمية بسبعة قرون فيقول « ولو رأى عمر تتابع الناس فى تحليل المطلقة ثلاثًا لمطلقها وتلاعبهم ، لعدل إلى ما كان عليه الحكم » .

وسيجىء بعد ستة قرون أخرى تشريع فى مصر يأخذ برأى ابن تيمية .

* * *

ألا وإن لنا فيمن سبقونا أسوة حسنة : ولى القاضى أبو عبيد على بن الحسين بن حرب الشهير « بحربويه » القضاء بمصر (٢٩٣ — ٣٠٠) — وكان يذهب مذهب أبى ثور ، ثم صار يختار ، كدأب أبى ثور نفسه عندما تلمذ للشافعى ثم صار يختار ، وبهذا تعلم حربويه الاجتهاد على الإمام الذى ينهى عن التقليد ، حتى تقليده ، وعلى تلميذه أبى ثور ثم صار يختار ، فكان يحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه . فلم ينكر عليه أحد . مع أن جميع أحكامه بمصر من اختياراته . لأن أحداً لم يطعن عليه فى علم ، ولم تلحقه تهمة فى رشوة ، ولا بحيف فى حكم — وهو آخر قاض ركب إليه الأمراء فى مصر . كتبت مصر ألفاظه وجمعت توقيعاته وكانت — كما قالوا — محشوة فقها وبلاغة .

قال عنه الطحاوى وهو من أئمة الحنفية الذين ولوا القضاء بمصر : وكان أبو عبيد يذاكرنى

المسائل فأجبته يومًا فى مسألة فقال لى ما هو رأى أبى حنيفة ؟ فقلت له : أيها القاضى أو كل ما قال أبو حنيفة أقول به ؟ قال ظننتك مقلداً ... قلت : وهل يقلد إلا عصبى ؟ فقال : أوغبى ! فصارت مثلا .

ولقد تبعت الأمة عمر فى اجتهاداته ، وخضع له الأبطال يوم حرمهم غنائمهم ، وأسيافُهم تقطر من دم العدو ، لأن عقل عمر ، يذكر دائمًا مع عدل عمر ، المثل الأعلى فى نزاهة النفس والفكر ، ورعاية مصالح الأمة .

وإذا لم يكن القديم والجديد للشافعى إلا قولين فى مذهب الإمام الواحد ، فما المذاهب الأربعة ، بجمعها ، إلا طرائق أربعة . تتلاقى ، إذ تتداول المسائل ، فى المذهب العظيم الشامل — مذهب أهل السنة — وليس فيها خلاف على الجوهر .

القسم الثانى

- منهج القرآن فى المشاهدة والاعتبار أو المنهج العالمى
- أثر الشافعى فى المنهج العلمى العالمى المعاصر

ظهر لنا من الفصل السابق كيف جعل الشافعى الاجتهاد أصلا من أصول الفقه بعد القرآن والسنة والإجماع . وفى حين وسع مجال السنة ضيق مجال الإجماع فوسع المجال للاجتهاد . ثم تولى الشافعى الاجتهاد بالضبط والمجتهدين بالإرشاد ، فوضع أصوله وبين طريقة عملها ، فصار أكبر مدافع عن القياس والاستخلاص .

ومع أن النهى عن القياس مبدأ المدرسة التى نجب فيها الشافعى فى مكة والمدينة — فقد استقل عنها تماماً وقرر وجوب القياس .

ومع أن مدرسة أبى حنيفة تقول بمطلق القياس ، فالشافعى قد وضع الحدود له ثم جعله مجعل الاجتهاد ذاته . وتبعه فيه جمهور المسلمين إلا قليلاين .

حتى الذين أنكروا آلة القياس أو اسمه لجأوا إلى الاجتهاد — أى القياس — على طريقتهم وإن حمل أسماء أخرى كالمصلحة والاستدلال ، واستعمال أصل الإباحة والاحتكام إلى الكليات وتحكيم نص على نص . وأسعفتهم النصوص وساعدتهم القواعد التى سبق بها الشافعى ذاته .

وظهر لنا من الفصل السابق كذلك أن طريقة الاجتهاد ، كما تبدو تفصيلاتها من كتب الإمام ، طريقة موضوعية :

١ — توجب العلم العميق إيجاباً ولا تعمل إلا على أساسه .

٢ — تستعمل الحرية الكاملة والنزاهة الخالصة والخبرة الدقيقة ، والمشاهدة الموضوعية والتجربة الواقعية ، والتمييز بين المشتبه ، والاستماع إلى الغير ، وخاصة عند مخالفته ، وبلوغ غاية الجهد ، والفهم لا الحفظ .

٣ – توجب العمل بالنتائج على من وصل إليها وتنهاه عن تقليد غيره .

وسيتتابع علماء الأصول الإسلاميون على هذه الطريقة ويزيدونها تفصيلا فى بيان العلل وتحقيق الأصول وتمحيص الفروع لفهم الأصل ومغزاه وحقائقه وأبعاده ، وتمحيص الفروع والعلل من كل وجه بالتحقيق والتنقيح والسبر والتقسيم والدوران والنزاهة الفكرية والفعلية . . إلخ ما أضافه أصحاب الأصول ، مع الإقرار دائمًا بأن ما يصل إليه المجتهد هو رأيه ، وأن حكم الله قد يصل إليه غيره باجتهاد جديد .

وبهذا يفتح باب الاجتهاد أبداً .

حرية الاجتهاد والاختلاف :

يترتب على استعمال العقل والمشاهدة والتجربة « والموضوعية » ، والاعتبار بالظاهر وحده ، وعلى استحقاق الثواب مع الخطأ وفقاً لحديث الرسول وعلى تحتيم عمل المجتهد بما أداه إليه اجتهاده ، وعلى سعة المجتهد أن يخالف غيره . نتائج شتى لكنها تجتمع على أصل الحرية والعلم معًا :

وأول هذه النتائج :

١ – وجوب إتاحة الحرية فى الاجتهاد ، والتسليم بحرية الاختلاف : واختلاف آراء الصحابة فى الفروع كثير . وإليك مثلا من مسألة واحدة . زواج الكتابيات . يختلف فيه ثلاثة مبشرون بالجنة وثلاثة من العظماء . فعمر وابنه يحرمانه وعثمان وطلحة وحذيفة وابن عباس لا يحرمونه ، بل إن الثلاثة الأولين منهم قد تزوجوا كتابيات . ولا شك أن التحريم من عمر كان سداً للذريعة كما بعث يقول لحذيفة (إنى أخاف أن يقتدى بك المسلمون فيختاروا أهل الذمة لجمالهن . وكفى بذلك فتنة لنساء المسلمين) .

والخلاف المقبول هو الخلاف فى الفروع . وبه اتسع فقه المذاهب ووسع المسلمين أن يجتهدوا ويعمل كل باجتهاده .

٢ – حق المجتهد فى أن يرجع عن اجتهاده (رأيه) إلى اجتهاد آخر فيما يجوز فيه الاجتهاد . وفى أن يتوقف إذا عجز عن الترجيح وأن يعرض الأقوال ودلايلها دون أن ينحاز إلى واحد منها . خذ مثلا قوله فى كتاب الأم دون التزام رأى ٥ – ٧٤ (انتسب

لها فوجدته من غير ذلك النسب . ومن نسب دونه ونسبها فوق نسبه . كان فيها قولان أحدهما أن لها الخيار لأنه منكوح بعينه وغار بشيء وجد دونه ، والثانى أن النكاح مفسوخ كما ينفسخ لو أذنت فى رجل بعينه فزوجت غيره . . . فكأن الذى زوجته غير الذى أذنت بتزويجه) .

ثانى هذه النتائج :

منهج الشافعى الشهير فى فروع الفقه . وهو الأخذ بالظاهر من التصرفات والعبارات . وعدم الأخذ بالنوايا لأن اللفظ ظاهر والنية باطنة ، ولا يمكن تحكيم المغيَّب على الظاهر ، والناس تؤخذ بأفواها . أو ترتبط بألسنتها . ولذلك يصحح الشافعى عقوداً قد يقصد منها الحرام لكنها فى ظاهر أمرها غير ممنوعة . كالمحلل إذا لم يعلن الطرفان أنهما يعقدانه للتحليل وكبيع السلاح . . وكبيع العنب ممن يعصره خمراً . استدلالا بقوله عليه الصلاة والسلام : (إنكم بشر وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً . فإنما أقطع له قطعة من النار) .

يقول الشافعى (فمن قضى بتوهم منه على سائله ، أو بشىء يظن أنه خليق به ، أو بغير ما سمع من السائلين ، فخلاف كتاب الله عز وجل وسنة نبيه (ص) لأن الله عز وجل استأثر بعلم الغيب وادعى هذا علمه) .

وفى تفسير العقود وإنزال الأوصاف عليها من الصحة والبطلان ينظر الشافعى نظرة موضوعية أو قل مادية — يقول : يبطل حكم الإزكان (الفراسة) لتعرف كون العقد ذريعة لمحرم . . . . فى البيوع وغيرها . ويحكم بصحة العقد . فإن أراد رجل أن ينكح امرأة ونوى ألا يحبسها إلا يوماً أو عشراً وإنما أراد أن يقضى منها وطراً ، وكذلك نوت هى منه ، غير أنهما عقدا النكاح مطلقاً على غير شرط . الأم ٤ — ٤٢ . ويقول الشافعى (لا يفسد عقد أبداً إلا بالعقد نفسه . لا يفسد بشىء تقدمه ولا تأخره ولا بتوهم . ولا بأغلب . وكذلك كل شىء لا نفسده إلا بعقده . . . إلخ) .

والفقه العالمى المعاصر وكثرة الفقه الإسلامى تتابع الشافعى . أما القائلون بتحكيم النية فقلة . وهم مع ذلك لا يعملون بها إلا إذا لابست العقد أو ظهرت عند إجرائه أخذاً منهم بأن العاقد عندئذ يتخذ من الظاهر وسيلة للباطل . وظاهر اللفظ طريق من الطرق والطرق

وسائل مقصودة لغيرها وهو موضوع العقد . ولا فرق بين التوسل للحرام بالحيلة وبين التوسل إليه بالمجاهرة .

* * *

ولما أطلق الشافعى الاجتهاد الإسلامى على أساس العلم بالقرآن والسنة ، بالمنهج الموضوعى الذى جهد جهده فى ضبطه ، يسر للعقول الإسلامية طريقة علمية ، قرآنية ، للاعتبار والاستخلاص ، تستوى فى ذلك العلوم الاجتماعية ومنها الفقه والتشريع ، والعلوم الرياضية التطبيقية والطبيعية . وبهذا يسر على الفقهاء أن يتفقهوا بحرية ، وللعلماء الطبيعيين والتجريبيين أن يكونوا أحراراً فى تجاربهم .

والمنهج الإسلامى بتمامه منهج قرآنى . فالله تعالى يكلف المسلمين فى عشرات الآيات أن يستعملوا العقل ويجتهدوا رأيهم . ويأمر الرسول أن يدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يتأملوا آياته فى الكون ويسيروا فى الأرض فينظروا بدقة ، ويفكروا بحرية ، ويعتبروا بمعجزة الخلق التى هم نتاجها ، ويقيسوا ليستنتجوا قدرته ويلتزموا طاعته ويعملوا لمصالحهم فيما استخلفهم فيه ..

والله جل ثناؤه — ومن صفاته العلم والخبرة — لا يرضى من خليفته أن يعطل علمه وخبرته وحكمته ، بل يوجب عليه أن يستيقنها ويستعملها بالمشاهدة والاعتبار بالواقع وإجراء التجربة عليه والاستخلاص منه بحرية ونزاهة .

وما الشافعى بتقريره أن الاجتهاد هو القياس ، وبتوضيحه شروط الحرية الفكرية والنزاهة العلمية والاعتداد بالواقع — كما بينا من قبل — إلا متبع ومطبق لمنهج القرآن الذى لا يمارى فيه اثنان .

والذين جاءوا بعد الشافعى يزيدون القياس ضبطاً وشرحاً إنما كانوا يفتحون الأبواب فى كل ضرب من ضروب المعرفة .

ولا عجب أن تقرأ فحوى كلام أصحاب أصول الفقه فى نصوص علماء الطبيعة والعلوم التطبيقية أو مناهجهم . وهى تتمحض فى الاعتداد « الموضوعى » بالواقع وإجراء « التجارب » عليه بنزاهة واستعمال القياس « فى الاستخلاص » ، دون خضوع لمقررات سابقة كما كان يخضع علماء أوربة فى العصور الوسطى لطريقة أرسطو أو طريقة الكنيسة التى تعتمـد على المنطق اللفظى ، لتحقيق سيطرة الإنسان على الإنسان

بحجج لفظية تقوم على مبادئ عامة كلية أو نظرية يقيسون عليها ما يشاهدونه ، كأن يكون رأى الكنيسة أن الأرض ثابتة ولا تدور حول الشمس فينبغى أن تتفق نتائج أى تجربة مع هذا الرأى ! وبهذا جمدت الكنيسة الفكر الأوربى ومنعت أصحابه عن الابتكار حتى نقلوا علوم العرب ، ومناهجهم ففتح الله عليهم فتوح الفكر وكشوف القارات الجديدة . وما كشفوها إلا على أساس علمى أو بإرشاد عربى .

وبالمنهج القرآنى أخضع العلماء المسلمون العلم لنتائج التجارب . فثبت لهم أن الأرض كرة ، وأنها تدور ، وأن الشمس محورالكون لا الأرض ، وأن لها جاذبية .. إلخ ..

كل أولئك قبل أوربة بقرون .

وإليك أمثالا من علوم مختلفة :

١ — فجابر بن حيان منذ القرن الثانى للهجرة — الثامن الميلادى — يقول عن منهاجه فى الكيمياء (إنا نذكر فى هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط . دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه ، بعد أن امتحناه وجربناه) ويقول (فى التجربة كمال العلم) ويقول (ما افتخر أحد بكثرة العقاقير ولكن بجودة التدبير . فعليك بالرفق والتأنى . وترك العجلة . واقتف أثر الطبيعة فكل شىء طبيعى) .

٢ — وابن الهيثم (٤٣٠) يستعمل فى التعبير عن طريقته فى دراسة الطبيعة عبارات أقرب إلى تعبيرات الأصول مثل (استقراء الموجودات ، وتفحص أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، وما يخص البصر فى حال الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس ثم نرقى فى البحث والمقاييس على التدرج ، والترتيب ، مع انتقاء المقدمات ، والتحفظ فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل ، لا اتباع الهوى . . . .) .

٣ — والبيرونى (٤٣٥ — ١٠٣٨ م) يصل إلى كروية الأرض بالتجربة وإلى دورانها حول محورها بالتجربة وإلى جاذبيتها بالتجربة .

٤ — والرازى (٤٣٠) أعظم الأطباء فى العصور الوسطى ، يقيم علمه على التجارب لا على المقولات النظرية أو التوجيهات الدينية ، وتبعه الأطباء المسلمون فى عصور حرمت الكنيسة فيها الاشتغال بالطب واعتبرته ضرباً من السحر ، فمنعت جراحة الأعضاء ،

منعاً لتغيير خلق الله ! وفى سنة ١٦١٣ قرر مجلس تور البابوى منع تعليم الجراحة !

أما المجانين الأوربيون فكانوا يضربون لتخرج من أجسامهم الشياطين . والمصابون بالجزام كانوا يحرقون !

٥ — والمسعودى — وهو مؤرخ من نسل عبد الله بن مسعود (٣٤٦ هـ — ٩٥٦ م) — قاعدة عمله هى المشاهدة الموضوعية . فيربط بين البيئة والإنسان والاقتصاد والعادات ويطبق علم النفس على الناس . ليدل — لأول مرة فى التاريخ — على أن التاريخ علم اجتماعى يحتفل بالواقع . والمسعودى هو الذى يصف — بنزاهة تامة — مجد القسطنطينية وجلالها ، وطقوس الكنائس والرهبان فيها ويقول (أتمنى أن تكون هذه المدينة للإسلام) فيحقق الله نبوءته بعد خمسمائة عام .

٦ — والقزوينى — وهو جغرافى من نسل الإمام مالك (٦٨٢ هـ — ١٢٨٣ م) — ينقل الآيات القرآنية فى تعبيره عن المنهج الموضوعى ، منهج التجربة والاستخلاص ، ويوصى المشتغلين بالعلوم أن يسترشدوا بقوله تعالى :

« أفلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّماءِ فوقَهُمْ كَيْفَ بنَيْناها وزَيَّناها. وما لهَا مِنْ فُرُوجٍ » .

ويقول : « ولتنظر إلى الكواكب وكثرتها واختلاف ألوانها . . ولتنظر إلى السحاب كيف — وكيف » ويضيف (وليس المراد تقليب الحدقة نحوها . . والمراد من النظرة التفكير فى المعقولات والنظر فى المحسوسات والبحث عن حكمتها (علتها) والفكرة فى المعقولات لا تتأتى إلا لمن له خبرة بالعلوم والرياضيات بعد تحسين الأخلاق وتهذيب النفس) . . إلخ[1] .

وحسبنا فى هذا المقام إشارات بسيطة تدل على اتصال علماء أوربة بعلوم العرب على الرغم من مقاومة الدولة والكنيسة فى أوربة ، أن يستمد كبلر معلوماته فى الضوء — فى القرن الخامس عشر للميلاد — عن ابن الهيثم وأن يذيع كوبرنيكس فى القرن السادس عشر الميلادى النظرية الإسلامية من أن الشمس مركز الكون وأن الأرض تدور حولها فتحرق الكنيسة كتبه . ولما أذاع جاليليو فى القرن السابع عشر آراءه لم ينج من

(١) راجع كتابنا المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن فى العلوم والفقه والاقتصاد والقضاء — مطبعة دار الاتحاد العربى سنة ١٩٧٦ .

إعدام الكنيسة له إلا بإعلانه العدول عنها .

* * *

سرى فى أوربة فى العصر الحديث روح جديد يطرح التعصب الدينى أو الاستعمارى ، فأخذ بعض كتابها يعترفون بأثر المنهج الإسلامى فى العلوم الحديثة . وبدأنا نسمع فى القرن التاسع عشر للميلاد قول سيديو (١٨٣٧) « كان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق فى الحوادث تدقيقاً مؤدياً إلى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بشىء يثبت إلا بعد التجربة ، مبادئ قال بها العرب . وكان العرب فى القرن التاسع الميلادى دعاة هذا المنهاج المفيد الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات »

وقوله (إن العرب سبقوا كپلر وكوبرنيكس فى اكتشاف حركة الكواكب فى شكل بيضى وفى نظرية دوران الكواكب) .

وقول روبير بريفو أخيراً (إنه لا ينسب إلى (روجير بيكون — ١٢٩٤) ولا إلى سميه الآخر فرنسيس بيكون (١٦٢٦) أى فضل فى اكتشاف المنهج التجريبى فى أوربة . ولم يكن روجير بيكون فى الحقيقة إلا واحداً من رسل العلم الإسلامى إلى أوربة المسيحية . ولم يكف عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هى الطريق الوحيد للمعرفة . .) و (ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربى لم يكن للثقافة الإسلامية عليها تأثير أساسى . وإن أهم أثر للثقافة الإسلامية هو تأثيرها فى العلم الطبيعى والروح العلمى وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث . . . إن ما ندعوه بالعلم ظهر فى أوربة نتيجة لروح جديد فى البحث وبطرق جديدة فى الاستقصاء طريقة (التجربة والملاحظة والقياس) . . . لتطور الرياضيات بصورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وهذه المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربى) .

وهذا ما يقرره جوستاف لوبون وآخرون من أحدثهم عهداً برنارد لويس الإنجليزى المعاصر وسجريد هونكة المستشرقة الألمانية المعاصرة .

والحق كذلك أن روجير بيكون (١٢٩٤) — وهو طليعة المنهج الأوربى الحديث — فى علماء القرن الثالث عشر للميلاد ، كان من كبار المترجمين للكتب الإسلامية فى الأندلس ، حاربته السلطة وحبسته من جراء آرائه وفيها يقول (الفلسفة مستمدة من العربية فاللاتينى لا يستطيع فهم الكتب المقدسة والفلسفة إلا إذا عرف الكتب التى نقلت عنها) .

وفى أسبانيا ، وجنوب فرنسا وصقلية وإيطاليا أنشئت جامعات بتمامها ابتداء من القرن العاشر الميلادى لترجمة كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوربية أى من قبل روجير بيكون ومن بعده .

وتتابع النقل من أكثر من مصدر . ولما أقام الملك الفونسو الحكيم (١٢٥٢ — ١٢٩١) جامعة بالأندلس — بعد سقوط قرطبة — درس فيها أبو بكر الرقوطى العلوم للمسلمين واليهود والمسيحيين ومن قبل ذلك أنشئت فى طليطلة مدرسة لنقل كتب العرب وأخرى للدراسات الشرقية .

وكان أشراف الإنجليز يتعلمون فى الأندلس ، بل إن من القساوسة الذين تعلموا فيها من ارتقى كرسى البابوية . ومن البراطرة فى صقلية من كان يعلمه العرب فيجيد لغتهم .

* * *

فى القرن السابع عشر للميلاد أنشأ الإنجليز الجمعية الإنجليزية الملكية سنة ١٦١٦ متأثرين بمنهج التجربة والاستخلاص الذى أذاعه فرنسيس بيكون (١٦٢٦) وأنشئت الأكاديمية الفرنسية للبحث العلمى المجرد متأثرة بروح ديكارت (١٦٥٠) وكان فرنسيس بيكون قد أعلن فى كتاب المنهج الجديد Novum Organum منهجاً قائماً على دعائم أهمها عدم الخضوع للعاطفة ، وعدم استغلال الألفاظ دون المعانى ، وعدم التشبث بأمور غير منطقية ، وعدم التأثر بالشخصيات والميول الشخصية وهى جميعاً دعوة للنزاهة الفكرية ، وإذا انضافت إليها الدعامة الإيجابية الوحيدة وهى الاعتماد على الملاحظة الموضوعية لفهم الطبيعة وكشف نواحيها — ظهر لنا كيف انتهى فرنسيس بيكون إلى المنهج الإسلامى القائم على النزاهة الفكرية والحرية والاستخلاص منهما إن لم يكن قد بدأ بالاطلاع عليه .

أما كتاب ديكارت (حديث عن الطريقة) ففحواه مناشدة للعلماء أن يبدأوا بالشك فى الأمور التى يعتنقونها بحكم التقليد وأن يتجنبوا التعصب الشخصى وأن يستخلصوا الحقائق فى ضوء ما يشهدونه .

وما يقول هذان المؤلفان الطليعيان للمنهج الأوربى المعاصر إلا تكراراً حرفياً للمنهج العلمى الذى اتبعه العلماء الإسلاميون من هدى القرآن وأصول الفقه ، ونزاهة العقل الإسلامى ، وحرية الاجتهاد التى جلى فيها الشافعى وصلى بعده العلماء ونقله الأوربيون بين ما نقلوه من علوم المسلمين .

الباب الثامن

القدوة

« ما من أحد مسّ محبرة إلا وللشافعى عليه منّة »

أحمد بن حنبل

الفصل الأول

القدوة

كانت حياة محمد بن إدريس الشافعى ملحمة معلمة ، بينت للمسلمين أن الدين ينصره علم وعمل ، وأن للعمل الجزاء الأوفى .

ولقد شجت جبهة الرسول — عليه السلام — فى صميم المعركة يوم أحد . وسال الدم حتى أخضل لحيته . وكُسرت رباعيته . وأدميت شفتاه . ودميت وجنتاه ، وغاب الحلَق فى وجنتيه . وجعل الدم يسرب كما يسرب الشنّ . ليدل على أن صاحب الرسالة أول العاملين فى سبيلها وأشجعهم :

ولما شقت الصخرة يوم « الخندق » على كل من يليها من الناس ، ضرب بمعول سلمان ثلاث ضربات ، فانصدع الحجر . فهو كان بين العاملين يحفر ، كما كان بين الصناديد البطل .

سئل عليه الصلاة والسلام . أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال « أدوَمها وإن قلّ . فالقليل مع الديمة كثير » .

وكان الشافعى إماماً دائم العمل ، يعلم الناس ويقدم لهم أدلة الأحكام — فقدم حياته ، بتمامها ، دليلا على الاجتهاد بالفقه ، والجهاد بفضائل الإسلام . فصار مثلا أعلى فى العمل . بالكفاح اليومى فى سبيل الله ، وبالتسيار ليل نهار ، لا يثنيه الزمهرير الذى يهرأ الدب ، ولا تضجره شمس الهواجر . ورمال الصحراء وسنى ، يوقظها وخد الإبل وأراجيز الحداة . أو يقظى ، تتلظى كجمر يحترق : وبالسهر المضنى على مدار العمر . وبالقعود إلى التلاميذ فى شتى عواصم الإسلام ، لا يُبرمه خرق الخصوم ، ولا يسئمه سقمه . وبالعبادة والزهادة ، والتقشف الذى لم يشبع صاحبه قط ، وبالعطاء إذ يبذل المال ، تفاريق إلى يمين وشمال ، حتى إذا تأرجح مصير عنقه بين السيف والنطع ، كان فى ذروة الجسارة فى وجه الخليفة ،

وكان كذلك ، فى حلق مكة وبغداد والفسطاط ، وفى كل مكان .

والأسماع المصيخة لا تصدق القول إلا أن ترى القائل يعمل . . . وأن تبصُر به يبدأ بنفسه ، وإلا فهو ينعق بما لا يسمع ، أو يكيل الريح بأجواز الفلاة .

بعث سلمة بن قيس رسولا إلى عمر يستفتيه فيما يصنع إذ كثرت غنائم جيشه .
قال الرسول :

فأتيت أمير المؤمنين وهو يغدى الناس ، متكئاً على عصاه ، كما يصنع الداعى ، وهو يدور على القصاع ويقول : يا يرفأ — مولاه وخادمه — زد هؤلاء لحماً . زد هؤلاء خبزاً . زد هؤلاء مرقة . فلما دفعت إليه قال اجلس . فجلست فى أدنى الناس ؛ فإذا طعام فيه خشونة . . طعامى الذى معى خير منه !

فلما فرغ الناس قال : يا يرفأ ، ارفع قصاعك . ثم أدبر . فاتبعته . . فإذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من أدم محشوتين ليفاً ، فنبذ إلى ، بإحداهما فجلست عليها . . فإذا ببيت عليه ستير فقال : يا أم كلثوم غداءنا . . فأخرجت إليه خبزة بزيت فيها ملح لم يُدق . فقال : لأم كلثوم : ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا ؟ فقالت إنى أسمع عندك حس رجل . قال نعم ولا أراه من أهل البلد . قالت أم كلثوم : لو أردتَ أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته ! قال عمر أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم ، بنت على ابن أبى طالب ، امرأة أمير المؤمنين عمر ؟ . .

فقال : كل . فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا . .

قال الرسول فأكلت قليلا وطعامى الذى معى أطيب منه — وأكل عمر .

كانت بنت خليفة الغد ، وزوج خليفة اليوم — وهى فى ثيابها هذه — بنت على ، وزوج عمر . . . أما الذين كسوا زوجاتهم كما تحدثت زوجة الفاروق فلم يصيروا خلفاء راشدين !

* * *

تابع الإمام العظيم دروس السلف العظيم . فالآثار السابقة دروس له ، لتصير الدروس منه . ولقد نذر نفسه لتكون حلقاته ، وكتاباته ، وحياته ، كالمواقع الحاسمة فى الإسلام .

وكان من آيات توفيقه تعاظم أثره فى تلاميذه ، حتى ليساجلوه ويسامقوه فى التضحيات . وبهذا استمر التيار فى التدفق ، وأضيفت إليه القوة بتعاقب العمل فثبت وتعمق ، فتوارثته الحقب . والفقه العظيم لا يرقى إلى مستوى المذهب إلا بالعمل العظيم ولم يكن السلف كما يقول « ابن القيم » يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذى يصحبه عمل . وهذا بعض المعنى فى قول صاحب الشريعة عليه السلام : « أفضل العبادة الفقه » .

والفقيه العامل هو الذى عناه ابن عباس يوم قال : فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد . . ولهذا كانت حياة الأئمـــة فى ذاتها فقهًا معلِّما .

وفى زعامة الفكر تهوى الأفئدة إلى الزعيم ذاته ، كمثل نظرياته . وكلما جلت القدوة ، عظم الطالب والمطلوب . والأفكار الكبيرة تتراءى للآخرين وللاحقين أدنى وضوحًا كلما بعدت عن الأصل ، فتعين أن يسمو الأصل عن الجدل ، لتبقى له إمامة الحاضر وزعامة المستقبل ، ويرفعه الفعال النابه من محيط الناس إلى مدارات يهتدى بها المدلجون دون أن يبلغوها . . قال عليه السلام إن « مثل العلماء فى الأرض كمثل نجوم السماء : يهتدى بها » .

من أجل ذلك رفض البويطى — خليفة الشافعى بمصر — أن يقول بخلق القرآن عندما أسر إليه الوالى النصح : (قل فيما بينى وبينك) . فقال كلمة تليق بإمام : (إنه يقتدى بى مائة ألف لا يدرون المعنى) .

وازداد تصميماً وعزمًا فقال : (لئن أدخلت عليه — يقصد الخليفة — لأصدُقنَّه ، ولأموتن فى حديدى هذا . حتى يأتى قوم يعلمون أنه مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم) .

قال مروان آخر خلفاء بنى أمية لعبد الحميد بن يحيى : قد احتجتُ أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تحوجهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى . فقال عبد الحميد : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما . وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك وأنشد :

أسر وفاء ثم أظهر غدرة   فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

وانهزم مروان . وترك شبه الجزيرة العربية إلى مصر . واختبأ زعيم الكتابة العربية

عند زعيمها الآخر ابن المقفع . ففاجأهما الطالبون قالوا : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا — خوفاً على صاحبه . وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فإن كلاً منا به علامات . فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر يذكر العلامات لمن وجهكم . ففعلوا . وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله :

كان عبد الحميد عظيماً مع الخليفة ومع الصديق . وكان ابن المقفع عظيماً معه وبمقداره .

والقدوة بلاغة الزعماء . فما بالك بزعامة البلغاء . ناهيك بالأئمة .

* * *

كان الشافعى بذاته قطعة من صميم الإسلام . فهو كله قرآن وسنة — ونفس عربية : جماع صفاتها الشجاعة والنَّصَفة :

والعروبة فصاحة وفروسية . علمته الفصاحة انضباط التعبير والتقدير ووضوح التفكير . وعلمته الخيل والنضال الدقة والاعتدال ، والتوازن بإمساك العنان ووضع الميزان .

ومن الشجاعة اجتهد وأوجب الاجتهاد . وأعلن الاستقلال . ونهى عن التقليد . وعمل فأحسن العمل . والإيمان قول وعمل :

ولما خاطب المسلمين بارئهم بقوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » . قال : « تَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وتَنهَوْنَ عنِ المنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » فهو تعالى قدم الأمر والنهى . وهذان عمل باليد والقلب واللسان . فالقول والعمل لمصلحة الجماعة شريعة الإسلام . وبشريعة الإسلام ، لا بشىء سواها ، كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس .

بهذا ورد أئمة المسلمين الأربعة حياض الهول واحداً إثر واحد . وكانت المحنة درساً تناقلوه . سبقهم به سيد المرسلين ، ليدل على أن العمل أصل إسلامى أول ، وأن من لم يتعمر وجهه فى سبيل الله ، أدنى فى الفضل إن كان له فضل .

ولقد علم الشافعى تلاميذه ، من الأحياء ، وممن لم يحيوا بعد ، فانعكست أضواؤه على القرب والبعد . كمثل ما انعكست أضواء عمر بن الخطاب فى حفيده عمر بن عبد العزيز ، اجتهاداً فى العلم وزهادة فى الدنيا ، وهى ملك فى يده لأعظم

دولة . فقومت ثيابه وهو يخطب باثنى عشر درهما . ولما أبطأ يوماً عن الجمعة عوتب فى ذلك فقال : إنما انتظرت قميصى . غسلته حتى يجف[1]. وكمثل جعفر الصادق. صار إماماً فى شتى أبواب العلم ، وإماماً فى التقى والسماحة مثل جديه معا : على وأبى بكر .

ولقد تذيع أفكار العظماء فى حياتهم فتكون نجاحاً للعصر ، لكن استمرارها بعدهم آية على أن قانون الإنسانية هو التطور المستمر . وظهورها فى التضحيات بعد مماتهم ، دلالة على ارتفاعها إلى أن تكون قيما عليا للبشر . وإنها لتبلغ شأوها الأعلى عندما تنشق من الطريق الواحدة طرائق قاصدة ، وعندما يهيء المعلم العظيم للإنسانية معلمين عظاماً آخرين . ولكل أجره . قال عليه الصلاة والسلام « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً » .

* * *

خلف الأستاذ للتلاميذ ما يشبه الغيث ـ فسالت أودية بقدرها ، فى كل فن ، من فقه وعلم ولغة وفلسفة وعمل . . وحسبنا هنا بعض الأمثال :

كانت فراسة موفقة من الشافعى أن يقول : « تركت بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أعبد من أحمد بن حنبل » . فيصير أحمد رابع الأئمة . وأن يوصى بأن يخلفه فى مصر (البويطى) ، فيصير البويطى أستاذاً وبطلا فى المحنة .

وليس غريباً أن يقف التلميذان الموقف الواحد ، فى أكثر من حادث واحد ، وكل منهما فى قارة من القارات ، فإنما نهلا وعلاً من ينبوع واحد ، رأى الناس أثره .

وتلمذ للشافعى أبوثور والكرابيسى ، فصار لكل منهما مذهبه الخاص به . وتلمذ له عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فصار إماماً للمؤرخين . .

---

(١) خلف عمر بن عبد العزيز أحد عشر ابنافورث كل ابن نصف وربع دينار – قال لهم إذ حضره الموت : ليس لى مال فأوصى فيه . يا بنى . إنى خيرت نفسى بين أن تفتقروا إلى آخر الدهر وبين أن يدخل أبوكم النار . فاخترت الأول . يابنى عصمكم الله . وقد وكلت أمركم إلى الله الذى نزل الكتاب . وهو يتولى الصالحين .

وخلف الخليفة هشام بن عبد الملك – ابن عمه – أحد عشر ابنا كذلك . ورث كل واحد منهم مليون دينار . ومع ذلك ولم ير واحد من أبناء عمر بن عبد العزيز إلا وهو فى سعة ولم ير واحد من أولاد هشام إلا وهو مفتقر .

وأصبح الإمام الطبرى كأستاذه الروحى إمام المفسرين والمؤرخين ، وصار له فى الفقه مذهبه الخاص به .

وكذلك صار تلميذه داود الظاهرى صاحب مذهب خاص ، وكان قبل الأخذ بمذهب الشافعى حنفياً مثلما كان أبوه ، وأهل بيته . وكذلك ابن حزم تعصب للشافعى تعصب داود ، ثم صار إماماً ظاهرياً مثل داود .

وتلاقت موجة الصوت الخالد مع الفخر الرازى فصار إماماً فى التفسير والفقه والفلسفة الدينية ، ومع الإمام الغزالى فنتجت فقهاً وفلسفة عالمية ، ومع الجرجانى فصار صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، وتلاقت مع آخرين كثيرين فصاروا طلائع .

وكانوا جميعاً أساتذة فى التعبير والجدل .

« والرجل العظيم — كما يقول « سينيكا » — ينفع بعمله ، وينفع بقوله ، وينفع بمجرد أن يمشى على الأرض » .

وأضحى فقهاء المذهب الشافعى فى الطليعة من فقهاء الإسلام — والعالم كله — إنتاجاً وقدرة ، وقوة حجة . قيل ألف واحد منهم (البيهقى) ألف كتاباً فى نصرة المذهب ، منها مجلدتان فى مناقب الشافعى .

وبقيت المقاولات أو المناقدات ، بين الشافعية والحنفية بضاعة مزجاة بين المتفقهين . فآل إلينا من عملهم هذان المذهبان العظيمان . فيهما تضحية وتعبد ، وفيهما سماحة أهل السنّة . فآمن التلاميذ بهما ومنهم المتعصبون : لنرى ملكين ، أو والدا وولده ، هما العادل سيف الدين أيوب صاحب دمشق وابنه عيسى — شرف الدين — يسأل أولهما ثانيهما : لماذا اختار مذهب أبى حنيفة ، وأهله شافعية ؟ فيقول ملك الغد : أترغبون عن أن يكون فيكم مسلم واحد !

ولم يقتصر التعصب على قلة نادرة ممن تفقهوا على علماء المذهبين ، بل كان التعصب وما يزال طابع كل متخلف أو جامد . ولو فقهوا لكان لهم فى سماحة الأئمة أسوة حسنة .

وانطلق كثيرون ، للدفاع عن السيادة التى أعادها الشافعى للمحدثين . فقاموا

بتجميع الأحاديث وتدوينها ، بطرائق علمية مثل طريقته ، من اشتراط الشروط فى الرواة والروايات . فلم يعد كافياً أن تكون الصدور وعاء للنصوص ، ولم يعد كافياً ما جمعه ابن شهاب الزهرى وابن لهيعة فى القرن الثانى ، ولا صحيفة همام ابن منبه المسماة بالصحيحة ، ولا صحيفة عبد الله بن عمرو المسماة « بالصادقة » أو صحائف جابر بن عبد الله أو سعد بن عبادة أو أسماء بنت عميس زوج أبى بكر الصديق . . . لقد آن أن تدون آلاف الأحاديث مثلما دون الكتاب العزيز ، لتكون نصوصها مصادر للأحكام الشرعية ، فى يسر مسعف وغزارة تيسر نشرها وتمكن من الاحتجاج بها .

وكانت وفاة الشافعى المبكرة حافزاً للمبادرة ، حتى لا تضيع انتصاراته . فنهدت للعمل ثلة من العباقرة يتصدرهم أحمد بن حنبل . وتبعه أصحاب الكتب الستة ، وفحول آخرون ، فجمع أحمد مسنده الأعظم ، وجمع الآخرون مسانيدهم وصحاحهم وإن تنوعت طرائقهم — فدلوا بنجاحهم فى جمع الأحاديث أصح جمع وأدقه ، على أن الأمة الإسلامية قادرة على بلوغ مقصدها بفيوض قوتها من الرجال والعقول والوسائل . وأن الحنيفية السمحة لا تخذل أصحابها فى أى من مواقفهم . وإنما يخذلهم تخلفهم عن التمسك بعوامل القوة فيها .

وكان للبخارى (١٩٤ — ٢٥٦) قصب السبق فى هذا المضمار فقدم للأمة أكبر كتاب عنى به المسلمون بعد القرآن ، إذ جمع « الجامع الصحيح » فى ستة عشر عاماً لم يضع فيه حديثاً إلا بعد أن اغتسل وصلى ركعتين واستخار الله فى وضعه . فبلغت أحاديثه ٧٣٩٧ حديثاً بالمكرر وبلغت أحاديث مسلم (٢٠٤ — ٢٦١) ٧٥٧٥ بالمكرر . وبلغت سنن أبى داود (٢٠٢ — ٢٧٥) ٤٨٠٠ حديثاً منتقاة من ٥٠٠ ألف حديث . وجاراهم آخرون منهم الترمذى (٢٠٩ — ٢٧٩) والنسائى (٢١٥ — ٣٠٣) وابن ماجه (٢٠٧ — ٢٧٣) . ونشأ علم « مصطلح الحديث » « وعلم الجرح والتعديل » .. وسائر علوم الحديث التى أوصلها البعض إلى خمسة وستين علماً .

* * *

حمل ابن حنبل ألوية السنة المظفرة التى خلفها أستاذه فى السماء . وكان من دوره المقدور له أن ينصرها بالعمل إلى جوار العلم ، فكفّر ، كمثل أستاذه ، القول بخلق القرآن ، فامتحن ، ورسف فى الأصفاد ، وسجن وعذب ، وضرب ، وكان يتفادى الحديث عن المحنة . ولم يمدد إلى السلطان بسبب . وصفح الصفح العظيم عن العادين عليه ، جريًا على السنة . فلم يك يرضى أن يعذب فيه مسلم .

ولا ينقص مجده ، بل يزيده ، أن يضم بعضه إلى أستاذه . أو أن يصنع البعض بعض صنيعه فإنما هم على آثاره . وتلك آية النجح فى عمل الأئمة . وكما يقول ، فلمنج : (إن مفخرة العمـــل العظيم أنه يشق الطريق لأعمال أعظم ، تغطى أضواؤها على ضوئه ، فإن غاية البحث العلمى هو تقدم المعرفة) .

قال أحمد بن حنبل : خمسة أدعو لهم فى دبر كل صلاة ؛ أبواى والشافعى وأبو زرعة وآخر نسى الراوى اسمه . وهذا الوفاء لأستاذه يقابله وفاء زميله إسحاق ابن راهويه له ، فيخصه بثناء لا تنقصه الغلواء ، حيث يقول (لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام) .

بلغ من أخذ أحمد بالسنن أنه قال : (ما حدثت حديثًا عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا عملت به حتى مربى أن النبى احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً . . فأعطيت الحجام ديناراً حين احتجمت) . تجيئه الهدايا آلافاء مؤلفة فيردها . . ولما قدم عليه خراسانى يحمل هدية من رجل ميت خمسة آلاف درهم . سأله هل بينه وبينه قرابة ؟ أو . . . ؟ قال : لا . . قال ضمها رحمك الله . . وبعد مدة سأل ابنه : كم يومًا مضت مذكان عندنا الخراسانى ؟ قال واحد وستون يومًا . . قال هل جعتم فيها ؟

حج فيما حج ثلاث مرات ماشيًا . ! وأنفق فى بعض حجاته عشرين درهمًا . ولما استضافه الخليفة المتوكل كان كعهده لا يأكل . بل كان فى كل ثلاث ليال يستف حفنة من سويق ويقول : « الطبخ طعام المطمئنين . مكث أبو ذر ثلاثين ، يومًا لا طعام له إلا ماء زمزم » .

وقد يُرى لابسًا جبة خضراء فيها رقعة بيضاء من صوف . وربما كان سراويله

فوق كعبيه . وكان خفه يبقى خمس عشرة سنة مرقوعًا برقاع عدة . ويقول : (ما أعدل بالفقر شيئًا . أنا أفرح إذا لم يكن عندى شىء) ويقول وكأنما يتعبد : حسبى كسرتى وملحى .

* * *

تتحصل فلسفة ابن حنبل فيما رواه الراوى : أتيت أبا عبد الله ، آخر مارأيته ، فخرج فقعد فى دهليز . فقلت يا أبا عبد الله كنت أراك تقف عند أشياء فى الفقه بان لك فيها قول ؟ قال : هذا زمان مبادرة . هذا زمان من عمل . . وأخذ فى نحو هذا من الكلام إلى أن قمنا .

وهو يعيش من كسب يده . ربما أخذ القدوم وخرج إلى دار السكان يعمل . وكان يأمر أبناءه أن يختلفوا إلى السوق ويعملوا فى التجارة .

فالعمل واجب إسلامى . . كان الأنبيـــاء يؤاجرون أنفسهم ، وكمثلهم كان أبو بكر وعمر وعلى ، وعمل عثمان بالتجارة . وذات يوم سأل رجل عليًّا عن إزار غليظ عليه فقال : اشتريته بخمسة دراهم . إن أربحتنى فيه درهمًا بعته .

وقال عمر : (كتب عليكم أن يأخذ أحدكم ماله فيبتغى فيه من فضل الله عز وجل فإن فيه العبادة والتصديق . وأيم الله : لأن أموت فى شعبتى رحلى وأنا أبتغى بمالى من فضل الله ، أحب إلى من أن أموت على فراشى) :

وما قرأنا أحداً عير أحداً بصناعته .

قال على بن المدينى (١٦١ – ٢٣٤) إن الله تعالى أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق رضى الله عنه يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة .

هكذا كانت المحنة ! كأنها محاولة للردة . وكان ابن حنبل كأبى بكر ! ولكن أيهما أعظم ؟ الصبر والثبات أم العفو ؟ فلقد عفا ابن حنبل عن المعتصم ، الذى أمر بضربه ! ! قال : « ما خرجت من داره حتى جعلته فى حل » ! ! وذكر قول الشعبى — : إن تعفُ عنه يكن لك من الأجر مرتين . . بل ذكر : وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله .

جملة هذا الخلاف العقيم الذى تسبب فيه « أصحاب الكلام » — وكانوا قد ألفوا الفكر اليونانى واللاهوت المسيحى فى دراساتهم للمترجمات — والذى لم تكن له فائدة عملية إلا التفرقة وإيذاء العلماء . وكأنما كان نقمة سلطها على المسلمين أعداء الدين : أن المعتزلة تقول « إن الله أنزل القرآن . ومؤدى ذلك أنه خلقه . « فالقرآن مخلوق » . وأهل السنة يرون أن القرآن قديم حتى لفظنا به . وأن القول بالخلق بدعة لم يقل بها السابقون . ولا داعى له ، لأنه يضعف العقيدة وهى تدور حول معانى القرآن . ولذلك لم يجب بعض المسئولين عن خلق القرآن واكتفوا بأن قالوا : كلام الله . ولما أجاب « بالخلق » سعدويه خرج من دار المعتصم يقول : ياغلام . قدم الدابة . فإن مولاك قد كفر . قيل له ماذا فعلتم ؟ قال : كفرنا ورجعنا .

وربما كان ممكنًا أن يبقى الأمر مجادلات فلسفية بين الفريقين . لكن التحرز طابع أصحاب السنة . أما المعتزلة فالتطرف التجريدى طابعهم ، والشدة فى الجدل من من خصائصهم . . يترنم الصاحب بن عبَّاد (٣٨٥) بالشعر ، وهو من أئمتهم ، فيعلن معاسرة المعتزلة ، حتى فى أشواقه ! فيقول .

تمكن منى الشوق غير مسامح   كمعتزلىٍّ قد تمكن من خصم !

أظهر المأمون القول « بخلق القرآن » فى مجالسه سنة ٢١٢ ثم بدأ يمتحن الناس فى سنة ٢١٨ ، فبعث للولاة أن من قال غير ذلك لم يصلح لقضاء ولا شهادة ولا وظيفة ! وامتحن الفقهاء بنفسه فأجابوه تقيَّة ، فردهم إلى الوالى ليقولوا أمام الناس فيخلى سبيلهم — ثم أمر الوالى بامتحان جماعة فأقروا بأن القرآن مخلوق ، إلا ابن حنبل ومحمد بن نوح فأشخصهما إلى المأمون .

ومات المأمون . وخلفه المعتصم . ومات محمد فى الطريق ، وأعيد أحمد إلى بغداد يرسف فى الأقياد .

وكان أحمد بن أبى دؤاد زعيم المعتزله سلطة باطشة تحرك المعتصم ، والمعتصم بطل حرب ، سيفه أصدق إنباء من الكتب . كما قال فيه أبو تمام . لكنه كان قليل البضاعة من العلم — أراد أن يندد بوزيره أحمد بن عمار الخراسانى فقال يصف نفسه : خليفة أمى ووزير عامى !

فلما كان رمضان سنة ٢١٩ مرض أحمد بن حنبل . ومكث فى السجن وعليه القيد . يناظره كل يوم رجلان . وجاءه رسول المعتصم يناظره ، وهدده الوالى . . وكان يتسلل إليه فى السجن قوم منهم عمه إسحق بن حنبل يطلبون إليه أن يقول ، تقية ، كما توقى غيره من العلماء ، فيقول : « إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهلُ ، فمتى يتبين الحق » ؟ فذكروا له أحاديث التقيّة فقال كيف تصنعون بحديث خباب : « إن من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه » ؟ فيئسوا . وضربوه . . وكان سجنه ثمانية وعشرين شهراً . وكان ضربه نيفاً وثلاثين سوطا[1] .

جاء رجل يقول لصحبه : قوموا ننصر هذا الرجل . قال آخر : هذا مقام النبيين ، لا أستطيع أن أقومه .

ولما وقف البويطى الموقف العظيم فى المحنة كتب إلى الربيع بمصر : (إنى لأرجو أن يجزى الله عز وجل أجر كل ممتنع فى هذه المسألة لسيدنا الذى ببغداد) يعنى زميله أحمد بن حنبل .

ولقى واحد ممن ضربوا ابن حنبل حتفه فاستغفر له وعفا عنه . وكان يقول : العفو أفضل . وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك ؟

وولى الواثق الخلافة (٢٢٧ — ٢٣٢) فبعث إليه (لا تساكنى بأرض ولا مدينة أنا فيها ، فاذهب حيث شئت من أرض الله) فاختفى بقية حياة الواثق .

ثم ولى المتوكل ففرج عن الناس سنة ٢٣٤ وأبطل هذه البدعة . وتقرب بالعطايا إلى ابن حنبل . فكان يردها أو يفرقها فى المعوزين حتى لا تدخل داره . وظل على صيامه وقيامه . يُشترى له الشحم بدرهم ، فيأكل منه شهراً .

وضرب الدهر . ودار الدور . فبعث الخليفة يسأله : ما تقول فى ابن أبى دؤاد وفى ماله ؟ فلا يجيب فى ذلك بشىء .

وستصنع السماء نفس الصنيع فى ابن مخلوف القاضى الظالم لا بن تيمية — تلميذ ابن حنبل — عندما تتغير الحال فيطلب السلطان من ابن تيمية كلمة ضده ! فيعفو . ولا يقول كلمة .

---

(١) ورد وصف الواقعة فى « كتاب أبى حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام » للمؤلف . انظر الطبعة الرابعة طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية صفحة ٢٠٣ — ٢٠٤ .

هذه مياسرة أهل السنة وعفوهم وتلك معاسرة المعتزلة .

وعزل الخليفة ابن أبى دؤاد . وبيعت عليه ضياعه . ومات مفلوجاً سنة ٢٤٠ .

والذى أصاب ابن أبى دؤاد من السلطان الذى جيّش غضبه على أهل السنة ببغداد أصاب مثله فى سنة ٢٣٧ الرجل الذى صنع بمصر مثله ، محمد بن أبى الليث ، فالسما تمهل ولا تهمل .. وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم « من أعان ظالماً ابتُلى به » .

وفى سنة ٢٤١ توفى الإمام أحمد بن حنبل . وحضر جنازته ألف ألف وثلثمائة ألف وهذا عدد من المسلمين لم يجتمع مثله للصلاة على ميت .

لكأنما كان الشافعى يبايع لتلميذه العظيم يوم قال : « فإن من أدرك علم الله فى كتاب نصاً واستدلالا ، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه وفاز بالفضيلة فى دينه ودنياه وانتفت عنه الريب ، ونورت فى قلبه الحكمة ، فاستوجب فى الدين موضع الإمامة » .

الفصل الثانى

العروبة واللغة العربية

تفردت اللغة العربية بين سائر اللغات بخصائص يهمنا منها الآن خصيصتان بارزتان :

الأولى : أنها أقامت ديناً يدين به اليوم مئات الملايين — وستدين به البشرية ما تعاقب الثقلان . . فهى لغة القرآن ، مصدر الشريعة فى العقيدة والمعاملات . فى كل معنى من معانيه هدى للمسلمين . وهو الذى نقل العرب من الجاهلية الأولى إلى السيطرة على العالم المعروف فى سنين ، وإلى الانتفاع بخيرات الطبيعة ، وبسائر أسباب المدنية ، التى يعتز بها الإسلام .

والفصاحة العربية ، أو البلاغة العربية أداة فهم هذا الكتاب . فكل قصور فى اللغة مانع من فهمه حق الفهم . وبهذه الوشيجة بين اللغة والكتاب الذى نزل بالدين ، أصبحت وثيقة السبب بالدين .

والثانية : أن هذه اللغة أقامت أمة بتمامها . فالأمة العربية أو القومية العربية عمادها اللغة العربية التى تتكلمها ، وحدها ، شعوبُها كلها ، ولو فرقت بينها فوارق الخلافات أو مواقع القارات . وتجىء على أثرها عوامل القومية قاطبة ، من وحدة التراب ، إلى وحدة التراث ، إلى وحدة الموقع ، إلى وحدة الجنس ، إلى وحدة المصلحة ، إلى وحدة الدين .

ولما صنعت اللغةُ الألمانية الوحدة الألمانية ، كان فلاسفتها يهيبون بها — كما أهاب فختِه — (إن اللغة تلازم الفرد فى حياته وتمتد إلى أعماق كيانه وتبلغ أخفى رغباته وخطواته . إنها تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصًّا خاضعاً لقوانين . إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان) .

واللغة العربية عروة العرب الوثقى . وحّدت لسانهم وجمّعت أفكارهم . وغلبت بعظمتها ، غلبة الإسلام بعظمته . فمع أنه لا إكراه فى الدين ولا فى اللغة فقد أسلم أهل البلاد المفتوحة ، وتكلم العربية غير المسلمين . وترجمت إليها الكتب الدينية ، لغير المسلمين وإنما استعرب لسان السكان ليسر اللغة ، وثروتها ، ومطاوعتها لفنون الحضارة . واستعرب

لسان العلم العالمى نحو عشرة قرون ، فلما شرع أهل أوربة فى القرون الوسطى يتعلمون ويترجمون ، ترجموا من اللغة العربية علوم العرب وعلوم اليونان أجداد أوربة .

كانت اللغة اللاتينية فى أوربة تنفرد بأنها لغة الرسائل العلمية — لو وجدت — حتى القرن السابع عشر . وكانت أول ترجمة علمية إلى الإنجليزية ترجمة كتاب إقليدس سنة ١٥٧٠ م فى القرن العاشر للهجرة . فثمت قرون عشرة مسلمة للغة العربية ، لا يشركها شريك من اللغات المعاصرة الآن .

واستبقت اللغة العربية قوتها وقوة الفقه العربى فى معاهد الأمة العربية وأصقاعها لأن العرب بلغتهم أقدر على فهم نصوص الكتاب العزيز والسنن والآثار ، وهى مصادر الدين ، وبهذا أصبحت الأمة العربية نواة للأمة الإسلامية .

فكل وهن يطرأ على اللغة العربية ، يطرأ على العرب وعلى المسلمين ، وكل نشر لها أو دعم لأساليبها ، بتأليف أو خلق أغراض أو تحسين استعمال أو غير ذلك ، هو تمكين مزدوج للإسلام وللأمة العربية .

والتعبير بلهجة محلية ، هو فى جملة أمره تفكير محلى ، ورجوع القهقرى ، إلى تعبير السليقة أو القبيلة بعد إذ ترقى ، فصار تعبيراً على مستوى الأمة ، بلغة عامة . أو هو تجسيد لفوارق ، أو إبقاء على تقسيم . وهو ، فى كل حالاته ، إهدار لقيمة العملة الغالية التى تتعامل بها الأمة العربية مع العالم ، كقوة من قواها العارمة ، وصور لوجهها الواحد بين الأمم . أما اللهجات المحلية فتجعلها أشتاتًا — أمما .

اللغة — بعد العقيدة — أعظم القيم للأمم . هى ثمرة المجتمع . والمجتمع ثمرتها . فالناس تفكر بكلمات غير منطوقة أى باللغة . واللغة الغنـّية بكلمات المعرفة والفضياة والفن ، تحدث خصبـًا فكريـًا وتوجيهـًا حسنـًا فى السلوك ، وفنـًا . والكلمات معان وشعارات وأفكار . والإنسان يفهم فيتكلم ، وينمى الكلام فهمه ، فتصوغ لغتـُه فكره . ولقد يمكن التفكير الغريزى بغير كلمات . لكن التفكير الكبير أو المتحضر ، يجرى بكلمات اللغة التى تسع الفكر ، كدأب الجسم والروح ، كلاهما يسع الآخر ويصنعه . والناس تفكر تفكيراً عاليـًا باللغة العالية — وعلى قدر اتباعنا للغة العربية يتكون انطباعنا العربى وارتباطنا بمصادرنا الدينية .

وكان الشافعى فى حثه على العلم بها ، وبجعله أصحابها متبوعين لا تابعين ، وباستخراج كنوز الفقه من خلالها ، رائداً فى هذا المجال أيضاً ، للتجمع الإسلامى على منابعه الأولى .

* * *

واللغة وآدابها أداة لدراسة القانون . وما تزال جامعات العالم تقرن الدراسة الأدبية بدراسة القانون . ولقد نهج الشافعى هذا المنهج بهدى نفسه ، وهولم يكد يشب عن الطوق ، أو كان قد شب وشيكا ، وسيجرى على آثاره فيها طلاب الفقه وعلماؤه جيلا بعد جيل .

والزمخشرى ، من خوارزم ، يقول .

« ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها — حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه — لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج . وزيغاً عن سواء المنهج . والذى يقضى منه العجب حال هؤلاء فى قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم . وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وتفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع » .

واللغة العربية لا تنزل من المسلمين أو من العرب منزلة الإغريقية أو اللاتينية من أمم أوربة وأمريكا ، مصدراً تاريخياً . أو مرحلة من مراحل نماء الأمة . فاللغتان الأخريان ، ليستا لساناً الآن لليونانيين أبناء الإغريق أو للإيطاليين من أبناء الرومان ، وإن كانتا تدرسان كالدراسة الأثرية . . فاللغة العربية يتعبد بها نحو أربعمائة مليون فى كل يوم وجوباً فى الصلاة . يقرءونها إذ يقرءون القرآن ، وإذ يتدارسون شئون الدين . وهى اللغة الرسمية لمائة مليون من العرب ، هى مظهر اعتزازهم ، وأغلى حلية عندهم ، معبرين أو مفكرين .

والدهر فى خدمتها . كلما طال عليها العمر ، اتسع أفقها وطاوع أسلوبها ونحوها وصرفها واشتقاقها العلوم والفنون ، بثراء لفظى ، لا يتناهى ، جدة وإشراقاً وسعة ، وباشتقاقات وافرة مبدعة ، من الأفعال والأسماء التى تنشىء المعانى وتربطها بأصل الكلمة فتزيدها عذوبة وقدرة ووفرة .

والأمة بتمامها لا تجتمع على شىء بقدر اجتماعها على اللغة العربية . فهى صيحة الوحدة أو هى كالصلاة الجامعة .

يقول الثعالبي : « من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً . . ومن أحب الرسول العربي أحب العرب . . ومن أحب العرب أحب العربية . . والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبال على فهمها من الديانة . . ولو لم يكن فى الإحاطة بخصائصها ، إلا قوة اليقين فى معرفة إعجاز القرآن لكفى » .

والعربى تيّاه بلغته . ينظر إليها نظرته إلى الفن الجميل . . وتحتوى خزانته أو تنطوى أضالعه على الكلمة المنثورة أو البيت من القريض كأنه أنفس أعلاقه . وكما يمتع الكلام الجميل سمعه ، وتأسر بصره الصورة الرائعة ، يترنم بالكلمة العذبة كالموسيقى الموقعة .

فلا جرم أن اللغة العربية جماع الفنون عند العرب .

ولكم حاول أعداء الإسلام طوال القرون أن يهدموها ، فما قدروا إلا على تعويق أهلها عن الأخذ بأسباب الحضارة . ودلوا على أن الأمة العربية لا ترقى بغير لغتها .

* * *

وليس كاللغة العربية لغة ترتبط فيها طبيعة صاحبها بطبيعة اللغة لفظاً ومجتمعاً .

ويصدق عليها تعبير سقراط : « إن اللغة نشاط اجتماعى » . بل تعبير جابر بن حيان : « تنتقل الطبائع إلى الحروف والحروف إلى الطبائع » .

فالكتابة العربية أدنى كتابة إلى الطبيعة — تجرى من يمين الكاتب . ولقد طوعت للإنسان العربى أن يعالج بتعبيراته العالم الخارجى والعالم الداخلى ، عالمى العمل والتأمل ، أو المحسوسات ، والغيبيات . فكانت المتواليات الحسابية ، وعدم تناهى الأعداد ، ورموز الجبر ، من استخراجات الثقافة العربية . ولم تتصد أمة لفض الحجب عن أسرار الطبيعة قدر ما تصدى المسلمون .

وهى قديمة قدم العرب الذين انبثقت منهم الشعوب ، فانطلقوا إلى أرجاء العالم ، فى فجر التاريخ المعروف ، إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب . . وهى قد وسعت أطوار الحضارة وفاقتها بغير حدود . وطاولت لغة الفرس ولغة اليونان واللغة القبطية ، وغلبت عليها . وكانت وما تزال لمفاخرها أسواق تقام . . وهى اليوم ، تساجل اللغات المعاصرة وتطاولها ، فلا تشق لها غباراً لغة أخرى : طول عمر وسعة أفق ، ووفرة لفظ وبلاغة ، ونحواً وتصريفاً وبياناً واشتقاقاً ، وقدرة على التجديد ومطاوعة للأغراض . .

ولما نزل القرآن بها رفع شأنها فوق الذرى .

يقول « بروكلمان » : « بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أى لغة أخرى من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعًا مؤمنون بأن العربية هى وحدها اللسان الذى أحل لهم أن يستعملوه فى صلواتهم . وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى ، التى تنطق بها شعوب إسلامية . . » .

ولقد جعلتها منزلتها من الفكر العربى والدين العربى ، بشعرها ونثرها ، مصدر قوة للعلماء ، ووسيلة لتعميق الحفظ عند الطلاّب وتثبيته . والشعر أنفذ إلى قلب العربى وأسير على لسانه . . ومن الرياضيين والفلكيين والأطباء والعلماء الطبيعيين العالميين من نظموا الشعر فى العلوم ، ومن كتبوا أبلغ النثر : الخوارزمى وهو فيلسوف أديب ومخترع فى الجبر والحساب والفلك والبيرونى وهو من خوارزم كذلك يقول : « ديننا والدولة العربية توأمان » ويكتب فى الفلك والرياضيات والتاريخ والأدب . . وجابر بن حيان أول من استحق لقب كيماوى ، والكندى الرياضى الفلكى فيلسوف العرب ، وابن سينا الطبيب أو الرئيس كما يسمونه ، وابن النفيس الطبيب مكتشف الدورة الدموية قبل هارفى بأربعة قرون ، كابن يونس مخترع بندول الساعة ، قبل جاليليو بتسعة قرون — أمثال لكثيرين آخرين ، كلهم أصحاب أسلوب فى الشعر أو الأدب أو العلم أو المنطق أو الفلسفة . وعمر الخيام تغلب شهرته كشاعر فيلسوف على شهرته فى الجبر والكيمياء . حتى الأراجيز ، التى نتجت طرازها الصحراء ، أمسن ترتجز فى الحساب والجبر والفلك ! فابن الهائم يضع رسالة بالشعر فى الجبر . وابن الياسمين يضع رسالة فى الحساب والجبر . وفيها :

على ثلاثة يدور الجبر   المال والأعداد ثم الجذر
فالمال كل عدد مربع   وجذره واحد تلك الأضلع
والعدد المطلق ما لم ينسبِ   للمال أو للجذر فافهم تصبِ

والفزارى — الفلكى العظيم فى عهد الرشيد — كان من أهل اللغة ، له قصيدة تقوم مقام أزياج المنجمين أولها :

الحمد لله العلى الأعظم   ذى الفضل والمجد الكبير الأكرم   الواحد الفرد الجواد المنعم
الخالق السبع العلى طباقا   والشمس يجلو ضوؤها الأغساقا   والبدر يملأ نوره الآفاقا

وهى هكذا ثلاثة أقفال ، ثلاثة أقفال ، تدخل مع تفسيرها عشرة أجلاد .

وذات يوم أهدى أبوإسحق الصابى اسطرلابا إلى عضد الدولة فى باقة من الشعر يقول فيها عن نفسه :

لم يرض بالأرض مهداة إليك فقد   أهدى لك الفلك العالى بما فيه

وألفية ابن مالك فى النحو ذائعة الصيت ، بين منظومات فى النحو لا يكاد يحصيها ، أويحصى شروحها ، عد .

وفى الفقه كثير من النظم ، مثل :

وقيل بالتخيير فى فتواه   إن خالف الإمام صاحباه

وقيل من دليله أقوى رجح   وذا لمفتٍ ذى اجتهاد الأصح

أو المنظومة التى أسلفناها ومطلعها :

فعليك يا من رام دين محمد   بالشافعى وما تلاه وقالا

كان الفقه الإسلامى ، وما يزال ، قمة لم تبلغها الشرائع المعاصرة جمعاء . وربما كان أثر الدراسات الفقهية ، فى خلود اللغة العربية واتساع مداها ، عدلا لأثر العلوم كلها وللأدب العربى بتمامه .

* * *

خلص الشافعى من بيان أن القرآن عربى ، إلى حكم فقهى ، هو فرض تعلم اللغة العربية ، وجوبًا ، على كل مسلم ليشهد الشهادتين ويتلو الكتاب العزيز وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغيره من الواجبات . فمن تعلم من اللغة العربية قدراً أكثر كان هذا من الطاعات. قال : « فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها » . ورتب على ذلك ما يربط الشريعة الإسلامية كلها باللغة العربية .

كان إمامًا فى اللغة . وإمامًا بها : يتفرد من بين أئمة الفقة ، بل الفكر ، الإسلامى كله بأنه كانت له لغة تنسب إليه إذا خالفه الغير فيها صح مقاله هو ، لأن لسانه لسان العرب . ولقد وجهه الإدراك العميق لأسرار اللغة والتفقه الشامل إلى أن ينظر النظرة الأصيلة ،

فيرفع معرفة اللغة إلى مستوى الدين : ويصيرها واجبًا على المسلمين . وتلك يده على اللغة وعلى العرب وعند المسلمين : أن جعل الإسلام عربى اللسان مهما تعددت أجناس المسلمين.

وكان عربى النفس . يرى العرب متبوعين . ويرى معرفة لسانهم فرضًا واجبًا ، والازدياد منه فرض طاعة .

لندع للشافعى – رضى الله عنه – الكلام فى منزلة العروبة واللغة العربية من الإسلام. فقوله أبلغ وأنصع . قال :

« وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى : ولا يجوز – والله أعلم – أن يكون أهل لسانه أتباعًا لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد . بل كل لسان تبع لسانه . وكل أهل دين قبله ، فعليهم اتباع دينه .

وقد بين الله ذلك فى غير آية من كتابه .

قال الله : «وإنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العالَمِينَ . . بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

وقال : «وكَذَلِكَ أَنْزلناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا »

وقال : «وكذلك أَوْحَيْنا إليكَ قُرآناً عَرَبِيًّا » .

وقال : « . . . إنا جعلناه قرآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

... وعرّفنا نَعمه بما خصنا به من مكانة فقال «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتّم ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالمؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ...

وكان مما عرف الله نبيه من إنعامه أن قال «وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَوْمِكَ » ... فخص قومه بالذكر معه بكتابه . وقال : « لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » .

وأم القرى ، مكة ، وهى بلده وبلد قومه ، فجعلهم فى كتابه خاصة ، وأدخلهم مع المنذرين عامة ، وقضى أن ينذروا بلسانهم العربى ، لسان قومه منهم خاصة » .

هكذا يترقى الشافعى من بيان أفضلية اللسان العربى وتبعية الألسن كلها له ، بنفس المثل من تبعية كل أهل دين قبل النبى ، لدين النبى ، إلى بيان اختصاص الله تعالى للعرب بمكان من القرآن ومن إنعام الله ، لأن قوم النبى جاءوا بمكان خاص فى الكتاب ، إذ قضى

أن يندروا بلسانهم العربى . ثم يترقى عقله الدقيق ليرتب الحكم الدينى على أن اللسان العربى لسان المعجزة ، وأن العرب مخصوصون فيه فيقول : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك »[١]

ولا يفتأ يترقى فيضيف خيراً لكل مسلم أن يزداد به علماً ، ويقرن الخير فيه بالصلاة والحج فيقول : « وما ازداد من العلم باللسان ، الذى جعله الله لسان من ختم به نبوته . وأنزل آخر كتبه ، كان خيراً له . كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتى البيت وما أمر بإتيانه ويتوجه لما وُجه له . ويكون تبعاً فيما افترض عليه وندب إليه لا متبوعاً » .

* * *

لقد كان يقدّر حق التقدير أن الذين وَعوا القرآن وهو المعجزة ، هم الذين صنعوا الأعجوبة بأرواحهم ودمائهم لعمق إيمانهم وقوة فهمهم . وكانوا قلة فى الأمم . لكنهم نشروا الدين فى جزيرة العرب وغلبوا على دول العالم المعروف إذ ذاك فى سنين . ثم حملوا مشاعله وألويته المظفرة إلى الصين وشمال فرنسا . . فهذه الحقيقة التاريخية التى تشدّه الفكر عند الذين لا يدركون أسباب قوة هذا الدين ، هى التى تجعل الإمام العظيم ، يفكر فى هداية العالم كله ، لمثل ما قدر عليه العرب من جرّاء فهمهم لأسرار المعجزة ، باللسان العربى . .

وبهذا يضاف إلى الإنسانية أعظم النعم . فكلما انتشر اللسان العربى انتشر الإسلام ، وسرت جذوره إلى أعماق أبعد . وازداد الفهم للقرآن والسنة فزاد البشر إيماناً . .

وندع الكلام ثانية للإمام ، ليقول أبلغ الكلام . وما هو إلا النداء الأبدى ، اليومى ، للمسلمين ليعضوا بالنواجذ على اللغة التى تجمعهم وترفعهم ، وتتيح لهم أن ينهضوا بتبعاتهم . وكأنما يوجه النصح لنا ، الآن فى عصرنا ، ليدلنا على أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلُح به أولها :

« وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره ، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب ، وكثرة وجوهه وجماع معانيه

(١) وهو لا يجيز القراءة فى الصلاة بغير العربية سواء أحسن القارئ غير العربى اللغة العربية . أو لم يحسنها .

وتفرقها . ومن علمه انتفت عنه الشبه التى دخلت على من جهل لسانها . .

فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة ، نصيحة للمسلمين ، والنصيحة لهم فرض لا ينبغى تركه . وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه وترك موضع حظه . وكان يجمع مع النصيحة لهم قياماً بإيضاح حق . وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين من طاعة الله . . وطاعة الله جامعة للخير » . .

هكذا يسمو الشافعى باللغة ، فيصير إدراكها واجباً لا يصح تركه ، وطاعة يثاب عليها . .

وهكذا جعل الشافعى العناية باللغة العربية مسئولية إسلامية .

وذلك وجه جليل من وجوه الشمول فى شخصية الشافعى وعلمه : هو أن الإسلام عنده مقترن باللغة العربية ، وبالعروبة ، وبالفضل الذى اختص به قوم النبى .

وإذا كان لقريش فى العرب مكان الصدارة ، فالعرب من صرح الإسلام هم حجارة الأساس .

والإمام الذى يجعل « العربية » عماد منهاجه هو إمام العرب والمسلمين جميعاً .

الباب التاسع

إمام مصر

« يشفع يوم القيامة الأنبياء
ثم الشهداء ثم العلماء » .

« حديث شريف »

الفصل الأول

الأيام الأخيرة

غضب الحمقى من المتعصبين لمذهب مالك من أجل الكتاب الذى وضعه الشافعى فى خلاف مالك ، ففزعوا إلى الوالى يطلبون إخراجه من مصر . وكان السرى بن الحكم واليًا على مصر ، من قبل المأمون ، يقدم الشافعى على نفسه ولا يؤثر عليه أحداً فلم يكن أذُنًا للحمقى ، ولم يصب الإمام من أذاهم مثلما أصاب ضحايا المتعصبين الذين زخر التاريخ بآثامهم ، وبالمُثلات يحدثونها فى طلائع التقدم .

ولم يكن الإمام ليلقى باله إليهم ولا إلى الأذى لو وقع ، فلقد كانت تستأثر به أحاسيس المسئولية عن رسالته ، فلا تربطه بصغار المتعصبين وسفاهات المتنطعين . وكان بصيراً بما يجب لسياسة الناس وسياسة التعليم من مصابرة وجلد .

لم تكن تربط الشافعى بشجون الحياة اليومية إلا تباريح سقامه ، ونزيفه الذى لا يخف ولا يتوقف ، وكانت كافية لتهدم الطود الأشم .

أعلن إمام المسلمين فى أخريات أيامه — فى ورع لا فى توجع — أنهم « يقولون إنى إنما أخالفهم للدنيا . . وكيف يكون ذلك والدنيا معهم ؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه ، وقد منعت ما ألذ من المطاعم ؟ ولا سبيل إلى النكاح — يعنى لما كان به من البواسير — ولكن لست أخالف إلا من خالف رسول الله » .

قيل إن فتيان بن أبى السمح — وكان من أصحاب مالك ، فقيهًا من أشعث الناس فى المناظرة — وقعت بينه وبين الشافعى محاورة . فبدرت من فتيان بادرة ، فلم يرد عليه الشافعى . . . فرفعها رافع إلى الأمير السرىّ فطلبه وعزره . وأمر أن يطاف به على جمل ، وبين يديه مناد ينادى : هذا جزاء من سب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وقيل إن قومًا تعصبوا لفتيان بعد ذلك ، فقعدوا لحلقة الشافعى كل مرصد ، حتى

ونرى للمالكية خمس عشرة حلقة ، وللشافعية مثلها ، ولأصحاب أبي حنيفة حلقا ثلاثة . وسيشهد المسلمون من تعصب الحمقى للمذاهب عجباً . قالوا : وجد الوالى الحنفى فى بلاد ما وراء النهر ، إذ هو يخرج للصلاة فى الصبح ، مسجداً للشافعية فقال : أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق ؟ فسد أتباعه الباب بالطين واللبن ! !

وكان أهل جيلان (بلاد ما وراء خراسان) حنابلة . إذا دخل عليهم حنفى قتلوه وجعلوا ماله فيئاً للمسلمين !

قال المقدسى (كان الأندلسيون لا يعرفون إلا القرآن والموطأ . إذا وجدوا تابعاً من أتباع أبى حنيفة أو الشافعى طردوه من أسبانيا . والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من طائفة تنتمى لمذهب ما . فإنهم كثيراً ما كانوا يخمدون أنفاسه) .

أما ابن رشد فانتهى به الأمر إلى نفيه إلى بلاد المغرب !

وفى الأندلس أحرقت كتب ابن حزم ونفى . . لكن فكره بقى ، وفنى الذين ناوءوه .

وليس الذى جرى فى مصر — الفسطاط — إلا قليل بالنسبة لما جرى ببغداد فى العصر ذاته ، من تجييش الجهل وتحريش الحمق ، وتنكيل فريق بفريق ، فنال أهلَ السنة أذى كبير فى عهد المأمون والمعتصم والواثق وزلزلت محنة خلق القرآن الطمأنينة فى القلوب . . وامتد لهيبها من بغداد ، فأسعر البلاد ، وأصاب أعظم تلاميذ الشافعى بمصر وبغداد ، حتى إذا أتم قانون القوة دورته ، كان رد الفعل مساوياً للفعل فى المقدار ومضاداً له فى الاتجاه . فكال الحنابلة لهم بمثل ما كالوهم .

* * *

أحس الشافعى باقتراب رحيله إلى عالم الخلد فى العام السابق على وفاته فحرر وصيتين اثنتين فى سنة ٢٠٣ [١] .

---

(١) واحدة : فى صفر سنة ٢٠٣ تصدق فيها على ولده (أبى الحسن) بن محمد بن إدريس بأربعمائة دينار وثلاثة أعبد وأمة ومسكنين ودملجين وخلخالين وقلادة من ذهب وحلى من ورق) . هذا فى مصر ، وفى مكة بمسكنه الذى (بمهبط ثنية كدى من مكة قبالة دار مثيرة على يسار الخارج من مكة فى شعب محمد بن إدريس . وهما المسكنان اللذان أحدهما المسكن الذى بفناء دار محمد بن إدريس العظمى . . أحد هذين المسكنين المسكن الذى بناه محمد بن إدريس إلى جنب المنزل الذى يعرف بجابر بن محمد — وذلك المنزل أحد حدوده كدى ، وحده الثانى الرحبة التى بفناء دار محمد بن إدريس العظمى . والحد الثالث طريق شعب محمد بن إدريس والحد =

وألح عليه الداء فى الأيام الأخيرة ، فتجمعت عليه آثار الجهد الذى أكلّ جسمه .

= الرابع طريق الشعب العظمى إلى ذى طوى .

والمسكن الثانى سقائف حجارة نجيرتها وحجرتها على رأس الجبل الذى فيه الخزانة الصغيرة . وهذا المنزل الذى يعرف بفلان بن عبد الجبار . . ما عاش أبو الحسن . . لا حق فيها لأحد معه حتى تعتق أم أبى الحسن بن محمد ، فإذا أعتقت أم أبى الحسن بن محمد بن إدريس كانت أسوته فى هذين المسكنين . . فإذا انقرض أبو الحسن . . وولده ، فهذان المسكنان لأم أبى الحسن . . . فإذا انقرضت فهذان المسكنان لفاطمة وزينب ابنتى محمد بن إدريس فإذا انقرضوا فهذان المنزلان صدقة على آل شافع بن السائب فعلى من حضر مكة من بنى عبد المطلب بن عبد مناف . . فعلى الفقراء والمساكين . . شهد على إقرار محمد بن إدريس بما فى هذا الكتاب وعلى أن أبا الحسن بن محمد المولود بمصر متصدق عليه بما فى هذا الكتاب على ما شرط فيه ، صغير ، يلى محمد بن إدريس أبوه القبض عنه والإعطاء منه . . .

والثانية : كتبها (محمد بن إدريس بن العباس الشافعى (فى شعبان سنة ثلاث ومائتين) فجعل تنفيذ وصيته لشخص عينه ليعتق عبدا خلفه بمكة – ويعتق « فوز » الجارية الأندلسية التى ترضع ابنه أبا الحسن عندما يبلغ السنتين) —وأوصى أن تعطى أم أبى الحسن أم ولده دنانير ، وأن تعطى جاريته مسكة السوداء وصية لها . وأوصى أن يقسم ثلث ماله أربعة وعشرين سهماً فيوقف على دنانير سهمان من أربعة وعشرين سهماً من ثلث ماله ما عاش ابنها وأقامت معه ينفق عليها منه ، وإن مات ابنها أبو الحسن وأقامت مع ولد محمد بن إدريس فذلك لها. وإن أقامت فوز مع دنانير وقف على فوز سهم من أربعة وعشرين من ثلث مال محمد بن إدريس ينفق عليها منه ما أقامت معها ومع ولد محمد بن إدريس فإن لم تقم فوز قطع عنها ورد على دنانير . . وأوصى لفقراء شافع بن السائب بأربعة أسهم من أربعة وعشرين سهماً من ثلث ماله . . وأوصى لأحمد بن محمد الوليد الأزرقى بستة أسهم من أربعة وعشرين سهما من ثلث ماله . وأوصى أن يعتق عنه رقاب بخمسه أسهم من أربعة وعشرين سهما من ثلث ماله . ويتحرى أفضل ما يقدر عليه وأحمده . ويشترى منهم مسعدة الخياط إن باعه من هو له فيعتق . وأوصى أن يتصدق على جيران داره التى كان يسكن بذى طوى من مكة . وأوصى لعبادة السندية وسهل وولدهما مواليه وسليمة مولاة أمه .. وجعل إنفاذ ما كان من وصاياه بمصر إلى الله تعالى ثم إلى عبدالله بن عبد الحكيم القرشى ويوسف بن عمرو بن يزيد الفقيه وسعيد بن الجهم الأصبحى . . وأوصى أن يلحقوا ابنه أبا الحسن متى أمكن إلحاقه بأهله بمكة . ولا يحمل بحراً وإلى البر سبيل بوجه . وينفذوا ما أوصاهم به بمصر ويجمعوا ماله ومال أبى الحسن . . وهم قائمون بدين محمد بن إدريس قبضاً وقضاء دين . وجعل محمد بن إدريس ولاء ولده بمكة وحيث كانوا إلى أبى عثمان وزينب وفاطمة بنى محمد بن إدريس (أشهد محمد بن إدريس الشافعى فى مرضه أن سليمان الحجام ليس له وإنما هو لبعض ولده . . وقد أوصيت بثلثى ولا يدخل فى ثلثى مالا قدر له من فخار وصحاف وحصر من سقط البيت وبقايا طعام البيت وما لا يحتاج إليه مما لا خطر له على ذلك) .

أوصى الشافعى هذه الوصية إذ أحس دنو الأجل وأوصى بثلثه ، تعبيراً فصيحاً عن ثلث ماله ، إلى وجوه البر التى حددها .

ولا يدخل فى الثلث متاعه من فخار وصحاف وحصر مما لا خطر له كما يقول . فقد كان متاع بيت إمام المسلمين فى أوج مجده —لا خطر له . . فخاراً أو صحافا وحصرا . . لا سرر ولا نمارق ولا زرابى ! وهو =

وكان نزيف البواسير يخرج منه ، وهو راكب ، حتى يملأ ثوبه وخفه وسرجه ، ثم قويت العلة حتى ثقبوا الفراش له ، ووضعوا الطست تحته . . وكان رحمه الله يقول فى المرض : « اللهم إن كان لك فيه رضا ، فزد » . .

كان يستطيع أن يبقى فى مكة أو بغداد فتضرب إليه آباط الإبل من كل فج عميق ، لكنه آثر أن يجوب السهل والحزن ، على ظهور العيس المرهقة القلقة ، من أقصى الأرض إلى أقصاها ، يُعلم ويتعلم ، غير قانع بشرح نظرياته التى استحدثها ، ففرض على نفسه الكفاح البدنى والعقلى الدءوب ، إن دفاعاً وإن هجوماً . إن مرتحلا وإن مقيما . إن مسافراً وإن مهاجراً . كل بلاد الإسلام عنده دار واحدة .

وكان نضو أسفار ، بلا مال ، يذوى عوده ويذبل ، حتى نفذت العلة إلى صميم جسده . . وهو مع ذلك يدرس ويكتب ويملى ، ليل نهار . والتلاميذ منصبون إليه ، متوافرون عليه ، منخرطون فى سلكه . لا يبرمه الجدل ولا تُسئمه العلل — فليس أمامه إلا وجه الله يتغياه ، وكأنما يسابق الموت حتى لا تفوته فرصة لنشر فكره ، ويواصل تفانيه ، دقيقة بعد دقيقة ، فيذيبه التفانى حبة حبة . ويرى فناء نفسه فى سبيل الله بقاء للدنيا ورضواناً فى الآخرة .

وفى هذه الساعات الأخيرة من حياته ترك وصيته العلمية : « ما ناظرت أحداً على الغلبة ، وودى أن جميع الخلق يعلمون كتبى ولا ينسبون إلى منها حرفاً » قالها يوم الأحد ومات يوم الخميس .

= يبر أهله وجيرانه ومواليه ، وموالى آمه وأبيه ، ويحسب حساب أم ولده ومرضعة أبى الحسن — ولا ينسى أن يعتق رقاباً بخمسة أسهم كاملة ، ويخص من الرقاب رقبة مسماة .

ذلك وغيره من وجوه المعروف والفضل يتجلى لقارئ الوصية . نقف الآن عند أمور منها . مثل : أن عبد الله بن عبد الحكم يظهر فى الوصية متصدراً هيأة المنفذين ، وهو مظهر الصلة بين الإمام الشافعى وبين عالم المالكية الكبير ، مع ما كان بين حلقات المذهبين من تناوش . فكان ذلك درساً فى حرية الفكر وتحية متبادلة . ومثل أن زوجته حميدة حفيدة عثمان بن عفان لا تبرز فى الوصية بل تبرز أم ولده دنانير وطفلها الذى لم يمض عليه عامان ، مما قد يشير إلى أن حميدة بارحت الدنيا بمصر أو قبل ، وأن الإمام قد رزق بطفل من دنانير وأن مشاعر الإشفاق على مصير الطفل الصغير — لا يحمل بحرا وإلى البر سبيل بوجه — تؤرق شيخاً رجع بفكره القهقرى ، نصف قرن مضى ، على عودة طفل آخر يتيم إلى أهله بمكة ، عمره عامان ؛ كالطفل الذى أهمه يتماً وعمراً ، غير أن الطفل الحالى سيرجع من مصر ابن إمام المسلمين ، فى حين كان الطفل القديم راجعاً من غزة يتيما ذات متربة فى كنف أم لا يبرح الخيال ذكراها .

وأرجح الأقوال أنه مات فقيراً حتى يقال إنه طلب إلى الوالى تغسيله ليقضى ديونه . ولقد قال (أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلى وكثيرى حتى حلى بنتى وزوجتى ولم أستدن قط) .

خلت من أصحابه ، وضربوه فحمل إلى منزله ، وبقى فيه عليلا حتى مات . . وهو قول غير معتمد .

وقالوا إن عيسى بن المنكدر – الذى تولى قضاء مصر سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٤ بعد وفاة الشافعى – صاح بالشافعى يوماً : دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ورأينا واحد ففرقت بيننا وألقيت بيننا الشر . فرق الله بين روحك وجسمك :

ومن قبل الشافعى صبر النبى على الأذى والسفاهة ، وصنع مثله أبو حنيفة وأترابه وويل لعالم أمر من جاهله . والجاهل عدو نفسه . والعلم لا يخذله الأدعياء ولا الأعداء .

ولقد كانت بهذا القاضى خفة وفسالة . خاصم إليه رجل فتبسم . فأمر بلطمه فلطم ! وكانت تفرخ الأضاليل فى خياله ، وتفرُط الفرطات منه فى الأحكام . اختصم إليه رجلان . فقضى لأحدهما على صاحبه . ثم قال له : قم فاجعل رجلك على خده ، تذله بالحق ! !

هذه الفرطات فى حق الشافعى وأشد منها ، من القاضى ومن أخف منه ، عناها معاوية يوم قال : والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، فإن لم يكن من أحدكم سوى كلمة يقولها ليشتفى بها ، فإنى أجعل له ذلك دبر أذنى وتحت قدمى .

أما الشافعى رضى الله عنه فمثله عبد الله بن عباس . شتمه رجل فقال : « إنك لتشتمنى وفىَّ ثلاث . إنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأحبه . ولعلى لا أقاضى إليه أبداً . وإنى لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالى سائمة ولا راعية . وإنى لآتى على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين يعلمون منها مثل ما أعلم » ، وكلاهما كان مثله الأعلى سيد المرسلين بصبره على الأذى والسفاهة . قال : « ألا أدلكم على أشدكم ؟ أملككم لنفسه عند الغضب » .

والشافعى هو القائل : « ما نظر الناس إلى شىء هم دونه إلا بسطوا ألسنتهم فيه » .

ولم يكن الخلاف الفكرى بين المتفقهين ليخف . . والصراع العفيف عرض القوة وسيحتدم فى مجلس الأخشيد فيما بعد . ويثير الشغابون الرهج ، فيجرى بين المتناظرين والحضور لغط شديد ، فيقول بعد إذ ينصرفون : (يجرى هذا فى مجلسى ! كدت والله آخذ بعمائهم) .

وسنشهد بعد أكثر من قرن القتال بين تلاميذ الشافعى وتلاميذ مالك فى الجامع العتيق .

كان ناصرَ السنة ، والتعليم سنة سيد المرسلين . فالشافعى لا يلتمس أن ينسب العلم إليه ، ليُذكر به أو يشكر عليه ، وهو الذى يقول « أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره » . وهو يوصى بكتبه لجميع الخلق ، ولا يخص المتفقهين ولا المسلمين . والإسلام — ومنه العلم — نزل للناس أجمعين .

* * *

ودنا الأجل وأقعده المرض ، وانقطع عن الدرس وتهيأ للرحلة الأخيرة ، القصيرة ، من بين رحلاته الكثيرة الطويلة . دخل عليه تلميذه المزنى قال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا وللإخوان مفارقًا . ولكأس المنية شاربًا . والله ما أدرى روحى تصير إلى الجنة أو إلى النار فأعزيها . . ثم بكى مناجيًا غافر الذنب وقابل التوب سبحانه . قال :

فلما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك . . ربى . . كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّةً وتكرما

وكان برد الأيام الأخيرة زمهريراً فى الفسطاط ، فزادت سوْرة المرض قسوة من كلب البرد ودأب الجهد ، على شيخ نهكته العلة . وخفت الجرس ، وسكت الصنج ، اللذان كانا صوته العذب . . وأمسى أعظم قارئٍ للقرآن بعد الصحابة المقدمين ، عاجزاً عن تلاوته بل فى حاجة الآخرين يقرءون القرآن له !

* * *

وأسلم إمام المسلمين وجهه لله . وراح يعيش بين الدنيا والآخرة . . فلما كان المغرب ليلة مات قال قائل : ننزل حتى نصلى ؟ قال : « تجلسون تنتظرون خروج نفسى » . فنزلوا . ثم صعدوا يجلسون . فسألوه أصليت أصلحك الله ؟ قال نعم . فاستسقى ، وأرادوا مزج الماء بماء ساخن قال . بِرُبِّ السفرجل . قال يونس : ما رأينا أحداً لقى من السقم مثل ما لقى الشافعى . دخلت عليه فقال : « يا أبا موسى اقرأ على ما بعد العشرين والمائة من آل عمران ، وأخفّ القراءة ولا تثقل » . وقرأت عليه . فلما أردت القيام قال رحمه الله : « لا تغفل عنى فإنى مكروب » .

قالت أم المؤمنين عائشة : « لا أزال أغبط المؤمن بشدة الموت بعد شدته على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولقد دعا عليه الصلاة والسلام بقدح من ماء عندما نزل به الموت فجعل يمسح به وجهه ويقول « اللهم أعنى على كرْب الموت » .

وحضر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقت أن طُعن عمر ، وأثنوا عليه . فقال الفاروق : المغرور من غررتموه. لو أن ما على وجه الأرض من ذهب لافتديت به من أهوال المطلع .

وما أحوج ابن آدم لرضى ربه يوم يلقاه . فلهذا كان دعاء النبى عليه الصلاة والسلام للشهداء : اللهم القَهُ وأنت عنه راض .

قال يونس : عنى فى قراءتى ما بعد العشرين والمائة مالقى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونحوه .

بلى . . لقد أحس الإمام أنه ملاق ربه ، فأراد أن يهيئ تلاميذه للأمر بعده ، وأن يجهز للقاء نفسه ، وأن يعيش ساعاته الأخيرة بين بطولات أحدو شهدائها ، فيودع الحياة الدنيا كما حييها بالقرآن والسنة ، ويسبح بالخيال إلى ما بعد أحد ، إذ أظهر الله دينه على الدين كله ، وأعد للصابرين ثواب الآخرة ، التى يقف الشافعى ببابها . . ثم قول الله جل ثناؤه .

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولمَّا يَعْلَم اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ ويَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . ولَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ . وما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً . وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ومَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ » .

* * *

صعدت روح الإمام إلى بارئها . . عند العشاء الأخيرة من ليلة الجمعة .

قالوا : حملت جنازته إلى السيدة نفيسة فصلت عليه صلاة الجنازة وقالت « رحم الله الشافعى . إنه كان يحسن الوضوء » .

ودفن جثمانه يوم الجمعة بعد العصر يوم ٢٩ رجب سنة ٢٠٤ فى المقطم بمقبرة القرشيين بين قبور بنى عبد الحكم . وإلى جوار القبر قبران آخران لعبد الله بن عبد الحكم وولده عبد الرحمن . ولما انصرفوا من دفنه لاح لهم هلال شعبان .

قالوا : لما مات ذهب أهله إلى الوالى فأنبؤوه أن الإمام أوصى بأن يغسله الأمير . فقال الأمير لهم : هل ترك الإمام ديناً ؟ قالوا بلى . فأمر بسداده بأكمله ، وقال لهم : هذا معنى تغسيلى له .

* * *

وبلغ ابن حنبل فى بغداد نبأ موت الأستاذ فى الفسطاط . فتوجع واسترجع وقال مقالة إمام فى إمام . . تحتوى عباراتها القليلة على أعظم المعانى شمولا وسعة فى البيان العربى .

قال : رحمهُ الله . كان كالشمس للدنيا وكالعافية للناس . فانظر هل لهذين من خلف أولهما عوض ! .

أجل : إنها الشمس . جعل الله فيها أسباب الحياة جميعاً . والكواكب لها تبع . وإنها العافية للناس . وليس فى الوجود البشرىّ نظير للعافية .

وانقضت أيام . فوقف على الحلقة أعرابى فسأل : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ قالوا : توفى رحمه الله . ففاضت عيناه بالدمع وسالت العبرات قطرات . وقال : رحمه الله وغفر له . كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويوسع بالرأى أبواباً منسدّة .

وبكاء العربى — كنحو كلامه البليغ — وداع من العرب الذين ألِفوا أن يسمعوا ، والذين يدركون بعروبتهم عروبته وبلاغته وعظمته ، والذين يمثلون جمهور الأمة التى دانت بآرائه . وهو — إلى هذا جميعه — رثاء للظاهرة الإنسانية التى ومضت سنوات ومَضَت إلى غير عودة . وإن ملأت آثارها الوجود كله .

* * *

كان الشافعى إماماً . خرج فى سبيل العلم ، ومات شهيداً فى سبيله . وضعه الرسول فى مكانه ، بين الأنبياء والعلماء ، حيث قال « يشفع يوم القيامة الأنبياء ، ثم الشهداء ، ثم العلماء » .

الفصل الثانى

إمام مصر

ملك الشافعى على أهل مصر قلوبهم مذ وفد إليها كبشائر الفجر الطالع . وكانت الحضارة الإسلامية تتجه شطرها لتتخذها منطلقاً . وكان فى الخمسين ، تسبقه شهرته التى لا تنازع . فهو قد بدأ مقامه فى مصر ، وهو فرد الدهر . تربطه بالمصريين روابط شتى من الإكرام والتجلة . وهم شعب متدين من قديم الزمان ، مجمع على السنة . لم يعرف زندقة أو هرطقة أو تفرقاً ، كما تفرق القوم فى بغداد ، أو غيرها ، بعضهم لبعض عدو ، بل اعتنق المصريون الإسلام بتعبد عميق عريق ، حببه إليهم يسره ، وأنه دين الفطرة ، ولم يكن العرب غُزّى جبارين ، بل كانوا رسل هدى ومعلمين : يخالطون الشعب وينشرون فيه فضائل الإسلام .

أحبت مصر محمد بن إدريس الشافعى حبها لدينها ، ولعروبتها ، ولابن عم الرسول ، وعالم قريش المنتظر . وتلك درجة فى القلوب يتفرد بها من بين سائر الأئمة والعلماء .

وأحبته لأنه جاءها بما تهوى الأنفس : كلام الله وسنة رسوله .

وأحبته إذ يتلو كتاب الله كما لم يَرَوا أحداً يتلوه .

وأحبته للقدوة والأسوة من حياته عبادة وعملا .

وأحبته إذ بايعه أئمة البلاغة على أنه الإمام . .

وأحبته لأنه كتب فيها كتبه الباقية على الدهر ، فخصها بالمجد الذى يعلو بها كلما استطال الزمن ، والذى بوأه مكانه فوق القمم ، ؤمن نحو ألف ومائتى عام ، ليبقى فوقها أبداً .

لكأنما كانت كل كلمة يقولها ابن هشام صاحب السيرة النبوية بجامع عمرو أو فيما عداه ، تزكية للإمام القرشى الذى يمت إلى صاحب السيرة بأوثق آصرة من دينه وفقهه وفصاحته وقرباه . .

فلما ضم جثمانه ثرى الفسطاط ، رفعته إلى أعلى هضاب مصر ، فى حراسة قبرين لعظيمين من علمائها .

وكان من منطق التاريخ أن يكون أقدم مخطوط تفاخر بعرضه دار الكتب المصرية اليوم فى قاعة المخطوطات ، نسخة من القرآن الكريم يرجع تاريخها إلى النصف الثانى من القرن الأول . يقال إنها من نسخ المصحف الذى جمعه عثمان ووزع نسخه فى الأمصار . . وأن يكون المخطوط الذى يليه فى القدم ، وفى الفخار ، وتعرضه دار الكتب ، هو « رسالة الشافعى » بخط الربيع بن سليمان بأجزائها الثلاثة وفى ختامها (أجاز الربيع بن سليمان صاحب الشافعى نسخ كتاب الرسالة ، وهى ثلاثة أجزاء ، فى ذى القعدة سنة خمس وستين ومائتين — وكتب الربيع بخطه) . وأن يكون ما بين أيدى المسلمين اليوم من رسالة الشافعى هو صيغة هذه النسخة .

* * *

أخذ تلاميذ الشافعى يلون القضاء والإفتاء فى بغداد ذاتها فى عهد المتوكل (٢٣٢— ٢٤٨) . وفى منتصف القرن الرابع ولى القضاة فى بغداد شافعى ، هو عتبة بن عبيد بن موسى . وانتشر المذهب فى مصر والشام ، وسمقت السوق التى نمت فى الفسطاط وبغداد ومكة ، وبسقت الفروع فى كل مكان . فلم يكد ينتصف القرن الثالث ، حتى كان أحمد ابن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠) يشجع فقهاء الشافعية . وتغلغل المذهب بأدنى الأرض وأقصى الصعيد لنجد فى أسوان أبا لحنيفة الأسوانى — القبطى الأصل — وأطول تلاميذ الشافعى حياة بعده (٢٧١) .

وفى حياة الربيع أى القرن الثالث ، حمل أحمد بن سيار كتب الشافعى إلى مرو ، وأعجب بها الناس — فنظر فيها عبد الله بن محمد بن عيسى المروزى ، وأراد أن ينسخها فلم يمكنه ابن سيار . فباع ضيعة له وخرج إلى مصر فأدرك الربيع وغيره ، فنسخ كتب الشافعى ورجع إلى مرو . ونشر القفال الكبير والقفال الصغير المذهب بخراسان وسجستان وما وراء النهر . ونشره المروزى والإسفراييني فى مرو . وذاع المذهب فى هراة وسرخس ونيسابور وطوس وغيرها .

ومكن السلطان محمود بن سبكتكين ، والوزير « نظام الملك » ، للمذهب الشافعى فى المشرق . ونافس الشافعية الحنفية فى القضاء ببغداد ، ثم عزل القاضى الشافعى ، لكن

فقه الشافعي طفق يزاحم الحنفى بمنكب ضخم . ولم يكن بفارس إلا المذهبان الشافعى فالظاهرى ثم ساء الظاهرى ثم انقرض، فغلب المذهب الشيعى فى فارس حتى اليوم . أما أهل السنة فيها فشافعية .

انتشر المذهب الشافعي بالحجاز ، وفى بلاد الهند والقوقاز وبلاد الأكراد وأرمينية ، وشمال أفريقية وشرقها حتى تنزانيا . ووصل الأندلس ابتداء من القرن الرابع ، وانتشر فى جزر الهند وسيلان وجاوة والفلبين وسيام والهند الصينية حتى أندونيسيا . كما انتشر فى اليمن فى أوائل القرن الرابع وفى عدن وحضرموت .

وسيطر الشافعية فى عالم الفقه والقضاء بمصر منذ ولى القضاء «أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشق» سنة ٢٨٤ فى عهد هرون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، وكان أبو زرعة يهب مائة دينار من يحفظ مختصر المزنى فى فقه الشافعى .

وفى منتصف القرن التالى ، أمرت الدولة الفاطمية بالعمل بمذهب الشيعة فى مصر فلم يتعد المذهب الدولة إلى الشعب ، ومع ذلك اضطر الخليفة المنتصر فى سنة ٥٢٥ إلى تعيين قاضٍ شافعى ، وقاضٍ مالكى ، وقاضٍ للشيعة الأمامية ، وقاضٍ للشيعة الإسماعيلية . وفى سنة ٥٤٧ تولى قضاء القضاة شافعى هو (أبو المعالى مجلى) . كما كان يحدث أن يولى الفاطميون وزراء سنيين . فلما أبطل صلاح الدين العمل بالمذهب الشيعى سنة ٥٦٧ عين عبد الملك بن درباس المرانى الشافعى قاضياً للقضاة . وبدأ تغيير القضاء ليصير القضاة بمصر والشام شافعية — وتبعته الدولة الأيوبية فدولتا المماليك .

وفى سنة ٦٦٦ عين قضاة على المذاهب الأربعة . مع اختصاص القاضى الشافعى بالنظر فى أموال اليتامى وتولية النواب فى الوجهين القبلى والبحرى ، والنظر فى شئون الأوقاف . حتى إذا دخل العثمانيون مصر ، قرروا أن يكون القضاء حنفياً ، فأجاءوا قاضياً من تركيا يحكم على المذاهب الأربعة . له نواب أربعة يجلسون بالمدرسة الصالحية وكان المعمول به قضاء النواب الأربعة .

وإذ بقى المماليك على حكم البلاد ، فقد كانوا يعينون شيخاً للأزهر من الشافعية . ولهذا كان أغلب شيوخ الأزهر شافعية ، وكان المالكية أقل . ولم يصر بعض شيوخه من الحنفية إلا منذ قرن ، ولم يقتصر القضاء على المذهب الحنفى رسمياً فى مصر إلا بفرمان أصدره محمد على من أكثر من قرن مضى .

اختص الأزهر أول أمره بتدريس فقه الشيعة . فظلت للشافعية والمالكية حلقاتهم بالجامع العتيق جامع عمرو — ثم صار الأزهر لكل المذاهب . وقصده الغرباء وألقى فيه الدروس مشيخة العلم وناظورته ، طوال القرون الماضية كمثل عبد اللطيف البغدادى وابن خلدون .

ولما عفت معاهد بغداد وقرطبة ، أقبل المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها على الأزهر ، فكان ملاذ الشعب والدولة — حتى إذا كان الاحتلال العثمانى (٩٢١هـ — ١٥١٧ م) بقى الأزهر يحمل المشعل ، فحفظ للأمة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم .

وفى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى نهض الأزهر ، بأعظم كفاح لطرد الغزاة الفرنسيين ، وها هو ذا اليوم يحمل تبعاته فى نهضة الأمة الإسلامية ، كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا ، من كليات أصول الدين والشريعة والقانون واللغة . إلى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها .

* * *

كانت يد صلاح الدين (٥٦٥ — ٥٨٩ — ١١٦٩ — ١١٩٣) بيضاء على العلم كمثل ما كانت صعقاته ساحقة للعدو . حمل المهند فى يد ، وفضائل الإسلام فى يد : يبلغ المستجير مأمنه ، والصلح عنده خير ، وهو منتصر أعظم النصر . يعالج العدو المريض ورحى الحرب تدور . ويعلم ويعمل بما يرويه الشافعى من قول مروان بن الحكم لعلى بن الحسين (ما رأيت أحداً أكرم غلبةً من أبيك (يقصد على بن أبى طالب جده لأبيه) ما هو إلا أن ولّينا يوم الجمل فنادى مناديه : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح)

ولما مات صلاح الدين لم يكن فى خزائنه إلا سبعة وأربعون درهماً !! .

وكان غزّاء وبناء كالرشيد . وكان كمثله مجالس علم . يرحل الرشيد بولديه إلى مالك فى المدينة ليسمعا الموطأ . ويبعث الأمراء لسماع « كتاب السير » على محمد . ويرحل صلاح الدين بولديه : العزيز عثمان ، والأفضل على ، ليسمعا الحديث على الإمام السلفى . وفى بلاط الرشيد عمالقة الأدب العربى ، وقاضى القضاة . وفى مغازى صلاح الدين القاضى الفاضل . . والقاضى الفاضل هو الذى يقول عن صلاح الدين ورحلته بولديه

لكن المذهب الشافعي استبقى مكانته فى الشعب . فأغلب أهل المدن اليومَ بما فيها القاهرة شافعية . وأغلب أهل الوجه البحرى ، اليوم ، شافعية . وأغلب أهل الصعيد مالكية .

* * *

فى القرن الثالث استوسق للدولة الفاطمية أمر المغرب العربى وأفريقية وجزيرة صقلية . . وفى القرن الرابع قدم مصر « جوهر » يقود جيوش المعز لدين الله (٣٥٨ — ٣٦٥) ، فنزل شمال شرقى القطائع والعسكر ووضع أساس القاهرة سنة ٣٥٨ . وأساس الأزهر سنة ٣٥٩ . وتمت عمارته فى رمضان سنة ٣٦١ (٩٧٢ م) فسمى « جامع القاهرة » . ثم انفرد باسم (الأزهر) . أما اسم المدينة القديمة الفسطاط فأصبح (مصر) . واسم المدينة الجديدة (القاهرة) ثم صارتا بلدة واحدة ، تدعى (مصر القاهرة) . ثم القاهرة . وكان بمصر عندما زارها ابن حوقل فى القرن الرابع دور من سبع طبقات . يسكن الواحدة منها المئتان من الناس ، وبها الحمامات الفسحة والبيمارستانات ، والأسواق المسقوفة التى نقلتها عنها عواصم العالم .

فتح الأزهر أبوابه للصلاة . فلم تمض أعوام أربعة ، حتى كان مدرسة جامعة ! درس فيه على بن النعمان مختصر أبيه فى فقه الشيعة لجمع حافل من العلماء والكبراء . . وأثبت أسماء الحاضرين . فكانت أول حلقة للدراسة فى الجامع الأزهر ، وأول درس يقيد فيه الأسماء . وبعد سنوات استأذن العزيزَ بالله وزيرُه يعقوب بن كلس — وكان مسيحياً أسلم — فى أن يعين للتدريس به سبعة وثلاثين فقيهاً لهم رئيس ، ودار للسكنى ، تجرى عليهم أرزاق حسنة وأوقاف . وتخلع عليهم الخلع فى عيد الفطر ، إلى جوار أعطيات للأساتذة والطلاب . وبغلات يحملون عليها تشريفاً لهم . ومن أشهر الأوقاف على دور العلم وقفية الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ — بل أصبح للأزهر « شخصية قانونية مستقلة » فقرر السلطان برقوق سنة ٧٩٢ أن يرث مجاوريه وأرباب وظائفه إذا لم يكن لهم وارث .

وظهر للأزهر منافسٌ عتيد حينما أنشأ الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١) « دار الحكمة » .

وتقاسم الجامعتان التدريس : للأزهر العلوم الدينية والقراءات ، ومجلس قاضى القضاة ومركز المحتسب العام ، ولدار الحكمة اللغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة .

(فهذه رحلة ثانية . يقوم فيها مقام الرشيد . ويقوم عليّه وعثمان . مقام المأمون والأمين) .
أدرك صلاح الدين منذ دخوله القاهرة أن طرد الصليبيين من فلسطين لا يتم إلا بوحدة المسلمين فكريًّا وعسكريًّا ، فبدأ بالتمكين للسنة والقضاء على مذهب الشيعة لتدين الأمة العربية بمذهب واحد . فلما أصلح الله باله ، نهد للقاء الصليبيين ، فكتب على نفسه الجهاد أربعة وعشرين عامًا . منها ثمانية فى مقر القيادة بالقاهرة ، وستة عشر فى ميادين المعارك .

وأدرك ما يدركه بناة التاريخ العظام . أن الأفكار لا تقاومها إلا الأفكار . وهو مبدأ تعلمه على « نظام الملك » الذى أنشأ مدرسته ببغداد لمقاومة فقه الدولة البويهية الشيعى ، وتعلمه على أستاذه ومليكه نور الدين محمود . إذ قاوم المذهب الشيعى فى سوريا ، بنشر المذهب الحنفى وإنشاء أول مدرسة لتدريس الحديث بها . فلما طبق المبدأ بمصر ، حيث الغلبة للمذهب الشافعى ، انطلق صلاح الدين يبنى المدارس له بل للمذاهب الأخرى للسنة ؛ حتى انماع المذهب الشيعى كما يماع الملح فى الماء وأصبح المذهب الشافعى مذهب الأيوبيين .

والذى صنعه صلاح الدين ، صنعه من قبله ومن بعده كل الذين استقلوا بمصر ، أو عزموا الاستقلال بها . . كان السرى بن الحكم ، أولهم ، يمشى وراء الشافعى إعظامًا له ، وابن طولون أول الذين استقلوا بالفعل ، وكان خلفاؤه يعضدون الشافعية ، فلما بنى القطائع وشيد المسجد الجامع القائم إلى اليوم ، كان « الربيع » راويةُ الشافعى أول من ألقى الدروس به ، ولما مات صلى عليه خمارويه بن أحمد بن طولون وقد تولى بعده . وفى عهد هارون بن خمارويه مكن « أبو زرعة » للمذهب الشافعى . .

وسنرى بعد ألف عام ، على بك الكبير يستقل بمصر سنوات أربعًا (١٧٦٨ — ١٧٧٢ م) فيحقق الوحدة بين مصر والشام والحجاز ، كمثل صلاح الدين ، وكمثله أيضًا يتقرب إلى الله والناس بتجديد قبة الشافعى ومسجده وقبره . بل سنرى أسد الدين شيركو — عمّ صلاح الدين — إذ يفتح الله عليه مصر يزور ضريح الشافعى . وعند الضريح يقتل جنود صلاح الدين (شاور) الوزير الذى استعان على بلاده بالصليبيين ، فى حين كان شيركوه يزور الضريح . .

* * *

كانت نصرة السنة صيحة الحرب من صلاح الدين على الشيعة ، فابتغى الوسيلة هو ودولة بنى أيوب كلها ، إلى الله والمسلمين ، بناصر السنة : محمد بن إدريس الشافعى .

كان أول بنيان ضخم أقامه فى حكمه هو المدرسة « الناصرية » لتدريس فقه الشافعى وهى منسوبة إليه : « الملك الناصر » صلاح الدين : وهى كذلك أول مدرسة أقيمت بفسطاط مصر. وقف عليها الصاغة وقرية . وقامت المدرسة قبالة جامع عمرو حيث أذاع الشافعى مذهبه . وهى كذلك أول مدرسة أقيمت فى مصر ، بالفسطاط أو بالقاهرة مستقلة عن المسجد .

وكانت المدرسة الثانية منسوبة إلى صلاح الدين أيضاً وهى المدرسة (الصلاحية) لتدريس فقه الشافعى . ولما ضرب الدينار الذى يحمل اسمه للدنيا سنة ٥٧٦ . جمع فى سكته وعملة دولته ، ما تقاسمه الاسمان اللذان تحملهما المدرستان . فنقش على وجهه (الناصر لدين الله) وعلى ظهره (صلاح الدين) .

فالشافعى وصلاح الدين فى مصر قرينان . بايعت أولهما الأمة الإسلامية على أنه (ناصر السنة) . وبايعت ثانيهما على أنه « الناصر صلاح الدين » . وكان طبيعياً أن يتشفع الأخير منهما بالأول .

كان مجرد وزير للخليفة الفاطمى العاضد ، لم يمض عليه عامان مذ دخل مصر ، ومن ذلك بنى المدرسة الناصرية ، للشافعى ، بجوار جامع عمرو سنة ٥٦٦ (١١٧٠ م) ؛ كذلك صنع عندما دخل بيت المقدس بعد انتصار « حطين » فأنشأ مدرسة للشافعى ، تم بناؤها سنة ٥٨٨ (١١٩٢ م) أى فى العام السابق على وفاته . فكان من أواخر أعماله الكبرى بناء مدرسة للشافعى إلى جوار المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله ، مثلما كان من أوائل أعماله الكبرى بناء مدرسة للشافعى إلى جوار الجامع العتيق الذى باركه الله بالشافعى ذاته .

* * *

اشتهرت المدرسة الناصرية باسم مدرسة « ابن زين التجار » أحد علماء الشافعية الذى بدأ التدريس فيها . ثم عرفت فيما بعد بالمدرسة « الشريفية » نسبة للشريف قاضى

العسكر الذى ألقى الدروس هنالك . زارها ابن جبير سنة ١١٨٣ (٥٧٩ هـ) فوصفها بأنها لم يعمر مثلها من حيث المساحة والبناء حتى يخيل لمن يطوف بها أنها بلد مستقل، وبإزائها الحمام والمساكن للطلاب . وإلى شيخها نجم الدين الخبوشانى فقال إنه لم يجد بمصر كلها نظيراً له . . والخبوشانى هو الذى ألقى خطبة الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ (١٠ من سبتمبر سنة ١٩٧١) باسم الخليفة العباسى وكتب بعدها صلاح الدين إلى الخليفة يقول : إن (الدين أصبح واحداً بعد أن كان أدياناً) .

وبدأ عصر جديد للعلم الإسلامى .

ففى سنة ٥٧٢ (١١٧٦م) بنيت تربة الإمام الشافعى . وفى سنة ٥٧٤ (١١٧٨م) صنع التابوت . كما يظهر من كتابة صانعه عليه . وهى أول عمارة على قبره . سيجددها الملك الكامل سنة ٦٣٥ وينفق عليها خمسين ألف دينار مصرية .

وفى سنة ٥٧٢ ذاتها شرع صلاح الدين فى بناء « المدرسة الصلاحية » لتدريس فقه الشافعى وانتهى بناؤها فى سنة ٥٧٥ (١١٧٩م) فعرفت « بتاج المدارس » . وأوقف عليها صلاح الدين ريع جزيرة الفيل للنفقة على التدريس . وفى مكانها الآن ، مسجد الشافعى . تعاقب على التدريس بها أعاظم العلماء . ورعاها ملوك الدولة ، الأيوبية ، ودولتا المماليك ، وجددها قايتباى ، كما عمرها الأمير عبد الرحمن كتخدا الذى أحدث بالأزهر أكبر عمارة فى تاريخه ، فصار ضعفى ما كان .

وفى جوار جامع عمرو كذلك . أنشأ صلاح الدين المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكى ، وعرفت بهذا الاسم للقمح الذى يجيئها من الأوقاف المحبوسة عليها مباشرة ، ليوزع على الطلاب والأساتذة .

وانتقلت يد البنّاء العظيم من الفسطاط إلى القاهرة ، فأنشأ المدرسة السيوفية لتدريس الفقه الحنفى ؛ وعرفت بهذا الاسم ، لأنها كانت تطل على سوق السيوفيين ، ثم إلى الإسكندرية ، فأنشأ المدرسة السلفية ، باسم أبى طاهر أحمد السلفى . وأوقف الملك العزيز عثمان — ابن صلاح الدين — على الزاوية التى كان يدرس فيها الشافعى بجامع عمرو ، وعرفت به ، ريع أرض بناحية سندبيس من أعمال القليوبية ، وهى من القرى التى نزل بها العرب فى الحوف الشرقى .

ودفن العزيز عثمان وأمه شمس ، زوجة صلاح الدين ، إلى جوار قبر الشافعى تقربا وتشفعا . وما تزال قبة الشافعى من أظهر معالم القاهرة . وعندها دفن الملك العادل ، نائب صلاح الدين وأخوه .

وبنى صلاح الدين القلعة على مبعدة ميل من قبر الشافعى ، ونقش عليها فتوحه وألقابه . فاجتمعت القبة والقلعة ، اجتماع العلم والقوة ، فى أعلى مشارف القاهرة . ليعلّم الشافعىُّ وصلاحُ الدين المسلمين الدرس الأول فى الذود عن الإسلام : أن يُعِدوا لخصومهم ما استطاعوا من قوة . . وأن يتعلموا .

هكذا يقترن اسم الشافعى فى مصر بتدريس فقه السنة خصوصًا . وتدريس العلم عمومًا . وبالمدرسة المتخصصة للتعليم لأول مرة فى الإسلام بمصر . ويقترن اسم صلاح الدين بالعلم قدر ما يقترن بالشافعى — ويقترن الاسمان بإنشاء النظام التعليمى الجديد، وبالدفاع عن السنة وعن الإسلام كله ، كما يقترن اسماهما باسم مصر .

وتبارى الوزراء وزوجات الوزراء ، والأعيان والتجار ، فى نزعة التشييد . وهى مباراة لا مشابه لها إلا فى بلد مسلم : بنى الوزير عبد الرحمن البيسانى — القاضى الفاضل ، وكان شافعيًّا من عسقلان — المدرسة الفاضلية فحوت مكتبتها مائة ألف كتـاب فى كل العلوم[1] ، وكان فيهـا قاعة للإقراء . أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبى . وأنشأ الوزير أزكش المدرسـة الأزكشية لتدريس الفقه الحنفى وأنشأت زوجة أزكش السيدة عاشوراء المدرسة العاشرية . وأنشأ التاجر ابن الأرسوفى مدرسة ابن الأرسوفى .

وفى عهد العزيز بن صلاح الدين (٥٨٩ — ٥٩٥) أنشئت المدرسة الأشقشة . وفى عهد المنصور بن العزيز ، أنشئت المدرسة الغزنوية . وفى عهد العادل (٥٩٦ — ٦١٥) أنشئت المدرسـة العادلية والمدرسة الشريفية . وأنشأ أخـوه تقى الدين المدرسـة التقوية للمذهب الشافعى وهى المسماة بمنـازل العز . ومدرستين بالفيوم عندما صارت إقطاعًا له .

---

(١) قيل إن صلاح الدين وجد بالقاهرة عندما دخلها نحو مليون كتاب — فى مكتبات الفاطميين آل منها ١٢٠ ألفاً للقاضى الفاضل .

وفى عهد الكامل بن العادل (٦١٥ — ٦٣٥) أنشئت المدرسة الكاملية لتدريس علوم «الحديث» . وأنشئت المدرسة الفخرية . وفى عهد العادل بن الكامل أنشئت المدرسة الصيمرية والمدرسة الفيضية . وفى عهد الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل (٦٣٧ — ٦٤٧) أنشئت المدرسة الصالحية لتدريس فقه المذاهب الأربعة ، ومدرسة لتدريس فقه الحنابلة .

* * *

بنيت هذه المعاهد الضخمة للعلم فى أعوام ثمانين هى عمر الدولة الأيوبية ، واستطردت بعدها دولتا المماليك (٦٤٨ — ٩٢١) فى رسالة الحضارة ، فأوفتا على الغاية من الناحيتين التعليمية والمعمارية . فلم تكن المساجد أو المدارس مجرد معاهد أو جامعات ، بل أمست عماراتها عدلا لأهرام مصر التى تقهر الدهر .

كانت كل مدرسة تنشأ أو مسجد يقام ، مفخرة للملك . يحشد لها جاهه وماله والدارسين والمدرسين . فالمدرسة والمسجد آيتان للخلود فى مصر الإسلامــية ، مع هذا الفارق الضخم الذى تضاءلت بإزائه الأهرام وقمؤت . . إن عمارات الأسلام بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . ويدرس فيها العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ولم يتوقف إنشاء المعاهد الكبيرة إلا يوم لقى السلطان الغورى حتفه تحت سنابك الخيل فى «مرج دابق» دفاعًا عن مصر والشام ، حينما كرث الاحتلال التركى بلدان العالم العربى —[1] حتى إذا نهضت مصر فى فاتحة القرن التاسع عشر ،

(١) فى عهد دولتى المماليك اشتد تنافس الملوك والوزراء والموظفين فى بنيان المساجد والمعاهد وخلع أسمائهم عليها وسنقرأ الوظائف فى أسماء المدارس (صر غتمس = رئيس الحرس) (وأمير اخور = أمير الخيل) و (المهمندار = رئيس الاحتفالات) و (أقبغا — الوزير الكبير).

وحسبنا هنا أن نذكر المعاهد ، دون المساجد :

أنشأ المعز أيبك (٦٤٨ — ٦٥٥) : المدرسة القطبية والمدرسة الصاحبية .

وأنشأ الظاهر بيبرس : (٦٥٨ — ٦٧٦) : المدارس الظاهرية . الجدية . والذهبية والفارقانية .

وأنشأ المنصور لاجين : المدرسة الطفقية والمدرسة المنجو تيمورية .

فى عهد الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٨) أنشئت المدارس الناصرية والقراصنقرية والجملية والمهمندارية والسعيدية والمالكية . والبختمورية . والجوالية . والطيبرسية والاقبغاوية . وقد نافستا الأزهر بطلابهما . =

انطلقت تنشئ المدارس . . ولا جرم إن علوم الشريعة التى تدرس فى هذه المدارس سماء لا تطاولها سماء . والفقه الغربى يحاول ليبلغ شأوها ، وما هو ببالغه .

وتخلف عن هذه النهضة العلمية ، أثر فنى من أهم الآثار التى تضافرت لأحداثها القرون الأربعة التالية لصلاح الدين ، يتجلى فى أعظم الآثار المعمارية الباقية بمصر الإسلامية ، بل فى العالم الإسلامى جميعه . . وهو الطراز المعمارى المسمى بطراز « المسجد المدرسة » أو « المدرسة المسجد » . ذلك أن المسجد ، اتخذ شكل المدرسة . فلم يقتصر تصميمه على إقامة فناء واسع للصلاة الجامعة ، يتحلق فيه الطلاب حول الأساطين ، بل أصبح طراز كلية أو جامعة . تؤدى فيه الصلاة الجامعة ،لكن فيه أروقة للطلاب أو قاعات مخصصة لكل مذهب ، وأماكن معدة للإقامة الدائمة أحيانًا ، بما يصحب ذلك من معدات كالمكتبات والحمامات ومساكن المشرفين والأطباء وما إلى ذلك . . ولم يك بالقاهرة عندما زارها ابن جبير فى عهد صلاح الدين جوامع كبرى إلا جــوامع : عمرو والأزهر وابن طولون والحاكم . . فكل ما جد بالقاهرة التى يطلق عليها « مدينة المساجد » إنما هو من روائع العمارة الإسلامية التى بنيت على هذا الطراز ،. طراز الجامع الذى هو

= وفى عهد الناصر حسن (٧٦٢) أنشئت مدارس الخيروية والقيصرانية والشاغرة والفارسية والصرغتمشية والحجازية والبشيرية والسابقية .

ومع أن السلطان حسن لم يك ذا شأن فى التاريخ السياسى إلا أن المدرسة التى تحمل اسمه من سنة ٧٥٧ حتى اليوم ، هى الدره الفنية للعمارة فى المدارس الإسلامية جمعاء قال عنها القلقشندى (يقال إن أبوابها تزيد فى القدر على أبواب كسرى بأذرع) .

وهى أعظم بناء إسلامى قائم الآن . مساحتها نحو عشرة آلاف متر مربع . وتحيط بالصحن مدارس أربعة المذاهب الأربعة ، كل مدرسية لها إيوان وصحن . وهى من عدة طبقات تشرف على الصحن وعلى واجهة المدرسة الكبيرة . لكل مدرسة شيخ وملاحظون للحضور والغياب فى الليل والنهار ، وأمين للمكتبة ، وبكل مدرسة مائة طالب (داخلية) من كل فرقة ٢٥ متقدمون ، ٣ معيدون ، ٣٠ طالباً للقيام بوظيفة النقيب . . ألحق بها مكتبان لتعليم الأيتام القرآن والخط . إذا أتم اليتيم حفظ القرآن منح ٥٠ درهماً ومثلها مكافأة لمعلمه ولها طبيبان دائمان ، واحد للأمراض الباطنية وثان للعيون ، وطبيب ثالث للجراحة عند الحاجة .

قال الرحالة المغربى الورتيلانى فى القرن الثانى عشر الهجرى (إنه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد . كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح فى أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل فى شواهق الجبال . وفى أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى وفيها نقوش عجيبة) .

ويقول المقريزى عنها (لا يعرف فى الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع وقبته لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها) .

جامعة يفد إليها المسلمون من كل الأقطار لتلقى العلم ، كما يفد الأجانب إلى القاهرة والإسكندرية ودمياط وتنيس للتجارة مع كل أطراف العالم(١).

* * *

كانت الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة . فحرقت الفسطاط حتى لا تتحصن فيها جيوش الصليبيين . واشتعلت النار بالفسطاط أربعة وخمسين يوماً فى العام السابق على مقدم صلاح الدين ليذود عنها الصليبيين . أما الجامع العتيق فلم تمسسه النار ، فبذل صلاح الدين قصاراه لتعمير الفسطاط ، بالمدارس ينشئها ، والجامع العتيق يعمره ، باعتباره معقل السنة ، وبالأرزاق الدارّة على أهل العلم ، حتى لتبلغ مائتى ألف دينار فى العام — روى ابن جبير أنه كان ينفق ألفى دينار فى الشهر

= وتوالى إنشاء المدارس : البرقوقية . والأتميشية والاستدارية . والمحمودية . السودان . ومدرسة فرج . ومدرسة عبد الغنى . ومدرسة بارسباى . ومدرسة فيروز ومدرسة أبى بكر بن مظفر (٨٥٨) ومدرسة الروضة ومدرسة قانى بك أمير أخور . ومدرسة السلطان الغورى التى تلفت النظر اليوم على ناصية الطريقين المؤديين إلى الأزهر وإلى الباب القبلى للقاهرة القديمة .

(١) حسبنا أن نذكر أمثالا مما رواه الفرنجة عن القرون الخمسة التى جيشت مصر فيها جيوش صلاح الدين وخلفائه ، وأقامت هذه المعاهد والمساجد ، ومنها يستبين دورها التاريخى فى موقعها الجغرافى بين طرفى العالم . وأن القوى العسكرية والعلمية والفنية والمعمارية نهضت بها قوى اقتصادية من مستواها .

كان خان مسرور فندقاً بين فنادق كثيرة بالقاهرة ، به وحده مائة حجرة ، يقصده تجار سوريا . وكان بالقاهرة وكالات تجارية كثيرة ، منها وكالة قوصون يخزن بها السوريون بضائعهم ، رأى فيها المقريزى سنة ٨٠٠هـ أربعة آلاف إنسان يعيشون فيها .

ومن قبل ذلك وفى عصر حروب صلاح الدين كان بالإسكندرية فى شتاء سنة ١١٨٧ — ١١٨٨ سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من الجمهوريات الإيطالية وغيرها من الدول الأوربية تحمل تجارات أوربا والشرق.

وأذن الملك العادل لأهل البندقية أن ينشئوا فندقاً لتجارتهم فى الإسكندرية . وصار لهم فيها قنصل استطاع خلفاؤه فيها بعد أن يضمنوا مائة ألف جنيه استرلينى فدية فرضتها مصر لإطلاق سراح ملك قبرص عندما أسرته . وذات يوم دفعت سفينة واحدة ٢١٠٠٠ جنيه استرلينى مكوساً على حمولتها بالإسكندرية .

ومن قبل ذلك فى عهد المستنصر الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧) (القرن الحادى عشر الميلادى) قرر ناصر خسرو أن الخراج اليومى بمدينة تنيس — وحدها — ألف دينار . وأن بساحلها دائماً ألف سفينة بعضها للتجار وبعضها للسلطان . كما قرر أنه رأى بالقاهرة عمارات تبلغ أربعة عشر طابقاً ، وأن بالقاهرة ٢٠،٠٠٠ دكان يملكها الخليفة — أى الدولة — أجرة الواحد بين دينارين وعشرة دنانير مغربية — دعك من سائر الناس والبلاد وشتى مصادر الإيراد ، من زراعة ذائعة الصيت وتجارة عالمية وصناعة هى مفخرة العصور الوسطى فى بلدان العالم .

ولم يتضاءل المورد الخارجى إلا بعد تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ ولم تضمحل ثروة البلاد إلا بعد احتلال الأتراك مصر سنة ١٥١٧ .

لصيانة المساجد عموماً ، وخص جامع عمرو بثلاثين ديناراً فى اليوم لصيانته ونفقة القراء فيه .

لكن البلدة التى نزل ابن جبير بفندق فيها بشارع القناديل ، قريباً من جامع عمرو ، بعد إذ التهمتها النار بخمس سنين ، لم تقدر على البقاء بمعزل عن القاهرة — ولم يكن بينهما أكثر من ميل — فوسعت القاهرة الفسطاط والعسكر والقطائع . وشرع صلاح الدين يسورها جميعاً بسوره العظيم سنة ٥٦٩ وبنى لحمايتها القلعة عند قبة الهواء .

وفى خارج مصر حدث بناء المدارس فى القرن الخامس . بنى أهل نيسابور المدرسة البيهقية . وبنى نصر بن سبكتكين مدرسة . وبنى أخوه السلطان محمود مدارس ثلاثة .

وأشهر ما بنى فى بغداد المدرسة النظامية سنة ٤٥٩ — بعد الأزهر بمائة عام ، تماماً — أنشأها الوزير نظام الملك (٤٠٨ — ٤٨٥) ، وقرر بها معاليم للفقهاء ، وكان يسمع الحديث ويسمعه ويقول : إنى لأربط نفسى فى قطار النقلة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ألقى بها الدروس طائفة من أساطين العلم الإسلامى والمذهب الشافعى ، كأبى إسحق الشيرازى والجوينى والغزالى .

وفى القرن التالى أقيمت ببغداد مدرسة للشافعية على شاطىء دجلة .

وفى القرن السابع الهجرى (١٢٣٤ ميلادية) قامت المدرسة المستنصرية فى بغداد تدرس المذاهب الأربعة . لكل أستاذ ٧٥ تلميذاً . وللتلميذ دينار من الذهب كل شهر . فوق جراية من خبز ولحم كل يوم . وورق وزيت للإضاءة وساعة حائط وصهاريج لتبريد المياه وحمام للطلاب وبيمارستان .

أما أقدم الجامعات الأوربية فقامت بعد ذلك فى النصف التانى من القرن الثالث عشر (السابع الهجرى) أقامها الفونسو الحكيم فى أسبانيا (١٢٥٢ — ١٢٩١)

فدرس فيها (أبو بكر الرقوطي) العلوم للمسلمين والمسيحيين واليهود[١] .

* * *

سعدت مصر بالشافعي فى حياته وبعد مماته ، فأصبح لها شعاراً للعلم ، ورفع ذكرها بين الأمم ، وكانت أعوامه الأخيرة فرصتها العظمى على الدهر ، لتظفر بمثل إنسانى يقصر اليراع دون تصويره من أى ناحية بُصر به .

اجتمع له ما كان تفاريق عند الأئمة ، فتمثلت فيه علوم السنة وعلوم الرأى معاً ، ينشرها كلها فى أعز مكان بجوار البيت الحرام ، وفى عواصم الإسلام . ليثبت بين الكثير مما يثبته ، بالفعل وبالفكر : أن الإسلام دار واحدة ، وأن مصدره واحد وأن لسان الإسلام واحد : عربى ، وإن تعددت وجوه ناسه .

كان نصف القرن الذى رفعه فوق هاماته . مفخرة التاريخ العلمى فى الإسلام كله . تشرئب نحوها ، لتبلغ شأوها ، حقب التاريخ العلمى . فكان فيه مثلا أعلى بالقول والفعل والقدوة . أفنى حياته فى سبيل الوحدة الفكرية للأمة . فارتبط فى فكرها بأسباب وجودها — فهى تذكره كلما ذكرت مقدساتها الأربعة : القرآن والسنة ، واللغة العربية ، والوحدة .

ولقد يكون من أترابه من بلغ الذروة فى كثير من مناحيه . لكن أحداً لم يبلغ فيها كلها ، مبالغه كلها ، وكأنما كانت حياته وثبات بين القمم . . يسرت له السماء كل الأسباب ليكون إماماً لا قرين له .

* * *

ضرب البناة العبقريون على قبره القبة العالية — ورفعوا فوقها زورقاً دقيق الصنع ، يسبح سبحاته فى ضمير العصور ، وكأنما يطير ، أو يشق صفحة الماء ، زرقاء صافية

---

(١) سقطت فى يد الأسبان طليطلة سنة ١٠٨٥ ، وقرطبة سنة ١٢٣٦ ، وكان يسكنها مليون نفس وإشبيلية سنة ١٢٤٨ وغرناطة سنة ١٤٩٠ ، ومنذ سنة ١١٣٠ أنشئت فى طليطلة مدرسة يرأسها (ديموند) رئيس الأساقفة لتنقل الكتب العربية ، وفى سنة ١٢٥٠ أنشئت مدرسة للدراسات الشرقية بطليطلة لدراسة اللغة العربية ، ونقل الكتب العربية ، ومن قبل ذلك بقرن ، كانت حركة النقل من اللغة العربية فى مملكة صقلية لا تتوقف ، وترجم قسطنطين رئيس مدرسة الطب فى سالرنو كتب الطب العربى ، ومنها كتب الرازى ، واستفاد بلاط روجير الثانى ووليم الأول بعمل الإدريسى أعظم الجغرافيين فى العصور الوسطى .

صفاء صفحة السماء ، سابحًا فوق الخضم ، الذى تجرى تحت الثرى أمواجه وأثباجه : محمد بن إدريس الشافعى .

وسمقت القبة فوق هضاب القاهرة ، كواسطة العقد ، بين الهرم الأكبر أعظم عجائب الدنيا السبع ، يحرسه الهرمان الآخران وأهرام كثيرة — وبين عجائب القاهرة وأولها جامع عمرو ، تحرسه قلعة صلاح الدين ، والجامع الأزهر ، بين مساجد ومعاهد لا يكاد يدركها الحصر ، تتعالى مآذنها وقممها حفية بالإمام الشافعى . . وترفعها الأمة التى تخرج قلبها من خلال القرون ، حاملا روحها إلى الوجود ، فى شكل هرم أو مدرسة ، أو قبة أو مئذنة ، تمسكًا بالعقيدة وقربى للمعرفة ، وتعاليًا بالدعاء للسماء لتحفظ عليها وجودها وعقيدتها .

وما كان عجيبًا أن تجتمع فى موقع واحد ، كل هذه الأسماء والمعاهد ، التى نتجتها القرون الخمسون من عمر الحضارة . فما هو إلا تدفق التاريخ واستمراره ، ونِتاج الأرض التى تصنع العظائم واستقراره ، والحنيفية السمحة التى فجرتها السماء ينبوعًا ، غمر هذا المكان ، الذى تلتقى عنده الطرق وتفترق ، وتجتمع فيه القارات وتنتشر منه الحضارات .

وكان حقًا أن تتلاقى مع هذه العجائب فى الفسطاط ، التى بنيت بمشوَرة عمر ، معان أخرى ، أخلد وأبقى على الدهر ، فترى العين ، يسرة ويمنة « قبة » الشافعى ، و« حُلوان » حيث أقام عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ، وحفيد عمر ابن الخطاب . وتلتقى فى البصر وفى الفكر ، آيتان للإسلام جمع بينهما وبين الرسول من قبل ، أحمد بن حنبل ، يوم روى عنه عليه الصلاة والسلام : « إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها » وأضاف أحمد : فكان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز . وأرجو أن يكون على رأس المائة الثانية الشافعى ، رضى الله عنه .

وما العُمَران ، ولا الإمامان ، إلا أحرف النور ، سَطرت بها السماء سطراً من أسطار الخلود للإسلام ، فى هذه البقعة المباركة ، من البلد الذى شُرف ، بذكره فى القرآن .

فهرست أبجدى للموضوعات

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرست الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

المراجع

مناقب الشافعى	فخر الملة والدين وأبو عبد الله محمد بن عمر الرازى
توالى التأسيس	بمعالى محمد بن إدريس — ابن حجر العسقلانى
آداب الشافعى ومناقبه	أبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى
طبقات الشافعية	أبى بكر هداية الله — طبعة بغداد — المكتبة العصرية
طبقات الفقهاء	أبى إسحق الشيرازى — طبعة بغداد — المكتبة المصرية
طبقات الشافعية	تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب السبكى — طبعة الحلبى
الكافى فى معرفة علماء مذهب الشافعى	مخطوط بدار الكتب المصرية
التحفة البهية فى طبقات الشافعية	مخطوط بدار الكتب المصرية وضع سنة ١٢٢١هـ الشيخ عبد الله بن حجازى الشهير بالشرقاوى
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب	أبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى مطبعة القدس بمصر
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء	أبى نعيم بن عبد الله الأصفهانى . مطبعة الخانجى . مصر
الانتقاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء	ابن عبد البر
الفهرست	لابن النديم
الشافعى	الشيخ محمد أبو زهرة
الشافعى	الشيخ مصطفى عبد الرازق
معجم الأدباء	ياقوت
الإصابة فى تمييز الصحابة	ابن حجر
وفيات الأعيان	ابن خلكان

أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام	عبد الحليم الجندى
توحيد الأمة العربية	: عبد الحليم الجندى
مناقب الإمام أحمد (بن حنبل)	: ابن الجوزى
المسند للإمام أحمد بن حنبل (الجزء الأول)	طبع دار المعارف – شرح وفهرسة المرحوم الشيخ . أحمد محمد شاكر
مالك	: الشيخ محمد أبو زهرة – مكتبة الأنجلو بمصر
مالك	: الدكتور أمين الخولى
أصول الفقه	: الشيخ محمد الخضرى
تاريخ التشريع الإسلامى	: الشيخ محمد الخضرى
تعليل الأحكام	: الشيخ محمد مصطفى شلبى
السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى	: دكتور مصطفى السباعى
القياس فى الشرع الإسلامى	ابن تيمية وابن قيم الجوزية – طبع المطبعة السلفية ١٣٤٦ القاهرة
يسر الإسلام وأصول التشريع العام (فى نهى الله ورسوله الكريم عن كثرة السؤال)	محمد رشيد رضا – طبعة المنار – ١٩٢٨ – ١٣٤٦
نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى	: دكتور على حسن عبد القادر – مكتبة القاهرة الحديثة
تاريخ التشريع الإسلامى	: عبد اللطيف السبكى . محمد السايس . محمد يوسف الديرى
الرسالة للشافعى	: تحقيق المرحوم أحمد محمد شاكر
الأم للشافعى	طبعة ١٣٢١ – ١٣٢٥ المطبعة الأميرية ببولاق (المرحوم أحمد بك الحسينى المحامى)
رسالة الإمام الطوفى فى تقديم المصلحة فى المعاملات المسماة بـ (أدلة الشرع)	راجعها على أصولها الشيخ محمود أبورية مطبعة جامعة الأزهر ١٩٦٦

المختار من تيسير الوصول إلى حديث الرسول } محمد عبد الله دراز

تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر } ابن أبى الأصبع المصرى

أسباب النزول : أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى

الناسخ والمنسوخ : هبة الله بن سلامة أبى النصر – المتوفى سنة ٤١٠

الإحكام فى أصول الأحكام : الآمدى مطبعة المعارف .

Reveillout. E. Les Obligations en droit Egytien comparé aux autres droits de l'antiquité.

الالتزامات فى القانون المصرى مقارناً بالتشريعات القديمة .

عنوان البيان فى علوم التبيان } الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى بتحقيق مفتى الديار المصرية السابق حسنين محمد حسنين مخلوف مطبعة الحلبى – مصر

الكشاف : محمود بن عمر الزمخشرى – المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣

منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه } مصطفى الصاوى الجوينى – مطبعة دار المعارف بمصر

مصادر التشريع الإسلامى فيما لا نص فيه } عبد الوهاب خلاف – مطبعة جامعة الدول العربية

تاريخ القضاء فى الإسلام : محمود عرنوس المطبعة المصرية الأهلية الحديثة – القاهرة

البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب } المقريزى

ولاة مصر وقضاتها للكندى : إبراهيم أحمد العدوى

الإمام المصرى الليث بن سعد : عبد الله محمود شحاته

تاريخ بغداد } مكتبة الخانجى – مصر – (الحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب)

مصر العربية	: دكتور حسين نصار

The Story of Cairo Stanly Lane Pool (London 1902)

قصة تاريخ القاهرة	:
تراث الإسلام (لجنة الجامعيين لنشر العلم — ترجمة)	لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦
تاريخ الإسلام	: دكتور حسن إبراهيم حسن مكتبة النهضة — مصر
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة	ابن تغرى بردى — مطبعة دار الكتب المصرية
عصر المأمون	: أحمد فريد رفاعى
ضحى الإسلام	: أحمد أمين
فى رياض القرآن	: الشيخ عبد اللطيف السبكى
فى الأدب المصرى الإسلامى من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين	محمد كامل حسن
تاريخ الحضارة المصرية	: المؤسسة العامة للتأليف والطباعة والنشر (مجموعة أساتذة)
الفرق الإسلامية	: محمود البشبيشى المطبعة الرحمانية مصر ١٩٣٢
مغازى رسول الله	أبى عبدالله محمد بن عمر الواقدى — طبعة جماعة نشر الكتب القديمة — عباس الشربينى مصر ١٩٤٨ .
الطبقات الكبرى	: ابن سعد — طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية
تاريخ فلاسفة الإسلام	: محمد لطفى جمعة — مطبعة المعارف ١٩٢٧
تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك	قدرى حافظ طوقان
ديوان الهذليين	: طبعة دار الكتب
الإمامة والسياسة	: لابن قتيبة
شمس الله على الغرب	سيجفريد هونكة ترجمة الدكتور فؤاد على دار النهضة العربية

الكندى : دكتور أحمد فؤاد الأهوانى

جابر بن حيان : دكتور زكى نجيب محمود

الخوارزمى : عاطف البرقوقى وأبو الفتوح التونسى

عبد القاهر الجرجانى : دكتور أحمد أحمد بدوى

الشرق الأوسط والحروب الصليبية : دكتور السعيد الباز العرينى — دار النهضة

مصر فى عهد الأيوبيين : » » » » — مطبعة الكيلانى

الأعلام : خير الدين الزركلى — المطبعة العربية مصر

معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة — مطبعة الترقى — دمشق

فهرست

صفحة

الباب الرابع — فى فناء زمزم

الباب الخامس — فى العراق

الباب السادس — فى مصر

صفحة

صفحة

للمؤلف

١ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح	طبعة دار المعارف
٢ - الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول	طبعة دار المعارف
٣ - مالك بن أنس إمام دار الهجرة	طبعة دار المعارف
٤ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	طبعة دار المعارف
٥ - الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفي	طبعة دار المعارف
٦ - الإمام محمد عبده	طبعة دار المعارف
٧ - الإمام جعفر الصادق	طبعة دار المعارف
٨ - الشريعة الإسلامية	طبعة دار المعارف
٩ - نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٠ - أئمة الفقه الإسلامي	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١١ - نجوم المحاماة في مصر وأوربا	طبعة دار الاتحاد العربي
١٢ - مجموعة مذكرات قضائية (جزأين)	طبعة هيئة قضايا الدولة بمصر
١٣ - توحيد الأمة العربية	طبعة وزارة الثقافة - مصر
١٤ - تطوير التشريعات	طبعة وزارة الثقافة - مصر
١٥ - من أجل مصر (البطل أحمد عصمت)	المطبعة التجارية - مصر
١٦ - القرآن والمنهج العلمي المعاصر	طبعة دار المعارف
١٧ - في السيرة النبوية	طبعة دار المعارف
١٨ - نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقة الإسلامي	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

رقم الإيداع		١٩٩٤/٤٤٠٨
الترقيم الدولي	977-02-4515-1	ISBN

١٨ / ١ / ٩٤
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)